

مُتُون
MOUTOUNE

مجلة علمية أكاديمية محكمة، تصدرها كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإنسانية
جامعة الدكتور مولاي الطاهر: سعيدة- الجزائر

العدد: 03 - ديسمبر 2016 - المجلد الثامن

رمد: ISSN:1112-8518

مُتُون

مجلة علمية أكاديمية محكمة، تصدرها
كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإنسانية
جامعة الدكتور مولاي الطاهر: سعيدة- الجزائر

مدير المجلة مسؤول النشر
د. بكري عبد الحميد
عميد كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإنسانية

المدير الشرفي
أ.د. فتح الله وهبي تبون
مدير جامعة سعيدة

رئيس التحرير
د محمد حفيان

الهيئة العلمية

ا.د. بوعرفه عبد القادر [وهران] ا.د. فيدوح عبد القادر [قطر] ا.د. محمد عثمان الخشت [جامعة القاهرة]
ا.د. حسن حماد جمهورية [مصر] د. محمد عبد الحميد المالكي [ليبيا] ا.د. زكي الميلاد [السعودية]
د. ساميه صادق سليمان [مصر] ا.د. عامر عبد زيد الوائلي [العراق] ا.د. بودوايه مبخوت [تلمسان]
د. غيضان السيد علي [مصر] د. محمد الناصري [المملكة المغربية] د. وائل أحمد خليل الكردي [السودان]
د. سهيل فرح نعيم [لبنان - روسيا] ا.د. هدي الخولي [أثينا - القاهرة] د. صالح صلاح الدين [جامعة غرناطة اسبانيا]
د. عطاء الله حبيب [جامعة كومبلوتنس مدريد] د. عتو نوريه [جامعة كومبلوتنس مدريد] د. قور أحمد
جامعة كومبلوتنس مدريد [سليم يلماز] [جامعة مرمره اسطنبول]

لجنة القراءة والتحرير

ا. د. محمد حفيان [جامعة سعيدة] ا.د. عبد الله موسى [جامعة سعيدة] د. شريفي علي [جامعة سعيدة]
د. رشيد بومعالي [جامعة سعيدة] د. شباب عبد الكريم [جامعة سعيدة] د. بن مصطفى إدريس [جامعة
سعيدة] د. قدوري عبد الكريم [جامعة سعيدة] د. حسن عالي [جامعة سعيدة] د. فارح مسرحي [جامعة
باتنة] د. بلقاسم بومديني [جامعة معسكر] د. كبداني فؤاد [جامعة سعيدة] د. لكحل مصطفى [جامعة
سعيدة]، د. عفيان محمد [سعيدة] د. بداني فؤاد [سعيدة] د. بجاوي فافه [جامعة الجزائر 2] لشكار عبد
النبوي [جامعة باريس 2] دادوة حضريه نبيه [crasc oran]

قواعد النشر وشروطه في مجلة متون

تنشر المجلة وترحب بإسهامات البحوث العلمية الأصيلة التي تتوفر فيها

1. شروط البحث العلمي وخطواته المتعارف عليها عالمياً ومحلياً.
2. التزامه بقواعد النشر المتبعة في المجلة، وفق المنهجية العلمية المطلوبة
3. التقيد بالأصالة والتوثيق والجدة
4. وقوع موضوع البحث ضمن اهتمامات وأهداف المجلة التي تعنى بقضايا التعليم الجامعي العالي

مجالات المجلة :

1. علم النفس وعلوم التربية.
2. علم الاجتماع
3. الفلسفة.
4. فلسفة الدين.
5. علم التاريخ وعلم الآثار.
6. علوم الاعلام والاتصال.
7. علم المكتبات والمعلومات والعلوم الوثائقية وعلم الارشيف.
8. تحقيق التراث و المخطوطات.
9. تقارير المؤتمرات والندوات العلمية التي لها علاقة بموضوعات المجلة..

مقاييس النشر:

1. الكتابة بخط (simplified arabic) بنط (14)
2. وجوب إعداد ملخص بلغة المقال (200 كلمة كحد أقصى). وبلغة ثانية: إنجليزية، أو فرنسية، أو إسبانية..
3. الكلمات المفتاحية باللغتين

فهرس المحتويات

8	كلمة التحرير
9	الجغرافية التحليلية للموت في التجربة الدينية في بلاد ما بين النهرين
9	ا. د- عامر عبد زيد / العراق
25	المقدمات الشرطية لحدائفة عربية ناجحة قراءة في رؤية فتحي التريكي
25	د. محمد بن علي
39	الحدائفة و الوعي العربي بين محمد أركون و طه عبد الرحمن
39	أحمد شيخ : طالب دكتوراه قسم الفلسفة جامعة محمد بن احمد وهران 2
47	القيم بين البرجماتيين والوضعيين المناطقة وليمجيس والفريد آير نموذجاً
47	د. غيضان السيد علي
60	النزعة الإنسانية الجديدة
60	د. حيرش بغداد محمد
79	دور العلاج النسقي البنيوي الاسري في تحسين التواصل داخل الاسرة
79	د. لكل مصطفى جامعة سعيدة
79	أ. حوتي سعاد جامعة تلمسان
85	صعوبات التعلم ومصادقية نموذج التباعد بين الذكاء والتحصيل
85	د. بولقدام سميرة
96	التفكير الاجتماعي والتتظير السوسولوجي
96	تكوك تواتي
112	العائلة الجزائرية في ظل العولمة من عائلة أبوية إلى عائلة نوويةتحول في الأدوار والمواقع
112	عيساوي أمينة
127	الخطاب السوسولوجي في الجزائر بعد الاستقلال
127	د.زاوي مصطفى
132	مهنة المدرس في ظل المقاربة بالكفاءات في المدرسة الجزائرية أي بروفايل لأي مدرس
132	خالدي أحمد
141	البناء التنظيمي وجودة حياة العمل (دراسة ميدانية على عينة في المؤسسة العمومية الجزائرية)
141	مراحي عبد الكريم // أ.د. مزيان محمد
152	النشاط الزراعي في بلاد المغرب الأوسط خلال القرنين 7- 8 هـ / 13- 14 م
152	د. شباب عبدالكريم
159	محمد بن مرزوق الخطيب السياسي الأديب

159	د/ فتحي محمد
171	الكتابة في عصر الخلافة بالأندلس 316-422 هـ / 929 - 1031 م
171	أ. عبد الرحمان رزقي
182	الانعكاسات الاقتصادية لخروج الأندلسيين من إسبانيا
182	طبيبي عبد العالي / د نبيله عبد الشكور
190	إسهامات فقهاء المغرب الأوسط في علم أصول الفقه ما بين القرنين 4هـ-10م/09هـ-15م
190	أ بوبكر زاوي
202	الثورات المحلية في الجزائر خلال العهد العثماني وموقف العلماء منها"
202	عبو ابراهيم
211	جوانب من التراث العلمي المخطوط لأسرة المشارف بمعسكر
211	تقي الدين بوكعبير
234	سياسة التعليم الفرنسية بالجزائر وموقف الجزائريين منها إبان الثورة التحريرية(1954.1962)
234	د. عبد القادر بوحسون
241	سوسيولوجية الهجرة الجزائرية في فرنسا
241	سعيدون زروقي
250	القيم الإخبارية بالإذاعة الجزائرية و واقع الخدمة الاجتماعية دراسة حول إذاعة مستغانم المحلية
250	الأستاذ: د. بداني فؤاد
272	الشباب الجزائري وتحديات القيم في ظل التحولات المجتمعية الراهنة
272	كانون جمال
289	الشباب الجزائري و استخدامات الهاتف النقال مقارنة إتصالية و إجتماعية
289	أ/ بلعباس إبراهيم
307	الاستراتيجية الاتصالية للتنمية السياحية في الجزائر دراسة ميدانية . الديوان الوطني للسياحة
307	أ . بلمداني سعد // اد تواتي نور الدين
319	دور الإعلام والأنشطة الاتصالية في تسويق الوجهات السياحية في الجزائر
319	نورين عشاش
332	محددات استخدام تكنولوجيا الاتصال والمعلومات في العملية التعليمية بالجامعة
332	بوطهرة أسيا /د فايزة يخلف جامعة الجزائر 03

كلمة التحرير

الحقيقة بنت البحث، والاجتهاد، وفي المقابل تتموقع الدوجمائية بأصولها، وفروعها في اليقين القائم على تصورات ذاتية محضة، والمجلة في هذا العدد الجديد تحاول من خلال هئيتها العلمية أن تجمع المتعدّد، موضوعا، ومنهجيا، في وحدة معرفية تتقاطع فيها مع الرغبة المجردة في البحث العلمي، فالحقيقة مهما تعدّدت في صورها، وأشكالها، فهي في جوهرها، وروحها حقيقة واحدة، وإن كانت الفكرة عند البعض من الباحثين مجرد افتراض قابل للتأكيد، وللرفض .. فالحقيقة وحدة متعددة، وتعدد موحد.

وهيئة المجلة العلمية تقرّ بأن المنتج المعرفي الذي تقدمه للقارئ يحتاج الى تفعيل، ولهذا فهي ترحب بكل ملاحظة هادفة الى الرقي بالبحث العلمي، وبالكتابة الرصينة في كلية العلوم الاجتماعية، والإنسانية؛ فالفكرة ليست ملكا لأحد، والعلم ثروة مشتركة، وليس حكرا لمجموعة معرفية معينة.

وعليه تكون المشاركة في تنمية البحث بنت الجميع.

رئيس التحرير

اد حفيان محمد

الجغرافية التخيلية للموت

في التجربة الدينية في بلاد ما بين النهرين

ا. د- عامر عبد زيد / العراق

مدخل:

على الميت أن يعرف خارطة الموت وجغرافيته؛ ليستطيع ان يدرك اسرار مكابده التي سوف ترشده اليها خرائطها وعوالمها وسوف يتغير مصيره بحسبها. ومن هنا يأتي السؤال الوجودي من الذي يرمي إلى تلك المرامي سواء ؟ ومن سواء قادر على أن ينقش على وجه الطين ملامحه ويرسل الى البشر رسالته المعنقة بريح الجنوب التي لعنها أدبا وبكى الجنوبيون من عذاباتنا ؟ من ينسى حزن جلجامش على فقدانه غريمه ومن ثم حبيبه الأوح الذي غيبته ارض كور نايه، وصدى صوته الحزين يعلن الحزن على ارض عشقها عذاب وفراقها عذاب. هذا صوت مازال لدى كل عراقي صدها يتردد في كل المنافي وحينه إلى ارض أوروك ؟ حزن ترك ضلاله تمتد إلى النيل الفاجر الملعون المبعد إلى حيث ارض اللاعودة تلك الأرض القاسية التي خاطتها مخيلة أدباء أوروك ومن قبلهم أدباء سومر، وتعلن كل المراسيم الحزينة وهي تبكي عشتار الجميلة التي جذبت خصالها الحية عند أبواب الموت الأبدي وخاطت حول كل الذكور قربان اخصاء كان حبيبها أول من ذهب قربان لها، آه يا تموز و أنت تهرب متخفيا وعين الإله تحميك من عيون متعطشة للموت تروم اعتصار رغبتك، عذاب سوف يتكرر صدها لدى كل أصحاب الرؤوس السوداء وأحفادهم من بعد ما أضاعوا الحلم بالخلود مذ غادرهم جلجامش الجميل الذي غيب ذاته من اجل بقاء أوروك، وأدبا من قبله رام الخلود إلا أن خديعة شمش غيبت عليه وعلى جنسه فرصة الخلود ؟ هكذا كان الكهنة يحاولون زخرفة لعنة الموت الأبدي الذي ينتظره الجميع وحتما ملاقوه !. فالحديث عن جغرافية الموت يعني البحث عن أبعاد ومواقع تخيلية للجغرافية، التي شكلتها المخيلة العراقية معتمدة على آليات تخيل رسمت أبعاداً لتلك العوالم امتدت أثارها عميقا في الذاكرة لدى الشعوب الأخرى التي استعارتها من بعد؛ ونحن هنا نحاول تحديد جغرافية للموت ونحاول إعطاء مرتسمات لتلك العوالم الموازية والتي تشكل احد الممكنات التي ممكن إن تكون قد فاز بها بعض الأبطال سواء كان ذلك على مستوى الواقع أم على مستوى التخيل الرمزي، إلا أننا ندرك عظمة العراقي القديم الذي برع في تخليق عوالمه الرمزية وإكسابها بعداً قيمياً أضفى على الحياة قيمةً عندما منح تلك الوقائع عمقاً ميتافيزيقياً مرتبطاً بمنظومة من

القيم، ومثلما وظّف الطين ليكون أداة للكتابة، كذلك وظّف الخيال ليكون حقلاً فعالاً يتم من خلاله بناء الذاكرة وشحذها بالرموز التي هي صدى الواقع اليومي الاجتماعي والسياسي .

إن البحث في الوقائع الدينية "الموت" أو المخيال الديني وما يصطنعه من عوالم تخيلية تعود إلى الواقع الاجتماعي والمؤسسات الفاعلة فيه - قديماً كان المعبد والقصر - كما يرى الكثير من الباحثين في هذا الأمر فهي نشاط يحمل معنى يشد إليه الفاعلين الاجتماعيين فينظمون سلوكهم بعضهم بإزاء بعض، بمعنى انه فعالية جمعية يذوب فيها الفردي داخل الجماعة من اجل الحماية والشعور بالاطمئنان في تلك الفترة الفرد ليس فاعلاً بل منفعل على الرغم من أنها حقبة رعوية تبحث عن منقذ يقود الجماعة على الرغم من أنها هي من يصنعه خصوصاً في فضاء الحاجة إلى قادة في الحروب وهنا يتم تخليق الإبطال، وتصدق مقولة (إن مصير الشعوب لا يتوقف على الجماعة بقدر ما يتوقف على قيمة الفرد)⁽¹⁾

تشكل قيمة الوجود المتخيل من خلال وجود معبد يقرر الحقيقة ويكون الوساطة فيها كل هذا هو منطق الدين القديم الذي يرجع كل شيء إلى ما هو خارج البشر إلى القوى المفارقة، فكل سلطة تريد تبرير ذاتها، وتفعل ذلك باستعمال مقولات قابلة للتعميم والشمولية، أي صالحة لكل الناس ونجد هذه المقولات بطابعها القديم من خلال التشريع المدعوم بالسرد الديني عبر الأسطورة التي إبطالها شخصيات مفارقة أو متميزة أو أنصاف آلهة.

ويفترض من اجل إنجاز هذه الغاية أن يندمج كل سلوك فردي في عمل يحمل طابع الاستمرارية وان تنتظم التصرفات ويتجاوب بعضها مع بعض طبقاً لقواعد ضمنية مضمرة، من اجل النجاة من التيه، وكل ما يعاكسه وهو الجنون بحسب رواية المعبد إلا انه كان ضروري لتنظيم وحدة الجماعة فالممارسة الدينية- الاجتماعية، بوصفها تنتظم شتات تصرفات الأفراد وتوجهها نحو غايات مشتركة، تفترض وجود بنية معقدة من القيم وعمليات التعيين والاندماج المحمل بمعانٍ ودلالات في ملة طائفة أو دين يتخذ من الهه يحتمي به وبحياضه المقدس، ومن هنا ظهر المكان المتخيل (المقدس) وظهرت أيضاً حاجة إلى وجود لغة رمزية (شيفرة) اجتماعية ومضمرة، فليست هناك أية ممارسة اجتماعية يمكن إرجاعها فقط إلى عناصرها الفيزيقية، والمادية بل لابد من اختلاق منظومة رمزية مرتبطة بالقوى التي يستمد المجتمع منها وجوده، وهي في بداياتها الجينية (تشكل عفوي، تكون متأصلة في الاديان ذات الصبغة الدعوية

¹ عبد الرزاق الجبران ، جمهورية النبي ، بيروت ، 2007 ، ص57.

الكونية) (1) هكذا تدعم السلطة نفسها بالقوة القهرية سواء كانت مادية بالرجال أم مفارقة إلهية تغدو كنتيجة لضرورة خارجية، إن كل مجتمع كلي على صلة بالخارج، بالإلهة التي أنزلت الملكية من السماء، وأنزلت القوانين للملوك كما استلم حمورابي شريعته من شمش (2) عبر سرد المعبد والقصر. إن المجتمع يستمد قوانينه من خارجه لا من ذاته. ويتضمن ثانياً، مبدأ ((المغايرة)) أي القول بأن البشر مدينون بمعنى وجودهم إلى غيرهم وليس إلى بشر مثلهم، ويتضمن ثالثاً، مبدأ ((الانفصال))، أي القول بوجود فارق أو مسافة بين المجتمع ومصدره . (3)

ومن هنا فإن كل مجتمع - المجتمع ممثل بالقوة الفاعلة فيه وهي هنا كما قلنا المعبد والقصر - ينشئ لنفسه مجموعة منظمة من التصورات والتمثلات، أي مخيلاً، فإن كل مجتمع هو إنتاج نفسه، ومخيال يقوم على وجه خاص بجعل الجماعة تتعرف بواسطته على نفسها، ويوزع الهويات والأدوار ويعبر عن الحاجات الجماعية والأهداف المنشودة.

فظهرت اللغة الدينية ونخبويتها بوصفها وسيطاً بين الناس ومصدر وجودهم، واللغة ليست هي الأخرى بحسب تلك المخيالات صنيعة البشر وضرورة من ضرورات تواصلهم بل هي صنيعة الإله الذي علم البشر الأسماء المحب للمعرفة هو إله الحكمة (انكي) وهنا تصبح الحقيقة بيد الإلهة لكن كيف يمكن التواصل معها أو معرفة نواياها الملغزة ؛ فبرعت المعرفة القديمة بقيادة المعبد في خلق علوم العرافة والتنجيم والرتاء والتأبين وصناعة مخيال الموت .

كل هذا ساهم في خلق الهوية الموحدة لجماعة انه (بقيام الجماعات البشرية معانٍ ودلالات مخيالية اجتماعية تتمكن من إعطاء معنى لكل ما هو ((موجود))، لكل ما يمكن أن يقوم فيها أو يقوم خارجها) (4) وهو أمر موجود في عمق كل ممارسة إنسانية إذ يحاول المجتمع أن يرصن وحدته من الانقسام فيخلق أعداء يمثلون تهديد واستناداً إلى هذا التهديد الخارجي سواء كانوا من عالم مفارق، إلهة أم شياطين

¹ ميشال مسلان ، علم الاديان ، ترجمة عز الدين عناية ،المركز الثقافي العربي ،ط1 ، بيروت ، 2009 ، ص126.

²² شريعة حمورابي 1750-1795 (ق.م) تعد انظم وأكمل شريعة في تاريخ الحضارات القديمة .انظر :نائل حنون ، شريعة حمورابي ،ج1،ص13.بواسطة : سالم الالوسي ، شريعة حمورابي ،بيت الحكمة سلسلة رواد الفكر ، بغداد ،2007،ص13.

³ بيار كلاستر، مارسيل غوشيه، في اصل العنف، تعريب:على الحرب، دار الحداثة ، بيروت ، ط1 ، 1985 ، ص3635

⁴ فاخر عاقل ، معجم علم النفس ، دار العلم ، ج3 ، بيروت ، 1979 ، ص25

أم أعداء كيف يعمق وحدته من خلال صناعة المنظومات الدينية التي في اغلبها موروثية؟ إنها تؤدي بالنتيجة إلى تمجيد وحدة المجتمع عبر "سلطة الرمز" التي تمظهرت عبر المخيال الاجتماعي⁽¹⁾ فيما انه منظومة من البدهيات والمعايير والقيم والرموز فهو ميدان لتحصيل المعرفة بل هو مجال لاكتساب القناعات، مجال تسود فيه حالة الإيمان والاعتقاد.

كل هذا يتحقق من خلال "الدين"⁽²⁾ فهو في أصله دَيْنُ البشر للعالم الآخر وللكائنات العلوية وللقوى الفائقة. بمعنى ان الدين على الرغم من انه ينبع من حاجات داخلية؛ إلا انه ينزل من السماء التي تشرف وتدير شأن الأرض وفكرة الدين هي التي تتيح المجال فالموت هو اعتداء على وجوده سواء كان فرداً أم جماعة؛ لذا أقام المجتمع منظومات قيمة تبرر حدوث الموت إما بخطاء بدئي أو قرار كوني قام به الإلهة مثل الطوفان، فإن هذه المبادئ تحدد أسس الواقعة "الدينية البدائية" فإنها تشكل من جهة أولى شروط امكان الدولة؛ لان نشوء الدولة ما كان ممكناً؛ إلا أن يعقل المجتمع نفسه بواسطة مبدأ خارج عنه.⁽³⁾ بمعنى أن تلك الرؤية تستمد منها الدولة الشرعية كونها جاءت بقرار يعود إلى قوى مفارقة هي التي تصنع رؤية البشر ووجودهم وبالتالي ليس أمام البشر من قدرة بالخروج عنها؛ إلا بحالة من حالات ثلاث: الأولى: توجيه الشكوى إلى تلك القوى المفارقة فهي التي نصبت الملك ورسمت الأقدار.⁽⁴⁾ الثانية: تكفير تلك القوى وتجريمها وهكذا حدثت اغلب الانشقاقات الدينية من خلال ظهور ديانات جديدة .

الثالثة: هي الاعتماد على القوة ثم إعادة بناء السرد الرسمي والقول إن الإلهة اختارت الإله الذي يعود إليه الشعب المنتصر أن يكون زعيم الإلهة كما حدث في قصة الخليقة البابلية عندما أنتصر

¹ فاخر عاقل ، معجم علم النفس ، المصدر السابق ، ص 125

² الدين : بشكل عام ، ثمة تصوران متواجهان يفترضان نفسيهما . التصور الاول يقول بوحدة الظاهرة الدينية الاساسية . ففيما يتجاوز التاريخ وتنوع التظاهرات العينية ، نجد ماهية واحدة للدين وحدة الظاهرة الدينية من خلال الايمان بوجود عالم غير مرئي ، مفارق ومقدس ، مأهول بالارواح أو الالهة واليه يتقدم الناس باستمرار بالنمط نفسه ، من العبادة . خلاف لذلك يرفض بعض الكتاب استخدام كلمة "دين" ويرون فيها تصنعاً مفهوماً يشبه تحكيميا واقعا واحدا لظواهر مختلفة .لمزيد انظر :جان فرنسوا دورتيه ، معجم العلوم الانسانية ، ترجمة : جورج كتورة ، مؤسسة الكلمة ، ط1، ابو ظبي ، 2009، ص412.

³ فاخر عاقل ، معجم علم النفس المرجع السابق، ص 36 . 37 . 38.

⁴ انظر :محمد عابد الجابري ،نحن والتراث دار الطليعة ، بيروت .

حمورابي انتصر معه مردوخ كزعيم لإلهة هذا ترقيع لاهوتي يعيد بناء السرد من جديد حتى يسبغ المشروعية على المنتصر والقول انه قرار مفارق.⁽¹⁾

وإذا كانت هذه آلية المجتمع البدائي في المحافظة على وحدته من التمايز فإنها تسهم في خلق عالم مفارق أسبغ الشرعية على الملوك في حين هي جزء من نظام تشريعي ماضي من الشفاهية بوصفه عرفاً يضفي القدسية على الوضع السياسي الذي يرجع تشريعاته إلى الآلهة وواجب الخضوع لها ويعلي من شأن الملك في الوقت نفس. وفي مجال تحليل المخيال الديني الناظم إلى وحدة الجماعة المتمثل في تلك المنظومة القيمة التي يشيدها المعتقد الاجتماعي الديني من خلال سلطة المعبد يمكن رسم خرائط هذا العالم التخيلي من خلال سرديات أسطورية تشي بملامح هذا العالم من خلال سرد حيكات تروي رحلات متخيلة إلى هذا العالم المستحيل الذي تم تخليقه خيالياً؛ فالخيال يستطيع بقدرته الخاصة التأليف بين الأشياء، والألوان والأحاسيس فيبدع الصورة مستقيماً من التعاقب والحركية في الزمان ومن التشكيلية في المكان. وهذا يعني أن الوعي مرتبط بعلم النفس والاجتماع والمعرفة التي يظهر عندها من خلال مفهوم الخيال إذ يرى (جيلبار ديران . Gilbert Durand) أن الوعي يتمتع بطريقتين لاستحضار العالم ؛ واحدة مباشرة يبدو فيها الشيء ذاته حاضراً في الذهن، وذلك عند الإدراك أو الإحساس البسيط، كأن تتخيل إنسان تعرفه، أو شجرة أو شيئاً مادياً محسوساً، وأما الثانية فهي غير مباشرة عندما لا يمكن لوعينا إن يستحضر موضوعه استحضار حسيّاً، كما هو الشأن عندما تتذكر طفولتنا أو نستحضر عالم ما بعد الموت. (هكذا أتاحت تلك الطبيعة الجميلة "حيث تلك السهول الفسيحة والسماء الشديدة الزرقة التي ما كانت تشوبها سحب أو تكدرها غيوم، بينما النجوم تتلألأ فيها)⁽²⁾ وقد تجلت تلك الحقيقة في تلك الحقب، في أماكن عديدة كانت بمثابة أول الأحلام التي عصفت بها الريح في خضم تراجيديا رهيبة جعلت منها مجرد نصوص أثرية . أحلام ظهرت بأشكال هندسية على جدران الفخاريات أو نصوص خطتها أنامل الكهنة⁽³⁾ في كل الأحوال التي يكون فيها الوعي لا مباشر يكون موضعه غائباً أي من جنس المجردات التي يمكن ان يقال عنها انها تمثل (قيمة أخلاقية سياسية) ولا يمكن للوعي أن يتمثل، إلا

¹ قصة الخليقة : إينوما إيش ... حينما في العلى ،ترجمة ثامر مهدي محمد عن كتاب قصة الخليقة البابلية واثرها في العهد القديم تاليف الكسندر هايدل ،دار الشؤون الثقافية 2001 ،طباعة : إنانا الأمير .

² صموئيل نوح كرىمر ، ترجمة : فيصل الوائلي ، كويت ، (بدون تاريخ)، ص156.

³ تزيو عدد الرقم الطينية للعراق القديم على المليون لوح متعددة الأغراض .انظر : فاضل عبد الواحد ، من ادب الهزل والفكاهة ،م/ كلية الاداب ، جامعة بغداد ،ص82،

بوساطة الصور.⁽¹⁾ وإذا كان للرموز وظيفة فهي الدافع الذي يعين الإنسان ويجعله قادراً على المواجهة، ومن هنا فالنصوص التي ظهرت شكلت مرحلة نضج، أما القراءة فهي من جانب مؤرخي الأفكار هي محاولة تأويلية، تتجلى من خلال محاولاتهم الحفر و دراسة مراحل ظهور الرموز والبنية المعرفية التي أنتجتها والظروف التي ساهمت في ذلك ؛ أي هي مهمة القارئ الذي يبحث عن المعنى وهذه السطور مساهمة في جهود القراءة فإننا نلمس في الحفريات المعرفية الاثارية التي ظهرت باحثة عن مراحل تكون الفكر العراقي والإنساني القديمين والتي وجدتها تتمفصل إلى ما قبل التأريخ وما بعده .

والتي تعد محاولات حضارية ناضجة ؛ وفي الوقت نفسه تعد مدوناتها من أقدم المدونات التي تناولت مسائل وجودية: " كالحياة والموت، وخلق الكون والإنسان، والخير والشر، والثواب والعقاب " (2) . وكانت تلك المدونات قد عكست قلق الإنسان الوجودي فالإنسان " هو كائن قلق الحس، يبحث عن ملجأ يأتمن إليه " (3).

فإن الأمر بقدر ما يمثل جانباً معرفياً فإنه يقوم على بعد حسي يحصل فيه الإدراك بشكل مباشر، وبعد هذا الحس الباطن يعتمد على المدركات السابقة. فعندما يتصور الوعي بأشياء فإنه يريد أن يراها في الخارج بينما هي مخزونة في ذاكرته، بل حتى عندما يتصور صوراً جديدةً فإنه يتصورها بالمقارنة مع تلك الموجودة في الحس الباطن أو العقل بوصفها نتيجة لتجارب سابقة، يمكن ترميزها والتعبير عنها من خلال الرغبة (معاني الألم، الشر، الحياة، الموت) عبر الوسيط البطل الأنموذج الذي سعى إلى تحقيق رغباته من خلال محور الرغبة فيظهر من يناصره ويظهر من يعاديه والذي يحول بينه وبين موضوع رغبته بالحياة الطوية والصحة الجيدة بعيداً عن عوالم الموت والتقلبات كل هذا يمثل موضوعاً يمكن استثماره عبر جعل المخاوف تهجع والأمانى تورق ويتحقق هذا عبر السرد والقدر، والأمر المدهش أنّ اللغة تمكننا من أن نحقق أحلامنا عبر السرد والمحكي وفي النهاية نستطيع أن نبني مخيالاً أسطورياً (لا يوجد أي مجتمع بشري يمارس دوره أو آليته بشكل مختلف أي بدون تشكيل متخيل ما) (4) لان التخيل يمنح المجتمع القدرة على أن يقدم حلولاً لما يحيط به من معضلات طبيعية ((فالدين أو الأديان

¹ صموئيل نوح كيريم المرجع السابق الذكر، ص 26-27.

² المرجع السابق ، ص 78.

³ يوسف الحوراني، الإنسان والحضارة ، ط2 بيروت ، 1973 ، ص 6-7.

⁴ محمد أركون ، العلمية والعلمانية، ترجمة : هاشم صالح ، الساقية بيروت ، ص 32.

في مجتمع ما هي عبارة عن جذور .. ونجد أن كل الأديان قد قدمت للإنسان ليس فقط التفسيرات والإيضاحات، وإنما أيضاً الأجوبة العملية القابلة للتطبيق والاستخدام مباشرة في ما يخصّ علاقتنا بالوجود والآخرين والمحيط الفيزيائي الذي يُلقنا، بل وحتى الكون كله، وفيما وراءه بالأشياء الموعودة (فوق الطبيعة)⁽¹⁾ ومن هنا يلجأ الأفراد إلى رموز متعدد؛ فالحديث أو الكلام يستخدم نطاقاً من الأصوات ليكون أشكالاً كثيرة من الرموز مثل الكلمات، واللغة المكتوبة، ويمكن تذكرها بسهولة جداً ؛ لان المكتوب يكون مطبوعاً، ويمكن للغة أن تأخذ أشكالاً أخرى لا متكلمة ولا مكتوبة (..) يمكن تحقيق الاتصال اللغوي، والهيئة، ووضع الجسم أو التعبيرات الوجهية وهذه الوسائل للاتصال تشكل المستوى الأول للرمزية بينما تشكل المفاهيم، التي تعبر عن حقيقة ما المستوى الثاني والتي تقدم صوراً أو تمثيلات ذهنية، تأخذ موقع الأشياء التي تعبر عنها ولكون المفاهيم شخصية لكل إنسان، فإنها تكون بالضرورة أيضاً نتاجاً اجتماعياً لعدد كبير من الناس⁽²⁾ فليس من الضروري أن نجد هيمنة الموضوعية على منظومة معتقدات المجتمع (فإن منظومة المعتقدات الفاعلة ضمن مجتمع غير محددة لا بالحقائق المنطقية أو التاريخية ولا بالأدلة الواقعية)⁽³⁾ وهذا يظهر ونحن نتطرق إلى منظومة من المعتقدات الأخروية والديوية العراقية التي تخط ملامح جغرافية تخيلية للموت.

ومن اجل فهم التمثيلات القديمة لآبد من الوقوف عند أمرين: أولهما. مفهوم الزمان كما تصوره العراقيين. والثاني. المنظومة التي يمكن من خلالها كشف الصورة التي تمكنا من فهم الفكر القديم وموقفه من الموت . ونجد نمطين من السرديات الأسطورية تغاير مقاصدها بتغاير المتن الوجودي لها فهي الآفاق التي تمكن الإنسان من خلالها أن يستوطن اللغة ويتخذها سفينة النجاة التي تحيل تخيلاته إلى أماكن قابله للعيش ؟ ولعل محاولتنا هذا هي رحله إلى العالم الافتراضي الممكن او المستحيل، الذي خلقته تلك الثقافات في محاولتها فك سر حدث الموت .

الجغرافية التخيلية

حدث هذا من خلال بناء المنظومات التخيلية أي السرد الأسطوري للإحداث فالرحلات التخيلية، أولاً: الرحلات البشرية إلى العوالم المتخيل. ثانياً : رحلات الإلهة إلى العالم السفلي عقابا. وثمة الكثير من

¹ - المرجع نفسه ، ص23.

² عبدالهادي عبد الرحمن ، سحر الرموز ، ص137.

³ خوان بايا وبونثا ، العمارة وتفسيرها ، ت سعاد عبد علي ، الشؤون الثقافية ، بغداد ، ط1 ، 1996 ، ص39.

النصوص التي تحدث عن رحلات افتراضية تخيلية إلى عوالم مفارقة ميتافيزيقيا : الجنة، السماء، العالم السفلي / النار، هذه العوالم الافتراضية التخيلية التي تمكن الإنسان من الحديث عنها من خلال اللغة ؛ على الرغم من أنها عوالم مستحيلة في ضوء عالمنا إلا أننا حاولنا الحديث عنها من خلال مقولتين :

المطلب الاول : الزمان والمكان المتخيلان :

أ- البعد التخيلي للزمان " الزمان المتخيل " : إن الحديث عن الزمن المتخيل يفرض علينا التأصيل احد أهم البحوث في هذا المجال والتي تتمركز حول الزمن البدئي الذي تناوله " مرسيا الياد" في كتابه "مظاهر الأسطورة" إذ يرى: أن الأسطورة هي تاريخ مقدس يروي عن الأصول والبدايات الأولى عن الأزمان التي ابتدرت منها آلهة الكون بكليته وشتى تفاصيله . ولكن الأسطورة لا تتخذ من هذه الأصول والبدايات موقفا ذهنيا وصفيا . بل إنها تسعى دوما إلى استعادة الأزمان المقدسة وزرعها في الزمن الجاري، من اجل الحياة في عالم نقي متجدد يشبه حالته عندما خرج من يد الخالق، ومن أجل إعادة تأسيس مستمر لهذا العالم وهذا ما اسماه بالزمن المقدس بقوله : " إن زمن الأسطورة هو " الزمن القوي " ، " الزمن المقدس " ، الزمن العجائبي الذي يخلق منه الشيء جديدا قويا، وبكل امتلائه . أن نعيش ذلك الزمان ثانية، وأن نستعيده في أكثر ما يمكن من الأحيان، وأن نشاهد من جديد الأعمال الإلهية، وأن نلتقي الكائنات العليا ثانية، وأن نتعلم منهم درسهم الخلاق . إن هذا لهو الرغبة التي تستطيع أن تقرأها واضحة في جميع التكرارات الطقسية للأساطير على وجه الأجمال، وتكشف الأساطير عن أن للعالم والإنسان والحياة أصلا فائقا للطبيعة وتاريخا فائقا للطبيعة وان لهذا التاريخ معنى وقيمة وانه نموذج يحتذى .

إن وظيفة الأسطورة هي حكاية تعيد الحياة إلى حقيقة أصلية وتستجيب لحاجة دينية عميقة، وتطلعات أخلاقية، وواجبات وأوامر على المستوى الاجتماعي، بل وحتى متطلبات عملية في الحضارات البدائية، فالأسطورة تملأ وظيفة لا غنى عنها، تفسر وتبرز وتفتن المعتقدات وتحامي عن المبادئ الأخلاقية وتضمن فاعلية الاحتفالات الطقسية، وتنتج قواعد عملية لاستعمال الإنسان الأسطورة .

ويتناول الباحث أصولها وقوتها السحرية : إذ درس أساطير الأصول وأساطير نشأة الكون (كوسموغونيا) فكل أسطورة أصولية إنما تحكي وتبرر وصفا جديدا بمعنى انه لم يكن موجودا منذ بدء العالم . الأسطورة تروي كيف طرأت تعديلات على العالم، وهل اغتنى أو افتقر . ويتناول تكرر ولادة الكون؛ لان الكون هو النموذج الأصلي المثالي لكل وضع مبدع ولكل خلق وحسب، وإنما لأنه عمل الهي أيضا، فهو مقدس اذن في بنيته نفسها توسعا كل ما هو تام " ممثلىء " منسجم، مخصب، بكلمة واحدة :

كل ما هو متكون " Cosmise " كل شيء يشبه الكون، فهو مقدس . كذلك إن اتفاق عمل شيء مات أو بناءه حلقة أو تركيبية، إعطائه الشكل أو الأخبار عنه وتشكيله .. كل هذا معناه الإتيان بهذا الشيء إلى الوجود، وبالتالي منحه " الحياة " وجعله مماثلاً للتنظيم المنسجم بامتياز Cosmise والكون هو العمل النموذجي للآلهة، هو قسمة أعمالهم .

وفي العودة إلى الأصول يقول : يلعب " الزمن الأصل " الذي هو زمن " قوي"، كما قد رأينا لا لشيء إلا لأنه كان على نحو من الأنحاء " الوعاء" أو الظرف الذي حصل منه " خلق جديد " . أمّا الزمن الذي انقضى بين الأصل واللحظة الراهنة فليس زمنا " قويا" ولا زمنا "هاما"ماعد الفترات التي يتحين منها الزمن البدئي، طبعا ؛ ولهذا السبب لا يؤبه له ويصار إلى إلقائه وهكذا تعدو العودة إلى الأصول التي تسمح بإحياء الزمن الذي ظهرت فيه الأشياء لأول مرة، تكون خبرة ذات أهمية عظمى في المجتمعات القديمة. وفي هذا الزمن الذي يسميه قدسي أو باصطلاحنا احد أنماط الزمن المتخيل يتناول فيه مظاهر محددة هي الفوائد أو الوظائف التي قوم بها ذلك الزمن وهي :

1-تحديد العالم أي أساطير وطقوس التجديد حيث يتناول التتويج وولادة الكون (لدى مقدم حاكم أو سلطان جديد يصار إلى تكرار عملية ولادة العالم (كوسموغونيا) وهذا المفهوم كثير الشيوخ عند الأقوام الزراعية .. حيث يغدو الملك مسؤولاً عن استقرار الكون برمته وخصوبته ورفاهيته . وهذا يساوي القول إن كل تحديد عالي لا يتحدد مع الإيقاعات الكونية وحسب، وإنما مع الأشخاص والحوادث في التاريخ . والتجديد يتم بواسطة طقس العام الجديد هو في العمق، تكرار لولادة الكون (¹) .

والعالم الجديد وولادة الكون في الشرق الأدنى القديم حيث كانت ملحمة الخلق (اينوما ايليش) في المعبد، وعلى حد تعبير فرانكفورت كانت " كل سنة جديدة تقسم عنصرا جوهريا مع اليوم الأول الذي خلق منه العالم وابتدأت به دورة الفصول . فسكان الرافدين كانوا يشعرون أن (البدء) مرتبط عضوي و" غاية " تتقدمه، وان هذه الغاية من طبيعة (العماد) نفسه، الذي كان قبل لخلق .

2- نهاية العالم في الماضي والمستقبل . إن نهاية العالم على هذا النحو ليست بالنهاية الجزرية أي بالطوفان أو الدمار بحرائق وهزات أرضية، بل هي نهاية للبشرية يعقبها ظهور بشرية جديدة لكن غمر المياه للأرض بصورة كلية أو حرقها بالنار كليا بقصة كونية .يرتبط الطوفان (بآثار غضب الكائن

¹ مرسيا الياذ ، مظاهرالاسطورةص43-44.

الأعلى أو نتيجة شهوة كائن الهي) .. وهذه الفكرة القائمة على الدمار (إنها تعبر عن الفكرة القديمة نفسها، بانحطاط العالم تدريجياً يستوجب دماره وإعادة خلقه دورياً) (1)

ب- البعد التخيلي للمكان " المكان المتخيل " :

هناك مكان آخر هو أبداع عقلي ذو طابع عاطفي انه المكان المتخيل أي المكان المرتبط بالخيال وقدرته الإبداعية على خلق عوالم بديلة يحاول من خلال التعبير عن وجدانه وعواطفه ورغباته وهذا المكان المتخيل يقول عنه باشلار (إننا لا نعيش الصورة بشكل مباشر والواقع إن لكل صورة عظيمة عمق حلمي بعيد الغور يضيف إليه التاريخ الشخص لونا خاصا) (2). إن المكان ليس المكان العقلي الرياضي بل هو انعكاس صورة الأشياء المعاشة في ذات الإنسان الذي بدوره يعطيها صورة الأشياء الوجدانية، وفي هذا يقول ادوارد سعيد انه يصف (أي باشلار) فضاء المنزل - الموضوعي زواياه وردهاته .. مما يضيف عليه شعريا .. ذات قيمة تخيلية أو مجازية (3) فان المكان هو انعكاس لذات وبعدها العاطفي واثر هذا على المكان في الوقت الذي يظهر في المكان بمعناه العلمي - العقلي بأنه متجانس متصل ويصف مرسيا الياد (المكان الأسطوري) بعدم التجانس والانقطاع وتظهر دراسة عبر العلاقات الآتية:

المقدس: إن الحياة غير ممكنة بدون نافذة نحو المتعالي فان مركز العالم ينطوي على المكان المقدس إذ يتم عن طريق ظهوره فتنتفح (كوة) من الأعلى (العالم السماوي) أو الأسفل الأقاليم الدنيا ،، وعالم الأموات فتصبح المستويات الكونية الثلاثة الأرض والسما والاقاليم الدنيا متصلة بعضها ببعض وفكرة الاتصال معبر عنها أحيانا بعمود كوني يكون وسط العالم المسكون الذي ينشر حوله (4) إن المكان الأسطوري مكان ثانوي، غير متجانس ؛ لأن الأسطورة لا تستند إليه إلا من خلال العلاقة القائمة بينه وبين التخيل أو مع اللاواقع (5)، لذلك نجد ان العلاقة بين الأماكن لاتتم الا من خلال الارتباط بطرف ثالث هو الالهة، وهذا يقتضي وجود باب مفتوح يجعل الاتصال معها ممكنا، فعلى هذا الأساس ((يجب أن يوجد ((باب)) صوب الأعلى، ويمكن منه أن تنزل إلى الأرض ويمكن للإنسان أن يصعد رمزيا الى

¹ المرجع نفسه ،ص 58.

² يوسف شلحد ، بين المقدس عند العرب ، ترجمة : خليل احمد خليل ،دار الطليعة ، بيروت ، ص 23 .

³ نفس المرجع .ص.

⁴ مرسيا الياد ، المقدس والمدنس ، ص 35 .

⁵ قاسم المقداد ،هندسة المعنى في السرد الأسطوري والملحمي دارالوأل ، دمشق ،: 60.

السماء))⁽¹⁾ وبما أن للمكان خصوصية قد لا تفوقها العناصر السردية الأخرى في أي نص سردي آخر، فان للمكان الأسطوري - بالرغم من هامشيته - خصوصية تفوق الأماكن الأخرى، ولأهميته فقد احتقت النصوص الأسطورية به، وغالبا ماتفتتح الأسطورة بوصف أو ذكر مكان معين وتتطلق هذه الأهمية من منظورين:

الأول: انه يأخذ طابعاً ميتولوجيا، فكان القدماء يعتقدون بأنه ينقسم إلى ثلاثة عوالم : السماء، الأرض، العالم السفلي⁽²⁾ .

الثاني: إنه مكان أزلّي، بمعنى انه المكان الاول الذي ظهر الى الوجود وتفرعت عنه الأماكن الاخرى. فاذا سلمنا بأزليته، فهذا يعني انه خيالي، وهذا يشير الى أن المكان - أي مكان كان له وجود فعلي في الواقع - يتحول الى مكان وهمي خيالي بمجرد مايحيل الى عوالم مستحيلة او ممكنة،بمعنى آخر انه ((ليس مكانا حقيقيا وإنما هو مكان متخيل مصاغ من ألفاظ لا من موجودات وصور))⁽³⁾ فعلاقة الأسطورة بالمكان((علاقة البناء الفني برموزه أي أن الأماكن الحقيقية في هذا العالم لا وجود لها في الأسطورة؛ لأن المكان،أو البيئة الطبيعية رمز لما تحمله الأسطورة من المضامين والدلالات والمغزى، ولكنه ليس مكانا حقيقيا، كما انه ليس مسرحا طبيعيا لأحداث الأسطورة التي تجري خارج حدود المكان وخارج إطار الزمان))⁽⁴⁾ وهنا يقدم صفات للمكان المقدس، هي :

الأولى : أنه اكتسب قداسته من حلول المقدس فيه .

الثانية :انه ينقسم إلى أماكن مقدسة هي المعابد والمدن .

(فالشئ يبدو وكأنه وعاء لـ "قوة خارجية" تفرق عن محيط وتمنحه "معنى" و "قيمة" وقد تقيم هذه القوة في ماهية الشئ نفسه أو في صورته، فصخرة تتكشف عن قدسية لان وجودها بالذات هو تجل للقدسي)⁽⁵⁾ وكما يصف احد الباحثين هذه المظاهر البرانية للشجرة أو الصخرة أو عين الماء تقف قوة خفية تتوقف عليها حياة البشر والطبيعة القدسية)⁽⁶⁾

¹ مرسيا الياد المقدس والمدنس : 28.

⁽²⁾ علم الزمان - المكان العدد عند قدماء العراقيين ،ص 108.

⁽³⁾ الخصائص البنائية للاقصوة ،ص 29.

⁽⁴⁾ القراءة الاسطورية للتاريخ :7

⁵ الأسطورة والتاريخ ، دار الشؤون الثقافية لعامة ، بغداد ، ص92 .

⁶ مرسيا الياد ، المقدس والمدنس ، ص 39 .

الثالث: هناك فرق بين المكان المسكون والمكان غير المسكون .

إن الحياة غير ممكنة في العماء التي تفقد الصلة بالمتعالى فالإقامة في كل (مكان تعني في الدرجة الأخيرة تطويبه) (1) هكذا تغدو لدينا أماكن متخيلة أولى من أخلا المكان وهذا هو الفرق بينهما فالمقدس قدسيته من حلول الإله فيه وهو مكان جزء من المكان الدينى، ومقابل ذلك هناك أخرى متخيلة هي وليدة الرغبات والأمانى في الحصول على مكان لا يتغير فيه ديمومة وحياة خالدة كـ "دلمو" أو "عدن" أو ارض الأحياء "غابة الأرز" وهذه اشاره إلى أنها الأرض التي يعيش فيها الخالدون، أو المكان الذي يمكن للإنسان البشر الفانى أن يصل إليه، ومن أهم مخاطر هذا الطريق هو أن الأسود تتولى حراسة ممراته وان التخلص منها يتطلب مساعدة إلهية كما نقرأ عن (الأسطوري) فيما يلي :

وهكذا وصل جلامش أخيراً إلى ذلك الجبل الكبير الذي يطلقون عليه "ماشو" الجبل الذي يحرس الشمس في شروقها وغروبها، ترتفع قمته إلى السماء، وتضرب جذوره إلى العالم السفلى وعند بوابته يقوم العقربان بالحراسة (2) هذا الجبل هو العقبة بين جلامش (حيث أمال أوروك) بين المكان المشتهى المتخيل "دلمو" فهو مانع من الوصول إلى هناك فهو حاجز فاصل يمنع الوصول إلى دلمو . وهو من ناحية أخرى الرابطة بين العوالم الثلاثة عالم السماء المتخيل حيث "انو" كبير الآلهة وعالم الأموات العالم السفلى المتخيل ارض اللاعودة، وفي الوسط اروك مركز العالم، يصف مرسيا لباد المكان المقدس بأنه واسطة بين الأرض والسماء (وهذا ما يظهر في رمزية "الجبل الكونى" حيث في ثقافات كثيرة تحكى عن جبال أسطورية) (3) وهناك مكان آخر في "دلو" نه "حديقة الآلهة" هي جنة عجيبة بمناظرها البهيجة وألوانها الزاهية، وهي حقا تنقل المشاهد نقلة أسطورية هذا الجو المظلم الكئيب الذي عاشه جلامش خلال رحلة عبور الجبل إلى جو من الإشراق والبهجة بعد إرهاق الساعات الطويلة في الظلمات المحيطة بالجبل . فقد نقلت هذه الحديقة الأسطورية بأوصافها غير العادية تفسيراً تاريخياً واقعياً يجعلها حديقة أرضية تنتمي إلى العالم الذي نعيش فيه . وهناك مكان متخيل "بحر الموت" ينتقل جلامش من "حديقة الآلهة" إلى موقع أسطوري آخر انه ذلك البحر الذي يحيط المكان بالصعوبات وتجعل أمنية الوصول

¹ الأسطورة والتراث ، المرجع السابق ، ص 86 هذا التطويب نلمسه في أسطورة انانا وشجرة الخالوب ، وهو أيضا ظهر في مرويوات المستشرقين عن العوالم المجهولة الخالية .

² مرسيا لباد ، المقدس والمدنس ، ص 39 - 40

³ قاسم المقداد ، هندسة المعنى ، ، ص 63 - 64 .

عسيرة على الإنسان - حتى لو كان مثل جلجامش الراعي السياسي البطل الشعبي - أن يحصل فيه على الخلود، يقول جلجامش : لم انقش اسمي على الألواح كما مقدر لي لأذهبن إلى البلد الذي تقطع فيه أشجار الأرز ولا تثبتن اسمي في المكان الذي تكتب فيه أسماء عظماء الرجال ولاقيمن نصباً للآلهة حيث لم يخط اسم حتى الآن .فهذا النص يقدم لنا توصيفاً لنوعين من المكان:

الأول المكان المرغوب به "دلمو" الجنة : المكان المتخيل للحصول على الخلود وهي رغبة تداعب جلجامش مثلما تداعب كل القراء في خلود الذات وإبعاد عنها الاندثار والغياب وهو أمر ليس مشتتهى من جلجامش فقط بل عظماء الرجال داخل ثقافته المندثرة، وبالمقابل هناك مكان له صفة أخرى وهي كونه مكاناً فارغاً خالياً من أي ذكر للآلهة التي تمثلها "أوروك" الآلهة القومية فالإله يعني تعبيراً عن الشعب الذي يحميه وبالتالي يغدو هذا المكان محل رغبة أوروك لحاجاتها إلى الأخشاب في بناء المعبد والقصر وأوروك عموماً مكان متخيل يحقق لها إشباع لحاجاتها، وذكر الاسم يعني تطويب لهذا المكان وتحويله من مكان للغيلان مثل "خمبابا" إلى مكان تسكنه الآلهة وتضفي عليه التمدن (وتبدو الملامح الأسطورية في غابة الأرز أو ارض الأحياء، في أنها أولاً أرض بلا حدود جغرافية واضحة وبلا معالم حقيقية تدل عليها كما إنها أيضاً ليست منسوبة إلى زمان ومكان معينين⁽¹⁾ وثمة مكان متخيل آخر في الطريق من أوروك إلى دلمو وهو يمثل انقطاع في المكان الدنيوي بحلول القدسي فيه فهذا المكان هو "جبل ماشو" من الاماكن الأسطورية في الملحمة، الجبل الذي وصل إليه جلجامش بعد أن قرر البحث عن "اوتونيشتم" وكان هذا الجبل يمثل عقبة أمام جلجامش عليه إن يتخطاها بالطريق المودي إلى الجبل فهو طريق محفوف بالمخاطر ولم يتمكن انسان من الوصول إليه من قبل .

ياجلجامش لم يسلك هذا الطريق أي احد مطلقاً .

والتي لم يطرق أي احد مسالك جبالها .

وتمتد أعماقها على مسافة اثنتا عشر ساعة مضاعفة .

(حيث) الظلام الكثيف ولا يوجد أي نور .

من مشرق الشمس المغرب الشمس .

العالم المتخيل الثاني "العالم السماوي":

¹ جيلير دوران ، الانثروولوجيا ، ترجمة : مصباح الصمد ، ط1 ، بيروت ، 1998 ، ص 101 .

هو "العالم السماوي" حيث مقر زعيم الآلهة "انو" هذا المكان يمثل هيمنة مطلقة لأنه عالم الآلهة السلطة المطلقة التي كل ما في الأرض هو صدى لها.

وإذا بحثنا عن العلاقة بين السماء والأرض كانت هي تمثل المكان الذي شهد الحدث الأول فهو مكان متخيل، وكل ما حدث فيه يحاول تكراره في أفعاله الطقسية. وأفعال البشر وقيمتها لا يرتبطان بمعطياتها الفيزيائية الخام بل بما هي إعادة لفعل بدئي وتكرار لمثال مطيقي 00 وما حياته إلا تكرار متصل ليوادر ابتدرها آخرون غيره .

وللسماء استمرارية في سيطرتها على كل ما يدور على الأرض فهي المكان الذي يحل فيه الإلهة، وهذه الآلهة هي الفاعل في الأرض الذي نجده في ملحمة جلجامش (يحاول القاص انطلاقاً من أرضية منبسطة (مدينة 0000 سهل) تنظيم إبعاد المعاش

(جلجامش في ممارسة استبداده 00 الشعب في شكواه 000 الخ)

وتشكل التجريتان المعاشتان في المدينة وفي السهل أساساً أو نقطة انطلاق المغامرة الفضائية في القصة بين المدينة والسهل، ولا يتم الاتصال بشكل مباشر إنما عن طريق طرف ثالث يملك القدرة على الفعل الإلهي 000 إن الأعلى أو عالم الآلهة هو عالم منفصل عن العالم الأرضي لكنه يرتبط به ارتباطاً وثيقاً بالمقاوة بشكل سقف لهذا الأخير حيث يصعب على سكان الأسفل (المدينة) اقتزافه أو حتى مجرد الوصول إليه لأنَّ بين الأعلى والأسفل عالم تحتله فعاليات الآلهة أو نشاطاتها⁽¹⁾ وهذا ما يجسده اللاهوت العراقي بجعله يقف على رأس مجمع الآلهة الإله انو اله السماء وانو الآلهة ويليه في الأهمية الإله انليل اله الجو ثم الإله انكي أيا اله الأرض) أنظر هذه التراتبية بين السماء والأرض بين الفعل والمنفعل.

فقد رسم ملامح السماء في أسطورة أدابا حيث يقدم لنا توصيفاً لذلك المكان المتخيل كما يقول "جبلبيرت دوران" إن كل هذه الرموز الطقوسية هي وسائل إلى السماء ،فالكاهن كما ميرسيا اليالد ،عند ما يتسلق درجات السلم " يبسط ذراعية كما يفرد الطائر جناحية"ونسجل هنا التماثل العميق بين الارتقاء والجناح فعندما يصل القمة يصرخ : (لقد وصل الى السماء لقد اصبح خالدا) مبيناً هكذا ان الهم الأساسي لهذه الرمزية هو قبل أي شي آخر نصب سلم بوجه الزمن والموت (2) ان هذا المخيال الذي تدفعه الرغبة في الخلود اعطانا ملامح عن ذلك العالم المتخيل السماء حيث الإله (انو Anu) نقول أسطورة ان (ايا)

¹كلين دانيال، موسوعة علم الآثار، ترجمة: ليون يوسف، دار المأمون، ج 2، ط 1، بغداد، 1990، ص 48.

²مرسيا الياد، مظاهرالاسطورة، ص 22-23.

اله الحكمة قال لآدابا بعد أن كسر جناح ريح الجنوب وجعل يطبق الوصايا التالية عند ما يواجه "انو" بعد رحلته الى السماء .

وجعله يترك شعره منفوشا .

وحمله على ارتداء لباس حداد ،وقدم له هذه النصيحة .

يا ادبا انك ذاهب إمام "انو"الملك

وستتلك الطريق إلى السماء (1)

المطلب الثاني - من خلال السرد الأسطوري التخيلي :

إن السرد التخيليّ هو واحد من الآليات التي تعتمدھا الثقافة القديمة والحديثة، ونحن هنا بإزاء بُعدين، الأول : يعتمد على الأدب القديم، وقدرته على القيام بوظائف دينية ودينيوية يحاول من خلالها الأديب القديم أن يجد حلًا لما يحيط به من حوادث كونية واجتماعية داخل فضاءات المقدس والدينيوي وامتداداتها، وما يحيط بهما، وهو : أدب للكالالا (الكالا: هم الكهنة الذين يرددون الأناشيد الدينية الطابع (في المعبد) أو أدب الدينيوي: الذي هو أدب النار (فالنار هم الكهنة الذين يرددون الأناشيد الدينيوية الطابع في القصر). ويندرج تحت كل منهما مجموعة من فنون ذلك الأدب (2) هذا هو مفهوم السرد بإطراره القديم، إمّا السرد في التصور المعاصر فالسرديّة Naratology فرع من اصل كبير هو الشعريّة ؛ Poetries (3) التي تعنى باستنباط القوانين الداخلية للأجناس الأدبية واستخراج النظم التي تحكمها، والقواعد التي توجه أبنيتها وتحدد خصائصها وسماتها فالسرديّة تبحث في مكونات البنية السرديّة للخطاب من راوي ومروي له، ولما كانت بنية الخطاب السرديّ نسيجا قوامه تفاعل تلك المكونات، أمكن التأكيد على أنّ السرديّة هي : العلم الذي يعنى بمظاهر الخطاب السرديّ أسلوبا وبناءً ودلالةً (4) . وعلى هذا

¹ المرجع نفسه ، ص 36

² خزعل الماجدي ، أدب لكالا .. أدب الفا ، ط1 ، 2001 .

³ الشعريّة:هي اسم جامع لكل ما يتصل بخلق وإنشاء الأعمال التي تتخذ من اللغة جوهرًا وإداةً لها ، وتعتبر آخر فرع من فروع الدراسات الادبية يبحث عن قوانين الابداع الأدبي او الخصائص المجردة التي تصنع فريدة العمل الادبي ومن ثم تصنع ادبيته . ينظر: جابر عصفور نظريات معاصرة ، دار المدار ،دمشق ، ط1 ، 1998، ص 219 ،ت دار تويقال للنشر ، الدار البيضاء، ط2، 1990، ص 23.

⁴ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، مدخل إلى نظرية القصة ، بغداد ، 1986 ، ص

فان السرد وبعده الحكائي الذي يجعله قادرصا على خلق عوالم متخيَّلة عبر فعالية اللغة وقدرتها على خلق تلك العوالم وشد الملتقى إلى صدقها إلى الحد الذي يلمس بها الصدق ويتفاعل معها، وعلى هذا فإننا نحاول تحليل هذه الآلية عبر تحليل بعدها السردي بوصفه يعتمد على التخيل في إيجاد حلول لما هو ميتافيزيقي أو اجتماعي ... الخ .

إن تحليل النصوص الأسطورية المستحيلة يغدو ممكنا من خلال الحديث الظاهراتي عن تلك المقولات، الأنا في مجال التحليل هذا نجد أن العوالم التي نتحدث عنها الأساطير هي عوالم ممكن الحديث عنها من خلال أسلوبنا التحليلي، لكن هذه النصوص المكان الذي تقصده مختلف فالحركة مرة إلى الأعلى وأخرى إلى الأسفل وثالثه إلى الغرب وأخرى إلى الشرق، وتختلف الرحلة بين تلك التي يقوم بها الآلهة وتلك التي يقوم بها البشر، وهي بالشكل الأتي :

العالم السماوي له زمان ومكان أبديان متعالين (مقر الملكية السماوية حيث انو كبير الالهة).
العالم السفلي او الاسفل وهو مكان مظلم ايضا محكوم بزمان ومكان وقوانين صارمة وهو نقيض الحياة الدنوية .

العالم الارضي الخالد جنة دلمو وهو ايضا محكوم بالزمان والمكان المتعالين الخالدين .
ويقابله العالم الارضي الذي نعيش به وهو عالم وسط بين تلك العوالم .

المقدمات الشرطية لحدائفة عربية ناجحة

قراءة في رؤية فتحي التريكي

د. محمد بن علي¹

(أ) مدخل:

خرجت الحدائفة كروية جديدة للعالم، من رحم التحولات الكبرى التي شهدتها أوربا العصر الحديث. فلقد أسفر انحلال الحياة الدينية والسياسية والاقتصادية، في القرون الوسطى إلى استثناء قدر عظيم من الفوضى والاضطراب، حال دون بلورة نظرية متسقة عن المجتمع المدني. لكن هذا الوضع المتسم بالركود سرعان ما دبّ فيه تطور جديد، أدى في النهاية إلى قلب الأوضاع قلبا تاما، وذلك بظهور النشاط التجاري في أوروبا، ونمو الطبقة البرجوازية والتجارية، وتغلغلها في المجالات السياسية والاقتصادية، ووقوفها "أمام العقبات والقوانين الإقطاعية التي كانت تقف حائلا بينهم وبين ممارسة نشاطهم. وهكذا أخذوا يطالبون برفع جميع القيود، التي تنقل الحياة الاقتصادية"⁽²⁾، وبمعنى آخر، أنه بعد أن تغيرت العلاقات الإنتاجية، التي تشكل البناء التحتي، أخذت البرجوازية في تغيير البناء الفوقي السياسي والقانوني، الذي كان يتعارض وطموح هذه الطبقة، المقبلة على الحياة بنظرة إيجابية، جاعلة الإنسان وسعادته محور النشاط البشري، عكس النظرة القروسطية السلبية اتجاه الإنسان.

لقد أصبحت فلسفة الحدائفة خلال القرنين 18 و19م، النموذج والقاعدة الأساسية للذهن الغربي، وامتدت تأثيراتها لبقية الشعوب، ومن ثمّ يمكن القول إن جذور الحدائفة في الفكر العربي، تعود في أساسها إلى هذه الفلسفة، فغالبا ما يؤرخ للحركة الفكرية العربية الحديثة بالقرن 19م، ففي هذا القرن بدأ العالم العربي - بداية من مصر - الانفتاح على أسباب الحضارة، والتعرف على وسائل التقدم الإنساني، وعقد مقارنات بين مكانته وما وصل إليه غيره في أوروبا.

هذه المقارنات طُرحت، بصيغة أو بأخرى، على المثقف العربي منذ ما يزيد عن قرن ونصف من الزمن، وظفرت منه، عبر هذه المرحلة التاريخية، بإجابات ومعالجات، تفاوتت في وضوحها وعمق تحليلها، ونضج نتائجها، تفاوتت يتناسب وحركة تطور التاريخ الاجتماعي والسياسي العربي، تماشيا مع تطور معارف المثقف العربي ووعيه بحركة التاريخ الإنساني، وبالواقع الثقافي والحضاري، القومي والعالمي السائد في كل مرحلة.

واليوم يعالج المثقف العربي المسائل والإشكاليات التي تطرحها قضية الحدائفة عليه ؛ كمسألة الهوية الثقافية، ومسألة الأصالة، وإشكالية الخصوصية والعالمية والتعددية... الخ، بشكل لا يكاد يخرج عن

¹ أستاذ محاضر المركز الجامعي غليزان، البريد الإلكتروني: falsafa20@yahoo.fr

² عبد المنعم رمضان، تاريخ أوروبا و العالم في العصر الحديث، ج1، الهيئة المصرية العامة للمكتبات (ب ط)، 1997، ص16

ذلك الشكل، الذي أُلْفاه عند أسلافه. انطلاقاً من المعارف التي يتيحها الواقع التاريخي والمناخ الثقافي والحضاري، العربي والعالمى الراهن. انطلاقاً من هذه المقدمة، سوف نعرض بالتحليل لرؤية المفكر العربى فتحى التريكي، باعتباره أحد أبرز المفكرين العرب، الذين اشتغلوا على مسألة الحداثة، وشروط توطينها فى البيئة العربية الإسلامية.

(ب) ضبط مفاهيم الدراسة:

(1)- مفهوم الحداثة:

من الصعوبة الوصول إلى ضبط مفهوم دقيق للحداثة، إذ ليس هناك اتفاق، بين المفكرين حول طبيعة ومكونات الحداثة، لأن الحداثة ليست مفهوماً سوسىولوجياً أو تاريخياً، بحصر المعنى، وإنما هى صبغة مميزة للحضارة، تعارض صبغة التقليد، أى أنها تعارض جميع الثقافات السابقة والتقليدية. ورغم ذلك سوف نحاول إعطاء مقاربات للمفهوم، تقربه أكثر للقارئ.

(أ)- مفهوم الحداثة للغة:

كلمة الحداثة فى اللغة العربية مشتقة من الجذر (ح-د-ت)، و"حدث الشيء يحدث حدثاً وحداثة، فهو محدث وحديث وحدث الأمر، أى وقع وحصل وأحدث الشيء أوجده، والمحدث هو الجديد من الأشياء⁽¹⁾. وعليه فالحداثة فى اللغة العربية ترادف الجدة والتجديد.

أما فى اللغة الفرنسية فإن الصفة حديث *moderne*، أقدم تاريخياً من اللفظ حداثة *modernité*. وكلمة حديث *moderne* تقابلها فى اللاتينية *modernus*، التى تظهر ظهرت فى أواخر القرن الخامس بعد الميلاد، وتأتى من كلمة (*modo*)، التى تعنى الآن أو حالاً، وقد استعملت بهدف التمييز بين الماضى الرومانى الوثنى والحاضر المسيحى، الذى لم يكن قد مضى زمن طويلاً على الاعتراف به رسمياً.

(ب)- مفهوم الحداثة فى الاصطلاح الفلسفى:

من الصعوبة الوصول إلى ضبط مفهوم دقيق للحداثة، إذ ليس هناك اتفاق بين المفكرين حول طبيعة ومكونات الحداثة، لذلك سنحاول تلمس الملامح العامة للحداثة من خلال بعض النماذج. حيث يقول: "جون بودريار" ليست الحداثة مفهوماً سوسىولوجياً أو تاريخياً بحصر المعنى، وإنما هى صبغة مميزة للحضارة تعارض صبغة التقليد، أى أنها تعارض جميع الثقافات السابقة والتقليدية، فأمام التنوع الجغرافى والرمزى لهذه الثقافات، تفرض الحداثة نفسها وكأنها واحدة متجانسة مشعة عالمياً، انطلاقاً من الغرب. ويتضمن هذا المفهوم إجمالاً الإشارة إلى التطور التاريخى بأكمله⁽²⁾. بينما يرى فتحى التريكي أن "الحداثة

¹ ابن منظور، لسان العرب، دار ومكتبة الهلال، بيروت، مادة: حدث، مج4، ص52

² فارح مسرحى، الحداثة فى فكر محمد أركون، منشورات الاختلاف، الجزائر، والدار العربية للعلوم-ناشرون، بيروت، ط1، 2006،

هي الحالة الناتجة عن تطور زمني يسمح للوضع القائم المتجدد تلقائياً أن يعبر بشكل أو آخر عن روح العصر عن الحضور، حضور الأنا "في هنا و الآن على صعيد الإبداع الفني والعلمي والثقافي عامة".33، فالحدث في بعدها الفلسفي، مثلت خلاصة لاستنفاد المخيال الأسطوري والرمزية الدينية والفنية، لإرساء قواعد للخطاب، ومعايير تصبو إلى الابتعاد عن الذاتية، لتأسيس القول من خلال أليتها،

التي اتبعتها العقل في عملية إقصاء للخيال وللامتناس واللامعقول، فالحدث الفلسفية قامت على محوري انفصال. محور يربط المعرفة بالذات، ومحور يربط الوجود بالسلطة، ينفصل الفكر في المحور الأول عن نظام أرسطي مسيحي للمعرفة، ليعود إلى معطيات طورها أفلاطون، وينفصل الفكر في المحور الثاني عن الثنائيات التي تخبط فيها العقل، لإقرار المتجانس وإبعاد اللامتجانس⁽¹⁾، وهو الفعل الذي لم يتم في الفضاء العربي الإسلامي كما يرى الدكتور عبد الإله بلقزيز " (ف) مفهوم (الحدث) كما دخل في المجال التداولي العربي، لا يعني مفهومه في الفكر الغربي. إن الفوارق بين المفهومين واسعة. فالحدث Modernité، هي الرؤية الثقافية والفلسفية الجديدة للعالم، أما التحديث Modernisation، فهو فاعلية سياسية واجتماعية، تروم تطوير بُنى المجتمع والسياسة والاقتصاد. بحيث تلائم مستوى التحولات الطارئة على صعيد الزمان والمكان والعلاقات الاجتماعية والحاجات. وهنا يتعلّق الأمر بسياسات و إجراءات مُخطّط لها تحقّقها الدولة"⁽²⁾.

(2)-الأسس الفكرية والفلسفية للحدث الغربية:

(أ)-الأسس الفلسفية:

لقد عرفت حضارة الغرب طريقها نحو التقدم، حينها تخلّصت من أوضاع سياسية واجتماعية وثقافية راسخة، فرضتها هيمنة الكنيسة والنظام الإقطاعي، لقد مزقوا الإنسان في العصور الوسطى: فسلبت الكنيسة الفرد عمله وشلّت إرادته، ولم تعترف له بمكانته في الفكر، فكانت لا ترى سوى نظام إلهي مطلق، يعمل الناس في حدوده طبقاً لمبدأ محدد سلفاً، لكن هذا الوضع المتمسك بالركود، سرعان ما دبّ فيه تطور جديد - وخطير في الوقت نفسه- أدى في النهاية إلى قلب الأوضاع قلباً تاماً، وذلك بظهور النشاط التجاري في أوروبا، ونمو الطبقة البرجوازية وتغلغلها في المجالات السياسية والاقتصادية، ووقوفها أمام العقبات والقوانين الإقطاعية، التي كانت تقف حائلاً بينهم وبين ممارسة نشاطهم. وهكذا أخذوا يطالبون برفع جميع القيود التي تنقل الحياة الاقتصادية"⁽³⁾. بمعنى آخر، إنه بعد أن تغيرت العلاقات الإنتاجية، التي تشكل البناء التحتي، أخذت البرجوازية في تغيير البناء الفوقي، السياسي والقانوني، الذي كان

¹ فتحي التريكي، رشيدة التريكي، فلسفة الحدث، مركز الانماء القومي، بيروت لبنان، ب، ط، 1992، ص 77

² حوار مع د. عبد الله بلقزيز حول: كونية الحدث و نسبيتها - أجرت الحوار: رشا الجديد. المغرب نقلاً عن موقع:

http://tarekelnajeh.blogspot.com/2009/02/blog-post_2409.html تاريخ الزيارة 2011/10/10

³ عبد المنعم رمضان، تاريخ أوروبا و العالم في العصر الحديث، ج1، الهيئة المصرية العامة للمكتبات، (ب ط)، 1997، ص 16

يتعارض وطموح هذه الطبقة المقبلة على الحياة، بنظرة إيجابية، جاعلة الإنسان وسعادته محور النشاط البشري، عكس النظرة القروسطية السلبية اتجاه الإنسان.

(ب)- الأسس الفكرية:

(1)- الفردية:

تشدد الحداثة على القيمة العليا للفرد، فالمجتمع والدولة، ليس لهما وجود مستقل، أو قيمة في ذاتها، بل هي مجرد نتائج يسفر عنها وجود الأفراد، مرتبطين ببعضهم بطريقة معينة، والليبرالية تعتمد في رؤيتها هذه، نظرة خاصة للإنسان، تتصف بكونها ذرية Atomiste أو تفتيتية، حيث تردّ المجتمع إلى أفراده المكونين له، وتتنظر إلى هؤلاء الأفراد على أنهم ذات مستقلة عن بعضها.

هكذا فوضت، دعائم الرؤية الإقطاعية، التي ساد خلالها إدراك للفرد، باعتباره ليس لديه مصالح خاصة به، أو هوية منفردة، فكان ينظر للناس، باعتبارهم أعضاء في مجموعات اجتماعية، ينتمون إليها كالأسرة والقرية، والمجتمع المحلي أو الطبقة الاجتماعية، فحياتهم وهويتهم، كانت تتحدد بدرجة كبيرة، بحسب صفات تلك المجموعات، وذلك في عملية تغير طفيف، من جيل إلى آخر، وعندما انهار النظام الإقطاعي، واجه الأفراد نطاقاً أوسع من الخيارات، والإمكانات الاجتماعية، وأتيح لهم لأول مرة التفكير الفردي المطلق، وبشكل شخصي بحت⁽¹⁾.

(2)- الحرية:

إن قوة الحداثة متأنية، من كونها تطالب بالحرية للجميع، بلا استثناء، رجالاً ونساءً، وبالاعتراف المتبادل بهذه الحرية. ومن شأن هذا التوجه- من حيث المبدأ على الأقل- أن يدفع الناس إلى الثقة بالحرية، بدلاً من الخوف والحذر منها، فتتطلق المبادلات والأنشطة في جميع الميادين، تحقيقاً لأقصى ما يمكن تحقيقه، في الواقع المتغير من قدرات الأفراد، وطموحاتهم و مصالحهم.

من الواضح أن الحرية لم تطرح كفكرة، بل نسجلها كظاهرة طبيعية، تابعة لوجود الفرد على وجه الأرض. وهكذا تنزع الحرية من مجال السجلات الفلسفية، لتوضع في حيز السياسة التطبيقية والاقتصادية، أي في نطاق التاريخ والتطور، لأن الفرد يملك بموجب قانون الطبيعة، سلطاناً مطلقاً على ذاته، له حقوق كاملة ودائمة، تتعلق بالاعتقاد والرأي وبالكسب والملكية، "هذه الحقوق التي لا تقبل التقييد إطلاقاً، تسمى حريات شخصية أو إنسانية: كلما مست فقد المجتمع صفته الإنسانية، لأنه أصبح يناقض الطبع والعقل"⁽²⁾

ولا شك أن وعي الإنسان بحريته، يقوم كما يرى فلاسفة التنوير، على وعيه بنفسه كذات هي المصدر الأسمى لكل حقيقة، ولذلك فإنه سيكون، في نظرهم، مشروع نفسه، من حيث هو ذات قادرة على

¹ (نقلاً عن: هبة رؤوف عزت، (الليبرالية، إيديولوجية مروعة أفسدها رأس مال)، أنظر الموقع: www.heba_ezzat.com.

² (عبد الله العروي، مفهوم الحرية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2008، ص4، ص61)

خلق المعايير والقيم من جهة، وإخضاعها للمراجعة والنقد من جهة أخرى، فالتفاعل الحقيقي بين مفهوم الحرية وممارستها داخل كل المجتمع، هو الذي يعطيها إيجابية قصوى، ويجعلها تسكن بسهولة كل مجتمع.

إن الحرية هي الحق بأن لا يخضع الفرد في المجتمع إلا للقوانين العامة. بمعنى أنه على المجتمع أن يضمن كرامة المواطن، فلا يمكن اعتقاله واسجنه أو قتله، أو تعذيبه من قبل إرادة اعتباطية لفرد ما، سواء كان هذا الفرد في أعلى هرم السلطة، أو في أسفله، أو من قبل قرار اعتباطي لمجموعة من الأفراد" (1)

(3)-العقلانية:

ارتكزت الحداثة كروية جديدة للعالم، في القرن الثامن عشر، إلى الإيمان بالعقل البشري وقدراته في المجالات العلمية والعملية؛ أي الإيمان بأن مبادئ العقل، هي التي يجب أن يقوم عليها بناء الجماعة الإنسانية في مختلف ميادينها: سواء في السياسة أو في الأخلاق أو في المعتقدات أو في النظرة الكونية، فلقد أحدثت ديكارت تحولاً كبيراً في صيرورة الفكر الغربي، حيث أكد على اعتبار العقل الأداة الأساسية لاكتساب المعرفة، والملكة التي تعطي للكائن قيمة، وافترض بتأكيد ثقته في العقل، استبعاد كل ما يشوش عمله، والتقليل من أهمية ما لا يستجيب لضرورة لمقتضياته وضوابطه، واعتبر المخيلة سيده الخطأ والضلال؛ فكان بذلك، أول من شرع باسم العقلانية، لإقصاء المخيال من الفعل الإبداعي الإنساني، باعتباره كائناً عاقلاً لا غير. وهذا يعني، كما يقول فتحي التريكي، اقتران الحداثة في نمط تكوينها وفي نمط عملها بالعقل.

لقد لعبت العقلانية دوراً هاماً، في التركيز على أهمية الفرد، وقدرته على كشف خبايا العالم، فالعالم من وجهة نظر العقلانية، لديه تكوين منطقي، يمكن كشفه من خلال الممارسة العقلية للفرد. والعقلانية هي مفتاح ما تلاها من تحولات عميقة، وقطائع إبستمولوجية، في البنية المعرفية للعقل الغربي عموماً، وذلك بتطوير المعارف، وتقليص المجالات الغامضة والمبهمة، في العلاقات التي تربط الإنسان بالوجود، وقد تجلّى ذلك بداية ب:

(أ)-عقلنه القول التاريخي: أي "بإعادة قراءة التاريخ العالمي، قراءة تضع الوعي الغربي كوعي مؤسس مستفيدة من أطروحات عصر النهضة الذي أكد على:

(1) فتحي التريكي، فلسفة الحياة اليومية، الدار المتوسطة للنشر، تونس، ط2009، 1، ص149.

(1)-"العودة القوية إلى الحضارة اليونانية واعتبارها نقطة انطلاق العقل الأوروبي"، فالبحث في الذات الغربية من خلال العودة إلى العلوم والفلسفة الإغريقية، يعني إثبات العقل ودحض التقاليد الكنسية"⁽¹⁾

(2)- بداية الوعي بضرورة الوحدة الغربية، بتوحيد المملكات والإمارات داخل أوطان أوسع(نموذج الوحدة الإيطالية مثلا) .

(ب)- عقلنة الفكر السياسي: بدأت هذه العقلنة منذ أفلاطون وأرسطو، أي عندما بدأ المفكرون يقترحون نظاما سياسية مبنية على نواميس، قد استنبطها التفكير العقلي والفلسفي. لكن الفكر السياسي لم يتحرر ليعقلن مناهجه، عقلنة علمية إلا مع ميكافلي في القرن الخامس عشر. فالحدث على المستوى السياسي، تجلت في نشأة الدولة الديمقراطية العلمانية، أي الدولة التي تم فيها التمييز بين المجال السياسي والمجال الديني⁽²⁾.

حيث تعد إسهامات ميكافلي في الفلسفة السياسية، بمثابة نقطة تحول، في رسم معالم العلمانية الأوروبية.إنها بداية لحظة الانفصال، بين المدني، الدنيوي، النسبي وبين الكنسي الديني.من هنا أصبح لفظ العلمانية، يطلق في بداية الأمر"للإحالة على العالم الخارجي، الواقع خارج الفضاء الكنسي، وما يطبعه من روح دنيوية مادية، ومن ثم اتسعت دلالة الكلمة لتشمل كل المؤسسات الدنيوية، المعنية بالمسائل المدنية الزمنية وشؤون عامة الناس، تميزها لها عن المؤسسات والهياكل الدينية، الموصوفة بالروحية والقدسية.

(ج)-عقلنة القول الديني: وتعنى " التدخل في جميع مستوياته بدقة لإصلاحه"⁽³⁾، حيث كانت بداية ذلك

بحركة الإصلاح الديني، التي قادها "مارتن لوثر" ضد الكنيسة، وما وصلت إليه من تدهور، بسبب القائمين عليها.

(د)- أما الحركة الرابعة التي كان لها بالغ الأثر، في توجيه الفكر الأوروبي الحديث، فهي ولا شك، عقلنة الفكر العلمي:حيث "بدأت هذه العقلية -بالدفاع عن العلوم العربية واليونانية، من قبل علماء وفلاسفة أخذوا على عاتقهم محاربة التقاليد الكنسية، معتمدين على الشرق بقطبيه اليوناني والعربي"⁽⁴⁾، وبدأ بذلك حقل السيطرة على الطبيعة يتوسع إلى أقصى حده.

¹ أحسن بشاني: خطاب الحدث في الفكر الفلسفي العربي المعاصر وإشكالية الخصوصية والعالمية، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه الدولة في الفلسفة، إشراف: الأستاذ الدكتور: عبد الرحمان بوقاف، قسم الفلسفة، جامعة الجزائر، 2006، 2005.

² فارح مسرحي، مرجع سابق، ص 44

³ فتحي التريكي، رشيدة التريكي، فلسفة الحدث، مرجع سابق، ص 31

⁴ المرجع نفسه، ص 29

تلك هي إذن مقومات الحداثة الغربية، في نظر التريكي، وهي وكما هو ملاحظ لا تختلف كثيرا عن المحددات التي يتفق حولها الكثير من المفكرين، وإن اختلفوا في تقديم هذا العنصر أو ذاك. لكن التريكي سوف يضيف جملة من العوامل - الثابت - التي تقترن بالحداثة في نمط تكوينها، وفي نمط عملها، وذلك في جميع المستويات. وهي ما ساعد- في نظره- الغرب ليهيمن على العالم. تتمثل هذه الثوابت في:

(1)-إرادة المعرفة: "وتعني الجرأة على اقتحام كل الميادين، ففي عصر النهضة الأوروبي، اقتحمت إرادة المعرفة، شياً فشيئاً مؤسسات المجتمع وآلياته المختلفة، من كنيسة وسوق ومدارس وغيرها، كما اقتحمت العالم الفيزيولوجي والسيكولوجي للإنسان.

(2)-إرادة التغيير: "تتمثل في تكريس المعارف المكتسبة، نحو تغيير الواقع، سياسياً واقتصادياً واجتماعياً. تغييراً يتماشى ومتطلبات الحداثة.

(3)-إرادة الهيمنة: يرى فتحي التريكي أن "المعرفة التي توسعت رقعتها في عصر النهضة، نتيجة لعمليات الترجمة، واستجابة لمتطلبات التحولات التقنية والاقتصادية، لم تفرز فقط إدارة التغيير، بل طورت القدرة على التدخل في المجالات الطبيعية للهيمنة عليها وامتلاكها، فالغرب بداية من نهضته الأولى في أواخر العصور الوسطى، بدأ يتحرك ليهيمن على العالم" (1).

- الحداثة العربية بين السياق الإجمالي و الصعوبات التطبيقية:

لقد كان الاتصال بين الشرق والغرب، بداية لعمليات من القلق والمعاناة، قلق عبر عنه قاسم أمين قائلاً: " كل من تعلم من المصريين وساعده الحظ على أن يتعرف على أحوال أمته وحاجاتها ويحيط بها، إن الأمة المصرية دخلت اليوم في دور خطير، بل في أخطر دور من تاريخها، فلم يمر عليها زمن صارت فيه حياتها معرضة للخطر، مثل هذا الزمن. فان تمدن الأمم الغربية يتقدم بسرعة البخار والكهرباء حتى فاض من منبعه إلى جميع أنحاء المعمورة" (2).

لقد أدرك قاسم أمين خطورة المرحلة التي تمر بها مصر آنذاك، وأيقن أنه " لا سبيل للنجاة من الاضمحلال والفاء، إلا طريق واحد لامدوحة عنها، وهي أن تستعد الأمة لهذا النضال وتأخذ له أهبتها" (3)، بغية تجاوز عصر الركود، الذي ساد العالم الإسلامي، منذ بداية العصر المملوكي سنة 1250هـ.

لقد انتقلت أفكار عصر النهضة، والتتوير وفكر الحداثة، إلى الفكر العربي، عبر العديد من الوسائط، لعل أهمها البعثات العلمية التي أرسلها محمد علي وعلي باك إلى أوروبا، دون أن ننسى الدور

(1) المرجع نفسه، ص 21

(2) أمين قاسم، تحرير المرأة، سلسلة الأنييس موفم للنشر، الجزائر (ب.ط)، 1988، ص 108

(3) المرجع نفسه، ص 105

الذي لعبه الاستعمار الأوروبي في العالم العربي، في نقل هذه الأفكار - ليس من أجل تنوير الشعوب المستعمرة، ولكن في أسلوب معيشتة ومؤسساته - في ظل هذه المجابهة بين الشرق والغرب، بدأت تتوالى الأسئلة من مختلف المواقع، حول أسباب ضعف الشرق حتى يتمكن الغرب من اجتياحه !.

في إطار الأسئلة المطروحة والإجابة عنها، ظهر تباين في آراء المفكرين العرب، إزاء الثقافة الوافدة عموماً، وحول سبل الخروج من حالة التخلف، على وجه الخصوص، وانقسموا إلى تيارات تنوعت ما بين علمانية وإصلاحية وتحريرية وسلفية، وليبرالية. عالجت المشكلة من هذه الوجهة أول تلك، ولكن دون أن تصل لحل جذري، بل نستطيع القول، إن الفكر العربي مازال يعيش الأزمة ويتخبط في نفس دائرة الأسئلة التي عالجها سابقوه، ومن هنا نتساءل هل فشل مشروع الحداثة العربية؟

-التركيب ومعالم المشروع الحداثي العربي:

(أ) تشخيص أزمة الفكر العربي:

يرى فتحي التركي، أن الحداثة العربية لم تفشل، لسبب بسيط وهو أن العالم العربي الإسلامي لم يدخل بصفة نهائية عصر الحداثة، حتى نحكم عليه بالنجاح أو الفشل، ف" نحن مازلنا في عصر التحرر، ولم ندخل بعد وبصفة نهائية عصر الحداثة. فالفكر العربي الإسلامي، مازال يحصر نفسه بعد ما يزيد عن قرن ونصف في المسألية نفسها التي يعيشها كمعضلة، وهي مشكلة التراث والحداثة، أو الهوية والتفتح، ومازال يعيد صياغتها لمرات عديدة، محاولاً كل مرة إيجاد سبل التوفيق بين مقومات الأنا، والنفوذ المباشر للآخر" (1).

يعيش الفكر في الوطن العربي - فيما يرى التركي - أزمة متعددة المظاهر:

فعلى المستوى الفكري، عجز هذا الفكر عن تجاوز مفاهيم وقضايا كانت شائعة في أوائل القرن العشرين، كقضية الهوية والحداثة، رغم أن هذه القضية طرحت في ملابسات مختلفة، أي في خضم النضالات المتواصلة من أجل التحرر. هكذا أصبح " الصراع بين التراث والحداثة صراعاً مغلوطاً، لأن التراث في حد ذاته، يستوجب التغيير والتجديد والحركة، حتى يكون تراثاً يميز شعب عن غيره، ولا يبقى طي النسيان، ولا يدخل حركية التاريخ، أي حركية تأسيس الذات وصيرورتها. من هنا يرى التركي أنه لا سبيل للخروج من هذا المأزق، إلا من خلال "إعادة النظر في معنى الهوية العربية، التي لم تعد بالضرورة تفيد الثبات في الذات، والعودة إلى التراث القديم لتوضيح امتيازات العرب بالنسبة إلى الغير. وبالأحرى لا تنفي مقولة الهوية العربية فكرة الحداثة، والحداثة لا تفيد شيئاً آخر غير الحضور للذات" (2).

والنتيجة الحاصلة أن الفكر العربي مدعوا - في نظر التركي - لتجديد مفاهيمه، حتى تكون ناجعة وواضحة، لفهم أزمة التفكير والوعي في الوطن العربي، وأول خطوة على الطريق تكمن في تجاوز جدل

(1) فتحي التركي، «رشيدة التركي، فلسفة الحداثة»، مرجع سابق، ص 27

(19) المرجع نفسه، ص 33

الهوية والحادثة، أو "الأصالة" و"التفتح" لأنها مفاهيم نحيلة، تندرج في جهاز التفكير الأيديولوجي والممارسات السياسية، ولكنها غير مجدية على الصعيد العلمي والفلسفي⁽¹⁾.

أما على المستوى السياسي، فأزمة الفكر العربي يرجعها التركي إلى عاملين: فعلى المستوى الفكري، تعود أزمة الفكر العربي إلى كونه "بني أساسا على مجموعة من الخيبات المتتالية، التي صنعت مصيره وجعلت المفكر العربي يكرس اهتماماته، في تفكيره وبحثه عن الذات العربية، على تفسير الثورات والنكبات والنكسات والهزائم⁽²⁾. فالفكر السياسي العربي، مازال يتمحور أساسا حول محور هذا الشعور بالقلق، أمام شلل المشروعات المستقبلية للوحدة العربية. الواقع الذي أثر على دور المنقف العربي، وجعله في كثير من الأحيان، يُقدم على معالجة مشاكله، معالجة تتم عن الشعور باليأس والقنوط، وإحساس بالإحباط.

أما على مستوى الممارسة السياسية، فأزمة الفكر مردها للممارسات الاستبدادية للأجهزة المختلفة في البلدان العربية، والتي تعامل الفرد من خلال جدلية الرقابة والعقاب، وتحاول إخضاعه للسلطة بالقوة القاتلة، أي بتهديده في جسده وحياته العامة والخاصة، فتكون السلطة العنيفة عنصر استبداد بالنسبة إلى الفرد، وبالنسبة إلى المجتمع على حد سواء⁽³⁾.

لهذا يرى التريكي، أنه لا يمكن الحديث عن فكرة نهضة عربية، ما لم نعيد صياغة المفاهيم والتصورات اللازمة لإعادة بناء نهضة عربية جديدة، تقوم على مكتسبات فلسفة النهضة، وتطوير مرتكزات انتماءاتنا الحضارية، وعلى رأس هذه المفاهيم، مفهوم المعقولة العربية الحالية.

(ب) - تفكيك المعقولة العربية شرط لحادثة عربية ناجحة:

تتميز المعقولة العربية الحديثة في نظر فتحي التريكي، بجملة من الخصائص تحول دون تحقيق حادثة ناجحة، ومن جملة هذه الخصائص أنها:

(أ) - انتقائية: فالمعقولة العربية" كما تتوظف اليوم في المجالات الحياتية العامة، يلاحظ من أول وهلة شرخا عميقا يسكنها، فمن ناحية تتقبل هذه المعقولة كل ما يرد عليها من تكنولوجيات، وترفض في الآن كل ما يجعل هذه التكنولوجيا ممكنة، ونعني بذلك مظاهر الحادثة ومستتبعاتها.

(ب) - سلفية: لأنها "تبقى دائما متأصلة في السلف، بينما تحاول استيعاب نتائج العلوم والتكنولوجيا، فتكون بذلك مستهلكة، غير مبدعة في هذا الشأن، بل غير قادرة على الحضور في العالم، فالوعي السلفي الذي يسود اليوم في المعقولة العربية، وعي مغلق ومتحجر، يقوم على عبادة الأسلاف، ويرفض كل إبداع وكل تفكير عقلي مشفوع ببرهان⁽⁴⁾.

20 المرجع نفسه، ص 33

21) المرجع نفسه، ص 35

³ المرجع نفسه، ص 36

⁴ فتحي التريكي، فلسفة الحياة اليومية، مرجع سابق، ص 148

(ج) - نقلياً: لأنها لم تستطع إلى يومنا هذا "أن تقفز قفزة نوعية، نحو مرحلة النقد العلمي والجدري الحقيقي لأنها مازلت تحت وطأة المحرمات والمنوعات والمحجرات بأنواعها المختلفة، على الصعيد السياسي وعلى الصعيدين الديني والاجتماعي، "معموليتنا مازلت تحت وطأة التكفير والتحرير والمنع الاستبداد، والسحر والشعوذة والخرافة، والتفديس والانفعالية والغريزية والشعارات، والإحكام المسبقة"⁽¹⁾. لهذا يرى الأستاذ التريكي أن المشروع الحدائري العربي، لا يمكن أن يكتب له النجاح ما لم يقترن ب: (1) - الرجوع إلى معقولية التفكير: فالعقل هو مفتاح الحداثة، والمعقولية هي سبيل التحديث، فلن ندخل عصر الحداثة إذا لم نبن تفكيرنا على العقل وحده، " فرغم انزلاقات العقل في أشكال الهيمنة والغطرسة، يبقى العقل ركيزة أساسية للديمقراطية، لأن العقل دعامة للحريات والمسؤوليات، وركيزة لمجتمع القانون والحقوق. دون أن يعني ذلك في نظر التريكي التخلي عن هويتنا والانصهار في الآخر. لأن المعقولية في جوهرها "لا يفيد بالمرّة نسيان الهوية وانحلالها في الآخر، كما لا يفيد انقراض مراجعنا الفكرية والدينية، بل يفيد تحرر الفكر من المرجعية الماضوية الضيقة، ومن هنا يصبح التثبيت بالأصالة والعودة إلى الماضي عامل غير كافي لتحقيق الهدف، فإثبات هويتنا لا يكون بتأصل كياننا فقط، بل وأيضاً بتحديثه، وجعله قابلاً للتأقلم مع أنماط الحياة الجديدة، "فالحداثة تصبح إذن تأصيلاً لكياننا وعنصر هاماً لتحديد هويتنا، بجانب العنصر التراثي، الذي يزيد تحضراً وتمسكاً بكياننا وانفتاحاً على الحضارات التي تحاذينا، وهكذا تكون الهوية حلقة وصل معقدة، تربط حضور الوجود في العالم بما فيه، وتفتح أمامه باب المستقبل"⁽²⁾.

(2) - الإيمان بأن الحداثة ليست منتج غربي خالص: لأن "عملية التحديث لا ترتبط - حسب التريكي - بمركزية الغرب ومشاريعها الاستعمارية بصفة عضوية وكاملة، فالغرب رغم نجاحه في تركيز الحداثة على مركزيته، لم يكن وحده في تأسيس أركان الحداثة، بل استفاد من منتجات الحضارات الأخرى بما فيها الحضارة العربية الإسلامية، فعلاوة على التفاعل الحضاري بين الغرب وبقية الشعوب المتحضرة في عصور النهضة، "لا بد من الانتباه إلى أن قنوات الاتصال العلمي والفكري بين الغرب والإسلام، في القرن الثاني عشر، قد ساهمت بصفة مباشرة في عملية دحض التقاليد الكنسية، بالاعتماد على العقل والتجربة. من هنا تصبح الحداثة تعبير عن " نقطة استكمال الدورة الجدلية للتفاعل الحضاري، بين الشعوب والأمم، وهي حركية دائمة تستبدل القديم بالجديد، وذلك بالاعتماد على المنجزات العلمية والتقنية والثقافية في جميع الحضارات بدون استثناء"⁽³⁾.

⁽¹⁾ المرجع نفسه، ص 147

⁽²⁾ فتحي التريكي، رشيدة التريكي، فلسفة الحداثة، مرجع سابق، ص 27

⁽³⁾ المرجع نفسه، ص 28

لهذا يرى فتحي التريكي "أن الحداثة جديدة بأن تكون القضية الأم للعالم العربي حالياً، لأنها عقلنة وتحرر، وانفصال عن التعصب والجهل. انفصال عن التقليد والنقل، والهيمنة على الذات والهوية والابتعاد بها عن الماضوية الضيقة. فتحديث نمط عيشنا وتفكيرنا، هو تأصيل لكياننا، لأننا كنا من الذين قدموا للعقل مقوماته، وهو انفتاح لحضورنا، لأننا نريد من حاضرنا أن يكون دعوة للمستقبل، ولا عودة للماضي"⁽¹⁾.

(3) - إصلاح علاقتنا بالآخر: فالآخر مفهوم ينتسب إلى المتحدث في هنا والآن. ونعني بالغير الإنسان الآخر الذي هو إنسان مثلي، له نفس الحقوق، ووجوده يساوي وجودي انطولوجيا وأخلاقيا وقانونيا ولكنه يختلف عني، في نمط وجوده وحياته. يعني ذلك أن "الإنسان الغير" ليس فقط غير أنا، بل هو أنا آخر، أنا الغير، هو الأنا الذي يختلف عن ذاتيتي، وهو موجود مثلي في عالمنا المشترك، له حضور كأنا آخر، سواء كان في علاقة معي أو كان منفصلاً كل انفصال عني.⁽²⁾

ومهما يكن من أمر، فإن الوجود في العالم يمكن أن يأخذ صبغة عنيفة، كالحروب والإجرام وكل وسائل العنف المادي والمعنوي، يمكن أن تأخذ الغيرية صبغة متسالمة، تضمن علاقاتها مبادئ الحقوق والاحترام والتعقل، فتكون عندئذ علاقتي بالآخر علاقة محبة وتانس. لهذا يرى التريكي، أنه يجب تغليب مبدأ التسامح، لأنه "دعامة الممارسة الديمقراطية، وهو موقف سياسي ضد كل تعصب وانغلاق في العلوم، والأديان والسياسة والأخلاق، انطلاقاً من إنسانية الإنسان. وينفي بناء على ذلك تصور وجود نظرية تقدمية دون الأخذ بعين الاعتبار للغيرية، من حيث هي ضرورة حياتية، والعمل على أن تأخذ هذه الغيرية صبغة تسالم، وذلك بالمزيد من التحكم في ذاتيتنا وأخلاقياتنا، وأنماط عيشنا ومجرى وتفكيرنا."⁽³⁾

لهذا نجده - التريكي - يدعو لمواجهة كل الإيديولوجيات الإقصائية، سواء تعلق الأمر بتلك التي تدعو إلى إقرار نماذج اجتماعية متصلة بالماضي، وبدون أي اعتبار لحركية الثبات للذات والتغيرية في التاريخ. أو تلك التي تحاول فرض نموج وحدوي ضيق، التي يبرر قهر الأقليات والفرد، وتبرير القهر والاستبداد من خلال إقرار فرضية التنوع والاختلاف، لأن الوحدة العربية - يؤكد التريكي - لا يمكن لها أن تتجح إلا إذا أخذت بعين الاعتبار خصوصيات شعوبها، من خلال إقرار الحق في الاختلاف والتحرر.⁽⁴⁾ إن معقولية التنوع ترفض الفكر الوحدوي، المبني على الهيمنة والغطرسة والاستبداد، لأن فلسفة التنوع هي فلسفة الحرية، والنضال ضد القمع بكل أشكاله وأنواعه، وهي تشهير بنمو القمع والقهر، وبنمو الاستغلال وخراب العقل، وإقرار الحريات الفردية والأقليات السياسية والمذاهب الدينية وتواجد الأديان،

⁽¹⁾ المرجع نفسه، ص 32

⁽²⁾ فتحي التريكي، فلسفة الحياة اليومية، مرجع سابق، ص 153

(المرجع نفسه، ص 156 ³

(فتحي التريكي، رشيدة التريكي، فلسفة الحداثة، مرجع سابق، ص 38 ⁴

وبهذا يمكن أليا محاربة الإيديولوجية الامبريالية والصهيونية، التي ترتب لاققسام الوطن العربي وتجزئته اجتماعيا وسياسيا، واستغلال التناقضات القائمة أو الكامنة بين الطوائف والأقليات .

(4)- تحرير فكرة التقدم من إطارها الإيديولوجي:

ارتبطت نظرية التقدم بروح التفاؤل، التي خلفتها الكشوف العلمية المختلفة، وانتصار النظرة العقلانية، وتوسع مجال الكفاح من أجل الحريات السياسية والدينية، وبتراجع فكرة العناية الإلهية أمام فكرة القوانين الطبيعية الثابتة. فبهذه الروح المتفائلة ازداد وعي إنسان القرن الثامن عشر بذاته، كذات صانعة للتاريخ، وبعيه بتاريخيته. وبعيه بتاريخيته هو، في الوقت نفسه، وعيه بحداثته. ذلك أن وعيه بتاريخيته يعني وعيه بأنه يمثل مرحلة أرقى من كل مراحل التاريخ البشري السابقة، أي وعيه بتقدمه تاريخيا.

من هنا يرى فتحي التريكي أنه يجب تخلص فررة التقدم من ارتباطاتها الإيديولوجية، لأن "فكرة التقدم إذا حصرناها داخل تصورات استعمارية، فإنها ستكون غير مجدية لمعالجة وضعنا الحالي. أما إذا حررناها من سيطرة الفكر الحداثوي، وجعلناها محركا لتحديث كل جوانب المجتمع والثقافة، فإننا سنستطيع بكل جرأة وشجاعة، أن نبني مقومات فكر تقدمي، يقوم على إنتاج الحقائق العلمية، ويفتح المجال للفرد أن يختار نمط حياته، ليثبت انتمائه ومدنيته بحرية وتعقل، واحترام للغير والعيش سويا.⁽¹⁾

(5)- تصور إستراتيجية ممكنة للخروج من أزمة الوعي العربي: والمتمثلة في البحث في الذاكرة

التاريخية و الممارسات اليومية عن مقومات الخطاب الديمقراطي المفتوح، المبني على:

- تمدين الحياة الاجتماعية: التي مازالت في مجتمعاتنا العربية، تحت رحمة السياسي الذي يقمع المدني، مرتكزا على شبكة هائلة من الاقصاءات المتعددة، بحيث سيكون "الإنسان السوي المصطنع الذي قد تمت تسويته وصناعته داخل الأسرة وفي المدارس، وتحت وطأة الإيديولوجية الرسمية، هو مواطن الوحيد الممكن بالنسبة إليها، بحيث سيكون حق الاختلاف والتعارض غير ممكن، وغير محبذ بالمرّة في هذه المجتمعات السياسية⁽²⁾. وينجرّ عن هذه الفكرة رفض "المشروعية التي تعتمد الخلط بين الدنيوي والمقدس تضفي حتما على ممارسة السلطة نوعا من الحرمة والقداسة، باسمهما يشرّع الأمير وينفذ قراراته، وينزل بالحكم إلى القهر والاستبداد.⁽³⁾

لهذا يرى فتحي التريكي أنه لا مجال للحديث عن فكر التقدم، ما لم يبرز "المدني" ويكسب شرعيته المطلقة على المجتمع، ويسود مبدأ الحرية في كل شيء، في الدين والأدب والفكر والصناعة والتجارة والأعمال والخدمات والسياسة والمجتمع .

(فتحي التريكي، فلسفة الحياة اليومية، مرجع سابق، ص 159¹

(المرجع نفسه، ص 150²

(فتحي التريكي، رشيدة التريكي، فلسفة الحداثة، مرجع سابق، ص 72³

-تعقيلية الحياة الاجتماعية: وهنا يعود التريكي للإستثناس بأعمال الفارابي "عندما ربط بين النظر والعمل في تصوره للعقل. فالتعقل هو فضيلة من فضائل العقل العملي، وهو "القدرة على جودة الروية واستنباط الأشياء، التي هي أجود وأصلح، فيها يعمل ليحصل بها الإنسان خير عظيمًا، لذلك يجب أن تكون التعقيلية متجذرة في حياتنا اليومية، وفي معاملاتنا المختلفة على كل مستويات، وما من شك أن تقلص العقل في المجتمعات، يؤدي حتما بحسب الفارابي إلى سيطرة الدهاء والمكر".⁽¹⁾

هذه هي معالم المشروع الحدائي التي نظّر لها الدكتور فتحى التريكي فهل نجحت الآليات المقترحة في توطين فكر الحداثة في وطننا العربي؟

(ه)-خلاصة:

إن التجربة الحدائية الغربية، بوصفها تجربة إنسانية عينية تاريخية، لا يمكن إعادة إنتاجها، تاريخيا، كتجربة جاهزة مهما كانت محاولات استلها م فهمها العام العيني التاريخي-لأن الحداثة ليست مجرد حقبة تاريخية فقط، بل هي أيضا مجموعة قيم - ومهما كانت إرادة تمثله، وأن ما يمكن استلها م من هذه التجربة الحدائية الإنسانية، بوصفها تجربة عينية تاريخية- وهذه هي مهمة المفكر العربي الكبرى، التي تطرحها عليه قضية الحداثة العربية- هو إبداع تصور لمفهوم الحداثة؛ تصور تفرضه مكتسبات العقل الإنساني وحقائقه النظرية من جهة، وشروط واقعا التاريخي ومعطياته الحضارية والثقافية والروحية الخاصة من جهة أخرى؛ تصور مبني على منطق الإيمان بالاختلاف الفكري داخل وحدة العقل، وبالتنوع الحضاري والثقافي والروحي داخل كلية التاريخ، وبجدل الخاص والكوني في تطور المجتمع الإنساني.

إلا ومع أن الحداثة هي في ذاتها، قيمة تستمد معناها من ذاتها؛ ولذلك فإن أبرز المشكلات التي تتصل بها كمفهوم، وبتعريفها، وفهمها، تكمن في علاقتها بالزمان وبالحقبة التاريخية التي تتجلى فيها وبالتاريخ الذي تتموضع فيه⁽²⁾

إن عملية التفاعل الحضاري، التي تمت بين الفكر العربي والقيم الغربية الحديثة، أو بين الثقافة الغربية المهيمنة والثقافة المحلية المستتبعة، عملية أدت إلى حالة من القطيعة مع الذات، وإلحاق هذه الذات الثقافية بالآخر المهيمن، في نوع من علاقة السيد بالعبد والتابع بالمتبوع، ذلك أن هذا الاتصال

(المرجع نفسه،ص 152¹

(34) أحسن بشاني: خطاب الحداثة في الفكر الفلسفي العربي المعاصر وإشكالية الخصوصية والعالمية، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه الدولة في الفلسفة، إشراف: الأستاذ الدكتور: عبد الرحمان بوقاف، قسم الفلسفة، جامعة الجزائر، 2006، 2005.

لم يكن قائماً على أساس من التفاعل الثقافي بين متكافئين، بالمعنى النفسي والمعرفي، وإنما على أساس من التلقي والتبني والانقياد، الذي يبديه المغلوب اتجاه الغالب، تصديقا لمقولة ابن خلدون في مقدمته، عن ولع النفس بالانقياد للغالب واعتقادها الكمال فيه.

لقد كانت قضية المفكرين العرب، منذ منتصف القرن التاسع عشر، هي اللحاق بالغرب، بينما كانت قضية المفكرين الأوربيين تكمن، في تحرير البرجوازية من أغلال الإقطاع. وإذ رأى جيل الرواد العرب أن النهضة التكنولوجية والصناعية في أوروبا، قد اقترنت برفع شعارات التنوير وحمل لواء الحرية والتسامح والعلم والعقلانية. فقد اعتقدوا أن لحاق العرب بالغرب، يتطلب اعتناق الأفكار نفسها، وكما أن الدعوة إلى هذه الأفكار في أوروبا، كانت تجري بلا قيد أو شرط، فالمطلوب هو مثل هذا عندنا أيضاً! وهنا مكمن الخلل الذي تفرعت عنه إساءات بالغة لقضية الحداثة نفسها! فبادئ ذي بدء، صار النموذج الغربي هو المثال، بل صار التحيز للغرب سمة لمدخلات المفكرين العرب الأوائل، وأدت عملية النقل دون مراعاة لتراث وتقاليد الواقع العربي، إلى نوع من الصدام مع هذا الواقع، والصدمة لكثير من أبنائه، فالمفكرون العرب الرواد - معظمهم - عادوا ما عاداه التنويريون البرجوازيون في الغرب، وصادقوا ما صادقوه، عادوا الدين أو استهانوا به، بينما لم يكن هذا ضرورياً بالمرّة لتنويرنا وحداثتنا، وتقدمنا السياسي والتكنولوجي أو العلمي، كما تبنا مبادئ الفردية الغربية كمعيار لقياس الرفاهية، بينما لم يكن هذا بدوره ملائماً للواقع العربي، المتجذرة فيه قيم العائلة والقبيلة.

إن مفردة الحداثة، شأنها شأن المفردات الوافدة على ثقافتنا، فقدت بريقها منذ البداية، لأنها صارت تقليداً ضاراً، جعل من الغرب المرجع والمحرار، الذي تقاس به حرارة محرك قطار الحداثة، ولم يجعل من الحداثة تطبيقاً إبداعياً - لا تطبيقاً اتباعياً - يبدع ويعمم إبداعاته على جميع المستويات، السياسية والثقافية والتربوية، وإن الهدف المنشود يجب أن يكون متمحوراً حول قيام مجتمع متنور، إلى جانب المجتمع المتقدم، وقادر على التفاعل معه.

الحدائثة و الوعي العربي بين محمد أركون و طه عبد الرحمن

أحمد شيخ: طالب دكتوراه بقسم الفلسفة كلية العلوم الاجتماعية جامعة محمد بن أحمد وهران 2

إشراف: اد برباح مختار¹

إن الناظر و المتأمل في الحدائثة يحس أنها صعبة الإدراك في جانبها النظري، فهي في النهاية توصلنا إلى نتائج إيجابية مبدعة، و تجارب تأتي بثمارها في مجال الأدب و الفن و هذا راجع إلى تطور مستوى الوعي عند المفكرين والفنانين و الأدباء ، و خلق قطيعة مع الماضي من خلال جعل الذات قادرة على الخلق و الإبداع أمام متغيرات العصر، والتقلبات التي حدثت في كافة المجالات الإقتصادية و الإجتماعية و السياسية، و قابلية للمجتمعات من أجل التغيير، و هذا ما عكس تلك الآثار على أعمال الكتاب والفنانين الأوروبيين والأمريكيين من خلال تلك الحركات الفنية المعروفة ب: الرمزية والسوريالية والطبيعية والتصويرية والمستقبلية إلى غيرها من الحركات المتعاقبة في الزمن ، و عليه اعتبرت الحدائثة ثورة حقيقية على كل الأعمال الأدبية والفنية السابقة سواء من حيث المضمون أو الشكل، لكن للحدائثة أصول أسباب وتوجهات عالمية ، يقول الفيلسوف الألماني يورغن هابرماس: " أن الحدائثة لا تستطيع أن تستعير المعايير التي نسترشد بها من عصر لآخر، مثلما أنها لا ترغب في ذلك، فهي ملتزمة باستخراج معياريتها من ذاتها. لا يمكن للحدائثة أن تعتمد على غير ذاتها؛ الأمر الذي يشرح عصبيتها عندما يتصل الأمر بفكرتها عن ذاتها، كما يشرح ديناميكية محاولاتها من أجل أن تستقر، وأن تحدد موقفها من ذاتها ومن العالم " ² ، فهذا التصور السائد في الفكر الغربي ، أما على مستوى فكرنا العربي فنجد المفكر محمد أركون يرى أن الحدائثة ليست المعاصرة ، فقد يعاصرنا أشخاص لا علاقة لهم بنا ولا بالحدائثة و العصر، أناس ينتمون عقليا و ذهنيا لمرحلة العصور الوسطى، و قد توجد في العصور السابقة شخصيات تمثل الحدائثة قبل أربعة آلاف سنة أو ألفي سنة أو خمسمائة سنة ... فقد نجد الحدائثة لدى أرسطو و نجدها لدى الجاحظ و التوحيدى و المعري و مونتينييه الفرنسي، فالحدائثة إذن غير التحديث ، إذ أن تاريخ الفكر الإسلامي - في نظره - هو تاريخ منفتح و تطبيقي في آن معا، فهو منفتح على كل المظاهر ، و على كل إنتاجه الذي تعدى الحدود و الحواجز التي صنعتها العقليات المنغلقة، أما أنه منفتح فهو منفتح على العلوم الإنسانية و الإجتماعية و مناهجها، كما أنه تطبيقي في نفس الحركة البحثية ذاتها لأنه يسعى لأجل تلبية حاجات و تحقيق آمال الفكر الإسلامي المعاصر و سدّ نواقصه منذ أن كان هذا الفكر قد إضطر لمواجهة الحدائثة المادية و العقلية.

¹ استاذ تعليم عالي كلية العلوم الاجتماعية جامعة محمد بن أحمد وهران 2

² Habermas (J): "Le discours philosophique de la modernité" Ed. Gallimard, Paris 1988. p.8

وقد تزامن عصر النهضة عندنا مع ظهور ما يسمى في أوروبا آنذاك تفوق العقل الوضعي العلمي في الغرب ، حيث قام رواد هذه المرحلة في فكرنا بالتواصل مع الفكر الغربي و محاولة الأخذ من معرفته ، لكن وقع لديها خلط في الفهم و سوء تأويل و دخلت في الجدل السلبي و الطرح السطحي ، حيث بلغ بالبعض حسب أركون : " أن شرع في إدخال نظريات علمية شديدة الجدة حتى بالنسبة للغرب نفسه الذي قام باكتشافها كنظرية داروين فيما يخص تنوع الأنواع، يمكن أن يقال نفس الشيء فيما يخص طه حسين و على عبد الرازق الذين يرهنا على سداجتها الفكرية عندما إعتقد بإمكانية التعرض لموضوعين مشحونين بالتصورات الأسطورية و الدينية و التقديسية في الوقت الذي كانت فيه المسلمات الوصفية و المنهج الفيلولوجي يحتقر هذه التصورات بالذات و ترميها في الدائرة المظلمة للخزعات الخيالية " ¹ ، إن العقل الأريثونكسي في تصور أركون له ميزات أهمها أنه مآكر و مخائل في عملية الجدل من حيث القبول أو الرفض للخطاب التاريخي ، و من هنا نراه يؤكد على ما يلي : " إنني ألح و ألفت الإنتباه إلى آنية ممارسة العقل في الإسلام و الصفة المؤقتة لهذه الممارسة ، أو بالأحرى التاريخية الجذرية لأنماط العقل و ممارسة في الإسلام " ² ، وعليه نجد أغلب المجهودات في عصر النهضة التي قام بها المثقفون كانت غير مثمرة و غير ناجحة لكونها إمتازت بالسطحية و عدم المنهجية و سوء الفهم في مضامينها ، بعيدة عن المنطقية و عدم مطابقتها للعلمية ، وكانت في أغلبها تبجيلية و تبشيرية ، فلم تخدم الفكر العربي الإسلامي و لم تستطع إخراجها من دائرته المغلقة .

إن تعريفات مفهوم الحداثة كثيرة و متنوعة من ناحية الكم ، فهناك من قال أنها (النهوض بأسباب العقل والتقدم والتحرر) ومنهم من قال أنها (ممارسة السيادة على الطبيعة والسيادة على المجتمع وعلى الذات) ، وهناك من يقول أنها (قطع الصلة بالتراث) أو أنها (طلب الجديد) أو أنها (محو القداسة من العالم) أو يقول أنها (التعقيل والعقانة) أو يقول أنها (الديمقراطية) أو أنها (قطع الصلة بالدين) أو أنها (العلمانية) أو أنها (مشروع لم يكتمل بعد) * ³ ، ولهذا يرى المفكر المغربي طه عبد الرحمن في التعاريف المختلفة والمتعددة حول مفهوم الحداثة قد ضخمت في الحداثة حتى جعلت منها كائن عجيب وغريب يتصرف في الأشياء والأحياء كلها تصرف الإله القادر ، بحيث لا راد لقدره ⁴ ، والإضافة إلى التباين الموجود في مبادئها جعل الحداثة تقع في عدة تناقضات خلاف لما قامت عليه عند بداية ظهورها

¹ أركون محمد ، تاريخية الفكر العربي الإسلامي، ترجمة هاشم صالح، مركز الإنسان القومي و مركز الثقافة العربية، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، 1998، ص 32.

² محمد أركون ، مصدر نفسه ، ص 91 .

³ طه عبد الرحمن ، روح الحداثة المركز الثقافي العربي المغرب الطبعة الأولى ، سنة 2006 ، ص 23 .

⁴ طه عبد الرحمن ، روح الحداثة ، مصدر سابق ، ص 24 .

يرى طه عبد الرحمن في مفهوم الحداثة الغربية أنها حادثة لا تتوافق و الطبيعة الإنسانية التي خلق الله عليها عباده و التي أساسها الإيمان الديني و الشعور الأخلاقي، فالإقتصار على الجانب العقلي دون سواه يوقعنا في مشاكل و يدفع بنا إلى طرق مغلقة، إن إعتبار الحداثة الغربية حادثة كونية و عالمية إنطلاقاً من أن العقل إنساني و كذا تاريخه الطويل هو واحد، وهذا ما يفنده طه عبد الرحمن للخلط الحاصل بين "روح الحداثة" و"واقع الحداثة"، إذ يقول: " أن روح الحداثة هي من صنع المجتمع الغربي الخاص، حتى كأنه أنشأها من عدم، وإنما هي من صنع المجتمع الإنساني في مختلف أطواره (...). لا يبعد أن تكون مبادئ هذه الروح أو بعضها قد تحققت في مجتمعات ماضية بوجوه تحققت في المجتمع الغربي الحاضر، كما لا يبعد أن يبقى في مكنتها أن تتحقق بوجوه أخرى في مجتمعات أخرى تلوح في أفق مستقبل الإنسانية " ¹.

و لعلّ الجديد في طرح " طه عبد الرحمن " حول مفهوم الحداثة هو تجنبه أمران إثنان نجد المفكرين العرب يقعون كلهم داخل دائرتهم ، فالأول تعامله مع هذا المفهوم خارج فكرة ثنائية الرفض والإدعان ، و الثاني الخروج من تصور وصفي بالغ المفكرين فيه و أنتجوا مؤلفات كثيرة في هذا المجال ، فطه عبد الرحمن نظر إلي مفهوم الحداثة كإبداع إنساني لا تستطيع الثقافة العربية الإسلامية أن تهرب منه ، والتعامل معه على الوجه الذي هي عليه ، بل ينظر إليها على أنه تعبير عن مواقف و حركية حضارية لا بد منها .

فطه يرى في الأخلاق أنها ضرورة ملحة في عملية التجديد، و الممارسة الفكرية ، و هذا الأمر الذي أهمله الطرح الإسلامي الحديث و إنساق للتركيز على الجانب المادي فقط مهتماً بالجوانب الإيديولوجية و الإقتصادية ، و من هنا قام طه عبد الرحمن بنقد لأسس الحداثة الغربية على جميع مستوياته و إعطاء بديل تمثل في الحداثة الإسلامية .

يتبنى محمد أركون في طرح وجهة نظر منهج جديد يريد من خلاله تأسيس دراسات إسلامية حديثة ، يصبو من خلالها إلى الإرتقاء عن الدراسات الكلاسيكية السابقة مثل الدراسات الإستشراقية للإسلام و المجتمع الإسلامي يسعى أركون من خلال منهجه تأسيس دراسات إسلامية جديدة تتجاوز القراءات الإستشراقية للإسلام و هذا ما يسميه أركون " الوصفية الخارجية " ، فهو يسعى للاستفادة من كل المعارف الاجتماعية في دراسته للنصوص الإسلامية، ومحاولة فهم خصوصية الحالة الإسلامية .

يرى محمد أركون أن الدراسات الإستشراقية لم تكن بناءة في دراستها و عمليتها الإستقصائية و لم تستطع الكشف عن الإشكالات الحقيقية و أسباب الضعف والتسلط السائدة في المجتمعات الإسلامية ، و هذا راجع للتصور الإستشراقي المتعالي و نظرتة القاصرة للمجتمعات الإسلامية، وعليه يعطي لنا أركون منهجه البديل الذي سماه " الإسلاميات التطبيقية " أو " الإسلامولوجيا " و هذا إقتباساً لما يطلق

¹ طه عبد الرحمن ، روح الحداثة ، مصدر نفسه ، ص31.

عليه في العلوم الاجتماعية بـ " الأنثروبولوجيا التطبيقية " ، فيقول عنه صاحبه : " فهذا العلم الذي دشنته، قبل بضع سنوات، يهدف إلى قراءة ماضي الإسلام وحاضره انطلاقاً من خطابات المجتمعات الإسلامية والعربية وحاجياتها الحالية"¹

و يضيف على هذا صاحب الترجمة هاشم صالح بأن " أركون يقصد بالإسلاميات التطبيقية تلك المنهجية الجديدة التي اخترعها هو شخصياً لكي يتجاوز منهجية الإسلاميات الكلاسيكية الخاصة بالمستشرقين بعد أن يأخذ كل ما هو مفيد منها"² ، إن أركون يفند الطرح القائل أن المجتمعات الإسلامية كانت مجبرة على إتباع الحدائث الغربية و تقليدها تقليداً تاماً في كل خطواتها التاريخية في مراحل تطورها كحجة لمجارات تقدمها ، ففي رأي أركون للحدث التطور التاريخي بهذه الطريقة " نحن نستخدم يقول أركون مصطلح التفاوت التاريخي لتفسير سبب رزوخ المعرفة التقليدية في مجتمعاتها و سبب إنتشار المعرفة الحديثة و تغلغلها عميقاً في المجتمعات الأوروبية، و كل قول بضرورة إعادة إنتاج التجربة داخل المجتمعات العربية إنما يكرس قراءة إيديولوجية لمفهوم التطور التاريخي و هذا ما يسقط فيه عدد كبير من المثقفين العرب لأنهم غير قادرين على فهم و بصورة فورية و إستيعاب خصوصية التفسير السوسيولوجي و الأنثروبولوجي لواقع المجتمعات البشرية عندما تقارن بين نفورها التاريخي المتفاوت"³ ، إن منهج الذي يتبعه محمد أركون هو منهج يعتمد قراءة النصوص وتحليلها و تدقيقها من خلال تطبيق منهج الفيلولوجيا و معالجة الظواهر الإسلامية بعيداً عن التقديس و التبجيل ، و نقادي التصور الكمالي للتراث ، وانه يمكن استعادة هذا التراث، ووظيفته كاملاً في بناء الحياة الواقعية الجديدة ، فأركون يعارض التصورات اللاتاريخية ، و في نفس الوقت يسعى إلى الإفتتاح على منتجات الحدائث الغربية من دراسات حديثة في العلوم الإنسانية، والاجتماعية والتي قامت على مسح و تعويض التصورات اللاهوتية و الخرافية. و هنا نصل إلى طبيعة الحدائث التي يريدنا أركون أن نتبعها فالتحديث عنده غير الحدائث فيراه أركون جانباً تقنياً يتعلق باستخدام التقنيات الحديثة بالمعنى الزمني وادخالها الى الساحة العربية والإسلامية.

فوصول العقل العربي الإسلامي يقول أركون " إلى العقلانية الحديثة لا يمكن أن يتم بشكل فعلي و دائم و ناجح إلا بتفكيك مفهوم السياج المغلق (الدوغمائية) و مفهوم الأرثوذكسية الماضي بتراثه هو بالذات، و ما دام (المؤمن) سجين نظام الإيمان أو الإيمان الأرثوذكسي هذا وما دام سجين المقولات الهوية ألقروسطية، ما دام غير قادر على فتح ثغرة أو عبوة على الخارج، أي على العقلانية العلمية و

¹ محمد أركون ، الفكر الإسلامي. نقد واجتهاد ترجمة هاشم صالح، المركز الثقافي العربي، دار البيضاء ، الطبعة الثانية ، سنة 1996 ، ص، 35،36 .

² المصدر نفسه، ص 197 .

³ محمد أركون ، قضايا في نقد العقل الإسلامي، كيف تفهم الإسلام اليوم، ترجمة: هاشم صالح، دار الطليعة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1988، ص: 309

الفكر التاريخي فسوف يبقى يراوح في مكانه ونراوح نحن معه أيضا في مكانها، أي تقدمه هو تقدمنا وتأخره تأخرنا " ¹ ، و يزيد في هذا فيقول : " أحب أن أميز بين نوعين من الحادثة : الحادثة المادية والحادثة العقلية أو الفكرية ، فالحادثة المادية متوافرة في مجتمعات إسلامية متعددة خصوصا الغنية منها ، و لكن الحادثة العقلية هي التي تتقصنا بشكل موجع " ² ، و يضيف كذلك " أن أول شيء ينبغي أن نقوم به هو التمييز بين الحادثة المادية و الحادثة العقلية ، أقصد بين تحديث الوجود اليومي للبشر ، و تحديث موقف الفكر البشري من مسألة المعنى أو فهم الوجود أو رؤية العالم " ³ .

لا يبتعد طه عبد الرحمن عن هذا الطرح كثيرا و يعيب على جل المفكرين العرب تقليدهم الغريب دون إبداع و لا نقد وكأن الحادثة التي جاء بها الفلاسفة الغربيون شيء مقدس ، وهذا يخالف المبادئ التي قامت عليها الحادثة من حيث " مبدأ النقد " وهو خروج الإنسان من القصور إلى الرشد ، لكن رغم أن هذه النخب تنظر إلى الحادثة من باب التقليد ، إلا أن تقليدها متنوع ، ويمكن أن نحدده حسب " طه عبد الرحمن " في نوعين ، نوع الأول مقلدة المتقدمين ⁴ وهم النخبة التي تقوم بتقليد المتقدمين من المسلمين أي الذين إعتمدوا على تراث السلف ، فهم يقومون بإسقاط المفاهيم الإسلامية التقليدية على المفاهيم الغربية الحديثة ، كإسقاط مفهوم " الشورى " على مفهوم " الديمقراطية " أو مفهوم " الأمة " على مفهوم " الدولة " والهدف من هذا هو خلق منهج عملي توجيهي ، لكن النتيجة قد تكون سلبية على حد تعبير " طه عبد الرحمن " لأن رد المفاهيم المنقولة إلى المفاهيم المأصولة ، قد يؤدي إلى القضاء على خصوصية المفاهيم المنقولة ، ونوع الثاني مقلدة المتأخرين ⁵ وهم النخبة الذين يقلدون المتأخرين من غير المسلمين ، إذ أنهم إنقطعوا عن التراث ليتواصلوا مع معارف الحادثة الغربية حيث يقومون بإسقاط المفاهيم الغربية على المفاهيم الإسلامية ، كإسقاط مفهوم " العلمانية " على مفهوم " العلم بالدنيا " ، ومفهوم " الحرب الدينية " على مفهوم " الفتح " ، والغرض منه الوصول إلى خطاب ذا صبغة إستدلالية ، والنتيجة كذلك تكون سلبية إذ أنها تقضي تدريجيا على المفاهيم المأصولة .

وعليه فكلما النوعين من التقليد سواء تقليد المتقدمين أو تقليد المتأخرين يكونان دون إبداع ، فالنوع الأول يتبعون ما أبدعه السلف دون معرفة الأسباب ، والنوع الثاني يتبعون ما أبدعه الغرب دون معرفة كذلك أسباب إبداعهم ، فالوصول إلى الإبداع وتحقيق التجديد في مفاهيم القيم والمنهاج الفكرية و التأسيس للأخلاق ، و خلق قاعدة مفاهيمية متينة لا يتم إلا من خلال التحرر من إشكالية التقليد وهذا

¹ محمد أركون : الفكر الإسلامي، قراءة علمية، مصدر سابق ، ص 09.

² محمد أركون ، قضايا في نقد العقل الإسلامي، كيف تفهم الإسلام اليوم، مصدر سابق ، ص 289 .

³ محمد أركون ، العقل الإستطلاعي المنبثق و أنواع الحداثات في السياقات الغربية الإسلامية ، العالم العربي في البحث العلمي ،

العدد 10 و 11 ، سنة 1999 ، باريس ، ص 100 .

⁴ طه عبد الرحمن - روح الحادثة - المصدر السابق - ص 11 .

⁵ طه عبد الرحمن - روح الحادثة - المصدر السابق - ص 12 .

ماكرسته سياسة العولمة من فرض لنمطها الثقافي و الفكري و فرضه على الآخر ، و عملية الخروج من التبعية لا تكون إلا بأمرين و هما "التحرر الثقافي" و"النكافؤ الثقافي" ¹ ، و الحماية "التخريب الثقافي" لا يكون إلا من خلال "الإعداد الثقافي" ² ، و حتى يكتمل هذا و نستطيع نقادي ما يحاول الغرب القيام به من تنميط لثقافتنا و هويتنا يجب تحقيق أمران هما "التعارف الثقافي" و"التكامل الثقافي" ³ ، و هنا فقط نستطيع صنع إبداع فكري و ثقافي اساسه الآيات و الرؤية الإلاهية للكون و نخرج من النظرة الضيقة و المغلقة التي حشرتنا فيها الحداثة الغربية التي تدعي الكونية و هي نظرة نسبية ضيقة .

أما عن كيفية تطبيق الحداثة فأركون يعارض الطرح القائل بتطبيق الحداثة العلمية، الوضعية القائمة في العالم الغربي داخل المجتمعات الإسلامية، و بهذا الرفض يلتقي مع المفكر طه عبد الرحمن ، فهو يرى أن هناك تفاوت تاريخي بين العالمي أن الغربي و الإسلامي ، و هذا التفاوت نجده في جميع المجالات و بمستويات متباعدة جدا كالمجال الإقتصادي و الثقافي و العلمي و الإيديولوجي غير أنه يرفض الطرح القائل بإلزامية التقليد و النسخ للتجربة الغربية حرفيا .

أما تطبيقات الحداثة في فكر " طه عبد الرحمن " فهي تختلف عنها في تصور أركون إذ أن طه يؤسس إلى رؤية مغايرة تمام و تنطلق من تصور مبني في الأساس على التركيز في اللبس الذي وقع فيه الفكر الغربي من حيث الخلط بين بين واقع الحداثة وروح الحداثة ، فيقول أنه يتعين أن نبدأ بالتخلص من هذا التشبيء الذي أدخلته هذه التعاريف على مفهوم " الحداثة " ، والسبيل إلى ذلك هو أن نفرق في الحداثة بين جانبين إثنين هما: "روح الحداثة" و"واقع الحداثة" ⁴ ، فروح الحداثة ليست كما يظن الكثير أنها من صنع المجتمع الغربي ، وإنما هي من صنع المجتمع الإنساني في مختلف مراحلها ، وأسباب هذه الروح تمتد في عمق التاريخ الإنساني ، كما أن مبادئ هذه الروح قد تتحقق في مجتمعات ماضية بوجوه تختلف عن وجوه تحققها في المجتمع الغربي الحاضر ، بالإضافة إلى تحققها بوجوه أخرى في مجتمعات أخرى تلوح في آفاق مستقبل الإنسانية ⁵.

ويؤكد " طه عبد الرحمان " أن الحداثة لا تكون إلا عن طريق الإبداع و لا يمكنها أن تكون مع التقليد ، فقام بتأسيس مبادئ نابعة من عمق المجتمع الإسلامي و ثقافته فحددها في ثلاثة مبادئ أساسية ، كان أولها مبدأ النقد هو المبدأ الذي يجعل الإنسان أن ينطلق من المعرفة الخالية من الأدلة إلى المعرفة المبني على الأدلة فيقول " طه عبد الرحمن " : (ومقتضى هذا المبدأ هو أن الأصل في الحداثة هو الانتقال من حال الاعتقاد إلى حال الإنتقاد والمراد " بالإعتقاد " هنا هو التسليم بالشيء من

¹ طه عبد الرحمن ، الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري، المركز الثقافي العربي، ط 1، 2005، ص 90.

² المصدر نفسه، ص 91-90.

³ المصدر نفسه، ص 93-94.

⁴ المصدر نفسه، ص 24 .

⁵ المصدر نفسه ، ص 30 .

غير وجود دليل عليه ومقابله هو " الإنتقاد " فيكون حده هو المطالبة بالدليل على الشيء كي يحصل التسليم به)¹ ، ويرى " طه عبد الرحمان " أن هذا المبدأ يقوم على ركنين أساسيين هما : التعقيل أو العقلنة و التفصيل أو التفريق ، و حسب " طه عبد الرحمان " إن التطبيق الغربي لمبدأ النقد الحدائى يقوم على التعقيل الآداتى الضيق وعلى التفصيل الجوهري البنيوي المطلق ، أما التطبيق الإسلامى لمبدأ النقد الحدائى فيقوم على التعقيل الموسع وعلى التفصيل الوظيفى أى التفصيل الموجه ، أما المبدأ الثانى هو مبدأ الرشد الذى يتفق مع التصور التداولى الإسلامى و الرشد هو الإنتقال من حالة القصور إلى حالة البلوغ ، أما القصور فهو الإنطباع للآخرين فى كل شيء، و أما الأشخاص الخاضعين لتأثير الحدائى الغربية فلم تتحقق لديهم مبدأ الرشد، و بالتالى لم تتحقق فيهم الحدائى الحققة، كونهم غارقين فى التقليد والتبعية وينقصهم الإبداع، ولعل الجواب الذى قدمه " كانط " فى سؤاله ما الأنوار؟ يعتبر النموذج الذى من خلاله يبصر المرء ضرورة إستخدام فكره دون إشراف الغير عليه، مع تحمل كامل مسؤولية الفعل ، ويحتوى مبدأ الرشد على ركنين أساسيين هما : الإستقلال والإبداع ، فالإستقلال هو التحرر من كل وصاية ، حتى يستطيع الإنسان تحقيق ذاتيته فى التأمل والتفكير ، أما الإبداع فهو أن (يسعى الإنسان الراشد إلى أن يبدع أفكاره و أقواله و أفعاله وكذا أن يؤسس هذه الأفكار و الأقوال و الأفعال على قيم جديدة يبدعها من عنده أو على قيم سابقة يعيد إبداعها ، حتى كأنها قيم غير مسبوقة)² ، وقد نجد أن لركن الإستقلال معاني كثيرة أهمها المعنى السياسى والذى يرى فيه " طه عبد الرحمن " عندما يندفع المسلم إلى معرفة سبل رفع مظاهر المحاصرة المضروبة على دعوة العودة إلى الإسلام هي فى الحقيقة محاصرات ثلاثة : محاصرة خارجية أى حصار غير الداعية للداعية ، ومحاصرة داخلية أى حصار الداعية للداعية ، ومحاصرة ذاتية أى حصار الداعية لنفسه ، فوجب عليه أن يطلب بأقصى السبل الكفيلة لدفع هذه المحاصرات المختلفة)³ أما المبدأ الثالث الشمول هو أساسى يقوم عليه التطبيق الغربى لروح الحدائى، ومعناه الإنتقال من حال الخصوص إلى حال العموم، أو من مجال الجزئية إلى مجال الكلية فالحدائى الغربية من حيث إتسامها بالشمول تستوجب تجاوز الخصوصية ، و مبدأ الشمول فى التطبيق الحدائى الغربى يقوم على مبدئين هما: التوسع المادى و التعميم البشرى ، فالتوسع المادى معناه إعتبار الأمور و الوسائل المادية قبل كل شيء ، والتعميم البشرى أى إمتداد آثار الحدائى إلى الجنس البشرى لوحده ، غير أن " طه عبد الرحمان " يرى أن هناك مبادئ افضل لمبدأ الشمول أرقى ، إذ أكد على أن آلية التطبيق الإسلامى لمبدأ الشمول المفروض أن تقوم على ما يلي التوسع المعنوي والتعميم الوجودي .

¹ المصدر نفسه ، ص 26 .

² المصدر نفسه ، ص 26 .

³ المصدر نفسه، ص 180 .

و هنا يصل " طه عبد الرحمن " إلى أن الأخلاق أساس التجديد الديني و الممارسة الفكرية ، وهذا عكس ما يقوم به المفكرون العرب و الذين إبتعدوا (عن الجانب الروحي من الممارسة الإسلامية وإنساق إلى إيلاء كل عنايته للجانب المادي من هذه الممارسة ، مثل الجانب السياسي والجانب الإقتصادي)¹ ، فالحدثة إذن لا تكون إلا عن طريق الإبداع .

1 طه عبد الرحمن ، سؤال الأخلاق (مساهمة في النقد الإخلاقي للحدثة الغربية) ، المركز الثقافي العربي ، الطبعة 1 ، سنة 2000 ، ص 191 .

القيم بين البرجماتيين والوضعيين المناطقة وليم جيمس والفريد آير نموذجاً

د. غيضان السيد علي*

بالرغم من أن الفلاسفة ناقشوا منذ القدم موضوعات قيمة مثل الخير والحق والفضيلة والعدالة والجمال والصدق... الخ، إلا أن التصور العلمي الدقيق لمبحث القيم لم يتبلور إلا في الفلسفة المعاصرة؛ حيث يعد البحث في " القيم " من أحدث فروع الفلسفة وأكثرها تطوراً وانتشاراً في الفلسفة المعاصرة، وذلك مقارنة بمبثني الانطولوجيا والأبستمولوجيا؛ حيث شهد العقد الأول من القرن العشرين أول بحث أكسيولوجي منظم، كتبه الأمريكي أيربان W.M.Urban (*) تحت عنوان التقييم Valuation عام 1909، وشغل هذا الفيلسوف بمشكلة القيم التي اعتبرها بأنها ليست مشكلة نظرية؛ بل هي رسالة حضارية تشغل عصره.

وإذا ما أردنا تعريف القيم فإن قيمة الشيء هو قدره ، وقيمة المتاع ثمنه، وقال قيمة المرء ما يحسنه، كما يقال ما لفلان قيمة، أي ما له ثبات ودوام على الأمر (1). ويعد هذا المعنى اللغوي للقيم في العربية قريباً من المعنى المشتق من الفعل اللاتيني Valeo ومعناها في الأصل " أنا قوي " أو أنني بصحة جيدة " أي أنه يشتمل على معنى المقاومة والصلابة وعدم الخضوع للتأثيرات ، وأيضاً على معنى التأثير في الأشياء والقدرة على ترك بصمات قوية عليها(2).

ولا يبعد كثيراً المعنى الاصطلاحي للقيم عن المعنى اللغوي؛ فالقيمة تطلق على كل ما هو جدير باهتمام المرء وعنايته لاعتبارات اقتصادية أو سيكولوجية أو اجتماعية أو أخلاقية أو جمالية . فالقيمة بمعناها الواسع هي ما يجعل أي شيء جديراً بأن يُطلب (3). ومن ثم تصبح القيمة هي ما يسعى إليه الفرد على نحو أصلي.

(*) مدرس بكلية كلية الآداب - جامعة بني سويف - جمهورية مصر العربية

(**) ويعد أيربان فيلسوف أمريكي (1873-1952) من أبرز فلاسفة القيم في القرن العشرين ، حيث تناول القيم بالبحث والتحليل طيلة ما يقرب من نصف قرن ، وذلك من خلال كتاباته العديدة، مثل: التقييم، العالم المعقول، الميتافيزيقا والقيمة ،بالإضافة لعدد كبير جدا من المقالات التي نشرها في الدوريات والمجلات الفلسفية المختلفة. وقد شهد فكره تحولات عدة ، فأمن في بداية حياته بالوضعية المنطقية من خلال دراسته في برنستون، ثم نال نحو البرجماتية بتأثير وليم جيمس ، وشعر في فترات أخرى أنه أقرب إلى الواقعية ثم استقر به المقام عند الفيومينولوجيا حيث حاول دراسة القيم دراسة فينومينولوجية.

(1) أنظر : مجمع اللغة العربية" المعجم الوسيط" الجزء الثاني، الطبعة الثالثة 1985، (مادة قيم) ص 798.

(2) جائزة أنور شكري: القيم الأخلاقية بين الفلسفة والعلم، (الإسكندرية ، دار المعرفة الجامعية، 2006) ص 22.

(3) عبد الرحمن بدوي : الأخلاق النظرية ، الطبعة الثانية، الكويت ، وكالة المطبوعات، 1975، ص 90.

أي أننا يمكن أن نطلق لفظ " قيمة " على كل موضوع نرغب فيه، أو كل هدف نسعى إلى بلوغه، أو كل توازن نحرض على تحقيقه، وعلى ذلك فالصحة قيمة من القيم، وكذلك الثروة واللذة والنجاح والسعادة والتكامل النفسي وغيرها⁽¹⁾ .

وقيمة الشيء من الناحية الذاتية هي الصفة التي تجعل ذلك الشيء مطلوباً أو مرغوباً فيه عند شخص واحد أو عند طائفة من الأشخاص . كما يطلق لفظ القيمة من الناحية الموضوعية على ما يتميز به الشيء من صفات تجعله مستحقاً للتقدير كثيراً أو قليلاً، فإن كان مستحقاً للتقدير بذاته كالحق والخير والجمال كانت قيمته مطلقة ، وإن كان مستحقاً للتقدير من أجل غرض معين كانت قيمته إضافية. كما تطلق لفظ القيمة في الأخلاق على ما يدل عليه لفظ الخير ، بحيث تكون قيمة الفعل تابعة لما يتضمنه من خيرية وكلما كانت المطابقة بين الفعل والصورة الغائية للخير أكمل، كانت قيمة الفعل أكبر ، وتسمى الصور الغائية المرتسمة على صفحات الذهن بالقيم المثالية Ideal Values وهي الأصل الذي تبنى عليه أحكام القيمة⁽²⁾ .

والقيم نوعان؛ مادية ومعنوية ، تستعمل الأولى -عادة- في علم الاقتصاد؛ فيقال قيمة السلعة أي سعرها ، ومع ذلك يميز بين القيمة والسعر على أساس أن القيمة حقيقية بينما السعر اعتباري بحسب التراضي بين المتبادلين للسلعة؛ ولهذا تكون القيمة أكبر أو أقل من السعر . بينما يتمثل النوع الثاني من القيم فيما يُعرف بالقيم المعنوية ، وهي تلك القيم التي تشمل القيم العقلية أو المتعلقة بالحق كقيمة البرهان أو قيمة نظرية علمية... الخ . كما تشمل القيم الجمالية أو المتعلقة بالجمال كقيمة لوحة أو قطعة موسيقية أو مسرحية... الخ. كما تشمل أيضا القيم الأخلاقية أو المتعلقة بالخير⁽³⁾ .

ومما تقدم يمكننا الحديث عن خصائص ثلاث للقيم، الأولى إنه ليس للقيمة وجود مستقل؛ لأنها تتجسد دائما في حامل لها ، حال وجوده مختلفة عن حال وجود القيمة، فالمنفعة لا توجد إلا في الشيء النافع ، والأنا لا يدرك هذه القيمة إلا في الفعل الذي به يدرك هذا الشيء على أنه نافع. ولا ندرك الجميل وإنما ندرك الجمال في جسم إنساني أو في منظر طبيعي أو اثر فني.

ما الخاصية الثانية فإن القيمة هي ما هي، وشيء في ذاته، بغض النظر عن الحامل الذي يحملها، فالقيم إذن معان مطلقة، فهذا الدواء نافع بما فيه من منفعة وهذه القطعة الموسيقية جميلة بما فيها من جمال. أما الخاصية الثالثة للقيم وهي أن معرفتنا بها معرفة قبلية بالضرورة، فالإنسان يدرك القيم بنوع من الرؤيا الباطنة، ولكنها ليست رؤيا عقلية، كما في حال إدراكنا للمعاني الكلية، وإنما هي رؤيا وجدانية،

¹.K .Frankena, Encyclopedia of Philosophy, VoL.7,Newyork,1972,Art Art , "Value & Valuation" p.229-232.

⁽²⁾ فائزة أنور شكري: القيم الأخلاقية بين الفلسفة والعلم، ص 24.

⁽³⁾ عبد الرحمن بدوي : الأخلاق النظرية ، ص90-91.

اعني أننا ندرك القيم بنوع من الوجدان أو العاطفة التي نستشعر فيها القيم، وهذا يفسر كون القيم يدركها الطفل كما يدركها الرجل الناضج ، ويدركها الجُهل كما يدركها المثقفون من الخاصة⁽¹⁾.

أما ما مصدر القيم؟ أو من الذي يضع القيم؟ وهو سؤال يطرح نفسه بقوة . فنجد أن الإجابة يمكن أن تقدم في وجهتين من النظر ؛ حيث يرى أصحاب الرؤيا الأولى أن مصدر القيم هو سلطة خارج الإنسان، وينقسمون إلى مذهبين يرى أصحاب المذهب الأول أن واضعها هو سلطة عليا إلهية، وهو مذهب رجال الدين بصفة عامة ، فواضع القيم عندهم هو الله فهو الذي يقرر ما هو حلال وما هو حرام، وما هو خير وما هو شر ، وليس في الأفعال ولا في الأشياء في ذاتها صفة تقويمية ، وإنما الذي يعطيها هذه الصفة هو الشرع الإلهي . وقد نهج هذا النهج في الإسلام أهل السنة والأشاعرة، وفي المسيحية قال به كثير من اللاهوتيين ومن الفلاسفة رينيه ديكارت، وأيضا كيركجور الذي أشرك الإنسان مع الله في وضع القيم. أما المذهب الثاني من أصحاب الرؤيا الأولى التي ترى أن واضع القيم خارج الإنسان وهو المجتمع فيأتي على رأسهم أميل دور كايم الذي يقرر أن المجتمع هو الذي يحدد القيم ويحدد ما هو خير وما هو شر، ما هو جميل وما هو قبيح. أما أصحاب الرؤيا الثانية فهم من يرون أن واضع القيم هو الإنسان نفسه، وهو وحده الذي يحدد ما هو نافع وما هو ضار، ما هو خير وما هو شر ، ما هو حسن وما هو قبيح ، ويمثل هذا الفريق الغالبية العظمى من الفلاسفة⁽²⁾.

ومن أشهر المذاهب الفلسفية التي جعلت الإنسان هو مصدر القيم هو المذهب البرجماتي الذي يقبل القيم الدينية والأخلاقية والجمالية وغيرها لا على أساس صحتها المنطقية وإنما على أساس فائدتها العملية بحيث يصبح الصادق هو النافع عملياً ، والخير والحق كذلك، أي كل ما يحقق نفعاً للناس ويعمل على إشباع رغباتهم وحاجاتهم.

كما أن هناك مذاهب فلسفية أخرى أنكرت وجود القيم واعتبرت العبارات القيمية هي مجرد تركيبات لغوية فارغة تتعارض مع الاستعمال الحقيقي للكلمات من جهة ، وتضم في الوقت نفسه - قضايا زائفة ؛ لأنها لا تقبل التحقق الحسي التجريبي، أما الصحيح والحقيقي عند الوضعيين المناطقة يتحدد بالرجوع إلى عالم الأشياء الواقعية التي يمكن التحقق منها ، ومن ثم تنتفي القيم عندهم.

وقد أثرت في هذا البحث أن ندرس موقف كل من هذين المذهبين من القيم لتشابه موقف كل منهما من الميتافيزيقا ورفض الحقائق العقلية المطلقة؛ حيث هاجم الفريقان الميتافيزيقا هجوماً شديداً ، ولكن الباحث المدقق سيدرك مدى الاختلاف في كيفية رفض كل منهما للميتافيزيقا ، وكيف أن كل منهما قد نظر إلى الميتافيزيقا نظرة مختلفة تماماً عن الآخر، وهذا هو ما سنعمل على بيانه من خلال موقف

⁽¹⁾ المرجع السابق ،ص 93.

⁽²⁾ لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى عبد الرحمن بدوي : الأخلاق النظرية ،ص 94-101.

الفيلسوف البرجماتي وليم جيمس W.Games مقارنة بموقف الفيلسوف الوضعي المنطقي الفرد آير .A.G.Ayer

موقف البرجماتيين من القيم

تعد النزعة الفلسفية البرجماتية أول إسهام أدلى به مفكرو العالم الجديد في البناء الفلسفي المعاصر، ويعرف هذا الاتجاه باسم المذهب العملي أو النفعي أو مذهب الذرائع أو فلسفة الفعل ، وقد تبلورت هذه النزعة على يد ثلاثة مفكرين هم تشارلز بيرس C.H. Peirce ووليم جيمس W.Games وجون ديوي J.Dewy ، ولم يكن هذا الاتجاه - في الحقيقة - مقصوراً على مفكري أمريكا وحدهم بل كان له أنصار كثيرون في أوروبا وفي شتى أنحاء العالم ، ولقد سار في ركاب سيادة أمريكا السياسية والاقتصادية والعسكرية على مناطق كثيرة في عالم اليوم⁽¹⁾.

ولقد هاجم البرجماتيون الميتافيزيقا بوجه عام وبرروا هجومهم هذا بسببين، الأول هو أن التفكير الميتافيزيقي لا يبدي أي اهتمام بما يتصل بسيطرة الإنسان سيطرة كاملة على الطبيعة ، فهي (الميتافيزيقا) تفكير ضال لم يسهم بأي شيء فيما أحرزه الإنسان من تقدم على طريق العلم ومناهجه التجريبية. أما الثاني فهو أن التفكير الميتافيزيقي باهتمامه الزائد ببعض الأمور التي لا تهم الإنسان في حياته الواقعية قد عاق البحث العلمي، وصيغ الفلسفة بصيغة قطعية جامدة ، وأغلق عقول الناس ، وأعاقها عن البحث في العالم الطبيعي لاستخراج ما فيه من إمكانات كامنة.

ولكنهم في الوقت ذاته رحبوا بأية فكرة ميتافيزيقية من شأنها أن تحقق منفعة عملية للإنسان، فمقياس الحق والصواب عند البرجماتيين عموماً في أي مجال سواء في الفلسفة أو الفكر أو الميتافيزيقا أو حتى العقائد هو المنفعة العملية، أو العمل المنتج، فالمنفعة هي المحك الوحيد لصدق الأحكام وصواب الأفكار وليس أي شيء آخر . وهو الأمر الذي سنقف على حقيقته من خلال فيلسوف البرجماتية الأشهر وليم جيمس.

القيم عند وليم جيمس

في الحقيقة تندرج رؤية وليم جيمس للقيم تحت إطار فلسفته العامة؛ حيث تميزت فلسفة جيمس بصفة عامة بنزعة تجريبية منظرية تريد أولاً وقبل كل شيء أن تعمل على مناهضة سائر النزعات المثالية التي اشتطت في التفكير المجرد حتى انقطعت صلتها بالواقع، فيقول جيمس واصفاً نزعته العملية إنها عبارة عن : "الاتجاه الذي يصرف النظر عن الأمور الأولى ، والمبادئ ، والمقولات، والضرورات المفروضة ، لكي يتجه ببصره نحو الأمور النهائية والآثار، والنتائج، والوقائع"⁽²⁾. كما تعمل -ثانياً- على رفض تلك الفلسفات المطلقة التي تقول بالثبات أو بالجواهر الثابتة ؛ لأنه يرى أن نحيا في عالم

⁽¹⁾ محمد عبدالله الشراقوي، أحمد جاد محاضرات في الفلسفة العامة، القاهرة، المجموعة المتحدة للنشر، 1995-1996، ص 171.

⁽²⁾ نقلاً عن زكريا إبراهيم : دراسات في الفلسفة المعاصرة، الجزء الأول، القاهرة ، مكتبة مصر ، د.ت، ص 31.

متغير لا سبيل إلى تشبيهه بعالم المثل أو الصور المحضة التي لا تعرف التغير أو الصيرورة أو الزمان⁽¹⁾. وعلى ذلك ارتبطت القيم عنده بالواقع العملي واتصفت بالتغير والنسبية. فليس المنهج البرجماتي عند جيمس مذهباً محددًا، بل هو عبارة عن منهج مرن يمكن أن يصلح لفلسفات عديدة متباينة، وما نسميه بالنظرية في رأي هذا المنهج إنما هو عبارة عن أداة للبحث ، لا إجابة حاسمة عن المشكلة ، بحيث يمتنع بعدها كل بحث . فليست النظريات الفلسفية بمثابة منومات تسمح لنا بأن نركن إلى السكون والدعة ، بل هي أدوات يجب أن نستعين بها في التغيير من صفحة هذا العالم ، وبعبارة أخرى، فإن النظريات ليست سوى ذرائع أو وسائل تعبر عن تكيف الفكرة مع الواقع، دون أن يكون في ذلك أي كشف عقلي مجرد أو أي حل نظري خالص⁽²⁾.

أي أن وليم جيمس لم يبدأ بتحديد المثل العليا التي يدعونا للجهد من أجل تحقيقها ، وإنما ترك لكل فرد أن يفهم هذه المثل على قدر استطاعته، واكتفى هو بالتوجيه فحسب، فهو - على سبيل المثال - لم يضع مبادئ عامة لنظرية أخلاقية لها بداية محددة ونهاية واضحة، ومن ثم كانت الحياة الأخلاقية عنده في نمو متصل ولا ينبغي للفرد أن يحاول حصرها في مذهب مغلق صارم⁽³⁾.

ولذلك يمكننا القول بأن وليم جيمس يرفض نظريات القيم العقلية المطلقة، والتي تقدم نظريات مذهبية محددة ومغلقة؛ فهو ينكر - على سبيل المثال - علم الأخلاق العقلي المطلق الذي يتضمن مواظ وإرشادات عن النضال وترك الرذائل، أو تلقي الإنسان لقواعد خالدة وقوانين ثابتة، فهو يرى أن مثل هذا العلم لا معنى له، وإنما المصدر الحقيقي لعلم الأخلاق - من وجهة نظره - هو الإنسان ، ذلك الكائن الخلفي الوحيد في العالم. ولذلك كان الإنسان هو مصدر الخير والشر والفضيلة والرذيلة، ومن ثم فهو مصدر القيم ومنبعها، ولذلك يقول جيمس: "إن الإنسان هو الخالق الوحيد للقيم في ذلك العالم وليس للأشياء من قيمة خلقية إلا باعتباره هو"⁽⁴⁾.

وما دام الإنسان هو مصدر القيم عند جيمس ، فإن القيم بمختلف صورها خلقية أو جمالية أو منطقية أو اقتصادية تعتبر عند جيمس وأتباعه من البرجماتيين نسبية تتوقف على الأغراض التي تستهدفها، إذ أنها مجرد وسائل لتحقيق غايات قيمة في ذاتها، هي الخيارات بوجه عام. ومن هنا تحددت نظرتهم النفعية للقيم عموماً. وهنا نلاحظ أن البرجماتيين قد اتفقوا مع السفسطائيين في رد القيم إلى الإنسان، لكنهم خالفوهم في جعل الإنسان وليس الفرد معيار هذه القيم، فقصدوا بهذه التجربة الإنسانية، وهي تجربة تصطبغ في نهاية المطاف بصبغة اجتماعية. هذا إلى أن البرجماتيين قد صنفوا المنافع فكان

(1) المرجع السابق، ص 26.

(2) المرجع السابق، ص 31.

(3) محمد فتحي الشنيطي: وليم جيمس، القاهرة: مكتبة القاهرة الحديثة ، الطبعة الأولى ، 1957، ص 181-184.

(4) محمود زيدان: وليم جيمس، القاهرة: دار المعارف، 1958، ص 182-183.

منها العليا ومنها الدنيا، وفي ضوء هذه التفرقة ميزوا بين قيم الأفعال وفق اختلافها فيما يترتب عليها من وجوه النفع⁽¹⁾.

ومن ثم يمكننا القول إن ماهية الخير عند البرجمانيين تقوم في مجرد إشباع المطالب الإنسانية ، وتحقق الخير إنما يكون بالنجاح في تجربة من تجاربنا في الحياة . ولذلك يرى جيمس أننا كثيراً ما نضطر في حياتنا إلى إتيان أعمال لا يكون لدينا أساس نظري يبررها، بل إننا حين لا نأتي عملاً يجيء توقفنا عن العمل نتيجة لحكم صدره وقد لا يجد له العقل النظري مبرراً.

موقف وليم جيمس من القيم الأخلاقية والدينية

يعد موقف وليم جيمس من القيم امتداداً لموقفه الاستمولوجي ، حيث يقول في كتابه " البرجمانية " : " إذا أردنا أن نحصل على فكرة واضحة لموضوع ما ، فليس علينا إلا أن ننظر إلى الآثار العملية التي يظن انه قادر على أن يؤدي إليها النتائج التي ننتظرها منه ورد الفعل الضار الذي ينجم عنه، والذي يجب أن تتخذ الحيطة إزاءه، وإذا كانت الصورة العقلية التي لدينا عن هذا الموضوع ليست حقاً صورة جوفاء فإنها ستتحل في نهاية الأمر إلى مجموعة هذه الآثار العملية التي نتوقعها منه ، سواء منها الآثار القريبة المباشرة أو البعيدة"⁽²⁾.

أي أن الحقيقة عنده ليست إلا ما يقودنا إلى النجاح في الحياة ، والمعتقدات الصحيحة هي وحدها التي تنتهي بنا إلى تحقيق أغراضنا الفعلية؛ وذلك لان الحق لا يوجد أبداً منفصلاً عن الفعل أو السلوك، بل هو نفسه ليس إلا صورة من صور الفعل أو العمل الناجح ، فنحن لا نفكر في الخلاء إنما نفكر لنعيش، وعلى ذلك فإن أفكارنا ومعتقداتنا ليست إلا وسائل لتحقيق أغراضنا في الحياة ، فالعقل كله في خدمة الحياة أو السلوك العملي، وليست ثمة حقيقة مطلقة بل هناك مجموعة متكثرة من الحقائق التي ترتبط بمنافع كل فرد من في حياته، ولا وجود لفكرة حقيقية في ذاتها؛ لأن الفكرة تصبح حقيقة عن طريق آثارها، ومعنى ذلك - فيما يقرره جيمس - أن الحقيقة تقبل على الفكرة وليست باطنة فيها ، فالحقيقة ليست سوى حدثاً يقبل على الفكرة. بل أن صحة أي معتقد أو فكرة ليست راجعة إلى حقيقة باطنة في المعتقد بل في ما يترجمه المعتقد من أثر عملي أو سلوكي، وهذا ما يعبر عنه بمفهوم قيمته المنصرفة فوراً Its Cash Value⁽³⁾. خلاصة القول: أن الفكرة الصادقة عند جيمس والبرجمانيين عموماً هي التي تؤدي إلى النجاح في الحياة العملية.

وانطلاقاً من هذا الموقف الإستمولوجي للبرجمانية عن جيمس يكون موقفه من القيم الدينية والأخلاقية. فالبرجمانيون عموماً يقبلون القيم الدينية والأخلاقية ، لا على أساس صحتها المنطقية وإنما

(1) توفيق الطويل مذهب المنفعة العامة في فلسفة الأخلاق، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ط1، 01، 1953، ص 263.

(2) نقلاً عن يحيى هويدي مقدمة في الفلسفة العامة، القاهرة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الطبعة 9، د.ت، ص 157.

(3) المرجع السابق، ص 157.

على أساس فائدتها العملية في تنظيم العلاقات الاجتماعية بين الناس، وما لها من أثر طيب في حياة الأفراد .

ومن ثم يدرس وليم جيمس القيم الدينية من وجهة نظر الحاجات الإنسانية ذاتها، فلا يشغل نفسه كثيراً بالبحث عن أدلة لإثبات وجود الله تعالى، وإنما هو يمضي مباشرة إلى الوقائع ، فيجعل نقطة بدئه هي "التجارب الدينية" نفسها. ولا يتحدث جيمس عن "التجربة الدينية" على العموم ، بل هو يتحدث عن تجارب دينية عديدة ، لأنه يرى أن للتجربة الدينية صوراً بعدد الأفراد المتدينين⁽¹⁾ . وانطلاقاً من هذا الموقف يمكننا أن نفهم تلم المقولة التي وردت في كتاب جيمس عندما سئل عن الدين فقال: "لست أدري هل هو حقيقي أم لا؟ ولذا سأضعه موضع التجربة"⁽²⁾ .

ولذلك فهو لا ينظر إلى الدين باعتباره طقوساً أو فرائض وإنما ينظر إليه باعتباره شعوراً أو عاطفة، فعلى الرغم مما يكتنف التجربة الدينية من قلق وصراع وأزمات نفسية ، فإن من المؤكد أن شعور النفس بوجود قوة عليا تستطيع أن تجد لديها العوثر والعون من شأنه أن يأخذ بيدها دائماً في هذه الحياة. والدين عند جيمس أمر شخصي في جوهره ، وليس من المهم أن نعرف الأسس النظرية التي يقوم عليها عقائد الدين، بل المهم أن نقف على ثماره ونتائجها، وذلك على مستوى الدين كله من أعلى قمته وهو "الله" سبحانه وتعالى إلى آخر ما يمكن أن نعتبره أمراً دينياً، فالله - عندهم - كما يقول جيمس في كتابه البرجماتية: " إذا كان فرض الله يعمل عملاً مشعباً بأوسع معنى للكلمة ، فهو صادق، وذلك لأن البرجماتية لا تتبذ أي فرض إذا كانت هناك نتائج مفيدة للحياة كامنة فيه"⁽³⁾ .

ومن ثم فإن الرجل المتدين (أياً ما كان إيمانه الديني) يشعر بأن علاقته بذلك الموجود الأعلى الذي يتعلق به هي مصدر قوته وطاقته ورجائه في الحياة، وهو لهذا يستمد من تلك العلاقة نفسها سعادة وسلاماً وغبطة روحية ما كان يمكن مطلقاً أن يحصل عليها من طريق آخر؛ ولذلك فلا مجال لإنكار وجود الله طالما أن وجوده له فائدة عملية يمكن أن تخلع على نظرتنا إلى الكون شيئاً من الاتساع والعمق، فضلاً عن أنها تجعل الكون أقرب إلينا وأكثر تألفاً معنا . هذا بالرغم من أن جيمس يعتقد أن الله- سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً- شخصية متناهية لا تحيط علماً بكل شيء كما أنه ليس خارج عن العالم أو متعال بل هو جزء من الكون، يحارب الشر مع البشر الأخيار، فهو كائن خير يمدنا دائماً بمعونته للتغلب على الشر والأشرار، فهو دائماً ما يعيننا ويشد من أزرنا وأنه يوقظ فينا أعلى الإمكانيات وأسماها .

¹W.James: Varieties of Religious Experience Pragmatism, Meridian Books, New York, 1959, p.477

² Ibid, p.29-30.

³ محمد عبدالله الشرفاوي، أحمد جاد: محاضرات في الفلسفة العامة، ص 174.

كما أنه يرى أن الله في حاجة إلينا حيث إنه يستمد من ولائنا وإخلاصنا عظمة وجوده ومقومات بقائه! كما لا يرفض جيمس الشرك أي وجود آلهة أخرى مع الله، انطلاقاً من فكرته عن تناهي الله، والتي لا تمنع القول بوجود آلهة أخرى تتمتع بدرجات متفاوتة من الحكمة والفهم !! يعملون جميعاً على قدم وساق بغية الوصول إلى تحسين هذا الكون !!

خلاصة القول يقبل جيمس وأتباعه البرجماتيين كل القيم الدينية مادام لها فائدة عملية في حياة البشر. الأمر نفسه في القيم الأخلاقية حيث ذهب جيمس وسائر البرجماتيين إلى أن المبادئ الخلقية متى ثبتت منفعتها في دنيا الواقع ، فسيان بعد هذا أن تصمد لنقد العقل المحض أو تتهار أمامه، فقيمتها مصونة طالما أثبتت التجربة منفعتها في حياتنا الدنيا.

ولكن يجب أن نأخذ في الاعتبار أن جيمس ومعهم البرجماتيين لا يبررون الفعل الذي تكون له ثماره المفيدة رغم أسائل بلوغه غير أخلاقية، أي أنهم لا يقفون موقف الميكيافيليين الذين تبرز الغاية عندهم الوسيلة، فلا يمكن أن يقبل وليم جيمس -كفيلسوف أخلاقي- الوسائل الشريرة إذا ما حققت أغراضاً نفعية في الحياة العملية، فمعيار الأخلاقية عندهم تتمثل في أخلاقية الوسائل والنتائج معاً، وإلا كان نجاح الطالب عن طريق الغش فعلاً أخلاقياً خيراً عند البرجماتيين، وهذا غير صحيح . وتبقى البرجماتية علماً على إلزام إنساني بالاتجاه إلى العمل ، وإلى النفع العملي، ففي ذلك خير كله، والابتعاد عن المجردات وفيما لا تحته عمل كالميتافيزيقا والغيبيات حتى الدين، فإنه ينظر إليه على مقدار ما يوتي من ثمار عملية على الإنسان، وكذلك تكون الأخلاق وسائر القيم لا تقوم على العقل النظري، بل تقوم على العمل وتوجيه النظر إلى الثمرات، النتائج، الآثار ، الوقائع ، الحقائق العملية، فالمنفعة العملية هي مقياس كل حق ، والصدق مرادف للمنفعة العملية، والتفكير الصادق هو النافع عملياً ، والخير والحق كذلك كل ما يحقق نفعاً للناس ، ويعمل على إشباع حاجتهم ورغباتهم مع توخي شرعية الوسائل.

موقف الوضعيين المناطق من القيم

لئن كان القرن التاسع عشر قد شهد وضعية " أوجيست كونت" فإن القرن العشرين قد شهد وضعية جديدة سميت بالوضعية المنطقية ، أو التجريبية المنطقية ، أسفرت عن وجهها في الكتاب الذي أصدره كل من رودلف كارناب R. Carnap ونيوارث Neurath وهان Hahn بعنوان " حلقة فينا: تصورها العلمي للعالم" ومن رواد هذه الحلقة شليك وبرجمان وفيجل ونيرا وويسمان.

وقد حبس مفكرو هذه الحركة أنفسهم في دائرة الحس أو في دائرة التجربة الحسية، وذلك تحت تأثير العناية الفائقة بالمنهج العلمي التجريبي، فقد أبوا إلا أن يظل العقل الإنساني سجين ساحتي الحس والتجربة لا يبرحهما. وعلى ذلك فهم لا يرون إلا المحسوس، أما الفكر فهو أفاظ ، وكل لفظ لا يشير إلى شيء محسوس يمكن التحقق والتثبت منه بالتجربة الحسية ، فهو لا يحمل أي معنى ؛ ومن ثم لا قيمة له. فالفلسفة عندهم مجرد منهج للبحث هدفه التحليل المنطقي للغة التي نستخدمها في حياتنا اليومية أو التي يستخدمها العلماء في مباحثهم العلمية ، رغبة في إزالة اللبس والغموض الذي يعترى الأفكار ، وبيان

عناصرها حتى تبدو واضحة جلية متميزة. فالفلسفة عندهم ليست بحثاً في حقيقة الوجود ، أو طبيعة المعرفة ، أو القيم الخلقية والجمالية (1).

ومن ثم قام الوضعيون المناطقة بتقسيم عبارات اللغة إلى قسمين :

القسم الأول: يهتم بالمعنى المعرفي والواقعي أو ما يمكن أن نصفه بالمعنى الوصفي

القسم الثاني : وهو يهتم بالمعنى الانفعالي أو التعبيري للعبارات.

وأكد الوضعيون المناطقة على ضرورة عدم الخلط بين التعبيرات ذات الفحوى الانفعالي وبين التعبيرات ذات المعاني المعرفية على الأصالة⁽²⁾. فالأولى ليست سوى مجرد تعبيرات عاطفية انفعالية ولا تنطوي على دلالات منطقية، فهي تعبر عن أشباه قضايا زائفة لا سبيل إلى التحقق من صحتها أو كذبها تجريبياً، ويندرج تحت هذا الحكم سائر قضايا القيم بشتى أنواعها سواء كانت قيم جمالية أو دينية أو أخلاقية أو فنية... الخ. وسيوضح هذا الموقف عند الفيلسوف الانجليزي " الفرد جولد آير" الذي يعد - من بين جميع الفلاسفة الوضعيين المناطقة - أكثرهم شهرة وديوعاً بين متخصصي الفلسفة في العربية.

القيم عند الفرد آير

تعد نظرة آير للقيم امتداداً لنظرته الإستيمولوجية؛ حيث انه يرى أنه لا بد للفلسفة من أن تتخلى عن مهمة بناء المذاهب الميتافيزيقية ، وان تدع للعلم التجريبي مهمة البحث في الظواهر التجريبية ، لكي تقع هي بتحليل اللغة وإيضاح معرفتنا التجريبية بترجمتها على قضايا تنصب على "المضامين الحسية Sense-contents". فليس من شأن الفلسفة - في نظر آير - أن تتعدى التحليل المنطقي للمفاهيم والرموز العلمية ، بل لا بد لها أن تقف عند حدود المعطيات الحسية ، حتى تكشف لنا عن " قيمة الصدق " في التركيب اللغوي ، بالرجوع إلى إمكانية التحقق التجريبي⁽³⁾.

ومن ثم فإن آير يساير جماعة الوضعيين المناطقة التي تحصر الجهد الفلسفي كله في نطاق الألفاظ والتعريفات ، لكي يحلل العبارات ويميز بين ما يعبر منها عن معنى انفعالي زائف أو معنى حسي تجريبي حقيقي. وبناءً عليه يرفض آير الميتافيزيقا والقضايا العقلية المطلقة وكل ما يحاول أن يتجاوز دائرة المحسوس، وذلك طبقاً لمبدأ التحقق الذي يرفض أي قضية لا يمكن التحقق منها واقعياً⁽⁴⁾. ويطلق على مثل هذه القضايا " أشباه قضايا، فيرى أن: كل قضية لا يمكن التحقق من صحتها بالرجوع إلى الوقائع الملاحظة هي شبه قضية! وبما أن القضايا الميتافيزيقية هي مما لا يمكن التحقق من صحته

(1) المرجع السابق، ص 168.

(2) محمد محمد مدين: الحركة التحليلية في الفكر الفلسفي المعاصر - بحث في مشكلة المعنى، القاهرة: سلسلة دراسات في الفلسفة المعاصرة، الكتاب الثاني، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، د.ت، ص 117.

(3) زكريا إبراهيم: دراسات في الفلسفة المعاصرة، ص 191-192.

(4) A.J. Ayer :Language ,Truth and Logic, second edition ,London, Gollanez ,1946.p.35.

بالرجوع إلى الوقائع الملاحظة؛ إذن فالقضايا الميتافيزيقية هي أشباه قضايا، وهي عبارة عن لغو فارغ لا معنى له (1).

وقد شعر آير أنه بحاجة إلى مراجعة مبدأ التحقق الحسي التجريبي الذي سيطيح بكل الحقائق غير الحسية ، فأخذ يخفف من وطأة هذا المبدأ بأن فرق بين التحقق القوي الذي أخذت به حلقة فينا، وهو الذي لا يعترف بصحة أي قضية ما لم يتم التحقق من صحتها بطريقة حاسمة قاطعة ، وانتصر لمبدأ التحقق الضعيف الذي يكفي فيه أن تكون العبارة ذات معنى ، أن يكون في إمكان التجربة إثبات احتمالها(2). ولكنه خشي أيضا من دخول العبارات الميتافيزيقية عبر باب التحقق الضعيف فاخذ في الطبعة الثانية من كتابه " اللغة والحقيقة والمنطق" أن يضع شروطا أكثر صرامة وأكثر تحديدا تحول دخول عبارات الميتافيزيقا أو غيرها مما لا يخضع لمبدأ التحقق.

موقف آير من القيم الأخلاقية والدينية

اعتبر آير أن أحكام القيمة وشتى الأحكام الأخرى التي تنص على واجبات لا يمكن أن تعد أحكاماً صادقة أو كاذبة ، بل هي مجرد أقوال تعبر عن مشاعر المتكلم. كما يرفض آير وجهة نظر الفلاسفة النفعيين الذين فسروا الألفاظ الأخلاقية بقولهم إنها تمثل بعض الخواص التجريبية ؛ لأنه يرى أن ألفاظ " الخير " و " الشر " و " الصواب " و " الخطأ " ، ليست ألفاظاً تنطوي على معنى وصفي بحت. فالتصورات الأخلاقية الأساسية هي تصورات لا تقبل التحليل . فليس هناك ثمة معيار يمكن به اختبار صحة الأحكام ، ومن ثم تصبح قضايا لا تقبل التحقق، وبالتالي فإنها ستكون فارغة تماما من كل معنى . وبصير الأدنى على الصواب عند آير أن يقال إن وظيفة الألفاظ الأخلاقية هي مجرد التعبير عن انفعالات المتكلم، والعمل على توليد انفعالات مماثلة لدى الآخرين . ويضرب آير لنا مثلاً لذلك فيقول: "إنني حينما أقول لأحدهم : " إنك قد أخطأت حين سرقت هذا المال " . فإنني لا أقرر شيئا أكثر مما لو أنني قلت له: " إنك قد سرقت هذا المال". وحين أضفت على ذلك أن هذا الفعل خاطئ ، فإنني لم اخبر بشيء جديد عن ذلك الفعل، بل إن كل ما هنالك أنني أظهرت بوضوح استهجاني له . وهذا ما كان في وسعي أن افعله، لو أنني اقتصررت على مجابته بقولي: " إنك قد سرقت هذا المال " مستخدماً في قولي لهجة الاستهجان أو الاستكار ، أو لو أنني اقتصررت على كتابة هذه الجملة مع إضافات بعض علامات تعجب إليها (3).

ومن ثم فإن قضايا القيم الأخلاقية ليس لها أي معنى على الإطلاق في نظر الوضعيين المناطقة؛ لأنني عندما أزعم أن فعلاً ما صواب أو خطأ فإنني لا أقرر أية عبارات واقعية ولا حتى قضية

¹ Ibid,p.45

² Ibid,p.38.

³ Ibid,p.107.

تتعلق بحالتي الذهنية. إن كل ما أقوم به هنا لا يزيد عن كون أنني أعبر فقط عن عواطف ومشاعر خلقية معينة، وإن المرء الذي يختلف في تعبيره معي يعبر بدوره عن عواطفه الخلقية، ومن ثم فليس هناك معنى على الإطلاق للسؤال عن كون منا على صواب، وذلك لأن كلاً منا لا يؤكد قضية أو حكماً أصيلاً .

بيد أن من الجدير بالذكر أن نوضح أن آير حين يذهب إلى القول بأن الأحكام الأخلاقية انفعالية ، لا وصفية، وإنها تعبيرات إقناعية عن بعض المواقف أو الاتجاهات، لا عبارات تقريرية تصف بعض الوقائع ، وإنها بالتالي لا يمكن أن تعد صادقة أو كاذبة ، فإن قوله هذا لا يعني بأي حال من الأحوال أنه ليست ثمة خير أو شر، أو أنه ليست ثمة صواب أو خطأ ، أو أنه لا أهمية على الإطلاق لما يفعله الإنسان . وكل ما هنالك أن آير يريد أن يفصل معايير وأحكامه الأخلاقية الخاصة، عن تحليله الفلسفي للأحكام الأخلاقية، لكي يبين لنا أن للعبارات الأخلاقية طابعها الخاص الذي يفصلها تماماً عن شتى العبارات الوصفية القائمة على الواقع⁽¹⁾.

ويتصل موقف آير من العبارات أو القيم الأخلاقية بموقفه من العبارات الدينية أو اللاهوتية، وهو يميز بين ثلاثة مواقف ، ويرى ضرورة عدم الخلط بينهم . وهذه المواقف هي "الموقف الديني" و "الموقف اللادري" و "الموقف الإلحادي". فيرى أن السمة الأساسية في الموقف اللادري هي أن يتصور أن "وجود إله" يمثل "إمكانية" ، بمعنى أنه لا يوجد في تصوره أسباب وجيهة للإيمان بوجود الله أو عدم الإيمان بوجوده. أما السمة الأساسية في موقف "الملحد" فهي أنه يأخذ بإمكانية "عدم وجود الله". وهنا يقرر آير أن كل العبارات التي تقال عن طبيعة "الله" هي في حقيقتها عبارات "لا معنى لها" . ومن ثم فإن نظريته لهذه العبارات لا تتطابق - بحال - مع أي من هاتين النظريتين ، ولا تقدم دعماً لإحداهما دون الأخرى ، وإنما هي - في الحقيقة - متعارضة معهما؛ لأنه إذا ما كان التقرير الذي يقول " بوجود إله" تقريراً لا معنى له ، فإن تقرير الملحد الذي يقرر فيه أنه "لا يوجد إله" هو - بالمثل - تقريراً لا معنى له، طالما أنه لا يزيد عن كونه تقرير يناقض التقرير الأول. أما فيما يتعلق بموقف اللا أدري فنستطيع أن نقول أنه بالرغم من امتناعه عن تقرير " وجود إله" أو " عدم وجود إله" فإنه لا ينكر أن السؤال عما إذا كان يوجد إله مفارق أم لا ، سؤال له معنى أو سؤال أصيل . فهو لا ينكر أن العبارتين " يوجد إله مفارق" و " لا يوجد إله مفارق" يعبران عن قضايا إحداهما صادقة بالفعل والأخرى كاذبة. فكل ما يقوله: إننا لا نملك وسائل تمكننا أن نقرر أيهما هي القضية الصادقة وأيها هي القضية الكاذبة، ومن ثم لا يجب أن نلزم أنفسنا بإحداهما. ولكننا قد تبين لنا كيف أن هذه العبارات لا تعبر بحال عن قضايا مما يعني أن نستبعد - بالمثل - النزعة اللادرية أيضاً. وينطبق على موقف " الملحد" ما ينطبق على موقف " الأخلاقي "

(1) المرجع السابق، ص 305.

فتأكيداته ليست " صحيحة " أو " غير صحيحة " . فطالما لم يخبر بشيء عن العالم ، فلا يمكن إدانته بأنه يقول شيئاً كاذباً أو شيئاً لا يملك عليه أدلة كافية⁽¹⁾ .

ومن ثم ينتهي آير إلى القول بأن العبارات الدينية هي عبارات لا تخضع لمبدأ التحقق ، ومن ثم تبقى عبارات فارغة من المعنى ، ولا يمكننا أن نحكم عليها بالخطأ أو الصواب .

نتائج البحث

وهكذا قدم فلاسفة البرجماتية وعلى رأسهم وليم جيمس " القيم " قرباناً لمنهجهم الإبستمولوجي الذي جعل الحقيقة هي القيمة العملية الفورية للفكر، فبدلاً من أن يتساءل عن مصدر الفكرة، ومن أين جاءت أو استمدت ؟ أو ما هي مقدماتها؟ فإنه يفحص نتائجها ويتجه إلى نتيجة الشيء وثمرته، بحجة تحويل الفكر من الاتجاه ناحية الماضي إلى توجيه دفته إلى العمل والمستقبل. متناسياً تلك الصعوبات العقلية الكبيرة التي تتطوي عليها هذه النظرية ، فهي تفترض أن اعتقاداً ما، أو فكرة ما تكون صادقة صحيحة إذا كانت الآثار العملية المترتبة عليها نافعة أو مفيدة... ولذلك لن تصبح حقيقة تصور ما - منذ الآن - يقينية إلا بعد الحدوث. ويتحتم علينا أن ننتظر نتائج الفكرة حتى يمكننا الحكم عليها، وكذلك يجب علينا أن نعرف أولاً: ما هو الخير النافع ؟ وثانياً: ما هي آثار هذا الاعتقاد أو ذلك، علينا أن نعرف ذلك قبل أن نعرفها .. والنتيجة - كما يرى رسل - تعقيد لا يصدق. كما أن نظرة البرجماتية إلى الله على أنه ليس إلا واحداً بين معاونين كثيرين في وسط جمهرة من صانعي مصير العالم غير مقبول بناتاً ، وتستلزم البرجماتية كذلك نسبية القيم والأخلاق والعقائد والأفكار ، كما أن قول جيمس بأنه لا بد للفكرة أن يكون لها رصيد وإلا تكون زائفة.. إنه استهتار واستخفاف بالله والدين والأخلاق.

وكما انطلق البرجماتيون في دراسة القيم من نفس المنهج الذي تناولوا به نظرياتهم الإبستمولوجية، كذلك كان الوضعيون المناطقة، فقد قدم كل منهما كثيراً من الإشكالات الفلسفية وعلى رأسها القيم " قرباناً " للمنهج ، الأمر الذي يمكن أن نطلق عليه أزمة القيم في الفكر الغربي المعاصر وفاتهم أن الفلسفة- مثلها مثل أي بحث تأملي جاد- إنما تتخلق وتعرف بمشكلاتها. ومشكلاتها ليست عرضية وإنما ضرورية، فهي أصيلة في طبيعة الخبرة الإنسانية ، ومن ثم فإنني إذا اكتشفت أن منهجي الذي أحاول به الوصول إلى حلول لهذه المشكلات هو منهج قاصر ، وإذا أخفق هذا المنهج في اكتشاف معنى هذه المشكلات عندئذٍ يجب أن اعترف بثمة خطأ في " المنهج " ومن ثم نبحت عن منهج ملائم: فإذا كان " المنهج " يحدد المشكلات، فإن المشكلات تحدد- بدورها- المنهج الملائم لحلها. فأن نستبعد المشكلات ليبقى المنهج، وان لا نضع أعيننا إلا على المشكلات التي يمكن لهذا المنهج حلها إنما يعبر في الحقيقة - كما يقول احد الباحثين- عن خروج عن المنطق والمعقولية⁽²⁾ .

(1) محمد محمد مدين: الحركة التحليلية في الفكر المعاصر ، ص 128-129.

(2) المرجع السابق، ص 153.

فقد عكس تمسك الوضعيون المناطق بتطبيق مبدأ التحقق تطبيقاً أميناً على كافة الإشكالات الفلسفية إلى استبعاد قضايا القيم، بل وكل القضايا الميتافيزيقية ذات الأهمية القصوى في حياتنا والتي لها دور كبير في توجيه دفة حياة البشر وبدونها تصبح الحياة غابة يأكل فيها القوي الضعيف، هذا فضلاً عما سوف يستتبعه تطبيق مبدأهم في التحقق إلى استبعاد جميع القوانين العلمية واعتبارها لغواً فارغاً من المعنى؛ لأن مثل هذه القوانين ليست مما يمكن أن نتحقق منه على نحو كامل، فليس متاحاً لنا مجموعة من الخبرات أو التجارب ، بحيث يكون الحصول عليها مكافئاً لصدق القانون العلمي طالما أن القوانين العلمية تعميمات ، وطالما أنه من المستحيل علمياً التحقق بالنسبة لكل حالة مفردة من الحالات غير المحددة التي ينطبق عليها التعميم أو القانون العلمي⁽¹⁾.

كما يستدعى تطبيق مبدأ التحقق أيضاً استبعاد كل الفروض العلمية قبل مرحلة التحقق وتحويلها إلى قوانين علمية ؛ لأنها تكون اقرب إلى الميتافيزيقا منها على العلم. كما تستبعد الدين وكافة قيمه ، فأية عقيدة تتضمن لاهوتا يعتبر إلى حد ما نوعاً من الميتافيزيقا .. والاهم أنهم يلغون ذلك الجانب المميز للإنسانية وهو الجانب المعنوي أو الروحي الذي يميز الإنسان عن بقية المخلوقات التي لا تعرف سوى الجانب المادي فقط.

(1) المرجع السابق، ص 150.

النزعة الإنسانية الجديدة

د. حيرش بغداد محمد 1

مدخل:

إذا كنا اليوم نستقبل ونستهلك مشاهد الإيروس، الإغراء والإغواء بنهم وبكثير من الفضول، عبر قنوات الاتصال المكتوبة، المسموعة والمرئية على وجه التحديد. نعمل هذا، وكأنا أمام اكتشاف جديد لهذا العصر. قد يكون الأمر في هذه الحالة متعلقاً فقط بإشباع حاجات حيوية والتلذذ بوضعيات "كمسوترا" تتم عن إبداع "هوليودي" يجمع بين الخيال ("الفونتايم" / le fantasme) وبين مطلب الإشباع الفوري (الحركة السريعة) واللذة المستديمة. في خضم ذلك، لا يتبادر إلينا أن هناك خطابات نفسية، فلسفية ودينية تحاول اليوم التأسيس للعلاقة الإيروسية - التي تجمع حصراً بين الرجل والمرأة - كحدث مرتبط بالغيرية، وذو دلالة ميتافيزيقية عميقة متصالحة في الوقت نفسه مع المسيحية ومع النزعات الإنسانية. واليوم ومن خلال الدراسات المتعددة، يتم النظر إلى الجنسانية بأبعادها المتعددة، باعتبارها وظيفة بيولوجية مرتبطة بالغيرية من جهة وبالرغبة من جهة أخرى، إضافة إلى الرمزية التي أوضح تأويل الأحلام اتساع حقلها.² ويمكن الإشكال في أن "خطاب الغيرية" مثله مثل خطاب التسامح، حوار الحضارات والسلام، هو مشروع صعب التحقيق ويؤول في النهاية إلى الفشل في الميدان وعلى أرض الواقع، رغم أنه على المستوى النظري غنيٌ بالقيم، ما يفسر أن إيمانويل لفناس يلجأ إلى الإيروس من أجل تبرير الغيرية ومنحها الشرعية والمشروعية في زمن "الاستغوال" و"الاستخلاب"،³ حيث يسود التخويف، التهريب، التهديد، الحضر والحروب الإستراتيجية (الاستباقية) والضربات العسكرية "التشريحية" (الدقيقة). إن خطاب هذا المفكر، ليس خطاباً فلسفياً بقدر ما هو خطاب لاهوتي، من حيث أنه لا يتوقف عند الإيروس، بل يتجاوزه إلى مفاهيم الأبوة، الإنجاب والحب. وبالتالي، يمكن لهذا التواصل ألا يرتقي إلى المستوى الكوني، لأن ركائز الدينونة المسيحية قد لا تلقى قبولا عند جميع الثقافات. ومنه، فهل تصورات وتمثيلات لفناس عن الغيرية والتواصل يمكن أن تكون مخرجا للانسداد الحاصل في العلاقات بين الأفراد والمجتمعات والحكومات؟

الإيروس والجنسانية في التحليل النفسي الفرويدي:

¹ أستاذ بحث (أ) بالمركز الوطني الجزائري للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية CRASC - وحدة البحث حول الثقافة، الاتصال، اللغات، الآداب والفنون UCCLLA. البريد الإلكتروني: hirebagh@yahoo.fr

² Larousse (Dictionnaire de la psychanalyse)- Pierre Fedida, Librairie Larousse, 1974. p 234

³ حاولنا من خلال هذا اللفظ الهجين الذي يجمع بين اللغة العربية الفصحى والدارجة (الغول، صار غولا، استغول...) التعبير عن طبيعة هذين القرنين (20-21)، حيث وإن كان الغول كائننا أسطوريا متجبرا ومتوحشا يسكن المخيلة الشعبية ويستعمله الآباء من أجل تهذيب الأطفال بوسائل التخويف، إلا أنه على المستوى الواقعي تحول إلى حقيقة بشعة. لم يصر "العقل هو الذي يسكن التاريخ" كما هو الحال في الفلسفة الهيجلية، بل "الغول هو من يسكن التاريخ". كما أن لفظ "الاستخلاب" يحيل إلى ظهور وإلى استعمال المخالب، الشيء الذي يدل على العدوانية والتوحش.

لقد استطاع التّحليل النّفسي مع فرويد أن ينظر إلى الحبّ نظرة حضارية تعلي من شأنه وتعايش معه. ومنذ البداية، يتّضح أن ذلك ينعكس مباشرة على المصطلحات والمفاهيم المستخدمة، فهو كثيرا ما يفضّل أن يستعمل مصطلح الإيروس للإشارة إلى "ممارسة الحب"، بدلا من استخدام مصطلح الجنسية والجنس، وبالتالي، "لا بد أن نعترف في البدء أنه إذا كان فرويد يطلق على دوافع الحياة اسم الإيروس، فليس من أجل تقديس اكتشافاته العلمية ولكن من أجل استعمال قوة الأسطورة وحققتها الكونية مثلما أعطى أفلاطون فكرة عن ذلك في كتابه المأدبة. إن الإيروس في التّقليد الإغريقي هو إله يتقاسم قوة الحياة والقدر. لقد كان فرويد واعيا بأن استعمال اسم إيروس يمكنه أن يقود إلى حجب معنى الجنسية والتّخفيف من طابعها الخطير. يقول: إن من يعتبرون أن الجنسية (الجنس) كشيء يجلب العار للطبيعة الإنسانية ويحطّ منها، هم أحرار في استعمال الإيروس والإيروسى، الكلمات الأكثر وقارا. كان يمكنني أنا بنفسى أن أتفادى كثيرا من الاعتراضات لو فعلت مثلهم ومنذ البداية، ولكنى لم أشأ ذلك، لأنه لا يسرنى أن أقدم تنازلات للجبن، فلا يمكننا أن نعرف إلى أين سننّجه بعدها. إننا نبدأ بالتنازل عن الكلمات، وننتهي بالتنازل عن الأشياء".¹ ويتبيّن أن القلق الموجود في الحضارة اليوم مرده إلى محاولة تهميش الرّغبة الجنسية والسيطرة عليها لصالح قوى عقلانية تتوافق مع التّقدم التقني تعبيرا على السيطرة على الطّبيعة (الطّبيعة الخاصة بالإنسان والمحيط). وإن كان لفناس يستخدم الإيروس للتعبير عن هذه العلاقة الخاصّة، فإن ذلك يجعله في تعارض شبه تام مع فرويد، إلا في بعض المسائل وهي :

1. إدانة الحرب: لا يتردد فرويد في إدانة الحرب سواء فيما يتعلق بغاياتها أو بوسائلها، فهو يبيّن مدى الخذلان الذي أصابه جرّاء الحرب العالمية الأولى، وذلك بسبب لا أخلاقية الدّول اتجاه جيرانها، ثم بسبب همجية الأفراد.² وفي مؤلفه "فيما فوق مبدأ اللذة"، يعتبر أن الحرب التي وضعت أوزارها كانت مروّعة جدّا.³

2. الموت: تعلن مدرسة التّحليل النّفسي أنه لا أحد يعتقد في موته الخاص، كما أن لاشعوره مقتنع بخلوده الشّخصي، وإمكانية التّصالح مع الموت مرهون بقناعتنا أننا سنستمر دائما في عيش حياة في منأى عن كل أذى. إن أصول هذا الموقف مردّها إلى المشاعر البدائية الملتبسة من الموت، فالبدائي إذ يأخذ الموت بجدية لأنها تضع حدّا للحياة، ما يدفعه إلى استعماله، إلا أنه من جهة أخرى ينفي الموت بأن ينفي عنه كل معنى وكل نجاعة. والموقف الوضعي اليوم اتجاه الموت وعبر الامتناع عن توجيه أي انتقاد للميت، إضافة إلى التّلاشي الذي يصيب الأهل في حالة فقدان واحد منهم، غير متوافق

¹ Larousse (dictionnaire de la psychanalyse)- Pierre Fedida, Librairie Larousse, 1974. p119.

² S. Freud, Considérations actuelles sur la guerre et sur la mort. Traduction de l'Allemand par le Dr. S. Jankélévitch en 1920, Paris, Edition Payot, 1968, p 7, 11.

³ S. Freud, Au- delà du principe de plaisir. Traduction de l'Allemand par S. Jankélévitch en 1920, Paris, Editions Payot, 1968, p12.

مع الحرب التي تعكس بشكل واضح انقطاع التّواصل بين النّاس. ويعمل فرويد كعادته على إعادة صياغة مقولات الحياة المتوارثة، فعوض المقولة: "إذا أردت المحافظة على السّلام، فلتكن مستعدّاً دائماً للحرب"، يقترح مقولة جديدة مفادها: "إذا أردت أن تتحمّل الحياة، فلتكن مستعدّاً لقبول الموت". وذلك كشكل من التّصالح بين الحياة والموت المتوافق مع الاعتقاد أن بعد الموت هناك حياة جديدة وأفضل لأنها بمنأى عن كل أذى¹. كما أن تحمّل الحياة، يعني الاعتراف بالتداخل الموجود والمستمر بين السّعادة والتّعاسة، وأن الأمر لا يتوقّف عند الفصل بين حالة الحرب التي تعكس المعاناة المطلقة وحالة السّلم التي تعكس السّعادة المطلقة، وكأنّ علينا الدّهاب المستمر من أحدهما إلى الآخر. إن هذا الموقف هو في الحقيقة يتوافق مع رؤية متوازنة، باعتبار أن "غريزة الموت فاعلة بالقرب من الإيروس وتتقاسم معه الهيمنة على العالم"².

وظيفة الغريزة الجنسية: يصل فرويد إلى أن وظيفة الغريزة الجنسية تتوافق مع غريزة الحياة وليس مع غريزة الموت، وذلك من خلال ربط التّكرار بالرّتابة والملل وبالتالي بالموت والجمود، فالأفراد (الكبار) يسعون شعورياً أو لا شعورياً إلى تغيير شريك العلاقة الجنسية والتغيير في وضعياتها، لأن الجديد يمثّل دائماً بالنسبة إليهم شرط المتعة، في حين أن الطّفّل لا يملّ بتاتا من طلب تكرار القصة أو اللعبة نفسها التي شارك فيهما من قبل ونالتا رضاه. يقول فرويد: "إن ما يضعف استدلالنا هو أنّنا لم نستطع أن نكتشف في الغريزة الجنسية هذا التّوجه نحو التّكرار والذي سمح اكتشافه استنتاج وجود غريزة الموت [...]. وإذا كان الموت في نظر شوبنهاور هو هدف الحياة، فإن الغريزة الجنسية وعلى العكس تجسّد إرادة الحياة"³. ولكن يطرح هذا -في نظرنا- مشكلاً أخلاقياً مرتبطاً بالوفاء، مع أنّ ذلك لا يتعارض مع مبدأ "الخصوبة" التي لا يُشترط فيها لفناس الوفاء لشريك واحد.

ولكن موقف فرويد فيه كثير من التّناقض الذي يرجع إلى تناقضات وملابسات الحياة، فهو من جهة يعتبر أنّ الغريزة الجنسية تخدم غريزة الحياة ولكنه في الوقت نفسه يرى أنّ مبدأ اللذة الذي يغلب على الاندفاعات الجنسية يؤدّي إلى إلحاق الضرر الأكبر بالعضوية كلها. وانطلاقاً كذلك من الأسطورة اليونانية، يتبيّن أنّ الحب كالتحام يفرض الجوع والسّكون و يُؤدّي بالتالي إلى الموت، "فيظهر لنا بالتالي أنّ مبدأ اللذة هو في خدمة غرائز الموت"⁴. وربما هذا ما يفسّر العبارة التي ختم بها فرويد مؤلفه، والتي يقول فيها: "ما لا يمكن أن نبلغه عن طريق الطّيران لا بد أن نبلغه ونحن نعرّج [...]. لقد قيل في الكتاب

¹ Freud, Considérations actuelles sur la guerre et sur la mort, Op.cit. p28.

² S. Freud, Malaise dans la civilisation. Traduit de l'Allemand par CH. Et J. Odier. Publiée en français dans la Revue de Psychanalyse en 1934. T 7, n 4, 1934 et T 34, n 1, 1970, p51.

³ Freud, Au-delà du principe de plaisir. Op.cit, pp 46-51.

⁴ Ibid, pp10, 52-58.

المقدس أن المشي الأعرج ليس محرماً".¹ وما يمكن أن نفهمه من ذلك أن الطَّيران حركة مثالية تُعبّر عن السرعة والنَّجاعة، إنه علامة على قوة الحياة (غريزة الحياة). أما الحركة المتعرجة، فهي الحركة المحفوفة بالصُّعوبات، العوائق والآلام (غريزة الموت)، ما يعني أنه بمقدار ما تكون العلاقة الجنسية مرفقة بالمتعة، بمقدار ما أن ذلك يتبعه الإعياء والألم، الشيء الذي يؤدي إلى إلحاق الضَّرر بالعضوية بأكملها.

تشخيص حال ووضع الحضارة الغربية المعاصرة: إن القلق الذي تعرفه الحضارة المعاصرة مردهُ إلى سببين هما: كبح الغرائز الجنسية لصالح استعمال أكثر للعقل من أجل الإبداع، الاختراع والعمل، فهي لا تراهن على الإيروس ولا تجعل منه شرطاً للتواصل، بالإضافة إلى أن الحضارة تكبح العدوان وتحاصر الفرد بالقوانين الوضعية ووسائل المراقبة، لمنعه عن ممارسة العنف الذي يعتبرها في نضرها مصدراً لانقطاع التواصل. يقول: "إن الحضارة تحاول أن تقلل وتحتصر الحياة الجنسية وتزيد من دائرة النِّقافية [...] فالحضارة بالإضافة إلى التضحيات الجنسية، فإنها تطالب كذلك بتضحيات أخرى".² كما يؤدي الكبح أو التقليل من الغرائز الجنسية إلى استعمال متزايد للعنف والعدوان، ولكن الحضارة تقف بالمرصاد لكلٍّ منهما، الشيء الذي يؤدي إلى تأزم الوضع أكثر، إذ يقول: "بما أن الحضارة تفرض تضحيات جسام ليس فقط على الجنس ولكن أيضاً على العدوان، فإننا نفهم أفضل لما يكون من الصَّعب على الإنسان أن يجد سعادته".³ إننا نكتشف بأن الإنسان يصبح ذهانياً وعصابياً، لأنه لا يحتمل درجة التخلي المفروضة من المجتمع باسم مثال ثقافي، وإنما نخلص إلى أن القضاء أو التقليل بشكل واضح من هذه المطالب يعني العودة إلى سعادة ممكنة.

إن "تصعيد الغرائز" يشكّل الطَّابع الأكثر بروزاً للتطور الحضاري، فهو (التصعيد) ما يسمح للنشاطات النفسية العليا، العلمية، الفنية والإيديولوجية أن تلعب دوراً جدياً مهم في حياة الكائنات الحيّة. إن هذا الامتناع الثقافي يتحكم في المجال الواسع للعلاقات الاجتماعية بين البشر. ونعلم كذلك أن فيه (الامتناع) تكمن أسباب العدوان التي تحاول كل الحضارات أن تحاربه (العدوان). ولأن المجتمع البدائي (الطبيعي) يبقى مجهولاً بالنسبة ل فرويد، فإنه لا يدعو إلى العودة إلى حياة طبيعية. وإن كان من المؤكّد أننا لا نحس بالراحة في حضارتنا الحالية، فإنه من الصَّعب جدّاً الحكم إلى أي حدّ كان الرِّجال القدماء يحسُّون بالسَّعادة أكثر، وبالتالي من الصَّعب استحسان الدور الذي تلعبه شروط حضارتهم.

ورغم هذا التشابه بين فرويد ولفناس، إلا أن هناك مسائل جوهرية وأساسية تفصل فصلاً

نهائياً بين المفكرين، ويتعلق بعضها بما يلي:

¹ Ibid, p58.

² Freud, Malaise dans la civilisation. Op.cit, p 40.

³ Ibid, p 45.

حقيقة الأنثى: يرى فرويد أن الجمال والسحر Le charme من مميزات المرأة، في حين أن الأعضاء الجنسية التي يكون النظر إليها جالبا للإثارة، فإنها لا تعتبر في ذاتها جميلة. إننا أمام تشخيص مختلف تماما عن تشخيص لفناس، من حيث أن الأول يركز على السحر والجمال، أما الثاني فيركز على السر (الغيب) / Le mystère والبعد الميتافيزيقي في الأنثى.

الطبيعة المزوجة للعلاقة الجنسية: لا تعبّر العلاقة الجنسية دائما عن الموقف الغيري كما يعتقد لفناس، وذلك بسبب ما يتخللها من عنف وعدوان لأن "الحب المركز على موضوع يمنحنا هو بذاته قُطبية من النوع نفسه (غريزة الحياة/غريزة الموت)، فالحب بالمعنى الصّحيح (الجنس) يتضمن الرّأفة والحنان... وكذا الكره والعدوان... إن الغريزة الجنسية تحوي على عنصر "سادي". إذا، كيف يمكننا أن نستنتج هذا التوجه السّادي المضّر بالموضوع من الإيروس الذي تتمثّل وظيفته في المحافظة على الحياة؟ ألا نسمح لأنفسنا بأن نقبل بأن السّادية ليست إلا غريزة الموت التي فصلها الليبدو النرجسي عن الأنا والتي لا تجد ممارستها إلا على موضوع؟"¹

ولكن إذا كان الإبداع في نظر فرويد، هيجل وكانط... يحصل بتأجيل الحب وتحويل الحاجة إلى رغبة، فإن لفناس على العكس يرى في ممارسة الحب نفسه أصل الإبداع والخصوبة التي تأتي دوما بالجديد، يقول: "إن قصدية الشهوانية هاته، القصدية الفريدة للمستقبل نفسه، وليس انتظار واقعة مستقبلية، كانت دائما مجهولة من طرف التحليل الفلسفي. وفرويد نفسه لا يقول عن الليبدو أكثر من أنه بحث عن اللذة، آخذا اللذة كأنها محتوى بسيط، يبدأ منه التحليل، والذي لا يُحلّل هو بحد ذاته. إن فرويد لا يبحث عن معنى هذه اللذة في الفهم العام للكائن/للوجود. إن قضيتنا الكامنة في إثبات الشهوة كحدث المستقبل عينه، المستقبل النقي من كل محتوى وسر المستقبل عينه، تبحث عن تقرير مكانها الاستثنائي"².

وإذا أردنا أن نجمل هذا الفرق الجوهرى بينهما، أي بين فرويد ولفناس، فإننا نجد أنفسنا أمام موقف أسطوري مُتخيل، مفاده أن قتل الأولاد للأب (السلطة الضابطة/الطغيان/الإله المتجبر...)، والذي يعبر عن توجّه حضاري عام لتلبية متطلبات الجنس بواسطة العنف (القتل/الموت...)، ما يجعل البشرية تحسّ على الدوام بالتأنيب والتعاسة. وبذلك، فإنّ "الحضارة خاضعة لدفعة إيروسية داخلية تهدف إلى توحيد البشر في جمهور والمحافظة بواسطة العلاقات الضيقة التي لا يمكن أن تصل إليها إلا عن طريق تقوية الإحساس بالذنب بشكل دائم"³. والدّين -في هاته الحالة- عاجز عن إنقاذ البشرية، بما أنه يسيء للعبة التّكليف والانتقاء، حينما يفرض على الكل وبشكل موحد طرقه وأساليبه من أجل بلوغ السعادة والحصانة ضد المعاناة. ويكمن تكنيکه في الحطّ من قيمة الحياة وتشويه صورة العالم الواقعي بشكل

¹ Freud, Au-delà du principe de plaisir, p 49.

² 84.-E. Levinas, Le temps et l'autre. QUADRIGE/PUF, 1983, pp 77

³ Op.cit, p 59. Freud, Malaise dans la civilisation,

هذياني. أما مقابل ذلك، فهناك موقف يؤصل للمعتقدات المسيحية، من حيث أن العلاقة بين الأولاد والأب محكومة بمبدأ الغيرية وتتجه نحو حياة أبدية، ما يجعل الحياة سعيدة ومحتملة. وكأن الله لم يعد ذلك الإله المتجبر الذي يخشاه البشر، ولكنه صار إله مُحبًا ومحبوبًا.

النزعة الإنسانية الجديدة

لا يمكن إنكار دور الفكر الفلسفي والأدبي في نشر وتعزيز النزعات الإنسانية الجديدة، والتي وصلت إلى ذروتها مع لفناس، من حيث أنه نظر للعلاقات الإنسانية على أساس من الروابط الروحية، "فوحدها العلاقة بين كائن وآخر يمكن أن تكون روحية [...] وما يهم هو المتاجرة الروحية بين الكائنات، ولا يتعلق الأمر هنا بالاحترام ولكن بالحب".¹ وفي هذا السياق دعوة إلى "اليقظة" والاستعداد، من أجل استقبال وضيافة الآخر ومحبته وتحمل مسؤوليته، وأخذها على عاتقنا وكأنها مسؤوليتنا. وعلى مستوى التأسيس الميتافيزيقي لمثل هاته القيم الجديدة، يتم اللجوء إلى مفهوم "الدِّين الأفقي"، الذي يظل على أرض البشر، والذي يجب أن يحلّ مكان "الدِّين العمودي"، الذي يتوجّه نحو السماء. إن البقاء في العالم، يسمح بالتفكير في علاقة الناس بعضهم ببعض. والاقتراب من الآخر يُعبّر عن نوع من "التعالّي الأفقي" الذي يتيح هو أيضا تعاليا عموديا نحو الله. ومن أجل البقاء في إطار المعتقدات المسيحية، استبعد لفناس تأليه الإنسان المتعالّي، فلنن "كان هذا التعالّي قد حدث نتيجة الانطلاق من العلاقة الأفقية مع الغير، فلا يعني ذلك أن الإنسان الآخر هو إله، ولا أن الله هو آخر كبير".² هناك إذا حدودا فاصلة بين الإنسان والله، وبالتالي تُعدّ تحوّل أحدهما إلى الآخر، ولكن جدير بالإنسان أن يكتشف المعنى الحقيقي لله، عبر العلاقات الإنسانية، وليس من خلال علاقته بالله فقط. وهذا ما أدى إلى رفض "وحدة الوجود"، التي يفقد فيها الإلهي خصوصيته وتميُّزه عن بقية الموجودات، كما يرفض أن يكون لله تجليات حسية - كما هي في أشعار الوثنيين - تُفقد الله غيبته بسبب الأوصاف البشرية التي تُلحق به. إنه من الأفضل البحث عن "إله يخرق المحايثة دون أن ينتظم فيها"، وذلك في حال ظهوره وتجليه كمناصر للمهزومين، للفقراء وللمطرودين، حينها فقط يكون محايثا للعالم، من غير مسايرة نظامه الداخلي الذي لا يكون خاضعا في أغلب الأحوال للعدالة. ووفق هذا المنطق، لن تتمكن المحايثة من أن تنتصر على التعالّي.

ومن خلال "وجه الآخر" نلمس محايثة الله للعالم عبر "تحالف" و"تضامن" بين الله والفقير، ما يفسّر أن تقربنا من الفقير هو في ذاته تقرب إلى الله. إن العلاقة الأفقية ليست علاقة محض مقفلة، ولكنها تطمح في النهاية إلى التقرب من الله، والنتيجة الأخيرة أن الله ليس إله مفارقا للعالم، وليس إله محايثا تماما له. إن كل من المفارقة والمحايثة خاصيتين ضروريتين للذات الإلهية. وهذه النظرة تمثل

- l'autre. Editions Grasset et Fasquelle (Paris), à¹ Emmanuel Levinas, Entre nous, essai sur le penser -

79.-1991. pp78

² Ibid, p90.

تجاوزا جذريا لحقيقة الذات الإلهية عند كانط، والتي تعتبره ذاتا متعالية بإطلاق أو "شيئا في ذاته" (النومان)، وبالتالي منفصل تماما عن العالم الحسي، ما يفسر أن العقل البشري غير قادر على إدراكه أو البرهنة على وجوده. وهناك أيضا تجاوز للفكر الهيجلي الذي يطرح المحايثة كتواطؤ مع نظام العالم المليء بالتناقضات وغير المكترث بحال الضعفاء.

وسيتم بذلك فضح مزاعم النزعة التصوفية في إعادة إحياء الأمل والرَّجاء، والسَّعي لمنح الإنسان مكانة عظيمة، تجعله يفكر في أن يحل محلَّ الله، حيث أن "التَّصوُّف (الرُّوحُن) سيصبح شاهدا كبيرا على مبدأ الرَّجاء، إنه سيُنتج بصفة أساسية تصوُّرا تخيُّليا خادعا وطوبويا، لأنه في جوهر الموقف التَّصوُّفي نجد حيلة خاصَّة بالوعي الصوُّفي، فبحجَّة الاستسلام لله، فإنه يكتسح الدائرة الإلهية من أجل امتلاكها، ومن أجل أن يصبح مساويا لله".¹ أضف إلى ذلك أن علاقة المتصوِّف مع العالم هي علاقة غير أخلاقية، لأن المساواة التي يسعى إليها من خلال "المشاركة" تجعله يتخلى عن واجباته الأخلاقية تجاه أمثاله.

وستصبح "الروح الملحدة طبيعيا" بديلا عن "الروح المتدينة طبيعيا" والمتَّصلة بالمقدَّس من جهة، والمنفصلة عن الإلزام الأخلاقي من جهة ثانية. ولا يتعلق الأمر هنا بنفي وجود الله، ولكن تأكيد أن الرُّوح والحياة النفسية لا توجد إلا ك انفصال. وانطلاقا من هنا يتم معارضة التَّصور التَّصوُّفي الذي لا يرى الرُّوح إلا في حالة اتصال. إن "الإشكالية الصوفية للمشاركة تظهر إذا بشكل متزامن مع محاولة إلغاء الواقعة الأولى للانفصال، وبشكل ما كمحاولة للتَّهريب من المطلب الأخلاقي. لكن يجب الاختيار بين المقدَّس Le sacré والقدسية La sainteté، ولأن التَّصوُّف يبحث عن المشاركة فإنه منوطى مع عنف المقدَّس".² ويتجلى من خلال هذه القراءة التي يقدمها جون قريش Jean Griesch، أن هناك انقلابا كلياً على التَّصورات التقليدية حول التَّصوُّف، فالمتصوِّف وفق النظرة التقليدية يحاول أن يصبح مقدَّسا من خلال "مسلك المشاركة"، فيبتعد عن القريب والشَّبيه في الخلق. والنتيجة هي ممارسة العنف من خلال المقدَّس كما هو الحال في الحروب الدنيوية، في حين كان عليه أن يكتفي بمطلب القدسيَّة التي تجعله محسِّنا أكثر بمشاكل العالم الأخلاقية، ومشاركا بالتَّالي لهموم البشر وآمالهم. وبالتالي، فإن "أفق المشاركة" الذي تقترحه التَّأويلات الخاصة بالمسيحية يمكن أن يُوظَّف لغايتين متناقضتين، يبرر أحدهما الاستبداد والآخر -على العكس- يبرر ويخدم التَّوجهات الإنسانية.

إن العودة إلى المطلب الأخلاقي لا تكون إلا بـ "الإلحاد" الذي يركِّز على اللحظة المبدئية للروح، وهي لحظة الانفصال، ما يُمكننا من ملاحظة الله في وجه الآخر، "فوجه القريب هو المكان الأصلي أين يخطر الله على البال"،³ حيث أن التَّعالي في هذه الحالة لا يتم بطريقة تقليدية عمودية (الإنسان ← الله)، ولكن بطريقة أفقية (إنسان ← إنسان)، وهو لا يتمُّ إلا عند تجاوز مظاهر الوجه المادية والسَّطحية Les formes plastiques والتي تشكِّل "قناعا" حاجبا له. وإذا كان من السَّهل قبُول "الظلم المُتكبَّد" L'injustice subie، أي الظلم المتعلق بالتَّشوهات الوراثية، الموت وأخطار الطبيعة، فإنَّه من غير الإنساني أن نقبل بـ "الظلم المُقترف" L'injustice commise، إذ من الضَّروري أن يصير الخوف من ظلم

¹ Griesch Jean, Philosophie et mystique. Encyclopédie philosophique universelle (l'univers philosophiques), Volume dirigé par André Jacob. Préface de Paul Ricœur. 1ère édition février 1989, 3ème édition 1997. PUF, p26.

² Ibid, p27.

³ Levinas Emmanuel, Philosophie et transcendance. Encyclopédie Philosophique Universelle (l'univers philosophiques), Volume dirigé par André Jacob. Préface de Paul Ricœur. 1er édition février 1989/ 3ème édition 1997. PUF. P39.

الآخر أكبر بكثير من الخوف من الموت،¹ لأنه من الممكن تجاوز الموت والتغلب عليه، في حين لا يمكننا أن نتراجع في الزمن لنحجم عن ظلم مقترف.

وفي هذا الإطار الإنساني يتمّ التطرق إلى السلام، والذي لا يقصد به السلام بين الشعوب والحكومات، والمتوصّل إليه عبر المعاهدات والاتفاقيات الخاضعة للفكر العقلاني، والمضمون بواسطة العناية الطبيعيّة. إنّ السلام ينبع من السلام الداخلي، في زمن يعرف كارثة على المستوى الإنساني (الحروب المتكرّرة)، وعلى المستوى الروحاني كذلك (موت الله). وليس هناك في نظره ما يبزّر معاناة الآخر، فقد اعتاد المسيحيون على تبرير المعاناة بالخطيئة الأصليّة، في حين أن اليهود يبزّرونها بعصيان أنبيائهم. ونجد أيضا أن بعضا من الفلاسفة أمثال ليبنتز يبزّرون ذلك بانسجام العالم وكماله،² والشيء نفسه ينطبق على هيجل الذي يدخل المعاناة في حركة التناقضات الضرورية لإنتاج الحقيقة.

ولقد شارك كانط بشكل إيجابي في إزالة "فلسفة الإلهيات"، لأن الأخلاق يمكن أن تقوم بدون دين، لذلك استفاد لفناس من "فلسفة الواجب"، حين رأى أن علاقتنا مع الآخرين يجب ألا تقوم على أساس منافع متبادلة، بل يجب أن نسعى لنجدتهم مجّانا. وإذا فعلنا هذا بدون انتظار عون خارجي، نكون جديرين بأن نتلقى عونا من الله، فلا يجب أن نشترط منذ البداية العون، من أجل السعي لنجدة الآخر، فمن "أجل أن نكون جديرين بمساعدة الله، يجب أن نرغب في أن نفعل ما يجب أن نفعل بدون مساعدته".³ إن هاتاه الإيطيقا تقوم على الاستحقاق والجدارة، بحيث لا يههما إلا الآخر في بعده الإنساني، وهي مستعدّة لإعطائه سبق الأولوية، لأنه "يظهر من اللائق للطبيعة الإنسانية ولطهارة الأخلاق أن تؤسّس انتظار العالم الذي سيأتي على أحاسيس الرّوح الفاضلة، بدلا من تأسيس فضيلتها على رجاء عالم آخر".⁴ فلا يجب أن يكون الأمل في وجود العالم الآخر سببا لفضائلنا.

لقد حان الوقت لأن نعلن عن نهاية "علم الربوبية" أو "التيوديسا"، لأن "تبرير ألم القريب هو بالضبط مصدر كل لا-أخلاقية".⁵ إن التاريخ ليس بحاجة لفلسفة الإلهيات، ويمكنه أن يكون مقدّسا بدونها، ويمكن للإيمان أن يوجد من خلال النظام الذي يمكن إقامته بين البشر L'ordre interhumain، والذي يحتقر الحرب ويمجد السلام. إنه " يجب على البحث الميتا-إيطيقي أن يتوجّه إلى المشكلات التي لها محل فيما فوق الوجود. ولا-إنسانية الحرب كامنّة في استعمال الناس، وبإسكات اكتراثهم عن طريق شراء صمتهم. إن الحرب تستعمل الناس كمواد وتجعلهم يخونون التزاماتهم بواسطة الرّشوة [...] إنها تضع

¹ Levinas, Entre nous. Op.cit, p44.

² Leibniz, Essai de théodicée. Op.cit, pp 73, 74.

³ Levinas, Entre nous, p127.

⁴ Bréhier Emile, Histoire de la philosophie Tome 5, 18ème siècle. Cérès Edition (Tunis), Février p242. 1995,

⁵ Levinas, Entre nous, p116.

الحرية في خطر، ولكنها أيضا تقضي على إمكانية الالتقاء الحقيقي مع الآخر [...] فنهاية التاريخ تبرر كل التوضيحات. هكذا، فإن الوجود يتطور كتاريخ، لكن هذا التاريخ ليس تاريخ أي شخص، وبالأخص ليس تاريخا من أجل أي شخص. وبسبب ذلك، فإنه يتحول إلى فوضوية مُعادُ تسميتها بالرأسمالية - من أجل حاجات القضية - "1. إن الحرب اليوم كمنتج رأسمالي، لها مبرراتها الاقتصادية المرتبطة خاصة بصناعة الأسلحة وآبار النفط...وفي هذه الحرب يصبح الإنسان لاشيء أي مجرد وسيلة لا غاية، والكل يفقد إنسانيته، المنتصر كالمهزم.

إن لفناس مثله مثل كانط يعارض فلسفة هيجل من خلال التركيز على "البدايات"، وعلى الأصل بدل النهايات، إنه "يستبدل فلسفة النهاية بفلسفة البداية، التي تتطور أساسا حول مفهوم الأصل".² إن الأصل يرمز إلى اللحظة أو الخصوبة، أما النهاية فهي الموت أو الشيخوخة التي لا بدَّ من الهروب منها. إن هناك علاقة بين "الرغبة" وبين "الحاجة" إلى الفرار، حيث أن الهرب من الموت ومن الشيخوخة لا يكون إلا بواسطة الإنجاب (الرغبة). إذا، بدل النهاية أي نهاية الزمن ونهاية التاريخ (اليأس، عدم وجود مخرج، العنف، الحرب...)، لا بدَّ من تدشين "مهرب" أو مخرج "الغيرية"، كسبيل للأمل، الخلاص، الحب، السلام، الحقيقة والعدالة. يقول تايز: "الطفل إذا هو حل أناني لمشكلة الأنا الذي لا يتمكّن من احتمال ذاته، ولا احتمال الشيخوخة أو الموت [...] وحسب لفناس، فإن القدر-الشيخوخة والموت- يحد الكائن، لا تناه الزمن أو الزمن اللامتاهي يصبح متناهيا، ولكنه يفتح نحو غيرية جديدة هي غيرية الطفل".³ وبالتالي، صار لزاما علينا أن نتعمق أكثر في هاته الإشكالية.

الإيروس والغيرية

إذا كان من الإنساني أن نتضامن مع الفقير ونتعامل مع الآخر وفق مبادئ الاحترام، الرحمة، المسؤولية والعدالة، معممين بذلك مسلك الغيرية، فإنه من الضروري أن تكون كل سلوكياتنا وعلاقاتنا كذلك، حتى فيما يتعلّق بالإيروس. ويعتبر لفناس من السّباقيين الذين فكّروا في ذلك، ورغم أن تاريخ الفلسفة يتضمن مواقف كثيرة من الإيروس، إلا أنها لم ترتق إلى مستوى التّفكير فيه كغيرية، وذلك راجع إلى أن هناك أسبابا حجبت طابعه الغيري، من بينها:

غياب المقصد: يعتبر "الإيروس" الذي يحيل معناه إلى إله الحبّ الإغريقي،⁴ من السّبيل التي يمكنها أن تفتح أفقا للتّفكير في الغيرية بين المرأة والرّجل. ولكن هذا السّبيل محفوف بكثير من العوائق

¹ Tayse Jean-Luc. Eros et fécondité chez le jeune Levinas. L'Harmattan, 1998, p218.

² Ibid, p264.

³ Ibid, pp280-284.

⁴ Dictionnaire de la Mythologie grecque et romaine – Pierre Grimal- PUF 14ème édition 1999, juillet, p39.

والصعوبات، فإن كان يمكنه أن يقرب بين الذات، فإنه في الوقت نفسه يعمق الهوة بينها. إن العلاقة "الإيروسية" الكثيرة الاستعمال اليوم، يفيد معناها البحث المتنوع عن الإثارة الجنسية،¹ وهي وإن كانت من الحاجيات الحميمة، إلا أنها تُعبّر عن العار والإخفاق، لأن لا غاية تُوجَّهها، فهي تيه. وفي اللذة عينها يكمن إخفاقها، "فحركة النشوة (الإكستاز) تخفق بشكل مثير للثناء في اللذة، والتي هي بشكل طبيعي لذّة شخص ما، رابطة هكذا الأنا بذات وذلك لوقت قصير!"² وهذا ما جعل حتى لفناس نفسه يحتقرها ويحتاط منها في البداية، بسبب كونها بدون غاية ولا هدف، فالتحسس والملامسة يحصلان بطريقة فوضوية، واليدان تبحثان بدون أن تبحثا، أو بالأحرى عما تبحثان؟ إن نهاية الحركة الإيروسية ليست خاتمة، ولكنها انقطاع الحركة، فلما لا يكون الإيروس هو مجرد مقصد خاطئ، أو هو خلط ممكن بين المحبوب والمأكول؟ ورغم أنه يربط بشكل مباشر بين طرفين، فهو في ظاهره علامة على الغيرية، إلا أنه رغم ذلك يخلق مسافة كبيرة بين الطرفين، "فإذا كان الإيروس علاقة مع الآخر وبدون واسطة، فإن لفناس يُعرّفه كذلك على أنه المسافة الأكثر راديكالية".³ وخاصة عند إخفاق "الالتحام" بين الطرفين، لأن الإيروس يظل مرتبطا بما يفلت أو يتهرّب دائما.

غياب الاحترام: إن تأسيس الإيطيقا كعلاقة ميتافيزيقية، يتطلب الاحترام والمسافة، في حين أن الاستمتاع *La jouissance* هو لحظة انفصال، ما يفسر عدم القدرة على النظر إلى وجه الآخر (المرأة) المغتصب، المدنّس والضعيف. إن "الاكتشاف هنا بقدر ما هو ليس كشفا عن سرّ، يعني الاغتصاب الذي لا يبرأ من جرأته. فعار التدنيس يجعل العينين تهبطان بدل أن تتفحصا المكشوف".⁴ والخصوبة (الإنجاب) نفسها تجسّد نمطا من الانفصال، فالابن كائن منفصل. والنتيجة الأولية هي أن الإيروس يناقض الأخلاق لأنه لا يحترم الآخر، أو على الأقل هو في وضعية وسطى، بل وفي "وضعية حرجة" بين الاحترام وعدم الاحترام. إن "العراء الإيروسية كافتضاحية Exhibitionnisme يستقرّ ويدنّس، والحدث الإيروسية يحصل في اللا-احترام، وكأته على حواف الاحترام واللا-احترام".⁵ إنه بتعبير بسيط يُعبّر عن "اجتماعية اللاتفاهم" من حيث أن التواجد معا ليس شيئا بديهيا ولا سهلا، فهناك كثير من الاختلاف والقلق الناتج عن ذلك.

غلبة التلذذ: يأمل لفناس في علاقات اجتماعية قائمة على الصداقة التي تحقق الوحدة والتقارب من خلال اللقاء المباشرة مع الآخر، في حين أنّ العلاقة الإيروسية تتوجّه نحو "التلذذ"، ما يجعلها تؤدي إلى التّباعد، وبمجيء الأولاد تزيد فرقة الطرفين. إن "الإيروس يذهب إلى ما بعد الوجه *Au-delà du*

¹ Larousse (dictionnaire de la psychanalyse)- Pierre Fedida, Librairie Larousse, 1974. p 119

² Tayse, Eros et fécondité. Op.cit, p31.

³ Ibid, p57.

⁴ Ibid, p92.

⁵ Ibid, p100.

visage، لأنه يتوجّه نحو الأعماق المجهولة لما ليس بعد، والذي هو محض عدم، والذي يقال عنه كذلك تافه، والموصوف بالمخالف للقانون "Le clandestin".¹ ففي تلك اللحظة الحميمة لا يصبح الآخر هو المقصد، فاللذة (النشوة) تستحوذ على مجمل المشاعر والأفكار، فيصير طلبها أولى وأسبق من أي شيء آخر، وبمجرد "بلوغها" يصبح الشريك طرفا منبوذا ومستبعدا أو على الأقل غير مرغوب فيه في تلك المرحلة.

الإيروس والسلطة: وتكمن الأسباب المؤدية إلى عدم تئمين الإيروس تحديدا في الموقف من الحرية، والاعتقاد أننا في علاقتنا مع الغير (الآخر) لا بد أن نبقى محافظين على إرادتنا واستقلاليتنا، ومن أجل ذلك نميل إلى امتلاك الآخر والاستحواذ عليه بدل أن يُقدّم هو نفسه على الاستحواذ علينا، فتصير هاته العلاقة محاكية للعلاقات القائمة بين المتنافسين السياسيين والمنطلقة من تفعيل واستخدام مفاهيم السلطة والتحكّم:

" إذا عند طرح الغير كحرية، وبالتفكير فيه بمفاهيم النور، فإننا مجبرون على الاعتراف بإخفاق التّواصل، ولم نعترف إلا بإخفاق هاته الحركة التي تهدف إلى امتلاك أو الاستحواذ على حرية. فقط عند الإشارة إلى ما يجعل الإيروس مختلفا عن الاستحواذ وعن السلطة يمكننا أن نقبل بتواصل في الإيروس. إنه ليس صراعا وليس التحاما ولا معرفة، فلا بدّ من الاعتراف بمكانه الممتاز من بين العلاقات الأخرى، لأنه العلاقة مع الغيرية ومع السرّ (الغيب) أي مع المستقبل، ومع ما لا يمكن أن يكون هنا عندما يكون كل شيء هنا، ولكن مع البعد نفسه للغيرية. هنا أين تكون كل الممكنات غير ممكنة، هنا حيث نكون غير قادرين، والموضوع لا يزال موضوعا بواسطة الإيروس. إن الحب ليس إمكانا، وهو ليس ناتجا عن مبادرتنا، إنه بلا سبب، فهو يغزونا ويجرحنا ومع ذلك فأنا أضلّ على قيد الحياة فيه".²

وهكذا، يبدأ لfnاس تدريجيا في إعطاء النّصور الحقيقي والبديل عن النّصور القديم والسّطي، وبالتالي يُؤسّس للحب وفق نظرة روحية وغيبية. يجعلنا الحبّ ننجذب نحوه من غير أن نتمكن من فهمه. إنه يتضمن عددا من الممكنات التي نعتقد في كلّ مرّة أننا سنظفر بواحدة منها، ولكن ننتهي دائما من حيث بدأنا صفحة بيضاء.

جوهر الأنثى: ويتبين أيضا أن أسباب إخفاق التّواصل الإنساني عبر الإيروس ترجع إلى عدم إدراك جوهر الأنثى وحقيقتها، وبالتالي عدم إدراك بعدها الميتافيزيقي والغيبّي (السرّ - الغيب - المستقبل...) بعيدا عن المفاهيم والقوى التي تتحكم في مسار الحياة اليومية (التّحكم - الحرية - السيطرة - السلطة...). إن خاصية القوى العقلية هي العمل في النور كدلالة على "الوضوح"، وعلى ما يمكن فهمه وتقنيته. وتسعى العقلانية وفق هذا المبدأ إلى النور أو الأنوار، تعبيرا عن لحظة العقل المنتصر (هيجل)

¹ Ibid, p114.

² Levinas, *Le temps et l'autre*, pp 77-84.

أو العقل المناضل (كانط). ومقابل ذلك هناك قوى تندفع -وفقا لتكوينها وطبيعتها- إلى الانسحاب والتراجع بعيدا عن النور للبقاء في منطقة السر (الغيب)، وهذه هي بالذات ميزة الأنثى التي تُعبّر عن جوهرها بـ "الاحتشام": "إنّ ما هو مهمّ بالنسبة لي فيما يتعلّق بمفهوم الأنثى، ليس فقط غير المعروف، ولكن طريقة الوجود المتمثّلة في الهروب من النور. إن الأنثى في الوجود هي حدث مختلف عن التّعالّي الفضائي وعن التّعبير المتّجهان نحو النور. تتّمثّل طريقة وجود الأنثى في الاختباء، وكونها تختبئ هو بالضبط الحشمة [...] والآخر ليس كائنا نلقاه ويريد أن يستحوذ علينا [...] فالغيرية هي التي تصنع كل قوتها، وسرّها يشكل غيريتها"¹. وبالتالي، فإن كان الموجود يتحقّق في "الذّاتي" وفي "الوعي"، فإن الأنثى لا تتحقّق كموجود وكائن *comme étant* في التّعالّي نحو النور ولكن في الاحتشام، إذ: "إن الحركة هنا عكسية، فتعالّي الأنثى يتمثّل في الانسحاب إلى مكان آخر، فهذه الحركة مناقضة لحركة الوعي. ولكنها ليس من أجل ذلك لاشعورية أو لاواعية، ولا أرى من إمكان آخر غير تسميتها سرا/غيبا. وهذا بالتّحديد ما يجعل مثل تلك العلاقة علاقة ميتافيزيقية. ولم يتم الانتباه والإمعان إلى ذلك، رغم أن الجنس موضوع للتّحليل النفسي، إلا أنه لم يتجاوز النّظرة السّطحية للعلاقة واعتبر أنّ اللذة هي غاية الطّرفين أما ما تعلق بالسّر الكامن فيها، فلم يتم التّطرّق إليه"².

المرأة والرجل، كائن واحد: ويؤكد لفتاس أن العلاقة الإيروسية ليست التّحاما، ومن أجل البرهنة على ذلك كان عليه أن يتجاوز أحد الأساطير اليونانية التي تطرّق إليها أفلاطون في "المأدبة" والتي يعيد فرويد توظيفها في مؤلفه "فيما فوق مبدأ اللذة"، حيث يتعلّق الأمر فيها بأصل النّوع البشري، حيث أن الأسطورة تعتبر أن المرأة والرجل في الأصل كانا كائنا واحدا، والذي أطلق عليه أفلاطون اسم أوندروجين *Androgyne*، أي الكائن الذي يجمع في الآن نفسه خصائص الذّكورة والأنوثة، كما أنه كان يملك أربعة أيدي وأربعة أرجل ووجهين متشابهين تماما... وقد تدخّل الإله زيوس *Zeus*، مُقسّما الأندروجين إلى قسمين، وبعدها رغب كلّ منهما أن يتوحّد من جديد مع جزئه الآخر. وعندما يلتقيان، فإنّهما يتربطان بشدّة من أجل الالتحام والدّوبان معا، ويتركان أنفسهما يموتان بالجوع والسّكون حفاظا على تلك الوضعية الأصليّة. ومن هنا أساس العبارة المشهورة *الحب والجوع faim et amour*. وبالتالي، يتبيّن لنا أن مبدأ اللذة في هذه الحالة هو في خدمة "غرائز الموت"³، فهذه الأسطورة إذا تشكّل خطرا على المسعى الرّامي إلى جعل مبدأ اللذة في خدمة الحياة لا خدمة الموت.

وباعتبار أن اللذة تجمع بين طرفين، فقد تمّ النّظر إلى العلاقة الإيروسية على أنها التّحام طرفين لهما المقصد الشّهواني نفسه. وقد يتبيّن بالارتكاز علم أوصاف العلاقات الخارجية وعلى الملاحظة

¹ Ibid, pp77-84.

² Ibid, pp77-84.

³ 58.-Freud, Au- delà du principe de plaisir, pp, 47

المباشرة، أنّ الطرفان المرتبطان بعلاقة إيروسية، ملتحمان بدليل الالتصاق والتلامس "السطحي"!!! أو "العميق"!!!، وأنّ هذا الالتحام يعني أن يذوب أحدهما في الآخر ويتمزج معه في وحدة كليّة دائمة، إلا أنّ العلاقة تنتهي -وهي ليست نهاية مرغوبة- بانقطاع التّواصل والاتصال وإدراك هشاشة وظرفية الالتحام، وكأنّ هذا الانقطاع موجود ليفسح المجال لشيء آخر:

" ولكن القول أن ازدواجية الجنسية تفترض كلاً، يعني أننا سنطرح مسبقاً الحب كالتحام. إن رثاء الحب يكمن في ازدواجية الكائنات والتي لا يمكن التغلب عليها. إنه علاقة مع ما يتهرّب للأبد. إن العلاقة لا تقهر في آن واحد/ ipso facto الغيرية، ولكنها تحتفظ بها. إن رثاء الشّهوانية *la volupté* يكمن في واقعة كونها اثنان. إن الآخر كآخر ليس هنا موضوعاً يصير نحن، ولكنه على العكس ينسحب في سرّيته (غيبيته). إن سرّية الأنثى - الأنثى التي هي بشكل أساسي آخر - لا تحيل أيضاً إلى بعض المفاهيم الرومانسية للمرأة الغامضة (السريّة) المجهولة أو غير المعروفة [...] أريد أن أقول ببساطة أن هذا السرّ لا يجب أن يُفهم بالمعنى الأثيري *le sens éthéré* لنوع من الأدب، ولا أن يفهم بالمادّية الأكثر وحشية والأكثر وقاحة أو الأكثر ركاكة لظهور الأنثى، فلا-سرّها ولا-احتشامها قد ألغيا. إن التّدنيس ليس نفيًا للسرّ، ولكنه أحد العلاقات الممكنة معه.¹

وبذلك، فقد استطاع لفناس تجاوز عقدة الدنس الملازم لتلك العلاقات، باعتباره دنسا جسمياً ينقل الإنسان من حالة الطّهارة إلى حالة اللان-طهارة، مع ما يستوجب ذلك من طقوس الاغتسال والاستحمام لاستعادة الطّهارة والطّهر. أضف إلى ذلك الدنس الرّوحي الذي يعني نوعاً من الاعتداء على عفة وحرمة المرأة ونقائها. ورغم هذا العائق، يتحوّل التّدنيس إلى مجرد حلقة وسطى للارتباط بالسرّ (الغيب). وبالتالي، فإنه رغم ما يظهر في العلاقة الإيروسية من تكريس لمبدأ اللذة المستفيضة، وفقدان المقصد في المداعبة والتلمس والتّدنيس بشكل من "الوحشية" والعنفوانية، إلا أن ذلك لا يفقد الأنثى سرّها وغيبيتها، ما يجعل التّعالّي ممكناً نحو المستقبل. "إن فينومينولوجيا الشّهوانية التي سأمر عليها هنا-الشّهوانية ليست لذّة كغيرها من اللذات، لأنها ليست لذّة منزوية/معزولة مثل الأكل والشّرب- يظهر أنّها تتنبّت رؤانا حول دور ومكانة الأنثى الاستثنائي وحول غياب كل التحام في الإثارة الجنسية *L'érotique*".² وهناك أشكال عديدة للحصول على اللذة، يكون فيها الموضوع المحقق للذة غير مشارك فيها، على خلاف ممارسة الحب والشّهوانية التي تحتاج للمشاركة والقرب والوجه ولكن تحتاج أيضاً إلى "المسافة"، ويتساءل لفناس من جديد:

"هل يمكننا أن نصف الاتصال مع الآخر بواسطة الإيروس على أنه إخفاق؟ مرة أخرى نعم، إذا تبيننا علم مصطلحات الأوصاف المعتادة، وإذا أردنا أن نصف الإثارة الجنسية بـ "الامتلاك" و"الاستحواذ"

¹ Levinas, *Le temps et l'autre*. Op.cit, pp 77-84.

² Ibid, pp 77-84.

أو "المعرفة". إلا أنه لا يوجد أي من هذا أو إخفاق كل هذا في الإيروس، لأنه إذا أمكننا أن نملك ونفهم ونعرف الآخر، فإنه لن يكون الآخر، ومنه فالامتلاك والمعرفة والفهم هي مفاهيم السلطة [...] وبالمناسبة، فإن الاتصال مع الغير يسعى إليه عموماً كالتحام، وقد أردت بالتحديد تكذيب أن تكون العلاقة مع الغير هي غياب الآخر، ليس الغياب الواضح والبسيط، وليس الغياب الخالص للعدم، ولكن غياب في أفق المستقبل، الغياب المتمثل في الزمن. أي الأفق الذي يمكن أن تتشكل فيه حياة شخصية في خضمّ الحدث المتعالي، والذي أسميناه سابقاً الانتصار على الموت [...]"¹

وإن تعميق البحث في المشهد الإيروسى يكشف أن الطرفان في مسعى متواصل لاكتشاف شيء ما، بدليل اليدين اللتين توظفان لهاته الغاية واللتين تتحركان في كل الاتجاهات، وهذا النمط من الحركة يتم إدراجه في "المداعبة" التي يُعتقد أنها من أجل أغراض استثارة الشهوة ومضاعفة الأحاسيس، ولكن يتبيّن:

"أنّ المداعبة هي طريقة وجود الشخص، والذي يذهب في اتصاله مع آخر إلى أبعد من هذا الاتصال، والاتصال ينتمي كإحساس إلى عالم النور. ولكن المداعب ليس ملموساً بالتعبير السليم، فليست الشهوانية أو فتور هاته اليد الممنوحة في الاتصال هي ما تبحث عنه المداعبة. إن بحث المداعبة لا يدري عما يبحث، فهاته اللا-معرفة وهاته الفوضى الأساسية هي المهم. إنها مثل لعبة بلا مشروع ولا خطة مطلقاً، ليس مع ما يمكن أن يكون لنا ويكون نحن، ولكن مع شيء آخر، دائماً آخر، دائماً مع ما يتعذر الحصول عليه، ودائماً القادم. إن المداعبة هي انتظار ازدياد الجوع، وانتظار الوعود الأكثر غنا، والتي تفتح أفاقاً جديدة على ما هو بعيد المنال. إنها تتغذى من الجوع الذي لا يعد ولا يحصى"².

إن هناك شيئاً ما يتجاوزنا ويفلت من بين أيدينا ولا يتمكّن عقلنا من فهمه واستيعابه، ولكن رغم ما يظهر في الإيروس من سلبيات ناتجة عن عدم إدراك لحقيقة العلاقة، سواء من طرف الفكر الفلسفي ممثلاً في أفلاطون أو التحليل النفسي ممثلاً في فرويد، إلا أن بفضل -وفق التحليل الجديد الذي يقدمه لفناس- يمكن التفكير في الغيرية، الخصوبة، المجتمع والميتافيزيقا:

الغيرية : يطرح لفناس عدداً من الأسئلة حول إمكان علاقة غيرية بين طرفين لا يحاول أحدهما أن يعلي من شأنه على حساب الآخر، ولكن أين تكون الغيرية في ذاتها مطلباً مشتركاً، وهذا ممكن في حدود العلاقة المفتوحة نحو السرّ والمستقبل، حيث:

"إن آثار العلاقة مع الآخر كامنة في الحياة المتحضرة، والتي يجب إعادة البحث عنها في شكلها الأصلي. فهل توجد وضعية تظهر فيها غيرية الآخر في شكلها النقي؟ وهل توجد وضعية أين لا تكون

¹ Ibid, pp 77-84.

² Ibid, pp 77-84.

فيها الغيرية لدى الآخر مجرد اتجاه سعودي لهويته، وأين لا يخضع فقط لقانون المشاركة الأفلاطوني [...]؟ ألا توجد وضعية تكون فيها الغيرية مدعومة بطريقة إيجابية من طرف كائن وكأنها ماهية؟ ما هي الغيرية التي لا تتدرج ببساطة في تعارض نوعين من نفس الجنس؟ أعتقد أن العكس والعكس تماما، أي أن الألم لا يتأثر في شيء بالعلاقة الممكن حصولها بينه وبين ما يرتبط به. إن الألم الذي يسمح في النهاية بالبقاء آخر بشكل مطلق، يتمثل في الأنثى/الأنثوية.¹

ب. الخصوبة (من الوحدة إلى التعدد): يمكن أيضا التفكير في الوحدة والكثرة بطريقة جديدة، كما هو الحال في العلاقة الموجودة بين الزمن واللحظة، فالزمن هو خصوبة اللحظة، أو يمكننا أن نقول بأن اللحظة تتجب الزمن.

إن "الزمن هو بشكل ما خصوبة اللحظة، فالامتياز المدرك في الإيروس أنه يسمح بإعادة التفكير في الوحدة والكثرة بطريقة جديدة".² وإمكانية المصالحة بين الميتافيزيقا والإيطيقا تبقى قائمة، لأن النعالي يحتاج إلى الانفصال، والرغبة في الآخر هي في الحقيقة "رغبة ميتافيزيقية". إن "الرغبة المستحضرة بدءا من الصفحات الأولى والمسماة رغبة ميتافيزيقية (الكليّة والنهائية، ص3)، هي معطاة بمعنى غير معتاد تماما، ما جعل لفناس يخصّص أسطرا طويلة من أجل تحديدها - الأمر يتعلق بالحركة الذاهبة من الأنا نحو الآخر - فالرغبة هي العلاقة الميتافيزيقية التي تضع الواحد في علاقة مع الآخر".³ إن الخصوبة تمثّل تجاوزا وتغلبا على الموت الذي يضع حداً للمسعى الغيري، وبذلك تشكل الولادات الجديدة والكثيرة امتدادا لأنا في أنا آخر:

" أمام حدث خالص وأمام مستقبل محض والمتمثل في الموت، أين لا يستطيع الأنا حياله شيئا. أي أنه لا يمكنه أن يكون أنا - بحثنا عن وضعية أين مع ذلك يمكنه أن يظل أنا، وقد أطلقنا اسم الانتصار على الموت على هذه الوضعية. ومرة أخرى لا يمكننا أن نصف هذه الوضعية بالسلطة. كيف في غيرية ال: أنت، يمكنني ألا أدوب في ال: أنت، وبدون أن أتوه، وأن أبقى أنا في ال: أنت؟ بدون أن أكون مع ذلك الأنا الذي أنا عليه في حاضري، أي الأنا الذي يعود قديرا إلى ذاته؟ كيف يمكن للأنا أن يصير آخر بالنسبة لذاته؟ وهذا لا يمكن أن يصير إلا بطريقة واحدة، ألا وهي الأبوة".⁴

إن الخصوبة لها معنى آخر أيضا، فهي كذلك قدرة على اتخاذ مصير آخر، غير المصير المفروض علينا أو المحدد لنا بواسطة القدر. ورغم ذلك فإن لفناس يستمد نظريته من التراث الديني المسيحي، حيث يبقى وفيا لمقولات "الأب" و"الابن"، ويتبين ذلك من خلال تحديده لماهية الابن في علاقته مع أبيه:

¹ Ibid, pp 77-84.

² Tayse, Eros et fécondité. Op.cit, p187.

³ Ibid, p262.

⁴ Levinas, Le temps et l'autre. Op.cit, pp 85-89.

" ومن جهة أخرى فإنّ الابن ليس حدثاً يقع لي من أي نوع كان، كما هو الحال بالنسبة لحزني أو امتحاني أو معاناتي، إنه أنا، إنه شخص. وأخيراً فإنّ غيرية الابن ليست هي غيرية أنا آخر Alter ego. والأبوة ليست تعاطفاً من خلاله يمكنني أن أضع نفسي محلّ الابن، لأنه من خلال كياني أكون ابني وليس من خلال التعاطف. إن رجوع الأنا إلى ذاته والذي يبدأ المبدأ الإلهي (الإبوستاز / Hypostase) ليس هو إذا بدون عفو/غفران، بفضل الآفاق المستقبلية المفتوحة بواسطة الإيروس. وبدل الحصول على هذا العفو بواسطة الحلول المستحيل للمبدأ الإلهي، فإننا نحققه بواسطة الابن. إذ تتحقّق الحرّية ويكتمل الرّمن ليس فقط بواسطة مقولة السّبب ولكن بواسطة مقولة الأب [...] إن الأبوة ليست فقط تجديد للأب في الابن وامتزاجه فيه، إنها كذلك خارجية الأب بالمقارنة مع الابن ووجوداً متعدّداً. إن خصوبة الأنا لا بد أن تُقدّر تساويًا مع قيمتها الأنطولوجية. وهذا ما لم يحقّق حتى الآن، فواقع أنها مقولة بيولوجية لا يحدد بأي شكل من الأشكال مفارقة المعنى حتى السيكلوجي".¹

وإن تجاوز لفناس لكانت يكمن في التّركيز على الإيطيقا، ثم إنه يربط الأخلاق بالميتافيزيقا، وإذا كان موقفه من الإيروس في البداية يتميز بالتّجريد وعدم الواقعية، فقد تغير تدريجياً بحيث أصبح الإيروس وسيلة لتحقيق الغيريّة والإنجاب، وبالتالي فرصة لتدخّل العدالة والقانون من أجل تحديد حقوق الأسرة وواجباتها. وبالتالي، فهو يعبر عن وضعية حضارية قائمة على الكشف والإخفاء، وعلى تحويل الحاجة إلى رغبة توافقاً من جهة مع كانط، ومن جهة أخرى مع هيجل أيضاً.

ج. المجتمع الخصب: إن التّفكير في العلاقات الاجتماعية من منظور أفلاطوني يؤوّل بها إلى الآفاق المثالية والمطلقة، وكأنّ على الأفراد القريبين من بعضهم البعض أن يحاكو نماذج وماهيات ثابتة تحرّم المجتمع نفسه من الحيوية والحركيّة، فيصير بلا زمن وبالتالي بلا خصوبة. والفكر الوجودي نفسه ورغم حرصه على تشخيص مصادر القلق، إلا أنه مع هيدجر سيؤسس لنمط من التّعاشيش الاجتماعي وفق مقولة "الوجود مع" التي لا تتوافق كثيراً مع مطلب الغيرية.

يتعلق الأمر عند لفناس بالتّمتع بالحرّية الفردية، بقدر ما يتعلق بتقاسم وتشارك هاته الحرّية، ما يسمح بتبدّل الوضعيات والانتقال من وجود يكون فيه كل واحد قرب الآخر أو معه، إلى وجود متمثّل في التّموقع قبالة الآخر، لأنه لا يتم التّعرف على الوجه إلا من خلال هذه الوضعية. لم يعد الأمر إذا منحصرًا في مقولات إما الوجود (الحرّية) أو عدم الوجود (فقدان الحرّية)، ولكن الأمر هنا قابل لأن يفسح المجال أمام مقولة ثالثة هي بين الوجود والعدم إنها وضعية المشاركة والتّعاشيش، ومن ثم كل موجود يصير مزدوجاً. وبذلك فإننا نلاحظ أن التّقّد قد مسّ التّصور الأنطولوجي للوجود (زينون الإيلي) والتّصور المثالي للعلاقات الاجتماعية (أفلاطون) والتّصور الوجودي لها (هيدجر). يقول لفناس:

¹ Ibid, pp 85–89.

"لقد أردت أن أبرز أن الغيرية ليست فقط وجود حرية أخرى بجانب لي سلطة عليها أو أنها غريبة عني مطلقا، بدون علاقة معها. إن تعايش عددا من الحريات هي تعددية تجعل وحدة كل واحد سليمة، أو أن هاته التعددية تتوحد في ثنائية تتعلق بالوجود نفسه لكل شخص، والوجود نفسه يصبح مزدوجا، وبذلك فقد تم تجاوز المفهوم الإيلي للوجود. إن الزمن يشكّل ليس فقط الشكل المتخلى عنه للوجود، ولكن حدثه نفسه. إن المفهوم الإيلي للوجود يهيمن على فلسفة أفلاطون، أين كانت التعددية أدنى من الواحد، وأين كان دور الأنتى مفكرا فيه ضمن مقولات الانفعال والفعل، وكان مختصرا في المادة. إن أفلاطون لم يفهم الأنتى في مفهومها الخصوصي الإيروسّي/الإغواي. ولم يترك للأنتى في فلسفة الحب دورا آخر غير ما تعلق بتوفير مثال للفكرة، التي هي وحدها تكون موضوعا للحب. وكل خصوصية علاقة الواحد بالآخر تمرّ مرّ الكرام. إن أفلاطون يصنع جمهورية تحاكي عالم المثل، إنه يضع فلسفة لعالم النور ولعالم بلا زمن. وبداية من أفلاطون سيتم البحث عن المثل الاجتماعي في مثال الالتحام. وسنضنّ أنّ الفرد يفكر في علاقته مع الآخر بالتّماهي معه، وذلك بالذّوبان في تمثّل جماعي، وفي مثال مشترك. إنه المجتمع الذي يقول "نحن" والملتفت إلى المثل المعقول وإلى الحقيقة والذي يحسّ بأنّ الآخر بالقرب منه وليس قبائلته. إنه المجتمع الذي يتكوّن بالضرورة حول مفهوم ثالث يلعب دور الوسيط. وتواجد الواحد مع الآخر Le Miteinander يبقى هو أيضا مجتمع الـ مع / l'avec وحول الحقيقة يتكشف في هيئته الأصليّة/الأصيلة. إنه مجتمع حول شيء مشترك، وإنه أيضا في جميع فلسفات وحدة الشّعور/التّواصل. إنّ طريقة العيش عند هيدجر تجد نفسها في الموضوع وحده وفي مصطلحات الوحدة يتواصل تحليل الوجود هنا/الدازن Dasein في شكله الأصيل".¹ ويضيف قائلا: "حاولت في مجتمع الوجود إلى جانب، معارضة مجتمع "أنا-أنت" ليس بأخذ معنى بوبر Buber، أين تبقى المعاملة بالمثل La réciprocité علاقة ورابطة بين حريتين منفصلتين، وأين تكون خاصية الذاتيّة التي لا مفرّ منها منعزلة وغير مقدّرة. لقد بحثت عن تعال زمني لحاضر نحو سرّيّة (غيبية) المستقبل. وهذه ليست مشاركة في حدّ ثالث، سواء كان شخصا، حقيقة، عملا أو مهنة، إنها مجتمع وليست مشاركة. إنها المواجهة وجها لوجه بلا وسائط، وهي ممنوحة لنا في الإيروس، حيث أن القرب من الآخر يحافظ كلية على المسافة. والرتاء يكون في الوقت نفسه نابعا من هذا القرب ومن هاته الثنائية".²

د. الميتافيزيقا وإحياء القيم الدّينية: إن حركة التّاريخ عند لفناس عبارة على حركة مستديرة تبدأ بالحياة وتنتهي بالحياة، ولا يشكل الموت في الحقيقة إلا حلقة وسطى (جسر) بينهما وليس نهاية، إنه بذلك يعبر عن معتقد وإيمان دينيين، إن لم نقل أحد حيل الغيب من أجل جعل مسؤوليتنا تجاه أقراننا مسؤولية ممتدة عبر لانهائية الزمن، لأن حصر الحياة في الهنا الأرضي هو مبرر لكلّ الشّرور التي

¹ Levinas, *Le temps et l'autre*. Op.cit, pp 85-89.

² Ibid, pp85-89.

يقترفها النَّاسُ، ولكن الإيمان بالهناك (الحياة بعد الموت) ليس مبرراً للانزواء عن العالم (التَّصَوُّف) بحجة مجانية الشَّرِّ، لأن ذلك يمكن أن يتسبب في إيْهام الإنسان أنه ليس من بني البشر، ما يجعله ينخرط باسم المقدَّس في العنف. لا يهَمُّ بالنسبة لـ لفناس أن نعيش مع، بجانب أو قرابة البشر، ولكن المهم هو نعيش في وضعية "وجها لوجه" Face to face والتي تسمح لنا بملاحظة وجوههم من أجل أن نكتمل مشاركتنا في الهنا والهناك. يقول:

" لقد بدأت بمفهوم الموت انطلاقاً من مفهوم الأنتى، وقد وصلت إلى الابن، ولم أعمل بطريقة فينومينولوجية. إن استمرارية التطور تتعلّق بجذلية تبدأ من الهوية لتصل إلى المبدأ الإلهي (L'hypostase)، من تسلسل وارتباط الأنا بالذات، متوجهين إلى المحافظة على هذه الهوية والمحافظة على الموجود، ولكن في إطار تحرير الأنا بالنظر إلى الذات. ومثّلت الوضعيات الملموسة التي حُلّت، اكتمال هذا الجدول. وإن كانت بعض الوساطات قد تمّ تجاوزها. ووحدة هذه الحالات-الموت، الجنسانية، الأبوة- لا تظهر حتى الآن إلا بالنظر إلى مفهوم السُّلطة المقصاة من طرف هذه الحالات.¹ إن مثل تلك النُقطة ليست جديدة تماماً، فمن المعروف أن الإيروس أو قوة الحياة، قد تم توظيفه لمعارضة الموت (التناتوس Thanatos) أو القوة المهذّمة.

و"المقصود من هذا المصطلح عند الإغريق قديماً الموت، ولم يستخدمه فرويد نفسه ولكن فيدارن P. Federn هو الذي أدخله. وهو كثير الاستخدام في التحليل النفسي للدلالة على اندفاع الموت في نفس الوقت الذي يعني فيه الإيروس في كتابات فرويد مجموع اندفاعات الحياة. إن هدف الإيروس هو المحافظة على أكبر قدر من الوحدة، إذا له دور المحافظة، إنه الاتصال. أما اندفاع الموت، فإنه يهدف على العكس من ذلك إلى تحطيم كل العلاقات، يهدف إذا إلى تحطيم وتدمير الأشياء، فهدفه النهائي هو تحويل كل ما يحيا إلى الحالة الجامدة (اللا-عضوية).²

وفي الأخير، نتساءل هل يحاول لفناس إحياء المسيحية في شكلها البدائي؟ يمكننا أن نقول أن المملكة الإلهية لا تأتي كحدث نهائي يتوج حركة التاريخ أو يعبر عن نهايته، ولكنها كامنة في قلب كل فرد له قابلية لأن يتحوّل. ولقد دعا المسيح إلى محبة الجميع، والإحسان سراً، وعدم الرّغبة في الغنى، وعدم محاكمة أي أحد، وعدم القيام بالعبادات علانية. ووقف ضد كل مأسسة للمسيحية، أي ضد الدّولة، وضد الجماعة، وضد الكنيسة. إن "المسيحية البدائية هي هدم للدّولة، إنها تمنع القَسَم، الخدمة العسكرية، المحاكم، الدّفاع الشرعي، وتمنع الدّفاع عن الجماعة أياً كانت، وتمنع أي تمييز بين المواطن والغريب، وتمنع حتى تراتبية الطبقات".³ إذا، ومن هذا المنطلق، يمكن القول أنّ لفناس يعمل على استعادة المسيحية

¹ 89.-Ibid, pp85

² Dictionnaire de psychologie- Roland Doron, Françoise Parot- PUF 1991, Octobre. P 683

³ 1. Texte établi par Friedrich Wurzbach, traduit Nietzsche Frederich, La volonté de puissance, tome .176 de l'allemand par Geneviève Bianquis. Gallimard 1995, p190, p

في وضعيتها الخالصة باعتبارها "ممارسة وليست مذهباً، إنها تبيّن لنا كيف نتصرّف، وليس فيما يجب أن نؤمن".¹ حيث أن المسيح في البداية كان يتوجّه مباشرة إلى الحقيقة الداخلية، وإلى مملكة الله الموجودة في قلب كل واحد، فما كان يهّمه هو أن يصير الإنسان متّحداً مع الله وسعيداً. ولكن هذا التّوجه الأول لم يكن ليرض الكنيسة التي كان عليها أن تعيد زحزحة معنى المسيحية إلى مكان آخر، عن طريق التضخيم من شأن المعجزات، تكثيف طقوس العبادة وتعقيدها والتّركيز على الخطيئة الأصليّة وعلى الغفران والعقاب.

إن المسيحية لا تتموضع في التّاريخ لتحرير الإنسان من الزّمن أو من بطش التّاريخ، ولكنها تعمل على جعله يدرك بأن خلاصه ونجاته لا يمكن أن يتحققا إلا بفضل الزّمن وبفضل التّاريخ، ففيه ظهر المسيح، وفيه ظهر الوحي. إن "الحالة الإسكاتولوجية للإنسانية حتى وإن كانت عودة لوضعية النّعيم، فإنها لا يمكن أن تكون استرجاع أو إعادة الإنتاج المطلق للواقع كما كان عند بداية الخلق. والإسكاتولوجيا لا تهدم التّاريخ، بل هي نهايته واكتماله".² إنّ العمل على تحقيق الذات الإنسانية في وضعيتها الأولى والأصيلة عن طريق تهديم الزّمن والتّاريخ، لا يتوافق مع المسيحية التي تستعمل التّاريخ والزّمن كوسيلة من أجل الخلاص الذي لا يعني العودة إلى الحالة الأصليّة. فبالنّظر إلى التّاريخ وإلى المسار العام للبشريّة، يتّخذ الخلاص درجات ومستويات متعدّدة بحسب طبيعة الأعمال والمنجزات.

خلاصة:

لقد أمكن لـ لفناس انطلاقاً من رؤية فلسفية ومسيحية أن يؤسس لعلاقة "غيرية" مفتوحة على المستقبل، مبرهنها بالتّالي على أن الأمر لم يعد مقتصرًا فقط على تلبية رغبة نفسية أو جسمية ولكنه صار مرهوناً بـ "رغبة ميتافيزيقية" تمرّ عبر الإنجاب الذي يأخذ معنى "الخصوبة" التي تتجاوز الموت وتنتصر عليه. وذلك في الحقيقة ينمّ عن روح مسيحية محكومة بمبدأ "الحب" بمعانيه المتعدّدة، أين يكون الإنجاب بمقاصده الكليانية متوافقاً مع "ممارسة الحب". وبالتالي، فهو يستقي معنى المشاركة من دلالات إنجاب المسيح "الابن"، الإنجاب الذي بفضل منحه الله نفسه للمشاركة. وبالتأكيد فإن هذه المصالحة بين الإلهي والإنساني لها مقدّمات في المسيحية، وإن كان لفناس يعيد التفكير فيها من منطلق إنساني مبرزاً أهم الصّعوبات التي تعيق تثمين الإيروس وتفعيله في صيرورة التّاريخ الكوني، فإنه على العموم يتطابق مع المسيحية لصالح توجّهات مثالية، مثالية للغاية.

¹ Ibid, p178.

² Mystique et pensée chrétienne. Op.cit, p.20.

دور العلاج النسقي البنيوي الاسري في تحسين التواصل داخل الاسرة

د. لكحل مصطفى¹ جامعة سعيدة

أ. حوتي سعاد² جامعة تلمسان

مقدمة:

تعتبر الأسرة مجتمعا مصغرا يتفاعل أعضائها فيما بينهم وفقا لعلاقات تربطهم ببعضهم البعض، كما يعرفها minuchin (1967) بأنها نسق يعمل داخل السياقات الاجتماعية تميزه الدينامية والسيروية العلائقية والتبادل المستمر بين أفراد الأسرة والمحيط الاجتماعي (داليا مؤمن، 2004، ص: 135). حيث ان التفاعل بين اعضاء النسق يساهم في تكوين البنية الاسرية، و أي تغيير فيها يؤدي الى تغيير في سلوك افراد النسق العام الذي على شكل سلوكيات مضطربة تؤثر على توازن الاسرة. و نظرا لكثرة السلوكيات المضطربة داخل الاسرة، اهتم الباحثون بدراسة هذه الخلية و حاولوا تحليلها و فهم سبب الخلل الموجود فيها، ومن هنا ظهرت اولى بوادر المقاربة النسقية و التي كان الفضل في ظهورها الى الباحث البيولوجي bertalanffy ومعهد الابحاث النفسية palo alto بكاليفورنيا بالولايات المتحدة الامريكية الذي جمع عدد من الباحثين و المعالجين النفسانيين ليكون هذا المعهد اول منطلق للتنظير النسقي.

دون ان ننسى دور كل من *باتسون* و *جاكسون* في تطور هذه المقاربة من خلال الابحاث التي قاموا بها و التي تعتبر اساس معهد الابحاث النفسية، حيث ركزوا فيها على الاتصال (cybernetique) والانساق (systèmes) والعلاقة القوية بين المصطلحين حيث ان للاتصال بين اعضاء النسق دور في التأثير على البنية الاسرية باعتبار الاتصال خاصية من خصائص النسق (Amardjia Nacerdine، 1988، p:36).

فالتواصل هو أداة تربط الناس ببعضهم البعض عن طريق تبادل المعلومات او الخبرات في نطاق المحيط الاجتماعي وهو عملية ضرورية لاستمرار الحياة الاجتماعية، ولنقل التراث و الحضارة من جيل الى اخر، ويكون الاتصال بين افراد الاسرة لفظي او غير لفظي، فاللفظي يأخذ شكل العبارات أما الغير اللفظي فيتمثل في لغة الجسد مثل الايماءات و الابتسامة و غير ذلك (سعيد حسن العزة، 2000، ص: 82).

¹ جامعة سعيدة

² جامعة تلمسان

و لتحسين الخلل الموجود في عملية التواصل بين افراد الاسرة حاول المعالجون المطبقون للعلاج النسقي ومن بينهم *سلفادور مينوشن* التركيز على التفاعل المتبادل بين افراد الاسرة الذي اساسه : البنية -الحدود -الانساق الفرعية.

ذلك لأن عملية التكفل العلاجي تكون انطلقا من هذه المبادئ،حيث تتمثل مهمة المعالج هنا في تحديد حدود الانساق الفرعية و تحديد البنية الأسرية ،فمثلا: الحدود الموجود بين النسق الزوجي و النسق الاخوي هي التي تحدد كيفية تواصل افراد هذين النسقين .

يختلف الاتجاه العلاجي النسقي المتبع باختلاف رواه وفيما يلي سيتم عرض النموذج النسقي البنيوي لسلفادور مينوشن و أهم مبادئه و اهم المراحل المتبعة في عملية العلاج .

العلاج النسقي البنيوي :

يرى *سلفادور مينوشن* أن الأسرة نسق اجتماعي يتكون من اجزاء معينة يربطهم التفاعل المتبادل، حيث كانت اهتماماته حول عناصر النسق والعلاقات الداخلية بين اعضاء النسق العائلي وبين الاسرة والانساق الاجتماعية الاخرى(عبد الفتاح تركي موسى،بدون سنة، ص:36). و من اهم عناصر هذا الاتجاه :

1-البنية :

يعود مفهوم البنية حسب *مينوشن* إلى القوانين و القواعد التي تحدد من يتفاعل مع من داخل الأسرة،و يفترض *مينوشن* وجود بناء متسلسل هرمي في الاسرة يمتلك فيه الوالدان قوة اكبر من الأطفال ، و يمتلك الأطفال الاكبر سنا مسؤوليات اكثر من الاطفال الاصغر،كما ان الوالدان عادة ما يأخذان ادوار مختلفة فقد يكون احدهما المؤدب للأطفال في حين يكون الاخر عنصر موفر للعطف للأطفال(Albernhé et .K.Albernhé،2000،p:95)

2-الانساق الفرعية :

ان الاسرة النواة التي بناها الزوجان تضم اربعة انساق فرعية اساسية و كل منها له وظائف و انماط في تفاعلاته و اتصالاته و هذه الانساق الفرعية هي :

*النسق الفرعي الزوجي او نسق الشريكين و الذي يتكون من الزوج و الزوجة .

*النسق الفرعي الوالدي و الذي يتكون من الوالدين كسلطة تنفيذية تحدد القواعد و القرارات في

الأسرة و توفر الدعم الانفعالي و المادي للأطفال.

*النسق الفرعي الاخوي و يتكون من الاخوة الاشقاء و غير الاشقاء و يوفر التفاعل بين الاخوة.

*النسق الفرعي خارج الاسرة و يتكون من الأسرة الممتدة (الأقارب) و الأصدقاء(علاء الدين

كفافي،2006،ص:341)

3-الحدود:

هي ذلك الحد الذي يفصل الانساق الفرعية عن بعضها البعض لتضمن لهم الاستقلالية حيث يمكن ان تكون هذه الحدود اما واضحة او جامدة او مفتوحة ، الا ان الحدود الواضحة تبقى مطلبا مثاليا ذلك لأن البنية الاسرية فيها تتميز بالمرونة عكس الحدود الجامدة فهي لا تقبل الاختراق مما يؤدي الي افراط في شعور بالاستقلالية مع نقص في التواصل مع الاخرين ،اما الحدود المفتوحة فتتميز بالعلاقات المتشابكة التي تجعل كل عضو في الاسرة يتدخل في عمل و خصوصيات الاخر (Mony Elkaim،p:224).

تعتبر النقاط التي تناولناها باختصار العناصر الأساسية للعلاج النسقي البنيوي ، الا أن هذه العناصر لا يمكن استخدامها إلا في العملية العلاجية التي تعتمد على ثلاث خطوات اساسية هي: الانتماء الفعال - تقييم الأسرة و اعادة البناء. و يكون هدف التكفل هنا هو تغيير النمط التفاعلي الخاطئ بين اعضاء الاسرة وتحقيق التواصل والتفاعل الايجابي و الفعال .يصف *مينوشن* ثلاث خطوات مميزة خلال عملية تطبيق البرنامج النسقي البنيوي و التي من الممكن ان تتداخل فيما بينها، وهذه الخطوات هي: (K.Albernhe et T.Albernhe، 2000، p:97-98)

الانتماء أو الانتساب l'affiliation :

الهدف من عملية الانتماء هو تقليص المسافة بين الأسرة و المعالج ، حيث يرى minuchin انه يجب على المعالج حرفيا «ان يذوب» في الأسرة. لذلك فالانتماء هو تحالف قوي جدا مع الأسرة ، مع علاقة تعاطفية تولد الثقة و تسمح له بالدخول في وظيفة النسق ، فخلال هذه المرحلة من التكفل يبحث المعالج عن الامتصاص بالقدر الممكن لوظيفة الاسرة دون التشكيك فيها.

و من اجل فهم جيد لمعنى هذا التدخل، شرح minuchin بأنه في الخطوة الأولى يصبح المعالج ممثلا في الأسرة، في حين انه في خطوة إعادة البناء يعمل المعالج كمدير فضلا عن ممثلا.

2-تقييم البنية الاسرية l'évaluation de la structure familiale : هو عبارة عن تقييم دقيق جدا للأسرة، كما يعمل المعالج على وصف اداء الاسرة بأكبر قدر ممكن من الامانة من حيث البنية، الانساق الفرعية، و الحدود ويلخص استنتاجاته من خلال رسم الخريطة الاسرية بناء على النقاط السابقة.

3-اعادة البناء la restructuration:

بالمجرد من الانتهاء من مرحلة الانتماء و من تقييم البنية الأسرية ، و حصول المعالج على فكرة دقيقة إلى حد ما عن الوظيفة الأسرية ، ينطلق المعالج البنيوي في إنشاء فرضية العمل و يحاول توسيع مسافة العلاقات المتبادلة بين عضوين ، حيث يقول minuchin : «يعمل المعالج غالبا كمنشئ للحدود ، فيوضح الحدود المنتشرة و يفتح الحدود الجامدة».

فقد كان يطلب minuchin من أعضاء الأسرة أن يثبتون بشكل مختلف في مكتب الفحص الخاص به، و يقوم هو بترتيب المقاعد و تشجيع فرد ما من الاقتراب من فرد اخر بمعنى مبدأ إعادة

التنظيم المكاني، كما يرى ان يشارك المعالج شخصيا في العديد من جلسات العلاج مع ضرورة ادخال تعليمات «العمليات والواجبات» على اعضاء الاسرة للقيام بها بمجرد العودة الى المنزل. كما يعتمد المعالج في اعادة بنائه على تغيير العلاقات ، و بناء حدود جديدة، وكل هذا باستخدام الفنيات الثمانية واحدة تلو الاخرى او مع بعضهم (Mony Elkaim، p:236-234)، و هذه الفنيات هي :

1- العمل على التكوينات التعاملية المعتادة : يجب على المعالج تشجيع الاسرة على العمل خلال الجلسة اكثر من الاستماع او وصف مجموعة من الاحداث.

يساعد هذا النوع من التدخل اعضاء الاسرة على ادراك معاملاتهم الخاصة بأكثر حدة ، ويكون مكان المعالج في الوسط حتى يتسنى له ملاحظة العملاء خلال الجلسة ، و بالتالي هذا يؤدي الى منافسة فعالة تنتج قنوات جديدة للاتصال.

2- اللعب على المساحة و الفضاء : يمكن اعتبار اعادة التنظيم المكاني من بين التقنيات التي تسمح بتنظيم التعاملات الاسرية ، لهذا يجب العمل هنا على استخدام الفضاء الملموس بطريقة استعارية ، كل هذا من اجل تجسيد المسافة بين الاشخاص و قيام المعالج بتقريبها بتقريب الاماكن.

3- تعيين الحدود : يجب على الاسرة ان تحافظ على سلامة الانساق العامة التي شكلتها اكثر من محافظتها على الاستقلالية الوظيفية لكل عنصر فيها ، فالأسرة تتكون من نسق عام اضافة الى انساق فرعية : النسق الفرعي الزوجي-النسق الفرعي الوالدي - و النسق الفرعي الاخوي. يجب علي كل عضو فيها و كل نسق فرعي فيها التفاوض على الاستقلالية و التبعية ، لهذا يسعى المعالج هنا الى مساعدة اعضاء الاسرة الى الوصول الى احسن ازدهار نفسي اجتماعي داخل المجموعة الاسرية من خلال هذين المطلبين.

كما يقوم بتعزيز تفرد الاطفال بمنحهم الحقوق و الطرق المقاربة لسنهم و المتكيفة مع وضعياتهم داخل الأسرة ، مع ضمان ان تبقى حدود النسق الفرعي الزوجي واضحة الى حد ما ، من اجل حماية الزوجين من تطفل الاطفال او غزو اعضاء اخرين من الاسرة .

يرى minuchin أنه من الضروري وجود نسق فرعي والدي قادر على اتخاذ القرارات خاصة فيما يتعلق بتربية الأطفال ، إضافة الى سلطة كبيرة للوالدين على أبنائهم ، كما يحتاج الإخوة إلى حدود تحميهم من اجل أداء وظائفهم التعاملية (من خلال هذه الحدود يتعلموا المنافسة و التعاون و التعود على التجنب او التخلي ، وتعلم كيفية ابرام تحالفات او فصلها...).

4- الرفع من مستوى الضغوط و التوترات : اذا نجح المعالج في احداث ضغوط في جزء ما في النسق ، فستظهر إمكانات إعادة البناء اكثر وضوحا.

فهو يقوم اما بتجميد التكوينات التعاملية المعتادة ، اما بتسليط الضوء على الخلافات التي تميل الأسرة إلى اخفائها ، اما بشرح الصراعات السابقة الضمنية ، و أخيرا القيام ببناء التحالفات و الاتفاقات الزمانية مع احد أفراد الأسرة. مع منع أي تدخل من الام في العلاقات بين الاب و الاطفال.

5- اسناد المهمات العلاجية : تهدف هذه العمليات الى خلق أطر جديدة وظيفية ، تكون مقترحة من طرف المعالج خلال الحصص : فيشير كيف يكون اتصال اعضاء الأسرة و مع من ، مصاحبين هذا الوصف بالتحكم المكاني (تغيير مكان او توجيه المشتركين ،...) الذي يعتبر رمزاً للتغيير ، كما يعطي المعالج واجبات للأسرة للقيام بها في المنزل خارج الحصص .

6- استخدام الاعراض : يركز المعالج هنا على العرض الذي يعتبر كنواة للضغوط الاسرية، فإعادة البناء تكون ممكنة اذا استطاع المعالج تعزيز العرض من خلال الرفع من حدته، لكن يستطيع المعالج تطبيق تدخلات اخرى في ظروف معينة : يستطيع المعالج ايضا استخدام العرض مثلا بتقليص اهميته من خلال اعادة تعريفه او الاهتمام بعرض اخر .

7- التحكم بالجو العاطفي : بعدما اصبح المعالج حليفا للأسرة ، يستطيع المعالج من خلال تقليد نمط الأسرة العاطفي بشكل تضخيمي، استفزاز ردود فعل عامة للتغيير .

8- الدعم ، التعليمات والتوجيه: للدعم والرعاية المعنوية الذي تقدمه العائلات لأعضائها اهمية حيوية لكل واحد ، مثلما له أهمية لكل النسق، لذا يجب على المعالج تعزيز هذه العناصر من خلال تعليم اعضاء الأسرة كيفية التأكد من بعضهم البعض في الادوار الموكلة اليهم .

عندما يكون الأعضاء المسؤولين على الجماعة الأسرية غير قادرين على أداء وظائفهم، هنا ينطوي المعالج على ميزة لعب دور المدير حتى يكون كنموذج ، ثم يتخلى عن هذا الدور من اجل السماح للوالدين باستعادة وظيفتهما.

خلاصة :

يمكن ان نستخلص مما سبق ان للعلاج النسقي الأسري - مهما اختلفت اتجاهاته- ، دور فعال في تحسين التفاعل و التواصل بين افراد الأسرة الذي من شأنه ان يساهم في القضاء على أي سلوك مضطرب داخل الأسرة. فقدره اعضاء النسق على الواصل السليم تساعد و بشكل كبير في حل المشاكل الت تعتبر المولد الأساسي لأي اضطراب يسم هذا النسق.

المراجع

*باللغة العربية :

1-داليا مؤمن (2004) ، الأسرة و العلاج الاسري ،الطبعة الاولى ، دار السحاب للنشر و

التوزيع ، القاهرة ، مصر.

- 2- سعيد حسن العزة (2000) ، الارشاد الاسري (نظرياته و اساليبه العلاجية) ، الطبعة الاولى ، مكتبة دار الثقافة للنشر و التوزيع ، عمان ، الاردن .
- 3- عبد الفتاح تركي موسى (بدون سنة) ، البناء الاجتماعي للأسرة ، المعهد العالمي للخدمة الاجتماعية ، مصر .
- 4- علاء الدين كفاقي (2006) ، الارشاد الاسري ، دار المعرفة الجامعية للنشر و التوزيع ، القاهرة ، مصر .
- *باللغة الفرنسية :

-MONY ELKAIM, panorama des thérapies familiales, édition du seuil, 5 paris.

- T.ALBERNE & K.ALBERNE(2000) , les thérapies familiales 6 , paris . ,édition masson systémiques

*المذكرات :

7-AMARDJIA NACERDINE (1988) , Traits spécifique de la famille du patient dépressif (milieu Algérien) , Thèse de doctorat de troisième cycle en psychologie , Université Louis Pasteur ,Strasbourg ,U.E.R.

صعوبات التعلم

ومصادقية نموذج التباعد بين الذكاء والتحصيل

د. بولفدام سميرة¹

ملخص المقال:

كشفت الدراسات عن كثيرا من نقاط الضعف فيما يتعلق بموضوع ما مدى مصداقية محك التباعد في تشخيص وتقويم صعوبات التعلم فأبدا الكثير من الباحثين تحفظات حول تحديد ذوي صعوبات التعلم اعتمادا على محك التباعد، حيث خلص هؤلاء الباحثين إلى أن التباعد بين الذكاء والتحصيل، لا هو ضروري، ولا هو كافي كمحك لتحديد ذوي صعوبات التعلم، فأصبح من الضروري إيجاد بديل يعالج قصور التباعد الدال بين الأداء المرتفع و الأداء الفعلي، مما أدى إلى التحول لنموذج الاستجابة للتدخل كبديل لنموذج التباعد.

الكلمات المفتاحية:

محك التباعد - صعوبات التعلم -الذكاء - التحصيل الأكاديمي - القدرة العقلية .

مقدمة:

عرف موضوع ما مدى مصداقية التباعد كنموذج للتحليل الكمي في تحديد صعوبات التعلم وتشخيصها، باهتمام المختصين في مجال صعوبات التعلم على اختلاف توجهاتهم، مما أدى إلى تراكم العديد من نتائج الدراسات والبحوث المشككة في جدوى محك التباعد كنموذج للتحليل الكمي مصداقيته في تحديد ذوي صعوبات التعلم، و المشكلة الأبرز هنا هي الافتقار إلى تعريف دقيق بين الأسس النظرية التي يقوم عليها، وبين التفعيل التطبيقي لمحدداته وآلياته، بحيث ينطوي على قدر من المصادقية النظرية والعملية، كل ذلك ستحاول معالجته في هذا المقال.

1- نماذج التباعد بين الذكاء والتحصيل في تحديد ذوي صعوبات التعلم:

تتميز نماذج التباعد المستخدمة إلى ثلاثة نماذج و هي:

أ- انخفاض التحصيل الدراسي عن متوسط الأقران داخل الصف الدراسي:

في هذا النموذج ينشأ التباعد عندما يكون التحصيل الأكاديمي للتلميذ أقل من متوسط أقران الصف الدراسي، وهنا يختلف متوسط أقران الصف عن المتوسطات أو المعايير المحلية، ويتميز هذا النموذج بارتباطه بوحدة المداخلات التدريسية على مستوى الصف لأخرى ، ومن مدرسة لأخرى ومن كل ولاية وضوابطه لولاية أخرى، مما يجعل عملية تحديد ذوي صعوبات التعلم معتمدا.

ب- انخفاض التحصيل الدراسي الاستعداد أو القدرات أو الذكاء للتلميذ:

¹ أستاذة محاضرة، شعبة علم النفس، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة سعيدة

في هذا النموذج، التباعد عندما يكون التحصيل الأكاديمي الفعلي للتلميذ أقل بانحراف دال عن مستوى استعداده العام، أو قدرته العقلية العامة، أو مستوى ذكائه العام، أو فوق المتوسط، أو وعلى ذلك يصبح التلميذ في عداد ذوي صعوبات التعلم عندما يكون ذكاؤه العام مرتفعا حتى متوسط، مع تحقيقه لمستوى تحصيل أدنى من المتوسط بانحراف أو تباعد دال. وهذا النموذج يتجاهل تباين مكونات الاستعدادات أو الذكاء العام أو القدرات العقلية المتعددة من ناحية، كما يتجاهل تباين مستويات التحصيل الأكاديمي النوعي من ناحية أخرى¹.

ويحدد ذلك حسب نموذج اللائحة الفيدرالية للقانون رقم 13294 الذي أقرز المحددات التالية التي جاءت بها اللائحة الفيدرالية: • عندما لا يحصل التلميذ تحصيلاً يرقى به إلى مستوى عمره العقلي أو قدراته أو مستوى ذكائه، مع تقديم كافة الخبرات التربوية الملائمة.

• إذا كان هناك تباعداً شديداً أو دال بين التحصيل الفعلي والقدرة العقلية العامة أو مستوى الذكاء في واحد أو أكثر من المجالات السبعة المرتبطة بمهارات الاتصال، والقدرات الرياضية.

• ألا يكون هذا التباعد أو الانحراف الشديد أو الحاد نتيجة لواحدة أو أكثر من العوامل التالية: الإعاقات البصرية أو السمعية أو الحركية - التأخر العقلي - الاضطراب الانفعالي - الحرمان البيئي أو الثقافي أو الاقتصادي.

ومع ذلك فإن هناك عدد من الباحثين يرى أن شمول القانون رقم 13294 له كان ضرورياً، إلا أن العديد من الباحثين يرو أن هذا القانون قد اختزلا صعوبات التعلم من حيث المفهوم، والمحددات، والآليات المتعلقة بالتشخيص والتقويم، في هذا الانحراف أو التباعد بين الاستعداد أو القدرة، والتحصيل².

في هذا النموذج يتحقق التباعد عندما تتباين الدرجات على الاختبارات الفرعية للذكاء، أو على أبعاد درجات هذه الاختبارات، أو درجات اختبارات عمليات تجهيز المعلومات، مثلاً: التباين بين درجات الجزء اللفظي (المعلومات) ودرجات الجزء الأدائي على

اختبارات ولكسر للذكاء، تباين درجات أنماط القدرات المعرفية³.

2- نماذج تحديد قسم التربية بالو.م.ا لذوي صعوبات التعلم :

يحدد قسم التربية بالولايات المتحدة ذوي صعوبات التعلم من خلال المحددات الكمية التالية: أن يكون لديه القدرة العقلية العامة التي تمكنه من النجاح في المدرسة (الاستعداد الدراسي) مع قصور أو انحراف أو تباعد دال في التحصيل الأكاديمي (القراءة، التهجي، الكتابة، الرياضيات)، أو أي مجال آخر للضعف أو القصور يؤهله لخدمات التربية الخاصة المحددة بموجب القانون السابق الذكر، ومن المسلم به أنه لا

1 محمد العمري: المتفوقين عقليا ذوي صعوبات التعلم، التعريف والتشخيص والعلاج، القاهرة، ط2 2002، ص33

2 فتحي السيد رحيم: سيكولوجية الأطفال غير العاديين، مكتبة الانجلو المصرية، 2002، ص231

3 حمد العمري، المرجع نفسه، صفحة نفسها.

يمكن إغفال علاقة التأثير والتأثر بين قصور التحصيل الأكاديمي من ناحية ، والأداء على اختبارات الذكاء من ناحية أخرى، ومعنى ذلك فإذا كان لدى الطفل قصور دال في التحصيل ، فإن الأداء على مقاييس القدرة العقلية الكلية أو الاستعداد أو الذكاء العام يمكن أن يتأثر نتيجة قصور العمليات المعرفية التي يستثيرها التعلم، والتي تقف خلف مختلف أداءات كافة الأنشطة الأكاديمية، ويرى بعض الباحثين أن التباعدات يتعين أن تكون داخل الفرد بمعنى أن صعوبات التعلم تعبر عن نفسها من خلال وجود تباعدات بينية دالة داخل الفرد في محددات أو مكونات الأداء العقلي المعرفي ومنها التحصيل الدراسي حيث يرى Algozzine 1983 و Ysseldyke أن الخاصية الأساسية المحددة لصعوبات التعلم هي الانخفاض الحاد في التحصيل وحده، أو ما يمكن أن يطلق عليه التباعد التحصيلي المطلق ، دون ربطه بالقدرة العقلية أو الاستعداد أو الذكاء العام ،مما يقلل من أهمية المستوى العقلي الوظيفي للفرد في تحديد صعوبات القراءة، الذي يعتمد عليه محك التباعد.

إن هذا التوجه يتجاهل العلاقات المتبادلة القائمة على التأثير والتأثر بين مستوى النشاط العقلي وعوامل استثارته، ومنها التحصيل الدراسي القائم على التعلم وعملياته من جهة أخرى هناك من ينتقد كل من نموذج التباعد داخل الفرد ونموذج الانخفاض الحاد المطلق في التحصيل على التباعد التحصيلي الحاد¹ -من التحفظات المهمة حول تحديد ذوي صعوبات التعلم اعتمادا على محك التباعد،مثل الانحراف أو التباعد الدال بين الذكاء والقدرة العقلية العامة من ناحية،والتحصيل الأكاديمي من جهة أخرى،طرح تساؤلات مهمة كالتالي:

- ما هو الاختبار أو الجزء منه،الذي يمثل القدرة تمثيلا جيدا ؟
- ماهية هذه القدرة أو ماهية الذكاء الذي يمكن اعتباره محددًا بمصادقية للمستوى العقلي الوظيفي للفرد ؟
- ب- من المسلم به انه لا يوجد اختبار واحد للقدرة العقلية العامة،أو الذكاء العام يقيس كافة القدرات المعرفية على نحو شامل محدد،و ذو مصداقية في التشخيص والتنبؤ.

ج-من المشكلات التي تواجه محك التباعد، مثلا: الانحراف الدال بين القدرة والتحصيل،المشكلات الإحصائية المتعلقة بثبات

الاختبارات، انحراف الدرجات نحو المتوسط،أو ما يعرف بأثر ميل الدرجات للاقتراب من متوسط المتغير التابع .

د-من المشكلات المرتبطة أيضا بمحك التباعد بين القدرة والتحصيل،مشكلة تحديد أي أنماط من القدرات العقلية المعرفية هو الأكثر أهمية وتأثيرا في كفاءة التحصيل الأكاديمي².

احمد ناصف ،صعوبات التعلم، بيروت دار المعرفة للطباعة والنشر،2007،ص¹

إماني بوخميس،البنية العاملة للكفاءة الأكاديمية ومحدداتها، بيروت،دار المشرق،2006، ص 113

ه- تشير الدراسات والبحوث إلى الضعف الشديد لمبررات قضية التباعد إلى حد التأكيد بقدوم مصداقية المحك كأساس يمكن الاعتماد عليه في:

• تشخيص وتقويم صعوبات التعلم .

• وفي تحديد الأساس المعرفي لهذه الصعوبات .

• وفي التنبؤ بكفاءة المعالجة .

وبالتالي يفتقر محك التباعد إلى الشرعية المنهجية في تحديد ذوي صعوبات التعلم، فمما تقدم نقول أن محك التباعد يحتاج إلى إعادة النظر في استخدامه كأساس لتحديد ذوي صعوبات التعلم¹ .

4- الحاجة لإعادة النظر في آليات التحديد الحالي لصعوبات التعلم:

تشير الدراسات والبحوث في مجال صعوبات التعلم إلى تعدد الأسباب والعوامل التي تقف خلف الحاجة لإعادة النظر إلى التعريف الحالي لصعوبات التعلم نذكر منها :

• ضعف مصداقية الانحراف الشديد الذي يقوم عليه محك التباعد.

• التباعد بين الصعوبات التكوينية و الصعوبات البيئية

• محك التباعد إغفال صعوبات التعبير الكتابي (حيث يغفل الإشارة إلى المكونات الأساسية للكتابة: الكتابة اليدوية، التهجي، التعبير الكتابي، ومهارات القراءة والفهم القرائي) .

• محك التباعد وصعوبات الفهم الاستماعي والتعبير الشفهي .

• محك التباعد وصعوبات التعلم المعرفية المنشأ.

• افتقار التعريف لآليات (آلياته التطبيقية) الكشف المبكر تجنباً لانتظار الفشل

• تداخل الفئات ذوي المشكلات التعليمية المدرسية المنشأ مع الحالات الشديدة لذوي صعوبات التعلم².

5- الواقع الحالي المعاصر لممارسات تحديد صعوبات التعلم:

إن أسلوب التباعد أو الانحراف الدال بين الذكاء أو القدرات أو الاستعدادات من جهة، والتحصيل من

جهة أخرى كمحدد لصعوبات التعلم، مسيطرة على آليات تحديد وتعريف ذوي صعوبات التعلم على امتداد

العقود الثلاثة الأخيرة من الق 20، رغم ما تحمله الفكرة (الأسلوب) من بعض المنطق، إلا أنها عجزت

على تقدم آليات للتدخل المبكر للتعامل مع فئة ذوي صعوبات التعلم، من حيث الكشف والتشخيص وحتى

العلاج³.

ومنه أصبح من الضروري إيجاد بديل يعالج قصور التباعد الدال بين الأداء المرتفع و الأداء الفعلي

، وتشير الدراسات والبحوث التي أجريت في الميدان، أن الاعتماد الكلي على محك التباعد خلق عددا من

¹ محمد العمري، المتفوقين عقليا ذوي صعوبات التعلم، قضايا التعرف، التشخيص والعلاج، القاهرة، عالم الكتب، 2002 ص 98

² محمد عبد الحليم، التعلم: المفهوم، النماذج، التطبيقات، القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية، 2003، ص 67-71

³ حسين محمد ابو رياش: التعلم المعرفي، دار المسيرة للنشر والتوزيع، ط 2007، 1، ص 34

من ناحية والتحصيل من ناحية أخرى بالتالي الحاجة إلى تطوير نماذج بديلة لنموذج التباعد في تحديد صعوبات التعلم، و قد دعت العديد من المؤتمرات الباحثين والعلماء والممارسين، إلى دعم وتأييد تبني نموذج الاستجابة للتدخل كبديل لنموذج التباعد .

الثاني: تحقيق الهدف الرئيسي للتربية الخاصة وهو مساعدة وخدمة المتعلمين المكافحين الذين ليس لديهم صعوبات تعلم أو أية إعاقات أخرى، حيث يمثل نموذج الاستجابة للتدخل بديلاً للمعالجة من خلال تقديم تصميمات تدريسية جيدة تكثف التدخل في ظل التربية العامة، ومن ثم التمييز بين ما هو ملائم للتلاميذ ذوي الانخفاض التحصيلي المدرسي، الذي يرجع إلى عدم كفاية المداخلات التدريسية، أو عدم ملائمتها، وبين التلاميذ ذوي صعوبات التعلم الذين يحتاجون لأنماط تدريسية مكثفة وملائمة وكافية .

الثالث: العامل الرئيسي الثالث الذي يقف خلف زيادة الاهتمام بنموذج الاستجابة للتدخل هو ما كشفت عنه الدراسات والبحوث التي أجريت حول هذا النموذج، وفي مقدمتها دراسات الهيئات والمنظمات ومراكز البحوث، والتي أكدت فاعلية نموذج الاستجابة للتدخل في تعريف وتحديد ذوي صعوبات التعلم على نحو يحد أو يقلص من عدد ذوي صعوبات التعلم¹ .

-الأسس النظرية التي يقوم عليها نموذج الاستجابة للتدخل :

يمثل نموذج الاستجابة للتدخل مكوناً أساسياً من مكونات العلاقة بين عمليتي التعلم والتعليم، وبمعنى آخر يقوم هذا النموذج على محاولة الإجابة على السؤال الرئيسي التالي: هل التدخل بما ينطوي عليه من استراتيجيات، وطرق وأساليب تدريس، ومناهج ومقررات، يقود إلى زيادة كفاءة التعلم على نحو ملائم لذوي صعوبات التعلم؟

لقد كان الهدف الأساسي لنموذج الاستجابة للتدخل في السنوات القليلة الماضية قائماً على تحديد الذين يحتاجون إلى خدمات التربية الخاصة، والتدخل العلاجي المرتبط بها، فقد اكتشف العديد من المربين والباحثين والمتخصصين أهمية وفاعلية مدخل الاستجابة للتدخل كبديل يمكن أن يوفر المحددين التاليين :

أ- البيانات المطلوبة للتدخل والتحديد المبكرين، لذوي صعوبات التعلم .

ب- التأكيد أن الطلاب يواجهون صعوبات تعليمية تتطلب وقتاً فعالاً، وتدعماً عاطفياً.

لقد أفرزت الدراسات والبحوث التي أجريت على نموذج الاستجابة للتدخل عدد من المحددات والآليات التي يقوم عليها النموذج، تتمثل فيما يلي² :

¹مراد على عيسى، وليد السيد خليفة، الموهوبون ذوي صعوبات التعلم، ط1، الإسكندرية، 2008، ص 18

²المرجع نفسه، ص 105

أ- التطبيق العلمي المنتظم للتدخلات القائمة على نتائج البحوث في الفصول النظامية للتربية العامة .

ب -قياس مدى استجابة التلميذ لهذه التدخلات .

ج- استخدام معلومات وبيانات التدخل في إعادة صياغة المداخلات التدريسية على نحو يحقق رفع مستوى وسلوكياً ونفسياً التلميذ ،لما تم الاتفاق حوله من الهيئات والمنظمات والمراكز البحثية الأربعة عشر التي شكلت المائدة المستديرة لصعوبات التعلم ووفقا لسنة 2004 ،فإن الأسس التي يجب أن يقوم عليها تطبيق نموذج الاستجابة للتدخل، يجب أن تشمل¹ :

1-مداخلات تدريسية عالية الجودة تقوم على نتائج بحثية وصفية، وذات مصداقية مع التدعيمات والمعززات السلوكية الملائمة في ظل التربية العامة النظامية.

2- التدخلات العلمية القائمة على نتائج الدراسات والبحوث التي يجب أن يتجه تركيزها على الصعوبات النوعية للتلميذ مع تكثيف الجهود حول التعامل مع هذه الصعوبات.

3- استخدام المدخل التعاوني القائم على المشاركة الكاملة لأعضاء هيئة التدريس بالمدارس والآباء والإداريين لتحقيق النمو واستمرار الدافع للإنجاز ودعم عملية التدخل.

4- يجب أن تعكس المعلومات والبيانات الوثائقية للتدخل ما يدعم استمرار تقدم أداء الطالب، خلال عمليات ومراحل وآليات التدخل.

5- إتاحة الفرصة الكافية لتوثيق مشاركة الآباء خلال عمليات التدخل.

6-تقويم مستمر وموثق يفيد أن التدخلات التي تمت أنجزت بدرجة عالية من المصداقية والثقة والإخلاص .

وفي هذا الإطار يرى (Fuchs 2003) أن نموذج الاستجابة للتدخل ينطوي على تطبيقين رئيسيين هما خاصية الوقاية من صعوبات التعلم، وخاصية تحديد صعوبات التعلم².

فأولاً: لتأكيد أنه يمكن بموجبه الوقاية من صعوبات يمكن وصف مدخل الاستجابة للتدخل باعتباره إطاراً تنظيمياً للتعلم (القراءة) أو منعها أو تجنبها، ولذا يمكن اعتبار هذا البعد بالوقائي، وثانياً: كمشروع أو نموذج من نماذج تحديد صعوبات التعلم، فالاستجابة للتدخل من جانب صعوبات التعلم أو الانخفاض التحصيلي أو التفريط التحصيلي للتلاميذ، وعلى معدلات تعلمهم وانحرافهم أو تباعدهم التحصيلي عن أقرانهم، ومن ثم علاجهم من خلال التدخل اعتماداً على البعد العلاجي، ويبدو ذلك من خلال التدخلات الوقائية والتقويمية وهذه الأخيرة تمثل تدخلات المستوى الأول والثاني والثالث والمتمثلة في الهدف التدخل وآلياته .

¹احمد ناصف، المرجع السابق، ص 57-76

²فتحي الزيات، المرجع السابق،ص91

ويمكن أن نميز هنا بين التدخل العلاجي، والتدريس العلاجي، فالتدخل العلاجي يعرف بأنه استخدام كافة الآليات الطبية أو التربوية، السلوكية والمعرفية، والنفس عصبية والإنسانية، المباشرة وغير المباشرة لتحسين المهارات النمائية والأكاديمية، باستخدام آليات معينة، لفئة معينة، بالتطبيق على محتوى معين، لفترة معينة، لتحقيق الأهداف المرغوبة، أما التدريس العلاجي يقصد به استخدام كافة الآليات التدريسية التربوية، ووسائل التعلم، وأساليبه، التي تستهدف علاج أو تحسين وتنمية المستويات المعرفية والأكاديمية لدى ذوي صعوبات التعلم.

إن الدراسات والبحوث المدعمة لنموذج الاستجابة للتدخل التي أجريت حول فاعلية أو كفاءة تؤكد أن هذا النموذج ينطوي على عدة مزايا لا تتوفر في نماذج أخرى، بما فيها نموذج التباعد، على النحو التالي¹:

1- يتيح هذا النموذج الفرصة للتعرف المبكر على كفاية وكفاءة المداخلات التدريسية بالنسبة للتلاميذ ذوي التحصيل المنخفض، سواء أكانوا من ذوي صعوبات التعلم أو من ذوي التفريط التحصيلي.

2- يكشف هذا النموذج عن العوامل البيئية أو الثقافية أو التعليمية أو الأسرية أو الاقتصادية التي قد تقف خلف انخفاض التحصيل الدراسي، مما يوفر الآليات المبكرة التي يمكن استخدامها أو توظيفها لاتخاذ الإجراءات الوقائية التي تمنع حدوثه كما يمنع تفاقم صعوبات التعلم إن وجدت.

3- يوفر الآليات الإجرائية بصورة علمية وعملية لتحديد ذوي صعوبات التعلم، ومن ثم استخدام آليات الكشف والتشخيص والتحديد المبكرة لذوي صعوبات التعلم، دون انتظار حدوث الفشل على النحو الذي يكرسه نموذج التباعد، كما سبق أن عرضنا.

4- تشير الدراسات والبحوث إلى أن نموذج الاستجابة للتدخل يعمل على توفير الآليات التالية عند التخطيط للتدخل المبكر: - فهم وتقويم أفضل لمدى جودة وفاعلية المداخلات التدريسية. - تقويم نواتج التدخل وفاعلي. - معالجة المتغيرات التي تحسن مخرجات التعلم ونواتجه من حيث التكرار والمدة- التوثيق بين المصادر والآليات المختلفة التي تستجيب للخصائص العقلية والمعرفية للتلاميذ، هذه الخصائص التي ينطوي عليها نموذج الاستجابة للتدخل لها تطبيقات إيجابية لكل من المعلمين والآباء في ظل نظم التربية العامة، والتربية الخاصة، كما يمكن في ظل آليات نموذج الاستجابة للتدخل اتخاذ الإجراءات التي تكشف عنى نحو دقيق عن ترتيب التلميذ بين أقرانه داخل الفصل المدرسي من خلال تقويم الأداءات الأكاديمية له في مختلف المقررات المدرسية، ومن ثم يمكن من خلال هذه الآليات تحديد التلاميذ ذوي صعوبات التعلم الذين هم عند مستوى الخطر، حيث يتم إعداد الخطط التربوية الفردية التي يمكن استخدامها في التدخل على نحو ملائم.

8- المزايا التي ينطوي عليها نموذج الاستجابة للتدخل:

¹ - سليمان عبد الواحد، صعوبات التعلم النمائية والأكاديمية، القاهرة، مكتبة الانجلو مصرية، 2009، ص 370-373

حدد (Mooloy & Case, Speec 2003) عدد من المزايا التي ينطوي عليها نموذج الاستجابة للتدخل، تتعلق بتحديد ذوي صعوبات التعلم، ومن هذه المزايا :

- 1- تقليص الاعتماد على التحديد أو التشخيص المبدئي للمدرس.
- 2- التركيز على المهارات الأكاديمية للطالب ، وليس العمليات المعرفية غير المرئية مثل قصور عمليات التجهيز التي يعتمد عليها نموذج التباعد..
- 3- التركيز على مهارات تعلم الطالب وليس مجرد التحصيل الحالي؛
- 4- استبعاد الحاجة إلى التباعد بين الاستعداد أو الذكاء أو القدرة - التحصيل.
- 5- تخفيض معدل خطأ التشخيص أو التحديد لذوي صعوبات التعلم.
- 6- الكشف والتحديد المبكر ين لذوي صعوبات التعلم المبنيين على تشخيص دقيق لمهارات تعلم الطفل، وتصميم برامج التدخل الملائمة لها¹.

وقد قدم² Vaughn (2003) تدخلات مكثفة من خلال دراسته التي قامت على التدخل من خلال خمسين جلسة لمدة عشرة أسابيع كل جلسة 35 دقيقة، وقد استهدفت هذه الدراسة تقويم فاعلية وجدوى نموذج الاستجابة للتدخل في تحديد التلاميذ ذوي صعوبات التعلم (القراءة) وقد شملت عينة الدراسة تلاميذ الصف الثاني الابتدائي، الذين تم تحديدهم باعتبارهم ذوي صعوبات قراءة عند مستوى الخطر على تقديرات المدرسين من ناحية، وفشل هؤلاء التلاميذ في استبيان تكساس للقراءة بناءً الأولية وفقاً للاختبار الذي أعدته وكالة تكساس للتربية، 1998 لمحك الاستبيان من ناحية أخرى، وقد ركز التدخل المستهدف على خمسة عناصر أساسية للنمو القرائي، وهي: • الوعي الصوتي الفونيمي • العلاقة بين أصوات الحروف ونطق الكلمات • طلاقة الكلمات • فهم السياق • المستوى التدريسي للقراءة من حيث الفهم القرائي والتهجي لمعارفهم القرائية .

كما قسم تلاميذ العينة المستهدفة إلى مجموعات ثلاثية وفقاً وطلب من التلميذ القراءة لمدة دقيقة واحدة يومياً كان يتم تقويم مستوى القراءة لدى التلاميذ أسبوعياً ، وبعد جلسات التدخل التي استمرت لمدة عشرة أسابيع، اختبر جميع التلاميذ باختبارات بعدية للتعرف على مدى اقتراب هؤلاء التلاميذ من المحك الخارجي، واستبيان تكساس للقراءة الأولية، حيث قدمت للتلاميذ الذين ارتفع مستوى قراءة إلى مستوى المحك مداخلات تدريسية عادية ملائمة، أما التلاميذ الذين لم يصل مستواهم القرائي إلى مستوى المحك قدمت لهم مداخلات تدريسية وتدخلات علاجية مكثفة .

وقد كانت أهم نتائج هذه الدراسة والتي تتعلق بجدوى التدخل ما يلي: كانت نسبة التلاميذ استمر مستوى التلاميذ جيداً 66 % ، أما التلاميذ الذين لم يستجيبوا لهذه التدخلات المكثفة، والمداخلات التدريسية عالية

¹ مراد على عيسى، المرجع السابق، ص 18

² سليمان عبد الواحد، المرجع السابق، ص 290

الجودة قدمت لهم تدخلات مكثفة أخرى على مدى 30 أسبوع، كانت نسبتها أقل من 25% من التلاميذ، وهؤلاء يتعين أن يخضعوا لتقويمات إضافية من قبل متخصصين في التربية الخاصة قبل تقرير اعتبارهم من ذوي صعوبات تعلم القراءة.

كما أجرى (Torgesen¹ 2001) دراسة استهدفت بحث قوة برنامجين معيارين مقننين للتدخل لدى ذوي صعوبات القراءة: الأول تحت اسم التمييز السمعي أعد بمعرفة (Lindamok & Lindamood 1979)، والثاني تحت اسم التضمنين الصوتي أعد بمعرفة الباحثين (Torgesen 2001) هدف تحسين مهارات نطق الكلمات لدى التلاميذ الذين تم تشخيصهم باعتبارهم ذوي صعوبات تعلم القراءة، وقد تراوحت أعمار التلاميذ بين 8-10 سنوات خضعوا لمعالجات قائمة على التدخل المكثف المباشر على أساس مدرس لكل تلميذ، في جلسات مدتها 50 دقيقة يفصل بينها فترة راحة قصيرة كل يوم من أيام الأسبوع المدرسي، وقد استمر برنامج التدخل لمدة تراوحت بين ثمان وتسع أسابيع حتى بساعات التدريس، وقد قام البرنامج على استخدام المواد الدراسية المقررة، وكان تركيز المدرسين على مساعدة الطفل على تطبيق المهارة المتعلمة المستهدفة خلال تدريب مكثف على هذه المهام داخل فصل ذوي صعوبات التعلم، حيث تم اختبار هؤلاء التلاميذ ثلاث مرات: بعد التدريب، وبعد سنة من التدريب، وبعد ثلاث سنوات من التدريب (التدخل) (وقد جاءت النتائج مدعمة لنموذج الاستجابة للتدخل على نحو جوهرى ودال، حيث أنتجت أساليب التدريس المستخدمة خلال برنامج التدخل، لدى الأطفال بمعدل وتحسناً نمواً من التدريس السابق لهم في غرفة يتفوق بفروق جوهرية على معدل نمو وتحسن هؤلاء الأطفال خلال ستة عشر شهراً المصادر وباستخدام تحليلات إضافية لبيانات هذه الدراسة تم التوصل إلى النتائج التالية:

• حدث تحسن ونمو دال طويل المدى في مهارات نطق الكلمات بالنسبة للتلاميذ الذين سبق تشخيصهم باعتبارهم ذوي صعوبات تعلم قراءة بالصعوبة أو الصعوبات تماماً .
أن التدخل يجب أن يكون مبنياً على المستوى الأول للتدخل يشكل أهم مستويات التدخل وآلياته. وفي ضوء ذلك يرى الباحثون أن نموذج الاستجابة للتدخل ينطوي على آليات وتطبيقات فعالة في تشخيص وعلاج ذوي صعوبات التعلم بصورة عامة، وذوي صعوبات تعلم القراءة بصورة خاصة .

خلاصة:

عرفت قضية مدى مصداقية محك التباعد في تشخيص وتقويم صعوبات التعلم، حيث كشفت الدراسات الكثيرة من نقاط الضعف خاصة فيما يتعلق بهذا الموضوع، وعليه تتمايز نماذج التباعد في ثلاثة نماذج استقطبت اهتمام الباحثين- كما ذكر في أول عنصر- وقد أبدا الكثير من الباحثين تحفظات حول تحديد ذوي صعوبات التعلم اعتماداً على محك التباعد، وبناء على كل ما سبق، ظهرت توجهات معاصرة

¹ سليمان عبد الواحد، صعوبات التعلم النمائية والأكاديمية، القاهرة، مكتبة الانجلو مصرية، 2009، ص 370

لتحسين تعريف صعوبات التعلم من حيث التوصل إلى نظام تصنيفي ذو مصداقية ،وتحديد محكم لصعوبات التعلم، فمثلا اقر الكونجرس الأمريكي قانونا (القانون العام 99157) يقضي بقيام لجنة الوكالة الداخلية لصعوبات التعلم (ICGD) تحت قيادة وإشراف المعهد الوطني لصحة الطفل والنمو الإنساني (NICHD) للقيام بدراسات شاملة حول هذه المشكلة من حيث: قضايا التعريف والتحديد، قضايا الوقاية، قضايا الأسباب، قضايا المعالجات .

التفكير الاجتماعي والتنظير السوسيولوجي

تكوك تواتي¹

مقدمة :

إن عنوان الغريال يحيلنا إلى نسيان الحمولات المعرفية العربية، كونها أصبحت مجرد تراث إفتقد المعنى والشحنات المعبرة و القدرات المفسرة لواقع معاصر لا يعيش الحداثة كما هي بكل تجلياتها وبكل عبقريتها و ان كان البعض يعيش كل صدماتها ربما كما كان الحال مع ميخائيل نعيمة ومن اصطف في صفه من المغتربين المنبهرين بزخرف الغرب.

ما عدا بعض الشخصيات التي تعد على الأصابع و التي حافظت على زادها القيمي والعلمي واستطاعت أن تكشف كل النقائص الموجودة في الأدبيات و النظريات الغربية من منطلق عقلاني وإنساني محض، بعيدا عن كل حساسية عرقية أو ذاتية تفقد الطرح قيمته وموضوعيته، كما واجهت أيضا كل الأخطاء و الادعاءات العنصرية في التراث العربي بما تقتضيه أساليب البحث الدقيقة .

فهي لم تكن من أنصار الأصولية التراثية و لا من مؤيدي الدغمائية الحداثية أو العلماوية المابعد حداثية و من أهم الأسباب التي أهلتها أن تقف هذا الموقف هو مسار تكوينها العلمي و تعرضها لقضايا ومسائل بعين أحاطت بجميع التفاصيل لتمحصها بعقل صاف وخال من كل خلفيات قد تشوش على فهم منطق الأشياء بالمعنى الدوركامي* وحركتها ، إضافة إلى التجربة الاجتماعية الطويلة بين عالمين مختلفين ، بين شرق لازال يؤمن بالقدر والطبيعة و ما ورائها و بين عالم تحكمه داروينية اجتماعية عزلت الدين منذ أمد بعيد ، عندما نتحدث عن هذه التجارب فنحن نتحدث عن كل ما صادفها في حياتها العلمية و العملية و الإنسانية في جميع المجالات والمستويات التي اشتغلت بها.

من أبرز هذه الشخصيات التي تتطابق عليها هذه المواصفات هي مالك بن نبي و عبد الوهاب الميسيري فكلاهما عانى محن الغربة و أزمت فكرية و معرفية و تقلبات إيديولوجية جعلتهما يمتازان و يتميزان عن البقية بطرح له قراءاته الخاصة و استقرائه لوضع معقد جدا يمتاز بالكثير من الخلط والغمض و التكديس ، لذلك سارعا إلى حللته وخلخلته مع التأكيد على اختلاف طفيف في التجربة فمالك بن نبي منذ البداية كان متشعبا بالطرح الإصلاحية المدرسي الباديسي و اقترابه من الماركسية الماوية بخلاف الميسيري الذي تميزت حياته الإيديولوجية بالتحول من الماركسية إلى الإيديولوجية الإسلامي². لكن السؤال المطروح ما هي أهم سمات التنظير العربي الموجود المتهم بالهزال و التلفيق؟و ما هي أهم المخرجات

¹ باحث في علم الاجتماع الثقافي، جامعة وهران

² عبد الوهاب الميسيري، الثقافة و المنهج. تحرير:سوزان حرفي، دمشق:دار الفكر،ط01، ، 2009 ، ص24.

*نسبة الى اميل دوركايم (1858-1917) عالم اجتماع فرنسي، من كبار الرواد السوسيولوجيين أحد مؤسسي علم الاجتماع الحديث، وضع لهذا العلم منهجية مستقلة تقوم على النظرية والتجريب في آن معا واحد متأثرا بدقة بالمنهج التجريبي والعلوم التجريبية. أبرز مؤلفاته تقسيم العمل الاجتماعي، قواعد المنهج السوسيولوجي، الانتحار، الاشكال الاولية للحياة البدائية .

النقدية لتجاوز مثل هذا الضعف النظري؟ و ما هي إسهامات كل من مالك بن نبي و المسيري النقدية و التأسيسية لنظرية عربية تتماشى مع احتياجات المجتمع العربي و مقتضيات العصر الحالي ؟

1 ضرورة نظرية عربية :

إن حالة الركام و التكديس النظري بلبلة العقول و جعلت كل يغني على ليلاه، حاملين شعارات قديمة و مستهلكة أفقرت أكثر مما أثرت استوتحت شرعيتها من التجارب التحديثية الفاشلة التي خاضها العقل السياسي العربي خاصة في الحروب التي شنها ضد الكيان الصهيوني و التي أصابته بنكسة ماضوية أحييت نصوصا ساهمت في تحفيز النفوس إلا أنها لم تحقق معجزات اجتماعية في التصدي للفقر و المخدرات و التفكك الأسري أو نماذج سياسية في إرساء الديمقراطية و العدالة و حرية التعبير و حقوق الإنسان و لا اقتصادية في دفع عجلة التنمية و الخروج من نمط الاقتصاد الاستهلاكي الريعي و محاربة الغش و الفساد .

بل ألهمت الصراع الفكري و الإيديولوجي بمزايدات حول الوطنية و الخيانة و شعارات رنانة جوفاء لا تقدم للجماهير سوى الوهم بإدخالهم للفردوس السماوي (فردوس الإسلاميين) أو فردوس الأرض (فردوس التقدميين و الحداثيين) و نحو التسلط على المجتمع و امتلاك السلطة خرج النقاش من الأطر الأكاديمية و الروح العلمية إلى ممارسة الإرهاب الفكري و نمت و تطورت أسقام و أشكال مرضية لدى النخب تتعلق بالمازوخية و الفيختية الفكرية (كما عدد لذلك عبد الاله بلقزيز)¹.

و عليه يمكن أن نحدد ثلاث اتجاهات متصارعة فيما بينها حول ضرورة التراث من عدمه² :

أ . الحداثيون : الذين يرون أن تحديث العقل العربي لا يكون إلا بالقطيعة المطلقة مع التراث لتحقيق الحداثة.

ب . التراثيون : أي المتشبثون بالتراث المحذرين من حيلة القطيعة و بهرج الحداثة لأن في ذلك مدخل من مداخل الهيمنة العالمية الجديدة .

ج . الوسطيون (التأصيليون المعاصرون) : وهم من يرون في العلاقة مع التراث علاقة اتصال و انفصال في الوقت نفسه و هو ما يدل على استنادهم على الماضي لبناء الحاضر وفق قيم العصرية و الحداثة الحقيقية .

إن كان كل هؤلاء متشبعون بأسس و مبادئ نظرية و أصحاب قناعات و أهداف سياسية تتراوح بينهم بين الشك و اليقين و بين المداولة و الفصل فيوجد بينهم لاسف من هم دونهم أو أقل منهم بكثير ،

¹ عبد الاله بلقزيز , نهاية الداعية "الممكن و الممتنع في أدوار المتقنين" . المغرب و لبنان: المركز الثقافي العربي , ط 1, 2000 ص 38,44 .

² عبد العزيز حمودة, المرايا المقعرة "نحو نظرية عربية نقدية". الكويت: عالم المعرفة، 2001، ص 181 .

إلا أنهم يظنون في هذا فرصة لتسويق أنفسهم كمنظرين أو مؤدلجين و لديهم من الجسارة الكافية للإدلاء برأيهم في مواضيع كثيرة تحتاج للدراسة والتبصر .

و فريق آخر هم بالخطورة بما كان على العقل العربي لأنهم يقفون في الوسط بين كل هذا و ذلك بدون علم أو فقه بما يجري من حولهم مستأنسين بكل التيارات لا يفرقون بين غث و سمين¹.

إن هذا العراك يقع في خانة المرجعية و الهوية التي يجب أن يحتكم إليها الخاص و العام في خلجات أنفسهم وخطرات بالهم و أفعالهم و نشاطاتهم، لكن هذه المرجعية ليست بقدرتها المعهودة في إيجاد تأويلات تحفظ لها وجودها في تعاطيها مع ما يدور حولها بالتفنيد و الابتكار ، بل دجنت و أضيف لها من المفاهيم و المصطلحات التي زادت في إشعال جذوة رفض التاريخ العابرة للقارات بحكم عدم جدواها و قلة فعاليتها و عجزها على التعبير والشرح والتفسير بخلاف ما عهد على اللغة العربية - كحارس لهذه المرجعية - التي امتازت ببيانها و تبيينها.

لنذكر على سبيل المثال بعض المفاهيم التي خرجت عن إطار ما اصطلح عليه "المواضعة" التي تتعلق بشروط يتم فيها التفاعل مع ثقافة واردة وفق ما تقتضيه الاحتياجات المعرفية للثقافة الأصلية في تفاعلها مع الآخر و إن كانت هذه الشروط غير موجودة في الحقل المعرفي و الأكاديمي العربي بسبب تعرضه للكثير من التخريب و الابتذال لأنه لم يحترم ذاته و وقف مبهورا مندهشا أمام ثقل نظريات لها من الترسانة في التفكيك و البناء و التأويل ما لها فجعلته يشعر بحال من الأحوال بجهل كبير منعه من الانتقاء و الفحص و إعطاءه دلالات لمدلولات لا تعكس معناها لا من قريب أو من بعيد لأنه رضي بالسهل الممتنع دون أن يحفر في تاريخية التراكيب أو في رواسبها واشتقاقاتها فوقع تحت طائلة الإسفاف و الارتجال².

من بين تلك الأمثلة نورد المقارنة التالية بين مضمونين لمفردتين اثنتين هما (الخطاب) و (النص) وما يعنيه كل منهما في النسق العربي و الغربي.

إذا كان الخطاب في القاموس العربي اللغوي و العلمي يعني كل ما هو مفروض شرعا فقط بدون إشارات أي أنه يحيل إلى الكلام و إلى كلام الله تحديدا كما أتى في القرآن الكريم " و آتيناها فصل الخطاب " أو "عزني في الخطاب" ، كما يحيل معنى النص إلى علم الأصول فالنص لا يحتمل التأويل كما عبر أبو حامد الغزالي إذ يوجد تطابق كبير بين المعنى اللغوي و الاصطلاحي في تعريف النص بحكم أن النص الذي هو قرآن أو حديث هو مصدر للتشريع (عبادات، عادات، معاملات) و عليه فكل ما شرع منه لا يقبل الاختلاف لأنه يحمل معنى ظاهر للجميع ، بخلاف معنى النص و الخطاب في

¹ نفس المرجع ص 158 .

² عبد الله الابراهيم، الثقافة العربية و المرجعيات المستعارة. الجزائر: دارالاختلاف، الرباط: دارالآمان، لبنان: الدار العربية للعلوم ناشرون، ط 1. 2010. ص 130 .

المعرفة الغربية والذي يعني وفق علم اللسانيات و التأويل أي الخطاب "الكل" أي السياق أما النص فيعني الجزء الذي يعمل في سياق هذا الكل من خلال الكتابة و الكلام و الصورة والإشارات و الرموز أي كل ما يوحي إلى ذلك الكل¹ .

و هكذا أراح المعنى الغربي للخطاب و النص المعنى العربي و لم يدخل معه في لقاء مواضعي، يضع المفهوم الأنسب والأصح الذي يليق بخصوصية الصيرورة العربية لتتضح الصورة أكثر لا بأس من سرد شاهد آخر. لماذا يؤخذ تعريف ريفردي Reverdy للصورة الشعرية كتعريف معتمد في الكتب و المؤلفات العربية ويترك مثلا تعريف عبدالقاهر الجرجاني في كتابه أسرار البلاغة ؟

لنسرده التعريفين الإثنيين و ننظر أيهما بلاغة و فصاحة في تقريب المعنى².

التعريف الأول لريفردي " إن الصورة إبداع ذهني صرف و هي لا يمكن أن تتبثق من المقارنة و إنما تتبثق من الجمع بين حقيقتين و واقعتين تتفاوتان في البعد قلة و كثرة ... و إنما... يمكن إحداث الصور الرائعة تلك التي تبدو جديدة أمام العقل بالربط دون المقارنة بين حقيقتين بعيدتين لم يدرك ما بينهما من علاقات سوى العقل ."

التعريف الثاني للجرجاني " و هكذا إذا استقرت التشبيهات و وجدت التباعد بين الشئيين كلما كانت أشد كانت إلى النفوس أعجب و كانت لها النفوس أطرب و كان مكانها إلى أن تحدث الأريحية أقرب" .

هذا المثال يعكس جدا كبيرا للذات و تقزيمها لدرجة ألا ترى القدرة الإنشائية و التعبيرية للتعريفات العربية، إن النص العربي في حاجة إلى إنعاشه برمييه في حلقات التداول و التلقي ، اذ لا بد من التخلي عن التبعية في كل شيء و التي لم تزد العقول العربية إلا خبالا.

أولا لأنها ليست ابنة البيئة المعاشة فهي تعبر عن أطر سوسيو معرفية مغايرة تماما .

ثانيا أسبئ ترجمتها و نقلها بحسن أو سوء نية .

فلو زدنا الى مفهوم النص والخطاب مفهوم التفكير والقطيعة لوجدناها مفاهيم بقدر ما فيها من الإيجابية بقدر ما أحالت أو أسست لوقائع غير موجودة و حوارات عقيمة بمعنى أنها أوجدت فوضى مفاهيمية و اصطلاحية خلاقة فالتفكير أوجد معنى اللا شرعية أو اللا كل والقطيعة أوجت بمعنى الفراغ و التشرذم و التفتت³، هكذا نسأل مع الغدامي* عن مدى حضور المعنى و غيابه في تلاقي ثقافتين

¹ نفس المرجع، من ص 141 الى ص 149 .

² المرجع السابق ، ص 174 .

³ نفس المرجع، ص 152 .

مختلفتين و هل لابد من هذا اللقاء بمعنى هل هو ضرورة تفرضها احتياجات الذات العارفة أم هو يدخل ضمن تكتيكات و حسابات الذات العارفة المزيفة التي ضعفت أمام هيمنة الثقافة الغالبة على العالم .
و عليه لابد من نظرية عربية ذات معالم تعمل منها و مواضيع تعمل عليها ، تحقيقا و تدقيقا ،
نثمينا ونقدا ، تجاوزا ومفارقة ، لأنه توجد من الدوافع ما بها يتحقق التطلع و الانطلاق و من الأسباب
ما تزيد في النكبة والجهل والمراء وأول ما يبدأ به تقوية الثقافة خاصة الثقافة النخبوية من أجل تقوية
المعرفة هذه القوى المعرفية والثقافية هي ما اجتمعتا في شخص بن نبي و المسيري ، بحكم اطلاعهما
الواسع وشبكة العلاقات المترامية الأطراف التي أسسوها في العالم العربي والعالم ككل إذ مكنتهما من
استنتاجات هامة وإنتاجات علمية مهمة لها أصالتها و أحزمتها ووسائلها الخاصة في تطوير العلم
واستغلال وسائل التكنولوجيا لما يتناسب مع ذوقها وقيمها .

لإيجاد نماذج مشابهة يجب البحث في معرفة الظروف الموضوعية الخاصة بمجتمعنا و كتسب
خبرات تميزنا عن غيرنا لتشكيل منظومة مفاهيمية و بناءات معرفية متحررة من كل عقدة نقص أو
تفوق¹ ، هذا بالفعل ما قام به المسيري و بن نبي في وضع متعفن و كأنهما يسيران على خطى بن
خلدون وهو يرقب انحطاط الحضارة الاسلامية والتكالب المغول والوندال عليها فترى ما الإضافة التي
قدمها كل منهما على حدا ؟ ماهي القضايا المشتركة التي شغلتهما تفكيرا وتنقيا ودراسة ؟

2 مالك بن نبي :

* عبدالله بن محمد بن عبدالله الغدامي من مواليد عام 1946 في عيزة .أكاديمي وناقد أدبي وثقافي سعودي، أستاذ النقد
والنظرية في كلية الآداب، قسم اللغة العربية، بجامعة الملك سعود بالرياض.حاصل على درجة الدكتوراة من جامعة إكستر
البريطانية، وهو صاحب مشروع في النقد الثقافي وآخر حول المرأة واللغة.
كان عضوا ثابتا في المباحثات الأدبية التي شهدتها الساحة السعودية، و نادي جدة الأدبي تحديدا في فترة الثمانينات بين
الحداثيين والتقليديين. لديه كتاب أثار جدلاً يؤرخ للحداثة الثقافية في السعودية تحت اسم (حكاية الحداثة في المملكة العربية
السعودية).

¹ شفيق إبراهيم صالح الجبوري، علم الاجتماع المعرفة عند ابن خلدون "دراسة نظرية تحليلية". عمان: دار غيداء للنشر
والتوزيع . ط1، 2012، ص215 .

ولد مالك بن نبي سنة 1905 بنيسة أقصى شرق الجزائر ثم أنتقل إلى قسنطينة مسقط رأس عائلته الأول ليزاول دراسته بها
وهناك إحتك بالمدرسة الباديسية وأعلامها و تأثر بهم أيما تأثر اشتغل في سلك القضاء بأفلو ثم تبسة ثم انتقل إلى فرنسا
ليتم دراسته بها فأقام بها زهاء عشرين سنة و حينها أتم دراسته كمهندس للكهرباء ، قد كانت له العديد من الرحلات في
العالم العربي إلى سوريا وليبيا و السعودية وفي مصر قام بترجمة أعماله بمبادرة من بعض رفقاءه و طلابه ، عندما أخذت
الجزائر استقلالها عاد ليعمل كمدير عام للتعليم العالي ، استقال من منصبه سنة 1967 ليتفرغ للعمل الفكري له العديد من
المؤلفات و المقالات والندوات ، توفي يوم 31 أكتوبر 1973 .

قد لخص مالك بن نبي مشكلة الحضارة كلها في مشكلة الإنسان ، و مشكلة الإنسان المسلم في تموقعه فيما بعد الحضارة أي الخراب الذي خلفه إهماله لموروثه و لهته وراء بريق الحداثة الذي لم يزد في تلك الصورة الرمادية المأساوية إلا المزيد من العفن و العدمية ، لتجد الأجيال الحالية التي سبقتها كبن الطبيعة المتوحش L'enfant sauvage فهو لا للطبيعة ينتسب و لا من التاريخ يقترب لا معايير تحكمه و لا قيم ترشده و سبب كل هذا في الرؤية البنابية الأفكار الميتة المتوارثة و الأفكار المميته المستغلة بصورة جيدة في حلبة الصراع الفكري للحفاظ على مواقع الإستقواء و الاستعلاء العالمي.

إن حالة الوهن و الهوان هذه كما يشخصها إبن تيسة هي نتاج عوامل داخلية و خارجية أي هي نتاج قابلية الاستعمار و الاستحمار الذين عطلا عملية الإقلاع الحضاري المنشودة و خربا كل وسائل وشروط النهضة الممكنة في تحقيق جو ثقافي كأرضية سوسيونفسية تذيب كل الشوائب الموجودة على خط طنجة جاكرتا بأدوات النقد الذاتي بمناهج تربوية تعيد للأمة ريادتها و فعاليتها على سائر الأمم والشعوب الأخرى بحكم مالها من مخزون إيماني و جمالي و أخلاقي و اجتماعي و اقتصادي وسياسي . على ضوء هذا ماهي أهم الأعطال و الأوبئة التي شخص لها بن نبي و ما هي الوصفة العلاجية التي حددها للتعامل مع هذه الأمراض ؟

1- الاستعمار : ان مالك من أكبر ضحايا المستدمر الفرنسي و هو كذلك من أكبر محاربيه لأنه استطاع بذكاء كبير أن يكشف كل خدعه و آلاعيه الماكرة و أخطر ما تخشاه القوى الإمبريالية هي النخب الواعية الفطنة ، فتعامل بن نبي مع محرك الصراع أنذاك ماسينيونلم يكن مع شخص فقط وإنما قوى أرادت أن تسلب الملغاشي أو الأهالي بوصفها الإحتقاري أرضهم (تراهم) و هويتهم وتجعل منهم مجرد روبوتات تؤمر فتنفذ.

إن الاستعمار لم يكن رأسمالية متوحشة و فقط أي نفوذ يسلب و ينهك و يعذب و يقتل و إنما أثير و مد فكري يسلب الأرواح و الآلباب بإفشاء الجهل عن طريق بعض الزوايا الصوفية الناشرة للبدع والشركيات و بإرساء مدارس فرنسية أنتجت "مولدين " من نوع آخر لازالوا يدافعوا عن أهم فرنسا و يرون فيها الخلاص لكل المشاكل ويزيدون من حدة النقاش حول الهوية و اللغة¹، التي فصل فيها أصلا بالنص الدستوري ، لكن ما تعمل عليه فرنسا و كل قوى الاستدمار أن تبقى تلك البلدان المستقلة و الحركات السياسية فيها تستدعي في كل مناسبة أوبدونها مواضيع تتعلق بالثوابت لا لشيء إلا إلهائها و تضييع وقتها و هدر طاقاتها و هذا ما تبغيه أجهزة الهضم التي خلفتها ورائها كحارس لمصالحها أو كما أسماه الرئيس الراحل هواري بومدين بقايا الحركة ، يقتاتون مما تجود به عليهم . و قد كشفت الأيام عن أسماء عربية كانت وراء هزيمة 1967 لاعبة دور الخيانة بامتياز و كما يقول المثل الحضارات تسقط لكن العملاء باقون.

¹ مالك بن نبي، من أجل التغيير. الجزائر: دار الوعي، ط1، 2013، ص26 .

إن الاستعمار كما يقول بن نبي " لا يستطيع أن يترك بلدا كان يستعمره و يغادره هكذا و بكل بساطة مخليا ورائه المكان للاستقلال الجديد"¹.

لتعد هكذا لمرحلة أكثر خطورة تنتقل فيها من الصراع المادي العسكري الاستيطاني إلى الصراع اللا مادي النفسي الذي تحركه مراصد و مراكز بحث و دراسات و شخصيات أفنت عمرها في الإستشراق والإثنولوجيا لتقف على التركيبات الشعورية العاطفية و العقلية للشعوب العربية و الإسلامية لتعمل على مكامن ضعفها و من أهم تلك الخيوط التي حبكت بها شراك الصراع الفكري في البلدان المستعمرة كما دون بن نبي نذكر :

أ - ألبسيكوز (الذهان): و يتجلى في تهويننا للأمور العظيمة الجليلة و تعظيمنا للأمور الصغيرة التافهة فبهذه الطريقة خسرتنا فلسطين فبعد رحيل الانجليز منها ظن العرب أن هذه البلاد ردت اليهم و بعد مجيء بواخر اليهود و بعض الأعمال التي قامت بها عصاباتهم ظنوا أنها مجرد جماعات يمكن الفتك بها بين عشية و ضحاها و سرعان ما انكشف السحر للمسحور ليجدوا أنفسهم يواجهوا الاستعمار القديم بأشخاص و معتقدات جديدة .

من بين ما قال بن نبي حول هذا المفهوم نستذكر "علينا أن نخشى الاستعمار عندما يستعمل حبة الرمل أكثر مما نخشاه حين يستعمل القنبلة الذرية لأن عمله حين يفلت تماما من إطار مراقبتنا فهو اذاك يعمل على المستوى الميكروسكوبي"².

ب - الذرية أو (التجزئية): و هي عدم القدرة على تجميع الأفكار و الحوادث أي التعاطي مع كل واحدة على حدا دون معرفة الرابط المنطقي و السببي بينهما و هذا إن دل إنما يدل على عقلية عربية عاجزة على فهم حركية التاريخ وواقع المجتمع المعاصر³ .

ج - تشويه القوى الواعية : و المقصود بذلك تلك الإشاعات التي ترسلها القوى المناوئة عندما تشعر بانكشاف خدعها من قبل جماعات متعلمة مثقفة فسرعان ما تكيل لهم حزم التهم و تقذفهم بأشنع النعوت و الصفات لتعرض الجماهير عليهم و تنفرها منهم ، مضيقه عليهم دائرة عيشهم بين زملائهم وطلابهم وأسرههم كي يصبحوا منبوذين و غرباء بين أهليهم و أوطانهم فتفقدهم مصداقيتهم وشرعيتهم امام الراي العام فبدل ان يصبحوا قدوة ومثلا يتحولون الى شياطين ملاعين.

ما يفلق المستعمر أكثر هو قدرة تلك النخب على استقراء الواقع و توليد الأفكار الناجعة النظرية والعملية لتجاوز حالة الغبن و الكساد المعاش فيسارع لتحريك أتباعه ليلحقوا أولئك المتمردين خوفا من أن تتحول تنظيراتهم إلى سياسات عامة تقود البلاد أو حركات تبشيرية فيسعى هو و من جندهم إلى

¹ نفس المرجع, ص 36 .

² نفس المرجع, ص 109,110 .

³ مالك بن نبي, الصراع الفكري في البلاد المستعمرة. دمشق: دار الفكر , ط9, 2009, ص 55 .

التشكيك في قيمة تلك الأفكار الخلاقة و الأخلاقية من حيث كونها صادقة أو في مستوى عقلانيتها أي في مدى استيعابها للأزمة و في امكانية مشروعية إنجازها أي بتعبير بن نبي يسعى إلى تشتيت الوحدة المقدسة للفكرة أي روحانيتها و سموها فتضطر بفعل الإشاعات و الدعايات للرجوع من حيث أنت وحينها يشعر صاحبها بالإحقتار و القمع و العزلة و الموت البطيء .

د - التبعية الاقتصادية (النفطية): يجب أن نتحرر من كوننا دول استهلاكية و شعوب إتكالية و نكون دول منتجة و شعوب عاملة و ذلك من خلال تحقيق اقتصاد القوت كما أسماه بن نبي ، اقتصاد التنمية ممتص من كل الاختلافات السياسية وفق ما يحتمه مبدأ المصير المشترك المحصن للدولة في الداخل والخارج من المضاربين و المحتكرين للأسواق.

للخروج من التبعية لابد من إقلاع اقتصادي يعمل على الاستثمار الاجتماعي اولا لا المالي و من أجل تحقيق الإكتفاء الذاتي بل التصدير للخارج يجب العمل على تحريك عجلة التصنيع و تصليح الأراضي كما فعلت هولندا و فرنسا في بوردو تحقيق التكامل الاقتصادي العربي في كل المجالات كضرورة تفرضاها التكتلات العالمية مع منع لكل تلك الشروخات و التصدعات التي أصابت هيئات افريقية و آسيوية فيما مضى .

إن تجاوز كل هذه الأعطال لا يكون بصب رؤوس أموال فالاستثمار المالي ما هو الا سيروم لإنعاش جسد متهالك أما العلاج الحقيقي كما سبق و اشرفنا اعلاه فهو في الاستثمار الاجتماعي أي في الإنسان بجعله أكثر عطاء و أداء و تقديما للواجب عن الحق و في تقديسه للوقت و مقته للبيروقراطية بمعناها النسقي السلبي، ضمن هذه الشروط ترتفع وتيرة الإنتاج وبتوج الفكر و يتحقق الاستقلال الحقيقي¹

2 - القابلية للاستعمار: هي نتاج الدور الدائم الذي يلعبه الاستعمار في التسويق لنفسه على أنه صاحب الإبداعات و الابتكارات . منقذ البشرية و مخلصها من كل أوجاعها . و في تجريحه للآخر و جعله أدنى رتبة منه لأنه جاهل و فقير و شرس ، فيتسلل إلى مخيال الاخر بطريقة لا شعورية عدم امتلاكه للكفاءة و لا الاستطاعة التي تؤهله في أن يكون على مستوى غريمه فيجزع و يسلم و يهين إنسانيته بأن يرضى أن يكون تبعا لغيره.

على هذا النحو يوطد الاستعمار لنفسه في ان يجعل أعداءه عبيده لأنهم في لحظة تاريخية انهزمت نفسياتهم وانكسرت روحهم لترى في الاستعمار الكبرياء و العظمة ، و بطريقة لا واعية تقع الشعوب تحت مخذر القابلية للاستعمار ، فهي مولعة به في حلها و ترحالها و لفك هذه العقدة يدعوا بن نبي إلى إخراج المستعمر من الأنفس كي تتحرر منه الأوطان².

¹ مالك بن نبي، بين الرشاد و التيه. دمشق: دار الفكر، ط1، 1978، ص66، 65 .

² مالك بن نبي، شروط النهضة. تر: عبد الصبور شاهين، دمشق: دارالفكر، ص 54

3 - شروط النهضة الحقيقية : بعد تحديد أهم المعالم الباتولوجية في التشخيص البنابي و التي تتضمن جرائم عديدة أولاها بالفحص الدقيق كالتكديس و السلعة و التشيؤ و الشعوبية و البوليتيك بحرف B الفرنسي لا P، قام بن نبي أيضا بشرح أهم المرتكزات التي تقوم عليها الحضارة و المراحل التي تمر بها و لنبدأ بمسألة كانت في صلب المشروع البنابي كقاعدة لإقلاع مسلم ما بعد صفين و ما ما بعد الموحدين:

أ- الثقافة : لقد عرفها أحد علماء الاجتماع على أنها "مجموع أساليب تكييف الإنسان للظروف تكيفا يجمع بين الانتقاء و التنوع و الاختلاف"¹ نستطيع ان نضيف التفوق او التجاوز والتطور، لو تأملنا التعريف جيدا لوجدنا المشكلة على محور طنجة -جاكرتا في عدم وجود وسائل ملائمة تتماشى و الخصوصية المحلية لتجعل التكيف ممكن ومقبول ومرحب به كإضافة يفرضها التنوع الثقافي أو كضرورة تتطلبها المنفعة و الحاجة البشرية .

إلا أن واقع الحال هو عيشنا في تخلف ثقافي رهيب إذ أصبحت تلك الوسائل المستوردة حاجات والمضامين التي تحملها قيم للمفاخرة و المباهاة في حالة تعكس فراغ نقدي و محاكاة مطابقة للغير وإيحاءات بذيئة ، مقلدة أو مكررة داخل نطاق المجال العام و الخاص .

للخروج من ثقب العولمة الأسود لابد من تعلم درس مهم بالتاريخ ألا و هو أن لكل حقبة تاريخية وبيئة اجتماعية وسائلها التي تختلف باختلاف الزمان و المكان و لكن للأسف العالم الإسلامي لم يدرك بعد هذه الحقيقة و هو بعد لم يعرف للثقافة طعم و لا لون و لا رائحة و يريد أن يستورد عالم الأشياء (التبعية التقنية) مغفلا الخطوة الأساسية والولادة الطبيعية و الشرعية للثقافة و الحضارة التي لا تكون إلا عن طريق عالم الأفكار الذي يوفر لامة او شعب ما أشيائه².

إن الثقافة تقوم بصناعة الفرد كما تقوم بصناعة المجتمع كي لا يكون أي تناقض بينهما بالعكس بل يصبح بذلك في حركة تاريخية واحدة موجهة في طريقة مضبوطة و دقيقة نحو الهدف المرسوم لهما ضمن برنامج تربوي يتألف من محاور أربعة يتخذ منها الشعب دستوراً لحياته المتقنة :

- 1 . عنصر الأخلاق لتكوين الصلات الاجتماعية .
- 2 . عنصر الجمال لتكوين الذوق العام.
- 3 . منطق عملي لتحديد أشكال النشاط العام.
- 4 . الفن التطبيقي الموائم (الصناعة كما عبر بن خلدون) لكل نوع من أنواع المجتمع³ .

¹ محمد العلي، نمو المفاهيم "تساؤلات و آراء في الوجود و القيم" . المغرب: المركز الثقافي العربي ، 2013 ، ص 11 .

² مالك بن نبي، مشكلة الثقافة. القاهرة، ط 2، 1391 هـ ، ص 36ص 39 .

³ مالك بن نبي، شروط النهضة. المرجع السابق، ص 87 .

عندما تلتحم هذه الإيقونات الأربعة في فسيفساء ثقافية تعكس خلفية أنطولوجية لجماعات أو مجموعات أو مجتمعات تعلمت المعنى الحقيقي للثقافة المتجسد في العيش المشترك و العمل المشترك و خاصة الكفاح المشترك¹، و لتحقيق هذا النوع او المستوى من العيش يجب العبور على ما يسميه بن نبي "الجو الثقافي " والذي لا يكون الا لمحصلة تراكمية تاريخية فأوروبا لم تعرف ثورة الاتصالات و التكنولوجيات إلا بعد حركة الإصلاحات الدينية والثورات الاجتماعية والسياسية ضد الكنيسة و الإقطاع و النبلاء والعلمانية كذلك لم تحقق وضعيتها النسبية إلا بعد جهود العديد من الأسماء و إتاحة القراءة (المعرفة) للجميع بفضل اختراع المطبعة و توفير السبل الحسنة لنشر وتعميم العلم للجميع فالراديو مثلا او غيره من الاختراعات ما كان ليكون جميلا بشكله الحالي لولا اجتهادات هرتز و غيره و علوم الفيزياء ما وصلت إليه الآن هو بفضل اجتهادات آنتستين و من قبله نيوتن و أرخميدس .

تحقيق الجو الثقافي مرتبط بحدة التوتر داخل الشبكة الاجتماعية المكونة من عالم الأفكار و الأشخاص والأشياء، لا مناص من وجود وازع قوي يدفع نحو خلق الأفكار و تحويلها إلى إبداعات و اختراعات تشجع جهد الفرد و النشاط الاجتماعي، في تحويل تلك الشبكة إلى شبكة تداولية و تأويلية لمعنى النهضة و التقدم و التطور و التغيير و الإمكان والإقلاع و المواكبة و التجاوز و الريادة و أخيرا الحضارة.

2 عبد الوهاب المسيري:

طالما ألح مالك على المنهجية إذ يقول أن الخطأ المنهجي خير من الصواب العشوائي و هو الذي عرف بطريقته العابرة للتخصصات بجمعه العديد من المشارب في كتاباته ما بين علم الاجتماع و علم النفس و علم الأنثروبولوجيا و اللسانيات و غيرها، فهو له أسلوبه و لغته في التحليل و الإقناع، إذ لا يتورع في ضرب أمثلة شعبية و قصص أسطورية تؤدي غرضا توضيحيا، كما يجب أن لا نغفل طبيعة نصوص بن نبي والاعتبارات التي ملئت على شخصيته المفكرة .

بخلاف عبد الوهاب المسيري و بالرغم من التشابه الكبير كما قلنا في البداية في الاهتمامات و المواضيع التي وضعوها تحت درس بحكم مكانتهم الثقافية في مجتمعاتهم و في العالم ككل، إلا أن

¹ المرجع السابق، ص134.

• عبد الوهاب محمد المسيري(1938,2008) مفكر و عالم اجتماع مصري تلقى تعليمه الأولي في مدينة دمنهور مسقط رأسه و في عام 1955 التحق بقسم اللغة الانجليزية بجامعة الإسكندرية و عين معيدا فيها عند تخرجه، سافر إلى الولايات المتحدة عام 1963 و بها تحصل على الماجستير في الأدب الانجليزي المقارن من جامعة كولومبيا عام 1964 و على الدكتوراه من جامعة ريتجرز بنيوجيرسي 1969، عند عودته إلى مصر قام بالتدريس في جامعة عين شمس و في عدة جامعات عربية وإسلامية كما كان عضو مجلس خبراء و تقلد العديد من المناصب في هيئات إقليمية و عالمية له العديد من الدراسات المهمة على رأسها موسوعة اليهود واليهودية و الصهيونية .

للمسيري نزعة الاكاديمية الواضحة والسبب دراساته المعمقة و اختياره الأول للعلوم الإنسانية مكنه من الإلمام بالعديد من الجوانب المهمة في هذا الحقل الحساس الذي لا زال يبحث عن نفسه كما قال جون ديوي عن علم الاجتماع باحثاً عن آلية تجعله مستقلاً عن العلوم التجريبية و عن السياسة متحرراً من كل العوائق الذاتية و التحرشات الاجتماعية الفوقية و التحتية .

إلى حد ما استطاع المسيري أن يتخلص من الكثير من المضايقات الداخلية و الخارجية و الضغوطات القديمة والجديدة ليشق لنفسه أسلوب هو أقرب للاتجاه النقدي (مدرسة فرانكفورت) و العقلاني (الفيري)

1. النموذج المعرفي لدى المسيري : لقد أحدث التطور الهائل للعلوم الفيزيائية صدمة على باقي العلوم والمعارف إذ تصدرتها كلها بفضل قدرتها على التحكم في موضوعاتها بسبب دقة مناهجها ومعقولية النتائج و الحقائق التي تتوصل إليها ، مما جعل المختصين في الأدب و الفن و اللاهوت وعلم النفس يتأثرون بها و يتماهون معها في تشييء الظواهر الإنسانية و تكميمها كمحاولة لتطبيق المنهج التجريبي والدافع وراء النزوع الى هذا هو (اعتبار العقل الإنساني واحد في استدلالاته و براهينه وطرق تفكيره فهو يشغل وفق قوانين و ضوابط محددة و ثابتة إنها قوانين كلية صالحة لكل زمان ومكان و من ثم اعتبرت هذه القوانين معايير العلمية و نموذج اليقين)¹.

هذا يخالف السيرة العلمية و المعرفية التي وثقت اختلاف كبير بين العلوم الإنسانية و التجريبية بحكم اختلاف الحقلين و فشل الاستعانة و الاقتباس الاصطلاحي ، هذا الذي أكد عليه ميشال فوكو في الكلمات و الأشياء في نزاعهما بحيث تبرر العلوم التجريبية و جود العلوم الإنسانية و ترى في نفسها سببا لوجودها بينما ترفض الثانية ذلك بدعوى الاختلاف في المنهج و الموضوع .

ان المسيري يرفض هذه القراءة و يرى في كل هذا نتائج لما تقوم به العلمانية الشاملة في محاولة جعل نفسها في مركز الفلك الذي يسبح فيه الجميع من حولها ، لان تيار العلمانية المتصاعد يريد تقويض كل العلوم بنزعة تكيمية تتعاضم فيها خاصية الضبط و التحكم بشكل آلي يفقد الإنسان إنسانيته و العالم ما ورائيته .

لقد آمن المسيري بضرورة التفرقة بين العلوم الإنسانية و الاجتماعية و العلوم الطبيعية و هذا ما لمس في الاتجاه الهيرومنيطيقي الذي ناهض النزعة الوضعية باستخدامه لمصطلحات جديدة غير التي كانت أي تغييره و محوه لكل أثر وضعي ، فهو استعمل مثلا مصطلح الفهم مقابل أو بدل مصطلح التفسير ، ذلك أن الكلمة الأساسية في التأويل والدراسات الإنسانية هي الفهم ، و الفهم هنا يعني كل

¹ عبد الاله ادالكوس, في نقد الخطاب الحدائي "عبد الوهاب المسيري و منهجية المناهج". بيروت و الدار البيضاء : المركز الثقافي العربي, ط1 , 2014, ص20.

الاعتبارات الجانبية للظاهرة الإنسانية و العوامل المركبة لها من الداخل و الخارج أما التفسير فيقصد به السببية التي أبدعها كونت في مجال العلوم الاجتماعية وشيئ لها إيميل دوركهايم.

لإعطاء الفهم بعدا علميا دقيقا و منهجا عمليا فعلا نحت المسيري مصطلح الأقل تفسيرا كبديل عن الذاتية و الأكثر تفسيرا كبديل عن الموضوعية حسما و اثراء للجدل الذي دار حول مشاركة الباحث (الذات العارفة) موضوع بحثها في محاولة فهمها و معرفتها لتلك الجوانب الداخلية و الخارجية المكونة لمادة الدراسة و على إثر هذا نستطيع تقدير ما مدى انسجام و تداخل الذات مع الموضوع ما بين حد أقل و أكثر تفسيرا ، أي أقل تداخلا أو أكثر تداخلا في الموضوع أو أقل انسجام أو أكثر انسجام مع الموضوع¹.

لقد كانت للمسيري مرونة كبيرة في التقرب من العديد من المدارس و النظريات و الرواد إلا أن ذلك لم يمنعه من انتقادهم و كشف بعض أخطائهم و زلاتهم لأنه كان مؤمنا و متشبعا بمبدأ المرجعيات المفارقة أي المرجعيات المؤمنة بفكرة المقدس و عالم اللاهوت و الناسوت و الإتحاد والحلول ومركزية الخالق لا المخلوق.

لقد أبدى هذا الرجل تأثرا كبيرا بالنموذج التحليلي لماركس فيير كون هذا النموذج ذو خاصية ماكرو

وميكروسوسبيولوجية تتجلى في الجمع بين (النمط المثالي) * و (النمط العقلي للفعل)**، عاكسا للواقع كما هو في صور مصغرة تتطابق معه و العلاقات المشكلة لبنية الظاهرة المدروسة و في جمعه للجزئيات الصغيرة و الكثيرة لا بوصفها مضامين متناثرة و إنما بوصفها بنية متكاملة متداخلة مشكلة لمفهوم ينطق عن الواقع و عن الأسباب الداخلية والخارجية للظاهر محل الدراسة².

أما وجه اختلافه مع فيير فيعود مثلا في إعطاء الأخير بعدا عقلانيا خالصا للحدائث و للمسارات التاريخية الفعالة التي أوجدتها كالبورجوازية و البيروقراطية و الإنتاج و القيم الدينية المسيحية واليهودية التي تدور حول الخلاص والتكشف والثروة و ما إلى ذلك بينما هي في المنظومة الإدراكية للمسيري مجموعة من المغالطات و التلفيقات التي توجي بتطور إيجابي نحو الكمال بينما في الحقيقة هي مجرد تدمير شامل للإنسانية و انعكاس لأنوار مظلمة .

¹ نفس المرجع، ص 28.

² نفس المرجع، ص 34 .

* هو تنظيم عقلي للعناصر المكونة المميزة المدركة بالعقل و هو أيضا مجموعة من العمليات الاستدلالية و الاستقرائية التي يراد منها أن تكون أدوات يمكن بواسطتها إنتقاء و ترتيب جوانب جوهرية من عالم الوقائع.

** هو يعني استخدام الفاعل لوسائل مناسبة على الوجه الذي تفسر به معرفتها من الناحية العلمية كرابط بين غايات الفاعل و أفعاله أي أن الفعل الغائي هو فعل عقلائي له قواعده المحددة .

لا يجب أن نتعجب إذا ما وجدنا المسيري يقتبس مصطلحات من مدرسة فرانكفورت كالإنسان ذي البعد الواحد لهوركهايمر أو استعمار الحياة لهابرماس ، فهو قد أبدع منهجه الذي أسماه ب (التأسيس) والذي يعرفه "عملية إبداعية تركيبية تتجاوز التفكير فهي تتطلب نماذج مختلفة يتم الربط بينها ، كما تتطلب الغوص في كل الأبعاد السياسية و الاقتصادية و الدينية و المعرفية للظاهرة و إعادة ترتيب الوقائع و تصنيفها في ضوء النماذج التحليلية الجديدة و قد اكتشفت أنني لم أعد أفكك و حسب إنما بدأت مصطلحات و مقولات تحليلية بديلة وأصوغ نماذج تحليلية جديدة أكتشف من خلالها حقائق مهمة متناثرة في بطون المراجع المختلفة ، قامت النماذج السائدة بتهميشها و بدأت أمنحها المركزية التفسيرية التي تستحقها كما بدأت أسك مصطلحات جديدة و أعيد تعريف بعض المصطلحات القائمة كما يتفق مع حقيقة الواقع كما أراه لا كما صاغته المراجع و المصطلحات الصهيونية¹ .

بهذه الطريقة يلخص المسيري طريقة عمله في التعاطي مع الروافد من الثنائيات و الثلاثيات والرابعيات و غيرها في العودة إلى كلاسيكيات المراجع ليهضمها كلها فيرشح منها ما يشاء فيحتفظ بما يشاء و يبدع ما يشاء وفق تركيب منطقي ونقدي و تحليلي و تأويلي لما يعاين من حوادث و ظواهر تتعلق بالمجتمع والسياسة و الأدب و الاقتصاد و اللغة والطفل و

2 . أزمة العلمانية :إن التعاريف التي وردت في قاموس أكسفورد للعلماني و العلمانية تشير إلى ما هو واقعي ومادي مستبعدة لكل ما هو ما ورائي و أخروي و هي في مفهوم بيتر جاي Pitter Gay و هو أحد مؤرخي الاستتارة في الغرب نقيض لكل ما هو ديني و مقدس و هي كل ما هو مؤطر في بؤرة الزمان و المكان ، كما عرفت في معجم علم الاجتماع المعاصر لصاحبه فورد هولت على أساس إنها تتضمن معنى الدنيوي غير الروحي غير الديني و تستخدم أيضا في الإشارة إلى تراجع و انحسار الإيمان بالعقائد الدينية التقليدية في مرحلة معينة ، و يقصد بالعلمنة أيضا تراجع الكنيسة و حصر عملها في الجدران المحيطة بها فقط بمعنى فصل الدين عن المجتمع وهذا الطرح يتضمن (دين علماني أو علمائي) جديد في كونه ينزع القداسة من الدين و يعطيها للعلم .

بينما التعريفات العربية للعلمانية تختلف فما هو المسيري يقدم تعريف الجابري الذي يرى أن مسار العلمانية يختلف عن ما هو موجود عن المسلمين و العرب لأنه لم تكن لدينا كنيسة تثبت في كل مناحي الحياة وإنما نحتاج إلى ترسيخ مفهوم العقلانية و الديمقراطية ، أما مفهوم أيضا مراد وهبة و عزيز العظمة للعلمانية العربية لا يختلف كثيرا عن العلمانية الغربية فهما متشابهان إلى حد بعيد إذ وجودهما مرتبط في صيرورة تاريخية مادية قامت بفهم و تفسير كل شيء ضمن العقلية و الروح العلمية (العلمانية)

¹ عبد الوهاب المسيري، رحلتى الفكرية"في البذور و الجذور و الثمر سيرتي غير ذاتية غير موضوعية" . القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ط1، 2000، ص414 .

كما أفرزت أخلاقاً و قيماً علمانية مناقضة للماهيات والكليات أو كما يسميها نيتشه ظلال الرحمن إنها نزعة السبب و المسبب ، الفعل و الفاعل و المفعول به ولأجله¹.

لقد لاحظ المسيري اختلالاً في مفهوم العلمانية مقترحاً إستراتيجية أخرى لإعطاء العلمانية مفهومها من خلال نموذج تحليلي أسس له من خلال المصطلحات المتقاربة في حقل دلالي مشترك (متداخل) ، وقد كانت هذه المصطلحات كالآتي:

- التطبيع: أي إرجاع كل شيء إلى الطبيعة -النزعة الطبيعية- و التي تقول أن الإنسان جزء من الطبيعة لا ينفصل عنها.

- السببية : بمعنى لا توجد حقيقة مطلقة و بالتالي لا يوجد حق أي الإحساس بالشك الدائم .

- التثنية و السلعة : أي جعل كل شيء عبارة عن سلعة يمكن أن تباع و تشتري في عالم السوق بما في ذلك الإنسان.

- الوثنية : أي بمعنى إنزال أشياء و أشخاص منزلة عالية من التقديس .

- نزعة مركزية الإنسان : إبطال فكرة أن الإنسان هو المركز الذي تدور حوله كل الحياة لأن هذه العقلية هو الذي أصبغها على نفسه .

- نزع القداسة : بمعنى إزاحة هالة القداسة عن كل شيء لأن هذه الأمور لا أساس لها في السببية الصلبة.

- إسقاط السمات الشخصية : بمعنى قولبة الناس في نمط أو فئات معينة كي يصلح التعامل معها بطريقة كمية وهذا بسبب ما فرضته البيروقراطية .

ما يجمع كل هذه المصطلحات هو إلغاء فكرة المقدس و إحلال فكرة الإنسان الطبيعي بدل الإنسان الإنساني (الروحاني/الأخلاقي) ، أي إعادته إلى أصله الطبيعي الحيواني هذا ما أرادت أن تثبته بعض الدراسات الأدبية بتشبيها للمجتمعات البشرية بالمجتمعات الحيوانية .

إن الأزمة بالدرجة الأولى في نظر المسيري في كون علم الاجتماع الغربي الحديث هو نتاج أو ابن العلمانية فمن المستحيل أن يكون ناقداً أو مخالفاً لها ، فالعلمانية أفرزت طرائق و مناهج سوسيولوجية كمية صورت كل ما هو موجود و رأت في تلك المشاكل و الأزمات مجرد تفاصيل صغيرة تافهة من أجل أن تتم متتالية السعادة التي تريد تحقيقها العلمانية في وصولها إلى حدها الأعلى (العلمانية الشاملة التي تمثل طفرة العلمانية الجزئية) إلا أنها غفلت عن قضايا هامة في البيئة و المساواة و الحقوق و الحريات والتكنولوجية ، و أحلتها من كل قيم إنسانية أو اجتماعية أي جعلتها تحت طائلة التكميم (التثيؤ) والمنفعة واللذة.

¹ عبد الوهاب المسيري، دراسات معرفية في الحداثة الغربية. القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ط1، 2006، ص63، 61.

إن تصوير العلمانية على أنها طرح تام و جاهز يكذبه الواقع فهي مازالت متتالية تبحث عن نموذجها المثالي والشاهد تطبيقاتها في الحياة الاجتماعية الرسمية فقط في أوروبا أما شعور الناس و تفكيرهم وتفاعلهم يخضع في الكثير من الأحيان للمعتقدات المسيحية أي للمرجعيات المتجاوزة أي لضمير جمعي متوارث لازال حاضرا في وجدان الناس لذلك يمكن أن نتساءل قائلا المسيحي عن مدى علمانية المجتمع الأوروبي أو المجتمع العربي والإسلامي؟

بمعنى آخر النظر في مطالب بعض الحداثيين الداعين لعلمنة المجتمع العربي غافلين عما شهدته أوروبا في مرحلة الستينيات و السبعينات بانتهاء مشروع العلمنة أين بسطت السلطة نفوذها الكلي في الداخل من خلال المؤسسات التربوية كأجهزة إيديولوجية و في الخارج من خلال المؤسسات الأمنية والقضائية محققة لنبؤتروسو بتحول الدولة لتتبن علماني عقلاني إلى أبعد الحدود أحرقت ناره كل أثر ديني¹ وان اثبتت حضوره على المستوى الغير رسمي المجتمعي او الشعبي .
خاتمة :

قد شاعت كتابات على شاكلة فلان مع فلان أو فلان ضد فلان ، و أنت تقرأ لعبد الوهاب المسيحي يستحضرك شعور و كأنك تسمع لمالك بن نبي بصوت قوي ، بينما و أنت تقرأ لمالك يجول في خاطرك المسيحي مرة أو اثنتان و السبب أن كلاهما عالجا نفس المواضيع الكبرى مع اختلاف في التصور والمعالجة و الأدوات فبن نبي كان ينتقل من الكل إلى الجزء بينما المسيحي كان يصل بينهما ذهابا وإيابا بحكم اطلاعه المعرفي الواسع و تحكمه المنهجي ليس في ذلك انتقاص لأن بن نبي من طينة المفكرين الكبار و ذلك ما تقتضيه كتاباتهم الفضاضة ذات الأفق الواسع أما المسيحي فهو صاحب اختصاص .

الفرق بينهما فرق في طريقة العمل لا في الاستعدادات و لا في المنطلقات و الأهم من ذلك أنهما أضافا للقاموس العربي مصطلحات عززت الترسانة المفاهيمية و العدة المنهجية ليكشفنا عن الأعين كثيرا من شواش الحداثة و نورانية التراث وليفضحا العديد من المغالطات التي تتناقض لا مع الهوية العربية الإسلامية و فقط بل مع الإنسانية ككل .

فالعلم تحول إلى علمانية و علماوية و أحادية عالمية تريد التتميط و القولية و التحويل المستمر الذي لا يحتكم لا إلى قاع و لا إلى سقف من خلال ذريعة النسبية و مركزية عنصرية بيضاء حوسلت الإنسان لتجعل منه مجرد غريزة حيوانية منتجة/مستهلكة أوهمته بقدرتها في تضيق دائرة المجهول و توسيع دائرة المعلوم لأنها عظمت من لذته وتغلبت على ألمه في طريق إنجازها لكل هذا فقد العلم نزعتة الإنسانية أو كما يقول بن نبي ضميره الذي يستحضر الله ليمنع الروح من إفسادها و تفسيدها لغيرها .

¹ نفس المرجع، ص 55,56 .

إن التعامل المثمر مع أي فكرة أو مفهوم كما يقول علي حرب يتجلى في مدى امتلاكهما القدرة على الشرح والتفسير و الفهم و التشخيص و الإستراتيجية التحويلية التي يتضمنها كلاهما في تغيير الواقع لا في الوقوف عليه وتصويره كما هو¹.

هذه الإستراتيجية واضحة في الخطاب النقدي الذاتي و الغيري و تتضح أكثر في استعمال اللغة ، لقد أنصف غربال المسيري أدياء المهجر كون غاياتهم كانت نبيلة كما ثمن الكتابات الجزائرية بالفرنسية لأنها حاربت المستدمر بسلاحه محاولة تدوين قضية الشعب الجزائري و كسب تعاطف العالم ، فالرأي عنده أن القلم العربي لا يحتاج تكريم أو اعتراف من غيره لأن فيه من العبقرية التي تسمو فوق كل جائزة حتى لو كانت نوبل فما عليه إلا أن يتكلم بلغة العالم و يتواصل مع غيره في كل بقاع الأرض².

إن النظرية العربية تحتاج إلى شخصيات من هذا الطراز منفتحة على الآخر مخاطبة إياه بما تقتضيه لغته و تؤثر فيه بما تقتضيه الحقيقة و أخلاق العلم و جماليته ، فان كان العالم بحاجة اليهم فنحن ومدارسنا وجامعاتنا ومراكز بحثنا ومؤسساتنا احوج بكثير اليهم وماعلينا الا الاهتمام بعطائهم قراءة وكتابة .

¹ علي حرب, أوهام النخبة أو نقد المتقف. المغرب و لبنان : المركز الثقافي العربي, 2004 , ط3 , ص168 .

² عبد الوهاب المسيري , الثقافة و المنهج .المرجع السابق ,ص188,187 .

العائلة الجزائرية في ظل العولمة من عائلة أبوية إلى عائلة نووية: تحول في الأدوار والمواقع

عيساوي أمينة¹

عُرف المجتمع الجزائري بتاريخه العريق و تقاليده و قيمه التي تُشكّل إيديولوجية أبوية. لكنّ هذا المجتمع تعرّض للعديد من الأزمات منها الاستعمار ثم الأزمات السياسية، الاقتصادية. وهو كسائر المجتمعات الأخرى تعرض لمجموعة من التغيرات و التحولات في خضم ما يسمى بالعولمة التي كان لها تأثيرها الخاص و الكبير، و كل ذلك أدّى إلى حدوث تغييرات على مستوى هذا النظام التقليدي، وبالتالي حدوث تغييرات في بنية العائلة الجزائرية. وعليه كيف أثرت العولمة على المجتمع الجزائري؟ وفيما يتمثل هذا التأثير؟

1- العائلة و العولمة:

العائلة هي مصطلح متعدّد المعاني: إنّه يشير إلى أفراد مرتبطين بالدمّ و المصاهرة تماما مثل مؤسسة التي تُنظّم و تُحكّم روابطها. إنّها جماعة أشخاص مجتمعين من خلال روابط الزواج⁽²⁾ والقرابة وإضافة إلى ذلك يشغلون نفس فضاء الإقامة. كما يمكن أن يشير مصطلح عائلة إلى الوالدين والأصهار الذين لا يتشاركون في الإقامة. كما أنّها الخلية الأولى للمجتمع والمؤسسة الأولى التي تهتم بتنشئة الطفل اجتماعيا.

أما العولمة هي مفهوم جديد لواقع قديم ظهر بشكل واضح في الستينات من القرن العشرين، حينما لاحظ "مارشال ماكلوهان" أنّ: "التغطية الإعلامية القوية للأحداث العالمية حولت الناس من مجرد مشاهدين ومستمعين إلى مشاركين ومؤثرين على الأحداث في حالتها الحرب و السلم ليصبح العالم قرية صغيرة" (عباس أبو شامة عبد المحمود و محمد الأمين البشري، 2005: ص93).

ومصطلح العولمة يعني "الحداثة" ، ويقصد بالحداثة تحقيق المساواة والتقدمية والاستتارة والعدالة والديمقراطية واحترام القانون والعقل والإيمان بالتجريب، والتفاعل والتكامل بين السياسة والاقتصاد والتكنولوجيا و إهمال الثقافة القومية" (أحمد زايد و أحمد مجدي حجازي، 2003: ص10-11). و ظاهرة العولمة لها جوانبها وآثارها الإيجابية ولكن أيضا السلبية على جميع المستويات سواء على المستوى العلمي أو السياسي والإقتصادي والاجتماعي والثقافي والتربوي.

¹ أستاذة شعبة علم النفس جامعة سعيدة

(2) الزواج هو الفعل الذي من خلاله يلتقي نصفا المجتمع، جزءان أساسيا مختلفان، و غالبا متعارضان، اللذان يجب عليهما من خلال هذه الوسيلة تحقيق تكاملهما، و هذا شرط أساسي لبقاء و دوام المجتمع. إنّه مؤسس على قانون يُنظّم و يُقنّن الجنسيّة.

إنَّ التَّحوُّلاتَ التي اجتاحت النِّظامَ الاجتماعيَّ الجزائريَّ نتيجةً لمجموعة من العوامل ومن أهمها العولمة أدت إلى ظهور تغيّرات على مستوى كلِّ من المجتمع، العائلة و المدرسة. ولعلَّ أول ما تأثر بهذه العولمة هو القيم الاجتماعية المتواضع عنها داخل المجتمع الجزائري، إذ نجد أنَّ كلَّ المؤسسات الاجتماعية الثقافية تمَّ مسَّها من قبل تغيّر تدريجيٍّ للقيم الاجتماعية. فالقيم التي أقامت الرابطة الاجتماعية وسهّلت طرق العيش معا والاندماج الاجتماعي، والتي ليس ببعيد كانت هي المنظمة للمجتمع مثل الطاعة، الصدق والأمانة، الحياء والتضامن، كلّها طرأ عليها التغيّر. ما كان في الماضي من قيم فقدت طابعها المقدّس والمحترم. وبمحاولة إعادة تقدير وتقييم الحقيقة الاجتماعية الحالية فإنَّ تلك القيم أصبحت مُلغاة ومُهملّة وذلك بسبب عدم تكيفها مع الاستراتيجيات السلوكية للحياة الزاهنة في ظل العولمة، فالقيم القديمة لم تعد صالحة ومفيدة على أرضية الواقع حيث حلت محلها قيم الجديدة تم تنصيبها و العمل بها. فنلاحظ ظهور سلوكيات من أجل التكيف مع هذا الوضع الجديد ومن مثل تلك السلوكيات نذكر الشطارة وجودة التصرف، الانتهازية، المخاطرة و الجرأة والتهور. وأغلب هذه السمات الجديدة لا تأخذ بعين الاعتبار المبادئ الأخلاقية. هدفها هو الانتفاع الفردي من الظروف الحالية، الاستفادة من نقائص النِّظام الاجتماعي بالمنافسة. ويجب على الفرد التكيف مع هذه القواعد الجديدة. هذه الأخيرة والتي هي وليدة العولمة على عكس القيم التقليدية ليس لديها أيّ قدرة منظّمة، وهنا لا يتمّ الأخذ بعين الاعتبار والاهتمام بالآخر، وبالتالي تُؤدّي إلى إقامة نمط علائقيّ إنسانيّ تكون فيه المنفعة المادية الفردية هي المهيمنة.

وبما أن العائلة هي المؤسسة الأولى في المجتمع وأساسه فإنها هي المتأثر الأول بالتغيرات الطارئة على المجتمع نتيجة للعولمة، إذ أنه من الصعب عزل العائلة عن المجموع الاجتماعيّ أين تتدرج، وأيّ تغيّر يطرأ على المجتمع يؤثر فيها. يُؤد الفرد داخل عائلة و التي من خلالها تتم تنشئته اجتماعياً، بمعنى أنه يستقبل ويستدخل ثقافة، لغة، إحساسا و إدراكا للآخر. هذه الثقافة والتي تتميز بأنها ثقافة أبوية وهذه اللغة ليستا متعلقتين بالعائلة بالخصوص بل إنهما حدث اجتماعي. "ما يميّز المجتمع الإنساني هو الرابطة الاجتماعية، الرابطة التي تُوحّد الأفراد خارج الجماعات العائلية والتي تُعطي لهم الإحساس بالانتماء إلى وحدة مشتركة أين يتقاسمون نفس القيم" (ADDI (L), 1999 : p13). ولكن تلك الثقافة و تلك اللغة قد طرأ عليهما تغيّر واضح بفعل محاولة مركزة العالم ووضع ثقافة واحدة مشتركة بين مختلف الشعوب من خلال مثلا توحيد اللغة.

أما إذا عدنا إلى مجتمعنا خصوصا العصريّ فإنه يمكن القول بأنّ التمثّلات (Les représentations) المرتبطة بالصور الأبوية (Figures paternelles) هي أيضا تغيّرت إن لم نقل انهارت. إنَّ آباء الجيل الحاليّ من المراهقين تربّوا داخل التقاليد التي ورثوها عن الجيل السابق لهم و الذين عليهم تمريرها لأبنائهم، لكنّ هذه المبادئ الخاصة بالنِّظام التقليديّ لم تعد لها فائدة و

أصبحت قديمة، وإنّ التعلّيمات الأخلاقية والقواعد التي اشتملتها التّقاليد أصبحت دون تأثير وبلا قيمة و أصبحت بعيدة عن الحقيقة التي نعيشها. وبالتالي وجد أفراد الجيل السّابق صعوبات في التّكيف مع التّحوّلات الاجتماعيّة الرّاهنة، إنّ انهيار القيم الاجتماعيّة و استسلام المؤسّسات التي كانت تهتمّ بالحدّ من العدوانية في هذه المرحلة الحرجة أدّى إلى إحساس هؤلاء الآباء بالعجز عن السّيطرة على الوضع في هذا العالم الجديد عليهم.

فإذا تحدّثنا عن رجل من مواليد الثّلاثينيات أو الأربعينيات، فإنّه يجد صعوبات في التكيف مع هذه التطورات لأنّ العلاقات و الأدوار التي عهدا قد تغيّرت. حيث أصبح الابن لا يخجل من الحديث مع زوجته في حضرة أبيه بعدما كان فعل ذلك مُخجلاً في وقت هذا الشّيخ، إضافة إلى ظهور سلوكات كانت في الماضي مخجلة كمشاهدة التلفاز مع الأب، رفع المرأة لصوتها و انعدام خجلها من الرّجال الغرباء، إذ كان وجه المرأة قديماً يحمرّ عندما ترى والدها أو أخوها أو زوجها، و لا تلتقي معهم إلّا عند الضّرورة و غيرها من السلوكات الجديدة و التي لم تكن موجودة في النظام التقليدي. و لهذا فحسب الجيل الماضي الجيل المعاصر فقد وأضاع معنى القيم و النّضج و تجاهل أصول الأدب و الأخلاق.

كان الأب سابقاً في تنشئته الاجتماعيّة لأبنائه يستمدّ قوّته من معرفة سير الحياة في المجتمع و من خلال يقينه بأنّه دائماً على صواب، ولكنّه اصطدم بمراهق لا يعترف بذلك ولديه نظرة أخرى مختلفة تماماً، الأمر الذي جعله يتفطنّ إلى أنّ ما بحوزته أصبح غير فعّال ولا يمكن تمريره إلى هذا الجيل الجديد. في هذه الحالة إذا لم يُقدّم الأب صورة إيجابية و تتماشى مع ما يريده المراهق، فإنّه لا يمكنه أبداً أن يكون ركيزة للإسقاط النّرجسيّ للابن، و بالتالي لا يكون الشّخص الذي يرغب هذا الأخير في التّماهي معه. ولهذا نلاحظ في مرحلة المراهقة بداية انتقاد الوالدين بنعتهم أنّهما لا يعرفان أو لا يفهمان.

ولكن بالرغم من كل ما سبق ذكره وحسبAddi فإنّه يوجد في آن واحد استمرار وتغيّر للثقافة الأبوية. إنّ داخل اتّجاهات الأفراد، وداخل الأدوار الجديدة التي يتقلّدونها والمكانات (Statuts) التي يحتلونها ورغم التّحوّلات الاجتماعيّة، إلّا أنّ الثقافة الأبوية هي دائماً حاضرة، رمزية في الإحالات إلى النّسل، في الشّرف⁽¹⁾، الحرمة. ولكنّ في نفس الوقت، هذه الثقافة الأبوية ليست نفسها التي كانت في السابق، أين نجد تنصيب الأمّ على حساب الأب في التّسيير اليومي واتّخاذ القرارات المهمّة مثل: الزّواج، الطّلاق، شراء الأثاث، حيث أصبحت هناك نشاطات وأفعال تعود فيها القرارات للأب عندما كانت من قبل من اختصاص الأب ولهذا كانت تسمى ثقافة أبوية، ولكن دون إغفال أنه كان للأب دور مهم في هذه الثقافة و كان لها سلطة (Pouvoir) والتي كانت تختلف عن سلطة الأب، وسنشير إلى ذلك لاحقاً. إذن الثقافة الأبوية خالدة و لازالت باقية و لكنّ الأدوار تغيّرت: "سلطة (Pouvoir) الأب انحطّت وخارت وتلك الخاصّة بالأمّ تأكّدت وأثبتت نفسها" (ADDI (L), 1999: p27). في هذه الثقافة يركّز أفرادها

(1) أو ما يسمونه أفرادها "النّيف".

على الإنجاب وذلك لتوسيع العائلة و دائما ما نسمع "ابن فلان" أي هذا الشخص هو ابن كذا، و هذا يشير إلى أنه العنصر الذي يحمل اسم العائلة و ينقله إلى أبنائه و هكذا: "يتركب المجتمع الجزائري انطلاقا من المسلمة التي من خلالها المجتمع هو مجموع رجال يتبادلون و يتفاعلون مع نساء من أجل الإنجاب وتمرير أسمائهم و نفوذهم إلى النسل بتخليد ذكرياتهم، انطلاقا من التقليد (Tradition)" (ADDI (L), 1999:p14).

إن العلاقات التي كانت تربط بين الأب و الابن، الزوج و الزوجة، الأب و البنت، تغيرت كلياً بسبب التحولات التي طرأت على المجموعات الاجتماعية. لكن مع ذلك يجب الإشارة هنا إلى أن: "البنيات القديمة لا توجد، و لكن التصورات الثقافية لم تختلف بعد" (ADDI (L), 1999: p17). بمعنى في هذه الحالة يجد الفرد نفسه أمام تحقيق الفردانية و العائلة النووية، و من جهة أخرى أمام خياله الاجتماعي المتميز والمشبع بالثقافة الأبوية و الانحصر على العائلة التناسلية من أجل الحفاظ على اسم العائلة.

و كما ذكرنا سابقا أن التحولات التي طرأت على المجتمع الجزائري جعل العولمة أدت بدورها إلى تغيرات في أشكال تنظيم العائلة و في العلاقات بين مختلف أعضاء المجموعة العائلية الواحدة. العائلة التي كانت في المجتمع التقليدي التي تسمى بالعائلة الأبوية اختفت و تركت المجال للعائلة الموسعة، التي ليس لديها نفس التجانس و الانسجام مثل الأولى ثم ظهر ما يُسمى بالعائلة النووية و كل هذه الأنواع الثلاث تندرج تحت النظام الأبوي في الجزائر.

العائلة الأبوية (La famille patriarcale):

و هي عائلة كبيرة و التي عرّفها E. Bienveniste على أنها : "جدّ الذي يتجمّع حوله الأحفاد الذكور و عائلاتهم"⁽¹⁾ (SEBAA (F.Z), 2010 : p24). في هذه العائلة يكون أعضاء الجيل الواحد إما إخوة أو أبناء عمومة، يعيشون تحت سلطة الجدّ أو العمّ الأكبر، و هذه العائلات تُكوّن قبيلة، حيث يتسمون بالتعاون والتضامن فيما بينهم. إن هذه العائلة تُقدّم إطارا مُتدرجا تحت سلطة قائد، ربّ أسرة الذي يضمّ الجدّين، الأبناء المتزوجين، زوجاتهم و أطفالهم، الأبناء و البنات غير المتزوجين، مع وجود نظام الأمكنة (Places) والأدوار الموزعة بطريقة جيّدة و معيّنة من طرف صاحب السلطة: "أب، زعيم وقاضي، يُعطي إلى كلّ عائلة أو زوج و إلى كلّ أعزب مكانة محدّدة ضمن الوحدة الجماعية. سلطته عموما غير قابلة للمناقشة (له قدرة الحرم و اللّعة و هما مصدرا قوته)" (ADDI (L), 1999: p43).

(1) « Un ancêtre autour duquel se groupent tous les descendants males et leurs familles restreintes ».

In : SEBAA (F.Z), 2009/2010, Adolescence, déviance et mal être : modèles de prise en charge d'adolescents en difficultés ou ladouloureuse naissance du statut de l'adolescent(e) algérien(ne), 109p, Thèse de doctorat, Psychologie, Université d'Oran, p24.

يرث الأب السلطة من الأسلاف و يُمرّرها إلى الأحفاد الذكور. هذه العائلة تُظهر كوحدة عائلية أبوية النسب، تتكوّن من الأبناء المتزوجين يعيشون معا في حياة الأب، و غالبا بعد موته يحلّ محلّه الابن الأكبر ليُوجّه إخوته و باقي سكّان المنزل. إذن زعيم العائلة هو الجدّ إن كان حياّ أو ابنه الأكبر إذا غاب هو. دوره الأساسيّ هو تقسيم المهامّ و الأعمال على مختلف خلايا المجموعة العائلية، التي تشترك في الإنتاج، الاستهلاك و السكّن، و يحرص على السّلم بين أعضائها، و يُمثّل المجموعة في الخارج. و الأفراد الآخرين يحترمونهم و يخشونهم.

كان كلّ فرد من أفراد هذه العائلة يُؤكّد على الشرف و كان يُعتبر أنّ: "الشرف يقوم على عفاف زوجته، أخواته و بناته" (ADDI (L), 1999: p44-45)، و أنّ نفوذ الرّجل متعلّق بسلوك النّساء اللاتي يتكفّل بهنّ إلى درجة أنّ القتل يُبرّر و لا يُعاقب القاتل إذا كان هناك هناك للشرف. كما أنّ في هذه العائلة كي تتزوج الفتاة يجب أن تكون عذراءً وهذا لا يزال متواجدا حتى في أنواع العائلة الأخرى التي سنذكرها لاحقا، بمعنى لا يجب أن تكون لديها علاقات جنسيّة قبلا. وذلك من أجل الحرص على نقاوة و صفاء دم الورثة أي إنجابها لأطفال من صلب زوجها، وبالتالي يتمّ ضمان صفاء العائلة و القبيلة ككلّ. وبعد الزّواج يجب عليها أن تخشى زوجها و تطيعه⁽¹⁾ و تكون ودية و مخلصّة له، فإن لم تفعل ذلك فإنّ ذلك يشير إلى أنّها سوف لن تضمن صفاء النّسل.

كما نجد في ثقافتنا الأبوية الاهتمام بالابن الأكبر أين الجدّ هو الذي يُسيطر على جميع أفراد العائلة، و غالبا ما يكون مُساعدّه و نائبه إن كان غائبا هو الابن الأكبر، والذي يخلفه بعد وفاته، و يحلّ محلّه و غالبا ما يَنْتهج نفس طريقته في تسيير الأمور و مُعالجتها. يُوجد في هذه الثقافة تدرّج بين الإخوة، وهذا ما أشارت إليه G. Tillon في كتابها (Leharem et les cousins): "الأخ الأكبر هو تقريبا أيضا مُحترم كآب، يجب خفض العينين في حضوره، عدم التّدخين أمامه، الابتعاد عندما يكون في اجتماع مع رجال من أجل عدم المخاطرة بسماع مزحة التي قد تجعله يحمرّ في حضرة أخيه الأصغر. في العديد من العائلات المغاربية، يُنادي الإخوة الأصغر أخاهم الأكبر بـ"سيدي" و عكسا الأخ الأكبر حتّى قبل أن يصبح مراهقا يأخذ عادة التعاطف مع إخوته الأصغر و أخواته" (TILLON (G), 1966 : p108). ومع مرور الزمن بقيت آثار الثقافة الأبوية إلى يومنا هذا وهي تنتشر حتى داخل أنواع العائلة الأخرى، أين نجد أنّ للأخ بصفة عامّة و الأكبر بصفة خاصّة دورا مهمّا ألا وهو توفير الحماية لأخواته البنات و مراقبتهم. وهذا الدور الذي مُنح للأخ امتدّ حتّى إلى العائلات المهاجرة من أصول مغاربية في أوربا أين "الإخوة يشعرون غالبا أنّهم مطالبون بمهمّة حراسة أخواتهم" (LACOSTE-DUJARDIN, 1992: p38). ولكن هذه الظاهرة هي في زوال بعد حدوث تغييرات على مستوى المجتمع، أين أصبح الأبناء كلهم سواء إناث أو ذكور سواسية.

(1) حتى سنة 2005 كان ينص قانون الأسرة على إلزامية طاعة الزوجة للزوج.

العائلة الموسّعة (La famille élargie):

إنّ العائلة التّقليديّة التي كانت موجودة من قبل ألا وهي العائلة الأبوية لم تعد موجودة، بل هناك تجمّع عائليّ متعدّد النّوى (أي يوجد داخله عدّة عائلات نوويّة)، أفرادها لا زالوا يحملون نظام القيم التّقليديّ الذي يشير إلى أدوارهم التي لا تتطابق مع السّلوكات الجديدة للحياة التي بدأ يظهر تأثرها بالعوامة بشكل أوضح.

في النّظام التّقليديّ كانت العائلة الأبويّة تضمن المؤونة أو القوت من خلال الميراث المشترك الذي جمعه الإخوة في الماضي و حتّهم على تشكيل وحدة استهلاك، إنتاج و إقامة معا. في حين أن العائلة الموسّعة لا تُؤمّن القوت بنفس الطّريقة، لقد فقدت هذه العائلة ذلك التّعاون بسبب تعدّد مصادر العيش و أصبح لكلّ من الأبناء عمل مستقلّ. "في هذه العائلة مع أنّهم يعيشون مع بعض إلاّ أنّه توجد عائلة نوويّة مثل الابن المتزوّج و أبنائه و كلّ عائلة لها غرفة خاصّة بها" (ADDI (L), 1999: p51)، في البداية يعيشون مع بعض و لكنّ مع الوقت يفترون و يكوّنون عائلات نوويّة.

العائلة النّوويّة⁽¹⁾ (La famille nucléaire):

بعدما كانت قديما العائلة تتكوّن من الجدّين و الأعمام و الوالدين و الأطفال أي العائلة الأبويّة تغيّرت و أصبحت عائلة موسّعة، و هذه العائلة بدورها هي في تحوّل تدريجيّ إلى خلية عائليّة تتكوّن من الوالدين و الأطفال، أو ما يُسمّى بالعائلة النّوويّة. حاليا الرّوابط ذات النّمط الجماعيّ تركت المجال لروابط جديدة، داخل فضاء جديد الذي هو الفضاء الزّوجي (Espacematrimonial)، الذي يضمّ الزوجين و أطفالهما في منزل مستقلّ. وهذا يحيل إلى أنه لا يوجد تطابق بين أدوار أفراد العائلة في هذا الفضاء الجديد مع توزيع الأدوار الذي وضعته النّقافة التّقليديّة.

في النّظام الأبويّ كان الزّواج يُعدّ قبل كلّ شيء كمؤسسة تُضيف خلية جديدة إلى العالم الاجتماعيّ المنظّم و الموجود مسبقا، حيث كان الزّواج يُرتّب منذ الطّفولة (هذه البنت يتزوّجها ابن عمّها)، و ما هو مهمّ هو النّسل و الحفاظ على اسم العائلة. في العائلة النّوويّة و التي يُمكن تسميتها بالنّظام الزّوجي، فإنّ الزّواج هو علاقة بين شخصين، التّقاء رجل و امرأة تبعا لقصّة حدثت بينهما. وهنا ما هو مهمّ ليس النّسل و التّقاليد و لكنّ المهمّ هو الآخر، الشّريك ذاته الذي يأخذ كلّ الاهتمام مع التّفنّح على المستقبل.

في هذا النّظام الجديد إنّه من المستحيل إبقاء ذلك التّمييز الجنسيّ التّقليديّ و أين كان فضاء المرأة هو الداخل للقيام بالمهامّ المنزليّة و التّربويّة فقط، هي حاليا دائما في المنزل و لكنّ بطريقة عيش مختلفة، "لأنّه وقبل كلّ شيء اختيار و ليس مصيرا مفروضا عليها. أصبحت النّساء يُطالبن بالعيش مستقلّات في منزل خاصّ بهنّ" (SEBAA (F.Z), 2010 : p28). في البنيات الأبويّة يتمّ التّركيز على

(1) و التي هي مرادف لمصطلح أسرة.

يُجاد دائرة كبيرة للأقارب، أما العائلة من نوع زوجي تهتمّ عكس ذلك، إذ أنها تُشير إلى ضرورة الانفصال عن الوالدين، حيث يسعى الزوجان أكثر فأكثر إلى تحقيق استقلاليتيهما.

إنّ هذا التغيّر الذي مسّ العائلة له سلبياته، حيث أنّ العائلة الزوجية النووية التي اقتصرَت على بعض الأشخاص، عموماً الأب، الأمّ و الأطفال أدّى في مجتمعنا إلى التأثير خصوصاً في مرحلة المراهقة و قولبتّها: "النقطة المعاصرة للأدوار الوالدية تميل لإعادة طرح قضية التأثيرات المفروضة من الأب و الأمّ على نموّ الطّفل" (TAP (P), 1987 :P402-403). إنّ التّكفل بالمراهقين وسط جماعة تطوّر من تكفل ذو طابع جماعيّ نحو تكفل محدود. "تلك المسؤولية الجماعية اتّجاه نموّ المراهق هي تضعف تدريجياً لتترك المجال لمسؤولية الأب و الأمّ وحدهما اللذان غالباً هما ذاتهما يوجدان في وضعية صعبة للتكيّف مع هذا الفضاء العائليّ الجديد" (SEBAA (F.Z), 2010 : p18).

إنّ نتيجة لتأثير العولمة وما أحدثته من التحولات السريعة و تعقّد للعلاقات و الأدوار، كل ذلك أدّى إلى توقّف الوالدان و تأرجحهما بين نماذج تربية مختلفة، و هذه الحالة الصّعبة تُؤدّد لدى المراهق إحساساً قوياً بعدم الأمن و تُؤثّر سلباً في تكوين أنا أعلى متماسك و تُعرقل إثبات الذات. و بسبب الوضعية الصّعبة الخاصّة بالوالدين قد يلجأ المراهق لأفراد العائلة الآخرين، مثل الأعمام و العمّات والأجداد في لحظات الأزمة. و ذلك لا يحدث دون مشاكل، لأنّ تدخّلاتهم المختلفة تُعقّد غالباً الأمور و تُقاوم من الوضعية، حيث يجد المراهق نفسه يتأرجح بين اتّجاهات والديه و اتّجاهات باقي أفراد العائلة الأبوية أو الأمومية و حيث غالباً ما تكون هذه الاتّجاهات متعارضة. و يُمكن القول أنّ: "أحياناً أزمة المراهقة ما هي إلاّ وسيلة لمحاولة حلّ الصّراعات العائليّة" (SEBAA (F.Z), 2010 : p19)، خصوصاً تلك التي تتعلّق بالوالدين. هذا فيما يخصّ تأثير تلك التحولات الناتجة عن العولمة على مرحلة المراهقة.

2- العلاقة مرآة / رجل و العولمة:

إنّ العائلة هي حساسة للتغيّرات الخارجيّة و التي يكون للأفراد داخلها اتّجاهات في نفس الوقت اندماجية و صراعية، كما أنّهم هم أنفسهم يتأثّرون بالتغيّرات التي تتعرّض لها العائلة. فبعدما عاشوا في نظام معيّن يجدون أنفسهم بفعل العولمة يعيشون في نظام جديد تختلف قيمه و مبادئه عن نظامهم الذي أصبح قديماً. فالتغيّرات التي طرأت على العائلة الجزائرية كان لها تأثير واضح على الروابط التي تجمع المرأة و الرجل في النظام التقليدي. بدايةً في هذا الأخير طفولة ولد صغير تكون موضوع اهتمام كبير حتّى يكبر كما يتمتّع بحرية كبيرة لا تحظى بها الفتاة، فهي غالباً ما تُوجّه إلى القيام بمساعدة الأمّ في أشغال المنزل أو أنّها تهتمّ بإخوتها الأصغر كبديلة للأمّ.

في مجتمعنا التقليديّ، إنّ العلاقات ولد/بنت لا تتعدّى سنّاً معيّنًا من العمر، فغالباً ما يلتقيان في طفولتهما في اللعب ولكنّ في سنّ معيّن يتمّ الفصل بين الجنسين، و يُوجّه كلّ جنس إلى المهمة الموكّلة إليه. بعد ذلك تصبح "أول علاقة محقّقة بين الرّجل و المرأة اللذان تمّ فصلهما في مجالين مختلفين (الداخل

والخارج): المؤنث و المذكر هي تلك الخاصة بالزواج" (LACOSTE-DUJARDIN (C), 1991, p346)، وغالبا ما تربط الزوجان صلة القرابة. إذن العلاقة التي كانت تربط بين الرجل و المرأة في النظام التقليدي هي الزواج، والذي اعتُبر منذ أمد بعيد كمرحلة للاندماج الاجتماعي داخل عالم الراشدين. أما فيما يخص العلاقات الجنسية بينهما فهي لا تخص الزوجين في حد ذاتهما، وإنما هي تخص العائلة ككل التي تراقبهما باستمرار وتفرض عليهما استعمالها في دوام الذكرى، و يكون ذلك في إطار حدته العائلة والذي هو الزواج الشرعي، إذ يتميز الزواج في النظام التقليدي بخاصية فريدة و هي أنّ هذا الزواج يكون باتحاد عائلتين و ليس فردين، ويقول في ذلك R. Le Tourneau: "الزواج الغربي هو نتيجة لاتخاذ قرار بين فردين... و لكن الزواج في فاس⁽¹⁾ كما في باقي كّل البلدان الإسلامية الزواج هو تحالف بين عائلتين قبل أن يكون اتحاد رجل وامرأة" (EL KHAYAT (GH), 1988 : p73). فغالبا ما نشاهد في مجتمعنا أنّ في ليلة العرس ينتظر كلّ أفراد العائلة نتيجة أول علاقة جنسية وهذا ما يثبت أنّها علاقة جنسية جماعية وليست بين رجل وامرأة، والهدف الوحيد منها هو الإنجاب والعمل على بقاء اسم العائلة. ولكن في حالة العقم فإنّ ذلك يعتبر عائقا في استمرار نسل العائلة، فالمرأة العقيمة تُعدّ و كأنّها لا تقوم بالدور الذي خُلقت من أجله ألا وهو إنجاب الأطفال، و تُعدّ و كأنّها هي المسؤولة الأولى على استمرار العائلة و خلودها. أما عقم الرجل فإنّه لا يُؤخذ بنفس الشدة والصرامة مثل عقم المرأة. "خجل المرأة عندما لا تُنجب أطفالا، خصوصا الذكور. إنجابها لرجال داخل المجموعة النسبية أين لديها مكانزوجة، فإنّها تبرم عقدا ضمينا وتصبح محترمة ومقدّرة ليس كزوجة فلان و لكن كأمّ لفلان و فلان" (ADDI (L), 1999, p14-). (15).

إنّ التحوّلات التي تعرّض لها النظام الاجتماعي الجزائري، قد أدت فيما بعد إلى حدوث تغييرات على مستوى العلاقة بين الرجل و المرأة. حيث أصبحت المرأة تدرس مع الرجل في نفس القسم، تعمل معه في نفس المؤسسة و حتّى في نفس المكتب، كما لوحظ وجود صداقات بين الجنسين. أصبح أيضا التقاؤهما بغرض الزواج صادرا عن اختيار شخصي وليس عائليا، و بناءً على مواصفات محدّدة من قبل كلّ منهما. لكنّ مع كلّ ذلك التغيير و التطور تبقى إقامة علاقة جنسية بين الرجل و المرأة غير مسموح بها إذا كانت خارج إطار الزواج.

3- المرأة و العولمة:

في كلّ مكان يُلاحظ أنّ ما يميّز الفضاء الإنساني هو وجود مهامّ مسندة إلى جنس و ممنوعة عن آخر. بالرغم من أنّ هذا الإسناد تتخلّله تغييرات بارزة في مجتمع أو في آخر، من زمن تاريخي إلى آخر، فهو يستمرّ بإصرار وبلا تغيير. منذ زمن بعيد وهو معروف أنّ المرأة هي التي تلد كما أنّها تبقى داخل أماكن أو مواضع محصورة. فإذا كانت المرأة تتميز بقدرتها على الإنجاب التي تُفيدها وتُثبتها في

(1) Une ville marocaine

الدّاخل، فإنّ الرّجل يختصّ بقوّته الّتي تمنحه إمكانيّة الابتعاد عن الدّاخل وتُمكنه من الخروج. منذ القديم كان هناك تقسيم بين الذّكور والإناث وذلك بدءاً بالأعمال الموجهة إلى كلّ جنس. فمثلاً قديماً جدّاً كان دور الرّجل الابتعاد وتأمين العيش من خلال العمل وبذل الجهد البدنيّ، أمّا المرأة فلا تخرج من منزلها وإن فعلت فيكون ذلك من أجل القيام ببعض المهامّ من أجل المنزل كإحضار الماء أو قطف الثّمار. كانت المهامّ الموجهة للرّجل تتطلّب جهداً عضليّاً وأحياناً تُشكّل خطراً على حياته. إذن كانت تأخذ المرأة دورها اجتماعيّاً وثقافيّاً.

حتّى فيما يخصّ مكان العيش كان ينقسم إلى قسمين، قسم ذكوريّ و آخر أنثويّ. كما كان يوجد غرف منفصلة لكلا الجنسين. كما يُلاحظ الفصل بين الجنسين في وقت الطّعام حيث أنّه التّقليد (Tradition) الّذي يستمرّ إلى يومنا هذا. ففي بعض المناطق في الجزائر و داخل عائلات تقليديّة كثيرة، هناك عادة حيث الرّجال و الأولاد الشّباب يأكلون مع بعض أمّا النّساء و الأطفال يتناولون الطّعام معاً في مكان مُغاير.

إنّ التّقسيم في التّربية الجنسيّة هو الّذي يُوصِل إلى أنتمثّل الذّكر هو المُميّز عن تمثّل المؤنث. في وقت مبكّر تأخذ الألعاب و الفضاءات خصائص مُجنّسة (Sexuées). الولد يبقى في الفضاء الخارجيّ ويتمّ إدخال الفتاة إلى الفضاء الدّاخلّي. إذن التّقسيم الجنسيّ للفضاء هو الّذي يُوجّه نشاطات وأعمال الرّجال و النّساء. للمذكّر الأعمال الّتي تُمارس في الخارج و للمؤنث الأعمال في الدّاخل بالأساس المنزليّة. كانت تربيّ الفتاة التّقليديّة تربية منزليّة، لأنّ للمنزل مكانة مهمّة في حياتها، حيث يتمّ تعليمها منذ صغرها الاهتمام بالأمر والأشغال المنزليّة: الطّبخ، التّنظيف، الخياطة، الغزل، نسج الصّوف، الاهتمام بالإخوة الأصغر. أمّا التّواتر على المدرسة كان مُخصّصاً للأولاد فقط. "عُرفت المرأة منذ بداية حياتها ككائن تابع، إذن ضعيف جدّاً و أسفل الرّجل" (DELACROIX (C), 1986 : p28)، وهذا يعني أنواجب هذا الأخير هو تأمين حاجات الأنثى التّكفل بها. كان يُنسب إلى الرّجل الذّكاء العاليّ و حُكم على فطنة المرأة بالغباء والضعف، لكنّها استطاعت إظهار العكس بتطوير وضعيّتها في المجتمع. و قد تمّت الإشارة إلى هذا الضعف و التعليق عليه في مؤتمر أُقيم في سنة 1879 من قِبَل ممثّل (Délégué) حيث قال: "إذا قلنا عن الرّجل أنّ لديه الصّحة، القوّة العضليّة في الورشة (Atelier)، نقول عن المرأة أنّ لديها الضّعف، الجمال، اللّطافة و الحبّ في المنزل، داخل العائلة. نعم إنّهنا دور المرأة" (DREY-) (TURPIN (N), 1982 : p45).

أما بعد التّغيّرات الّتي اجتاحت المجتمعات ككل و المجتمع الجزائريّ بالخصوص اتّسمت تربية الفتاة ببعض المرونة أين تمكّنت من الخروج و التّمدد و العمل. و لكن لازالت أفكار التّقاليد الأبويّة موجودة في اللاّشعور الجمعيّ، إذ يمكن القول هنا أنّ من جهة نجد قيم العائلة التّقليديّة الّتي هي دائماً نشطة في الذّاكرة الجماعيّة و غالباً ممثّلة (Idéalisées)، و من جهة أخرى التّحوّلات الاجتماعيّة أعطت ميلاداً لأشكال جديدة للحياة الاجتماعيّة. يظهر ذلك في بلوغ المرأة مستويات عليا في الدراسة و

العمل و مختلف النشاطات اليومية مثل ممارسة الرياضة و الخروج للتسوق و غيرها و لكن في نفس الوقت يُمنَع عليها مثلا الخروج ليلا، إلزامها بالحفاظ على شرف العائلة من خلال الحفاظ على عذريتها، عدم مصادقة الأولاد و إن حدث ذلك فلا يتعدى الزمالة في الدراسة أو في العمل. كل ذلك يُعبّر عن وجود بقايا للنظام الأبوي داخل العائلات الجزائرية.

ابتداء من 1985 لوحظ تحسّن مهمّ لمستوى تعليم الفتيات مقارنة بالأولاد و هذا على مستوى العالم ككل، و إن حدث ذلك ببعض التحفظ في النظام التقليدي حيث يعود ذلك أولا إلى ضغوط المجتمعات التقليدية التي من أجلها اتخذ قرار إرسال الفتاة إلى المدرسة يتصاحب ببعض القلق من اقتراب بعض المخاطر منها: الخروج من الوسط العائلي، الاختلاط، و لهذا كانت الفتاة قبل هذه السنة تُسحب من المدرسة منذ بداية علامات البلوغ. و قد تمّ الإشارة إلى ذلك من طرف Talleyrand: "البنات بالاختلاف عن الأولاد يُسحبن من المدرسة منذ سنّ الثامنة، من أجل تلقّي التربية التي يُورثها الأب والأمّ عليهنّ" (DES FORTS (J), 2003 : p242). لكنّ مع ذلك في المدرسة تُحسّ وتكتشف الفتاة أنّها متساوية مع إخوتها في حين أنّها تكون خادمة لهم في المنزل. و إنالوسيلة الوحيدة لخروجها من ذلك هي النّجاح في دراستها.

لكنّ حاليا مستوى تعليم الفتيات مقارنة بالأولاد، عدد الشّهادات و نسبة النساء الإطارات هي مؤشّرات ممتازة لمكانة (Statut) المرأة داخل بلادها. حيث أصبح يتمّ التدريس بنفس الطريقة لكلا الجنسين. و تدريجيا استطاعت المرأة بلوغ التّعليم الثّانويّ ثمّ بلوغ مستوى دراسيّ عالي يُمكنها من العمل في المجال الذي ترغب فيه: "نجحت في التّسلل إلى إحدى المهن: المعرفة الأكاديمية. المعرفة، مع شهادة تتركز عليها هي اكتساب جديد للنساء لأنّ حتّى الآن، ما عرفته النساء من تربية الأطفال ونسج الزّرابي أصبح ناقص القيمة و لا يفيد" (MERNISSI (F), 1992 : p206)، فالمرأة الجزائرية أصبحت تجاري المرأة في العالم في مختلف مجالات الحياة، إذ استطاعت هي أيضا أن تثبت وجودها، و لكن دون أن تتخلّى بشكل كلي عن النظام التقليدي و دون أن تتجرّد منه، وبالتالي بدلا من حلم الزّواج و إنجاب الأطفال فقط، أصبح للمرأة هدفا أوسع: "أملها في تحقيق ثلاثة طموحات رئيسية بالنسبة لنساء العالم ككل: اختيارها لزوجها، أمومتها و نشاط خارجيّ تُطالب به كمشاركة في المجتمع" (LACOSTE-) (DUJARDIN (C), 2008 : p138) و هذا يُحيل إلى دور هذا الأخير في تحقيق الذات لدى المرأة: "يمدّ لهنّ العمل إشباعا آخر غير ماديّ... يفتح العمل آفاقا جديدة... يسمح بتحقيق الذات... التّفنّح على أفكار جديدة، في كلمة واحدة يتعلّق الأمر بحاجة للإثبات الذاتي، تحقيق الذات" (ABROUS (D), 1989 : p100).

إذن أن يكون رجلا أو تكون امرأة هي قبل كلّ شيء رتبة (Rang)، مكان (Place) داخل المجتمع، دور ثقافيّ و ليس كائنا بيولوجيا مناقضا للآخر. هذا التّعارض بين الجنسين طويلا يتميّز من خلال ثنائية أين الذكريّ هو القطب الأهمّ. منذ القديم كان يُعرّف الرّجل ككائن يختصّ بأمور لا توجد

لدى المرأة. إنه قويّ، ذكيّ، شجاع و مبدع، وهذا يُبرّر علاقتها التدرّجية مع الرّجل. إنّها تحكم منزلها، تسهر على تربيّة أطفالها و تمتثل لقانون الأخلاق و ما يبقى في العالم الخارجيّ من إنتاج، إبداع، سياسة، كلّ ذلك يعود للرّجل. السّيطرة على المرأة من قبل الرّجل كان يُعبّر عنها من خلال مراقبة جنسيتها، الإنجاب و كذلك تقسيم الأدوار. لكنّ منذ الثّورة الصّناعيّة، تمّ ملاحظة تطوّر في وضعيّة المرأة التي تميّزت بتوسّع مضاعف: التّحكم في الإنجابو المشاركة في العالم الاقتصاديّ مع الرّجل، وبدأت أفكار هذه الثّورة تجتاح العالم بأسره إلى أن أصبحت غاية كل امرأة في كل أرجاء العالم إيصال صوتها وبلوغها الهدف الذي تسعى إلى تحقيقه. من قَبَل كانت المرأة تُمارس أعمالا منفصلة و مختلفة عن أعمال الرّجل وغالبا داخل المنزل لكن "وضعت المرأة حدّا و نهاية للتقسيم الجنسيّ في العمل و للمعارضة بين الحياة في المنزل التي كانت مخصّصة لها و الحياة العمليّة المخصّصة للرّجل" (FSIAN (H), 2005 : p146).

و بالإضافة إلى إمكانية دخول المدرسة فإن ما ساعد أيضا هؤلاء النّساء على التّطوّر هو ظهور وسائل الإعلام التي أصبحت تظهر ما وصلت إليه المرأة من رقي في العالم الآخر المتقدم، و هذا ما زاد من إصرار المرأة الجزائرية على بلوغ تلك الوضعية و ذلك المستوى الراقى. و كما أنّ ظهور وسائل تُساعد في الأعمال المنزليّة ساهم أيضا في تطور وضعيّة المرأة، إذ أدّى ذلك إلى انشغالها بأمر أخرى غير الأعمال المنزليّة لمأ الفراغ الذي خلّفته هذه الأخيرة.

كلّ ذلك أدّى إلى تغيير مكان (Place) المرأة داخل المجتمع، حيث حدث تطوّر في الطّريقة التي كانت المرأة تُدرك بها و الطّريقة التي كانت تُدرك بها هي ذاتها. فالمرأة التي كانت سابقا تابعة و سلبية و غير فعّالة، أصبحت مستقلّة و فعّالة. ففي هذه العصرية التي اجتاحت العالم العربيّ بصفة عامة و المجتمع الجزائري بصفة خاصة أصبحت المرأة تمشي برأس عاري، تملك سيّارة و حقيبة يد، بطاقة هويّة و جواز سفر شخصيّ، عملا، تدخل الجامعة، المرأة نزعت الحجاب و أصبحت تظهر بوجه غريب يُشبه الغرب و هذا كله يرتبط ارتباطا وثيقا بالعولمة.

إنّنيلاحظ أنّ أهمّ دور تغيير هو دور المرأة، التي كان لها تقليديًا دورا ثابتا و محدّدا: "تجد ازدهارها و تكاملها في الأمومة، التي هي في آن واحد رمز و حارسة الأسرة أو المنزل. كانت المسؤوليات الاجتماعيّة أو العمليّة مقصاةً من حياتها، كانت ثانويّة مقارنة بأدوارها كزوجة و كأمّ التي تحتل المرتبة الأولى. العمل خارج المنزل هو معارض للمنظور الأبويّ (Visionpatriarcale)" (SEBAA (F.Z), 2010 : p26). إذن نتيجة للتحوّلات تغيير دور المرأة بعمق، حيث كانت تحت تبعيّة مضاعفة: للطبيعة من خلال وظيفة الإنجاب وللرّجل، أين كانت تمرّ من الخضوع لأبيها إلى طاعة زوجها. كما كانت الأشغال المنزليّة اليوميّة تملأ حياتها. بينما حاليا و تحت راية العولمة و ما تحويه من تقّدم بيولوجيّ و

تَقْنِي⁽¹⁾ سمح لها بالتمتع ببعض الوقت الفارغ و الذي يجب ملؤه بنشاط ما، هذا النشاط يتمثل غالبا في الخروج للعمل.

4- الأمومة و العولمة:

داخل العالم الثقافيالتقليدي إذا وُجد فضاء أين المرأة يمكن أن تحصل على السلطة (Pouvoir) على أمر ما أو على أحد ما، فإنه يكون من خلال فضاء الأمومة.

العلاقات بين الأم و طفلها هي أكثر ضيقا و انحصارا خصوصا في الطفولة الصغرى فهي حاضرة من أجل الطفل باستمرار، أين يكون دور الأب بالعكس في هذه المرحلة هو شبه مُنعدم. داخل بعض المناطق في الجزائر وقت الأم خلال الأربعون يوما الأولى هو مخصص كلية للطفل، فهي تقضي كل يوم ساعات طويلة بالقرب من رضيعها. أما في المجتمعات الغربية مجيء طفل يُؤد انتطارا اندماجيا لدى المرأة. إنها أم لكن لا تنسى أنها في نفس الوقت زوجة وامرأة. و بالعكس في مجتمعنا، مجيء طفل يُؤدّي إلى تخفيف دور الزوجة و توظيف أو استثمار (Investissement) قويّ للدور الأمومي. بالنسبة للمرأة التقليدية، كونها أمّا يعني الحصول على طفل أكثر من كونها تعيش مع رجل. و إذا تحدثنا عن العلاقة أب-طفل فهي تحدث بوساطة الأم. يعود للأمدخال الأب في العلاقة في هذا النظام، فهي غالبا ما تنتقل لطفلها صورة عن الأب تجعله يخشاه ممّا يُؤدّي إلى عدم الاقتراب منه.

في المجتمع التقليديّ المرأة هي أقلّ درجة من الرجل و هي خاضعة و تابعة له، لكنّ الأمومة تجعلها تنتقل من هذه الدرجة السفلى إلى درجة عليا أين تصبح هي المسيطرة على الرجل. يصبح ابنها عندما يكبر هو موضوع (Objet)سلطتها (Pouvoir). إذن حتى في النظام التقليدي كان للمرأة سلطة (Pouvoir) و قدرة تسيطر بها على الرجل مما يكسبها مكانة اجتماعية.

تدرجيا و بمساهمة كل من المدرسة ثم العمل ابتعدت المرأة عن كلّ ما هو متعلق بالمنزل، وقد أشار P. Bourdieu إلى ذلك: "... التحوّلات العميقة التي عرفها الوضع الأنثويّ، خاصّة داخل الفئات الاجتماعية المفضّلة: إنها مثلا زيادة بلوغ التّعليم الثّانويّ والعاليّ والعمل المأجور ومن خلاله بلوغ الحقل العموميّ، كذلك أخذ بُعد اتّجاه المهامّ المنزليّة ووظائف الإنجاب (مرتبطة بتقدّم و الاستعمال المُعمّم لتقنيات مانعة للحمل وتقليص حجم العائلات) مع خصوصا تأخير سنّ الزّواج والإنجاب" (BOURDIEU 2002 : p122). (P). إذ أن تطور وسائل منع الحمل و ظهور دور الحضانة ساعد المرأة على بلوغ الهدف التقليدي المتمثل في الأمومة من جهة، وفي نفس الوقت بلوغ هدف من نوع آخر يرتبط بما يسمى بالمشروع العملي (Projet professionnel) من جهة أخرى. ففي أيامنا هذه، و بحجّة التّمدن، و دخول المرأة للعمل والحصول على أجر، فإنّ ذلك أدّى بالخليّة العائليّة إلى إعادة التّظيم، أين نجد مثلا التّمدن طويل المدى و عمل المرأة في الفضاء العموميّ ترتّب عنه تأخر في سنّ الزّواج: "السنّ

¹ وسائل منع الحمل بأنواعها، الأجهزة الالكترونية المنزلية.

المتوسط للزواج تجاوز 18 سنة بالنسبة للنساء في 1966 إلى 29 سنة في 2002 (BOURDIEU) p122 : 2002, (P)), وكذا حرية اختيار الزوج و تحديد حجم العائلة، فقد أصبح بمقدورها تحديد عدد الأطفال و كذا الفترة الزمنية المناسبة التي ستتجب فيها الطفل، وعند ميلاده وانقضاء فترة الأمومة تعود إلى دراستها أو عملها تاركة الطفل إما عند أمها أو أم زوجها، وفي كثير من الأحيان تأخذه إلى دور الحضانة في الصباح لتعود لاصطحابه في المساء بعد الانتهاء من العمل، وبالتالي أصبحت التنشئة الاجتماعية لا تقتصر على العائلة فقط في السنوات الأولى للطفل و إنما أصبحت من مهام دور الحضانة. كما يلاحظ كذلك دخول الأب في العلاقة أم - طفل مبكرا إذ أصبح الأب يساعد الأم في الاهتمام بالطفل، ولم يعد ذلك مقصورا على الأم فقط مثلما كان سائدا من قبل، وبالتالي فإن مكان ودور الأب قد تغيرا أين أصبح الأب يقترب أكثر من أطفاله ويهتم بدراساتهم وبأهدافهم.

وكل هذا يُحيل إلى أن المرأة استطاعت تحقيق نوع من الاستقلالية من خلال الدراسة و العمل، مما سيمكنها حسب ما أشار إليه Fsian أنها ستعمل على جعل أطفالها مستقلين فيما بعد و تُشجعهم على تحقيق ذواتهم: "إذا المرأة استطاعت أن تتمثل ككائن مستقل و ليست تابعة لأطفالها ولزوجها، فإنها ستربي أطفالها داخلانفصال مستقبلي، تسمح لهم أن يكونوا فيما بعد مستقلين" (FSIAN (H), p3)، ويكون ذلك بشكل أكثر نجاعة عندما تعرف تنظيم التزاماتها و ضبطها حسب الأولوية.

قائمة المراجع

المراجع باللغة الفرنسية:

- 1/ ABROUS (D), 1989, L'honneur face au travail des femmes en Algérie, L'Harmattan, Paris, ISBN : 2-7384-0359-X, 312P.
- 2/ ADDI (L), 1999, Les mutations de la société algérienne : famille et lien social dans l'Algérie contemporaine, Editions la découverte, Paris, ISBN : 2-7071-3033-8, 225P.
- / BOURDIEU (P), 2002, La domination masculine, 2^{ème} éd, Editions du 3^{ème} seuil, Paris, ISBN : 2-02-055771-1, 177P.
- / CHERIF (H) et MONCHAUX (PH), (sous la dir de), 2007, 4 Adolescence : quels projets de vie?, Centre de Recherche d'Édition et

- d'Application Psychologiques (CREAPSY), Alger, ISBN : 978-9961-9634-7-0, 274P.
- / DELACROIX (C), 1986, Espoirs et réalités de la femme arabe 5 (Arabe-Egypte) : Histoire et perspectives méditerranéennes, L'Harmattan, Paris, ISBN : 2-85802-641-6, 236P.
- / DES FORTS (J), 2003, Violences et corps des femmes du tiers 6 monde : le droit pour celles qui donnent la vie, Editions ANEP, Alger, ISBN : 9947-21-051-4, 268P.
- / EL KHAYAT (GH), 1988, Le monde arabe au féminin, 2ème édition, 7 L'Harmattan, Paris, ISBN : 2-85802-476-3, 325P.
- / GADREY-TURPIN (N), 1982, Travail féminin, Travail masculin : 8 Pratiques et représentations en milieu ouvrier à Roubaix-Tourcoing, Editions Sociales, Paris, ISBN : 2-209-05469-9, 223P.
- / LACOSTE-DUJARDIN (C), 1985, Des mères contre les femmes : 9 maternité et patriarcat au Maghreb, Editions la Découverte, Paris, ISBN : 2-7071-1550-9, 268P.
- / LACOSTE-DUJARDIN (C), 1991, Le conte kabyle : étude 10 ethnologique, Bouchene, Alger, ISBN : 2-7071-1291-7, 534P.
- / LACOSTE-DUJARDIN (C), 1992, Yasmina et les autres de Nanterre 11 et d'ailleurs : fille de parents maghrébins en France, Editions La découverte, Paris, ISBN : 2-7071-2121-5, 283P.
- / LACOSTE-DUJARDIN (C), 2008, La vaillance des femmes (les 12 relations entre femmes et hommes berbères de Kabylie), Editions La découverte, Paris, ISBN : 978-2-7071-5402-6, 165P.
- / MERNISSI (F), 1992, La peur-modernité : Conflit Islam démocratie, 13 Albin Michel, Paris, ISBN : 2-226-05853-2, 251P.
- / TILLON (G), 1966, Le harem et les cousins, Editions du seuil, Paris, 14 ISBN : 2-02-066195-3, P217.

/ FSIAN (H), Projet de vie et construction identitaire chez les 1
adolescentes, Département de psychologie, Oran.

وثائق إلكترونية باللّغة العربية:

1/ فاطمة علوي، العولمة وتأثيرها على دور الأسرة في التنشئة الاجتماعية، جامعة البحرين، 2008-2009.
2/ أحمد زايد و أحمد مجدي حجازي (2003)، الأسرة المصرية و تحديات العولمة، أعمال
الندوة السنوية التاسعة لقسم الاجتماع 7 و 8 ماي 2002، مطبوعات مركز البحوث و الدراسات
الاجتماعية، جامعة القاهرة.

3/ عباس أبو شامة عبد المحمود و محمد الأمين البشري (2005)، العنف الأسري في ظل
العولمة، الطبعة الأولى، مركز البحوث و الدراسات، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، الرياض،
ص 93.

وثائق إلكترونية باللّغة الفرنسيّة:

/ SOUABER (H), Dossier : Activité féminine en Algérie, réalités et 1
perspectives, 19 CIDDEF, p19-26.

/ TAP(P), Identité, style personnel et transformation des rôles sociaux, 2
Bulletin de psychologie (Université de Toulouse Le Mirail Laboratoire «
Personnalisation et changements sociaux » U.A. C.N.R.S. n° 259), 1987,
Tome XL – N° 379, P399-
رسائل جامعيّة باللّغة الفرنسيّة:

1/ FSIAN (H), 2005, Identité féminine-Identité masculine : A propos des
relations hommes/femmes en Algérie, thèse de doctorat d'Etat en psychologie
clinique, université d'Oran.

/ SEBAA (F.Z), 2009/2010, Adolescence, déviance et mal être : 2
modèles de prise en charge d'adolescents en difficultés ou la douloureuse
naissance du statut de l'adolescent(e) algérien(ne), 109p, Thèse de doctorat,
Psychologie, Université d'Oran.

الخطاب السوسيولوجي في الجزائر بعد الاستقلال

د.زاوي مصطفى¹

لم يرتبط عمل السوسيولوجيا في المرحلة الاستعمارية بالجامعة و المدارس الاكاديمية بقدر ما ارتبط بالسلطة السياسية الاستعمارية و توجيهاتها الصارمة للبحث في مجال العلوم الانسانية . ويمكن اجمالا وصف الخطاب السوسيولوجي الكولونيالي بانه يطغى عليه المنظور الاثنوغرافي كوجه من اوجه تبرير السيطرة الاستعمارية، و تقديم المجتمع الجزائري في صور تكاد تنزع عنه تواجد التاريخي و علاقته بالحضارة العربية الاسلامية و ابعاد كل عناصر القوة في هذا التاريخ ، ثم اعتبار الراسمالية كنظام اقتصادي سياسي نقطة استدلال جديدة في التاريخ و كل ما سبقها جامد و غير قابل لان تبعث فيه الحركة من جديد، فديناميكية التاريخ اما ان تخضع لمنطق الراسمالية او لا يمكن ان تقدم اجابيات تاريخية للانسان .

لقد ركزت السوسيولوجيا الاستعمارية على مجموعة من المجالات التي اصبحت واضحة المعالم مع تطور الظاهرة الاستعمارية في الجزائر ، حيث تناولت الظواهر الدينية و مؤكد ان تركيزها على هذا الموضوع يأتي من ادراك السلطة الاستعمارية و وعيها بمدى تاثير عنصر الدين في الحياة اليومية للجزائريين و اعتبار اشكالية الدين تحتوي اسئلة مركزية حول المجتمع و يتيح تناولها الاقتراب من طرح مواضيع اخرى و ليس غريبا الاهتمام بالظاهرة الدينية ما دامت كل الانتقاضات و المقاومات الاولى ارتبطت بالدين او اطرتها الايديولوجيات الدينية مثل التصوف² . لقد ركزت الدراسات الاستعمارية كذلك على مجال المرأة كونه يرتبط مباشرة ببنية الاسرة و العشيرة كوحدة صعب اختراقها و مثلت عنصرا من اهم العناصر في تكوين المجتمع و ديناميكيته سواء فيما يتعلق بالبنية الثقافية و الحقوقية و التشريعية او على مجال الحقوق و القانون الذي كان يرتبط بالشريعة الاسلامية اذ ظلت الشريعة الاسلامية فاعلة في مجالات عديدة مثل الارث و الزواج و الاسرة... الخ .

ان غرس قواعد قانونية جديدة كان يتطلب فهم البنية القانونية للمجتمع المستعمر و ذلك قصد انتاج تشريع قادر على قولبة مصالح الراسمال الاستعماري كفضاء مريح يعتمد على الملكية الخاصة . لقد ارتبطت السوسيولوجيا في مرحلة الاستقلال بمواضيع جديدة و اطرتها ايديولوجية اخرى وانتقلت من توجيه الراسمال الاستعماري الى توجيه سلطة سياسية تعيش تناقضات ذات سمات غير محددة، فبعد نجاح حركة التحرر الوطني في الحصول على الاستقلال السياسي في مناخ عالمي كانت

¹ قسم علم الاجتماع وهران

² مقاومة الامير عبد القادر التي كانت تعتمد في تعبئتها للناس على تصوف و الفكر الاسلامي الجهادي

توجهه الايديولوجية الاشتراكية التي انتشرت بسرعة كبيرة بعد النجاحات التي حققتها في الحرب العالمية الثانية وما تبع هذا من توسع غير مسبوق لهذه الايديولوجيا في العالم الثالث.

لقد بدأت السلطة السياسية عملها في الجزائر المستقلة و هي مؤطرة بشكل جد قوي بمعطيات ايديولوجية اشتراكية ارتبطت بطبيعة سلطة سياسية او تحالف قوى اجتماعية / سياسية كانت وليدة حركة وطنية بتناقضاتها ووجدت في هذه الايديولوجيات مكان واسعا يستقبلها ويحافظ على ميكانيزمات اعادة انتاجها، و بدأت تبحث عن كل الروافد الممكنة لنشر هذه الايديولوجية و من بين هذه الروافد نجد العلوم الاجتماعية فقرأت التاريخ من موقعها و نقلته للاجيال عبر مؤسسات التربية و انتجت منه اطروحات مفصلة لخدمة وجودها و استمراريتها السياسية و استمدت شرعيتها من هذه الاطروحات واعطت لمفهوم الوطنية ابعادا محددة وقيدت الحريات السياسية ضمن مجال محدد لا يهدد وجودها السياسي.

لقد استخدمت السلطة السياسية العلوم الاجتماعية و الانسانية بكل تشعباتها وبدون استثناء، و وجدت في علم الاجتماع الذي كان يمتلك تاريخا استعماريًا حافلا نسفا معرفيا قادرا على القيام بمهام جد مثمرة في علاقته بنشر الايديولوجية الرسمية و لهذا ربطته بالجامعة و حجمته بين اسوارها لينطلق من الجامعة ناشرا لهذه الايديولوجيا و الامثلة على هذا كثيرة تبدأ من المواضيع التي ناقشها علم الاجتماع في الجامعة وتنتهي باتصال الطلبة و الاساتذة بالمجتمع لتدعيم الاطروحات الايديولوجية للسلطة.

لقد اظهر علم الاجتماع توجهها جديدا، وذلك باعتماده موقفا رافضا لتراثه في الجزائر الذي ارتبط بالاستعمار و ممارسته، و بهذا نلاحظ ان السلطة السياسية اصبحت تنظر الى الانثروبولوجيا على انها بنيت كنظريات على الوجود الاستعماري ومن السهل جدا تبرير هذا الموقف كون الانثروبولوجيا في دراساتها الجزئية تناولت المجتمع الجزائري في تقليديته وركزت على العادات و التقاليد و العرف و الدين من موقع الانثروبولوجيا المرتبطة بالرأسمالية كموقع في التاريخ يدعو الى تجاوز المجتمع التقليدي كإنتاج لمرحلة ما قبل الرأسمالية، هذا من جهة ومن جهة اخرى فان اغلب الانثروبولوجيين في الجزائر ارتبطوا بالمدرسة الاستعمارية و بمفاهيمها و تبريراتها لعمل الرأسمال الاستعماري ويمكن سحب هذا الموقف من الانثروبولوجيا على علم الاجتماع في الجزائر فالسلطة السياسية ارادت ان تنتقل به و بالاستعمار الى السوسيولوجيا التجريبية المرتبطة ايديولوجيا بتصورات السلطة السياسية الوطنية وليدة حركة التحرر الوطني.

لقد غابت المواضيع المركزية التي رافقت تطور السوسيولوجيا طيلة المرحلة الاستعمارية و هذا يدل على تغير نوعي في بنية السوسيولوجيا، فاذا كانت السوسيولوجيا الكولونيالية مبنية على مفاهيم محددة و على مواضيع تكاد تكون مكررة لا تخرج عن اشكالات الدين و التقاليد و العرف و اللغة فان السوسيولوجيا في مرحلة الاستقلال نحتت مفاهيمها وحددت مجالاتها و لم تخرج عن اطار التنمية بفرعيها الصناعية و الزراعية او الهجرة الداخلية و الخارجية و بهذا التحديد اصبحت السوسيولوجيا بعيدة عن قضايا مجتمعية كانت قد اقتربت منها حتى لو كان ذلك من منطلق استعماري في المرحلة الكولونيالية، و

لم يعد لها وجود في بنية المواضيع المعالجة وانتقلت الى مجال جديد محاصر سياسيا وامتخمت بايديولوجية السلطة السياسية.

لقد طرحت السلطة السياسية مسألة الاسقلال السياسي في علاقته بالانفصال عن الرأسمالية و تجاوز مرحلة التبعية وذلك ببناء اقتصاد قوي تنتشر قوته في المجالين الصناعي و الزراعي و هندست لهذا خطابا سياسيا ايديولوجيا هيمن لفترة طويلة و قامت بالترويج له في مجموعة من الاجهزة من بينها المؤسسات التربوية و الجامعية ببرامجها و المؤسسة الدينية بخطابها والمؤسسة الحزبية بممارساتها و ايديولوجيتها.

لقد دخل علم الاجتماع الكولونيالي القرى و المداشر و دور العبادة و الزوايا و الاسر بينما انكش علم الاجتماع بعد الاستقلال في الجزائر في اسوار الجامعة وظل ينتظر توجيهات السلطة السياسية و بهذا لم يعد قابلا لان ينتج علماء اجتماع بقدر ما اصبح منتجا للمشتغلين بالسوسيولوجيا.

اذن السؤال الذي نواجهه ما الذي جعل علم الاجتماع يتغير في بنيته المعرفية و يتجاوز تاريخا غنيا بالدراسات ويمثل تجربة تكاد تكون فريدة في العالم العربي، هل ابتعاد علم الاجتماع عن الاهتمام بالظواهر الدينية و تناولها بالدراسة يعني ان هذه الظواهر لم تعد تستهوي الباحثين الجزائريين بعد الاستقلال ام ان دور الدين تقلص و لم يعد يثير اهتمام السوسيولوجيين ام ان توجيه البحث السوسيولوجي نحو مجالات معينة وابعاده عن مجالات اخرى مثل الدين على سبيل المثال يفسر مدى تخوف السلطة من تناول الدين من قبل السوسيولوجيا او علوم اخرى قادرة على فهم دور الدين في المجتمع لان عملية طرح اشكالية الدين في المجتمع ستبدأ من اعتباره رهانا بين قوى سياسية مختلفة و متصارعة سياسيا او ما الذي جعل علم الاجتماع يبتعد عن تناول الاشكالات اللغوية او الاثنية في الجزائر.

ان تحول المجتمع من مجتمع مستعمر الى مجتمع مستقل فرض هذا التغير في بنية البحث في علم الاجتماع، لكن التغيير في هذه البنية اظهر ادلجة شاملة لعلم الاجتماع الممارس بعد الاستقلال اي ان علم الاجتماع ظل خاضعا لايديولوجية السلطة السياسية بعد الاستقلال كما كان خاضعا و موجهها ايديولوجيا طيلة الفترة الاستعمارية مع فروقات يمكن الاشارة اليها كون ان علم الاجتماع في مرحلة الاستقلال كان من الممكن ان يستفيد من تراثه و تاريخه و تجربته و مسيرته حتى اذا كانت هذه المسيرة مرتبطة بالاستعمار ولو على مستوى المناهج و التقنيات، ان المنتبع لمسيرة علم الاجتماع يلاحظ عدم مواجهته لاشكالات عميقة طرحت في المجتمع الجزائري المستقل و لم يواكب اطلاقا ديناميكية المجتمع.

ان الاصلاح الجامعي لسنة 1971 والذي مس برامج التعليم العالي ومن بينها برامج علم الاجتماع يشير الى ازمة كبيرة عاشتها الجامعة التي كانت مرتبطة الى هذا التاريخ بما تركه الاستعمار من برامج و يشير كذلك الى طموحات السلطة السياسية فيما تنتظره من الجامعات وذلك بتدخلها لمحاولة انتاج علاقة جديدة بين الجامعة و المجتمع تختلف عن العلاقة التي وجدت تاريخيا بين الجامعة الاستعمارية و المجتمع المستعمر.

يقول السوسيولوجي الجزائري محمد بشير " كانت الظروف الاجتماعية تتطلب اطرا تتماشى و اهتمامات المجتمع الجزائري الا ان الجامعة كمكونة لهذه الاطر كانت تسلك طريقا مخالفا متباينا، لقد دفعت هذه المفارقة مجلة الجامعة الى التساؤل، الى ماذا كانت تهدف شهادة الليسانس في علم الاجتماع الموروثة عن العهد الاستعماري؟¹

لقد كان علم الاجتماع في المرحلة السابقة يقدم للطلاب مجموعة من المعارف النظرية بدون اساس ومتطلبات الواقع ان البرنامج في النظام القديم كان غير مطلع على المشاكل الحقيقية للمجتمع، تلك المشاكل التي لم تجد مكانا لها في محتواه مما اضفى عليه عدم الفعالية، الامر الذي دفع بالمسؤولين الى الاعلان عن الاغتراب المأساوي لخريجي علم الاجتماع بين المهمة الواجب تحقيقها والقدرات المهنية لهؤلاء المتخرجين لذا يمكن القول ان المصالح الاجتماعية في تلك الظروف التاريخية كانت تقتضي تخريج اطارات تهتم بمتطلبات المجتمع في جميع المستويات و خاصة الارتباط بالاتجاهات الاساسية للمشروع التنموي بناء على ان ليس هناك اي علم يفصح عن الرهانات الاجتماعية بصورة جلية مثل السوسيولوجيا و ان السوسيولوجيا تمس المصالح حتى الحيوية منها في بعض الاحيان²

لقد اخذ حجم الثورة الجزائرية و طبيعتها وجه الاسطورة حيث طرحت مع نجاحاتها المضمون الاجتماعي للاستقلال واليات تدعيمه و التبعية الاقتصادية و الصراع على السلطة و التسيير الذاتي و هشاشة التكوين الاجتماعي عموما و الطبقي بالخاص و الاعتماد على الفلاحين الذين كانوا يشكلون قرابة ثلثي السكان...الخ وضمن هذا الواقع دعت الجزائر الى الانفصال عن الظاهرة الاستعمارية و مواصلة تطبيقها بالفهم و النقد و الاستقصاء على الصعيدين العلمي و العملي و هو ما يمكن ان يترجم سوسيولوجيا بموقف رفض النقل الآلي لسياقاتها النظرية و المنهجية دون امعان في دعاويها و مراميها ودون تمحيص بالدور الذي يلعبه الخطاب السوسيولوجي ولعل هذا ما يفسر رواج كتابات فرانز فانون 1923-1961 ومالك بن نبي 1905-1973 في هذه الفترة، اذ حاول فرانز فانون توضيح دور البورجوازية الوطنية في تعميق عملية الاستقطاب هادفا الى انها قد اتخذت على الدوام مواقف مؤيدة للقوى الاستعمارية على حساب الوطنيين و لقد ركز على كيفية انتاج مفاهيم بديلة لما انتجه الاستعمار و كيفية تجاوز المعتقدات التي ارساها داخل المستعمرات بهدف الحفاظ على مصالحه و اهدافه و بهذا يدعو الى وجوب صناعة فكر اجتماعي سياسي/ايديولوجي جديد يدعم المرحلة الوطنية و لن يكون هذا الفكر ناجحا الا اذا كان قادرا على محو كل مخلفات الاستعمار اما مالك بن نبي فقد حاول صياغة سوسيولوجيا للثورة الجزائرية تعتمد على اطر نظرية اسلامية و نادى بانشاء علم خاص هو علم اجتماع الشعوب التي لا تزال خارج اطار الحضارة المعاصرة مكرسا له اربع مبادئ هي المبدأ الاخلاقي، الذوق الجمالي ، المنطق

محمد بشير، مدخل لدراسة علم الاجتماع في الجزائر 72-82، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1949، ص 16¹

² نفس المرجع ، ص 17

العلمي و التقنية و هو ما يبدو في قوله " ينبغي ان ينشا علم اجتماع خاص بمرحلة الاستقلال ليكون بين ايدي من يشرفون على اجهزة الدولة اداة رقابة لا ينفصل عن جهاز التخطيط"¹

تشير هذه الدعوة الى ضرورة تغيير مقررات السوسيولوجيا الفرنسية التي ظلت تدرس بالجامعة الجزائرية حتى سنوات 1971 و كانت تطرح مشكلة الاستعمار على انها مسألة انسانية و على انها من وسائل نشر الحضارة البشرية .

لقد كان قسم علم الاجتماع في الجامعة الجزائرية بعد الاستقلال يضم مدرسين غير جزائريين بل اغلبهم فرنسيين و هذا ما يفسر بوضوح الانفصال او الاغتراب الذي اصبح عليه علم الاجتماع في الجامعة الجزائرية غداة الاستقلال يقول أ.كيفيليه A.cuvilier الذي مثلت مؤلفاته احد مصادر المقررات في علم الاجتماع قبل الاصلاح " ان البيض لم يحملوا معهم الشر الى البلاد التي استعمروها اذ في الغالب نجد انهم نشروا النظام و الامن بين الشعوب التي كانت من قبل لا تعرف السلام و الامن ... لقد كانت تتوزع في المغرب كله الفتن الداخلية بين القبائل و في كثير من الاحيان يؤدي تحرر هذه الشعوب من سيطرة الاستعمار الى عودتها الى الاحقاد و الحزازات القديمة و تذكروا بهذه المناسبة المذابح التي عرفتھا الهند بانفصال الباكستان عنها بعد خروج الانجليز"²

اذن فقد ورث الخطاب السوسيولوجي في جزائر ما بعد الاستقلال ركاما من المعارف و النظريات التي حكمتها مصالح ايدولوجية كولونيالية كان عليه تغييرها و اعادة النظر فيها عن طريق الاعتماد على الشروط الجديدة المصاحبة للاستقلال و غياب بعض شروط التواجد الاستعماري ، لقد بني الخطاب السياسي الرسمي على ضرورة الانفصال عن الراسمال العالمي و مواجهته و التركيز على الخصوصيات الاجتماعية و الاقتصادية و بهذا نمت مفاهيم مركزية تتدرج بشكل واضح ضمن النظرية السياسية العالم ثالثة و بالتوازي مع هذه المفاهيم بدأت تظهر و تنمو سوسيولوجيا ترتكز على ابعاد مفاهيمية بخصوصيات مجتمع حديث الولادة خرج من فترة استعمارية اثرت في تكوين بنيته بشكل واسع و يمكن وصف هذه الفترة اي فترة بعد الاستقلال مباشرة بانها كانت قاعدة لانتاج سوسيولوجيا لاستقلال في مقابل السوسيولوجيا الكولونيالية.

¹ مالك بن نبي: افاق جزائرية للحضارة ، للثقافة ، للمفاهيمية ترجمة الطيب شريف مكتبة النهضة الجزائرية - الجزائر 1964

² GUERID DJAMAL « société algérienne et sciences humaines » in mouvement social et modernité in (alger,NAQD/sarp.2003) P 25

مهنة المدرس في ظل المقاربة بالكفاءات في المدرسة الجزائرية

أي بروفایل لأي مدرس

خالدي أحمد¹

المقدمة :

قامت الجزائر بإصلاحات عدة على منظومتها التربوية، كان آخرها الإصلاح الذي تم بداية من الموسم الدراسي (2003/2004) والذي تم فيه اعتماد المقاربة بالكفاءات، هذه المقاربة تنطلق من فلسفة تعترف بكينونة الطفل المتعلم وبما يحمله من ثقافة قبلية. حيث انعكست هذه النظرة الفلسفية على المنظور النفسي للمتعلم من خلال دراسة ومراعات آليات الاكتساب وتعلم المعارف لديه وهو ما تجسد من وجهة نظر الديدائكتيك في بناء برنامج دراسي تفاعلي ، يكون فيه المتعلم وليس التلميذ هو المحور والأساس في عملية تعلمه. في حين تحول دور المدرس تبعا لمنظور المقاربة بالكفاءات لعملية التعليم – التعلم من محورها إلى أحد أقطابها، حيث أصبح منشطا ومسهلا بين المتعلم والمعرفة من خلال قيامه بالوساطة بينهما.

ورغم هذا التحول تبقى مكانة المدرس هامة ومحورية مثلما كانت عليه سابقا، خصوصا وأن المعلم يضمن لوحده جودة التعلم بحوالي 80% حسب رأي المختصين. هذه الأهمية والمحورية التي يتمتع بها المدرس هي التي دعت القائمين على الإصلاح إلى إيلاء عناية كبيرة له، حيث كانت إحدى محاور هذا الإصلاح هو "تحسين نوعية التأطير." (ص 04)² وهذا ما يعكس الأهمية التي يحوزها المدرس في المنظومة التربوية حيث عد محورا كبيرا من بين ثلاثة (3) محاور كبرى يشملها الإصلاح التربوي في الجزائر. لذلك نجد أن المدرس يعد أهم عامل من عوامل نجاح أي إصلاح تربوي، ولهذا نجد تأكيد المختصين على ضرورة إيلاء الأهمية للمدرس في كل عملية تستهدف المنظومة التربوية. ويظهر هذا الاهتمام في رأينا من حيث أخذ واضعي الإصلاحات باهتماماته وانشغالاته بعين الاعتبار، خصوصا تكوينه ووضع السوسيو- مهني. وبناءا عليه فإن موضوع مقالنا هذا الموسوم ب: "مهنة المدرس في ظل المقاربة بالكفاءات في المدرسة الجزائرية: أي بروفایل لأي مدرس" تنطلق من أسئلة نراها مؤسسة لموضوع دراستنا: ما هو بروفایل المدرس في منظور المقاربة بالكفاءات؟ وما هو موقعه ودوره؟ - ما مدى توافر هذا البروفایل لدى المدرس الجزائري أو ما هو واقع المقاربة بالكفاءات في المدرسة الجزائرية من حيث تعامل المدرس معها واقعيا وعمليا؟ ما العمل للوصول بالمدرس الجزائري البروفایل المطلوب؟ أهمية الموضوع:

¹ أستاذ- قسم العلوم الاجتماعية- جامعة سعيدة

² نافذة على التربية (2004) التكوين - عدد 56 أكتوبر - المركز الوطني للوثائق التربوية - الجزائر

تتمثل أهمية موضوعنا هذا كونه يحاول الإجابة عن هذه الأسئلة من خلال طرح تصور لما يجب أن يكون عليه المدرس الجزائري، ومن ثم التطرق لواقعه، لكي يغدو مدرسا فعالا. عموما يمكن تفصيل أهمية الموضوع في النقاط التالية: ما يجب أن يكون عليه وضع المدرس الجزائري، - ما هو وضع هذا المدرس حاليا ما يجب فعله للوصول به إلى ما يجب أن يكون.

المعلم بمنظور المقاربة بالكفاءات:

تنظر المقاربة بالكفاءات إلى المعلم على أساس أنه مرشدا في سياق دال، إن كلمة مرشد تتضمن معنى الوساطة والتنشيط، فهو :

-1- وسيطا : يقوم بالوساطة بين المتعلم والمعرفة ، فالكفاءات تبنى على حاجات المتعلمين (سابقا البرنامج يبنى على المحتوى التعليمي) المعلم يقوم باختيار الوضعيات وإيجاد الجو الملائم والمناسب لتعلمها.

-2- منشطا: حيث يقوم المعلم بتنشيط عمليات التعلم التي تسمح للمتعلم بالتعلم لأن "المتعلم في منظور هذه المقاربة هو في صلب" العملية التعليمية - التعليمية"، فالتنشيط في هذه الحالة يقتضي من المعلم :

تيسير اكتساب المعرفة،- لتمكين من تطبيقها،

وتيسر وتنمية التعلّيمات لدى المتعلم،

- وهذا حتى تنتقل إلى سياقات خارجية.

يؤكد(إريك سوتو) " ليس على المعلمين أن يستحثوا المتعلمين على التعلم، بقدر ما عليهم أن يطوروا طرقا للتعليم تستغل الدوافع الكامنة في ذات الطالب."(ص183)¹ مع تأكيده على أن " الكائن البشري ينشط بالفطرة ويمكن أن يستحث للتعلم عندما يجد نفسه في بيئة تساعد على النشاط العلمي واكتساب المعرفة."

إن هذه الصورة للمعلم تتطلب منه الاعتماد على (استعمال) البيداغوجيا النشيطة التي تعمل على : - تحصيل المعارف من جهة، وتنمية المهارات، الاستعدادات، السلوكات الجديدة، من جهة أخرى، إن استعمال هذه البيداغوجيا يؤدي بالتالي إلى الاعتماد على عديد المقاربات المتوفرة في السوق البيداغوجي والذي يتضمن العديد من البيدا:

Pédagogie différencie

البيداغوجيا الفارقة

Pédagogie de l'intégration

بيداغوجيا الإدماج/

Pédagogie de l'erreur

بيداغوجيا الخطأ /

¹ إريك سوتو(1995) عندما يتعلم المعلم-المجلة العربية للتربية - مجلد 15 - ع2 - تونس

فالمدرس يجب أن يأخذ بالاعتبار سيرورة التعلم ومعارف المتعلم، أي فهم "الطبيعة المعرفية للمتعلم" حسب تأكيد (BERTRANT)¹ وتتمثل أدوار المعلم في قيامه بالكشف خاصة عن :
المعارف التي يمتلكها المتعلم (ثقافة المجتمع)، ب- نماذجه وتمثلاته وأساليبه في معالجة المعلومات (الفروق الفردية)ج- مدركاته الفورية أو الساذجة (نوعية الثقافة التي يمتلكها) .
وهذا الدور الذي يقوم به المعلم من أجل إعداد المتعلم :

لمواجهة التناقضات المعرفية الممكن حدوثها بين معارفه القبلية والمعارف العلمية ،
مساعدته على الانتقال من مرحلة معرفية إلى مرحلة أخرى أكثر علمية .(ص94)
المدرس الجزائري: الممارسات والواقع:

تحت هذا المسمى نحاول الإجابة على السؤال التالي: ما هو واقع ممارسة التدريس بالمقاربة بالكفاءات في المدرسة الجزائرية؟ وكإجابة لابد من الإشارة إلى التشخيص المقدم في الكثير من الملتقيات والدراسات التي تناولت المنظومة التربوية في الجزائر بالتقويم- هذه النقاط التشخيصية والتي يمكن اعتبارها ملخص المتعلمين- وهي :

ضعف النتائج المدرسية

وتأخر في الثقافة العامة،

صعوبات واضحة متعلقة بلغة التدريس والتخاطب،

ملاح مخيفة من الأمية.

وهذا مرده- في رأي المهتمين- إلى نقص في التأهيل في الموارد البشرية (والتي يعد المعلم

أساسها) .

هذا التشخيص يبدو أقرب للواقع المعيشي بحكم أننا أساتذة ونتعامل مع هذه المخرجات - على الأقل لدينا أبناء يدرسون- إن هذه النتائج في نظرنا ترجع إلى الواقع السائد على مستوى المدرسة، حيث نظرة خاطفة لهذا الواقع تؤكد الاختلاف الموجود بين المستوى التنظيري من حيث (القوانين والمراسيم والخطب الداعية إلى تبيين المراقبة بالكفاءات وأهميتها) . وبين المستوى العملي (التطبيقي) حيث الواقع يختلف تماما حيث يمكن تسجيل مايلي :

- السلوك النمطي السائد في كثير من الأقسام.

¹ أ.برتران 2001 - تر: محمد بوعلاق - النظريات التربوية المعاصرة - قصر الكتاب - البلية.

- التغيير المتكرر للمقاربات المعتمدة في ظرف (4 سنوات من الأهداف إلى الكفاءات)،
- التركيز الإداري والقانوني دون الاهتمام على حفز الاجتهاد والمبادرة.
- اختلاف المستويات في القسم الواحد. (ص18)¹

هي مظاهر لواقع لا يتطابق مع متطلبات المقاربة بالكفاءات، حيث يؤكد المختصون أن تحقيق النجاح لهذه المقاربة وبها يتحدد وفق مستوى الكفاءة البيداغوجية التي يتوفر عليها المدرس، ولهذا يؤكد (DE LA GARENDRERIE): " يجب على التعليم أن يكون قادرا على تمكين التلميذ من إدراك الصور التي لا يستند عليها فالتلميذ الذي يستعمل الصور البصرية يكون في حاجة إلي تعليم يمنحه ادراكات سمعية، والعكس صحيح." (ص96)²

فالمسؤولية كما نرى تقع على عاتق المدرس الذي يجب عليه أن يغير نفسه-تغيير عاداته الذهنية-وعلى حد قول (DE LA GARENDRERIE) "المعلم يمكن أن يكون بصارا أو سماعا فكيف يستطيع أن يعلم تلاميذ قد يكونون مثله بصادرين أو سماعين؟

المشكلات التي يواجهها المدرس:

كثيرة هي الدراسات التي اهتمت بالمشكلات التي يواجهها المدرسين في الميدان، ومنها التي أوردها (نشواني) عن (كيج 1979 CAGE) مصنفة في خمس (5) فئات أساسية³ كما يلي:
-الفئة الأولى:المشكلات المتعلقة بالأهداف، حيث يواجه المعلم مشكلة في اختيار الأهداف وصياغتها و طرق تزويد الطلاب بها.

- الفئة الثانية:المشكلات المتعلقة بخصائص الطلاب، و هي متعلقة أساسا بالفروق الفردية التي يجب إدراكها من طرف المعلم، لتحديد مدى استعدادات التلاميذ و قدراتهم على انجاز الأهداف.
- الفئة الثالثة:المشكلات المتعلقة بالتعلم، و تتمثل في مشكلة اختيار مبادئ التعلم التي تتفق مع طبيعة المواقف التعليمية - التعليمية المتنوعة، و التي تفرضها عليه شروط النشاط التعليمي الذي يقوم به.
الفئة الرابعة: المشكلات المتعلقة بالتعليم أو التدريس ، تتعدد طرق التدريس و تختلف باختلاف المواد الدراسية و الطلاب و الشروط التعليمية الأخرى، و المشكل يتعلق بأي الطرق و الوسائل يمكن اختيارها و الأكثر نجاعة.

¹ عبد اللطيف المودني 2010 - المقاربات البيداغوجية ومفارقاتها بين استقلالية المدرس وتنمية التعلمات (ص ص 16-20)دفاتر التربية والتكوين -ع2- ماي - المغرب.

² أ.برتران 2001 - تر:محمد بوعلاق - النظريات التربوية المعاصرة - قصر الكتاب - البليلة.

³ نشواني عبد المجيد (1986) علم النفس التربوي ط3- دار الفرقان - الأردن و مؤسسة الرسالة-لبنان.

الفئة الخامسة: المشكلات المتعلقة بالتقويم، والتي يواجه بشأنها المعلم مشكلة اختيار أو تطوير الإجراءات التي تساعده على معرفة هذا التقدم و الوقوف على ما إذا كان التعليم يجري على نحو جيد أم لا. (ص17)

واقع المدرس في المدرسة الجزائرية

في هذا الباب يؤكد (يحياوي) وجود ثلاثة(03) أصناف من المعلمين في المدرسة الجزائرية¹: -
الصنف الأول: معلمون عصاميون يحبون المهنة

- الصنف الثاني: معلمون وجدوا أنفسهم معلمون بسبب الظروف التاريخية،

- الصنف الثالث: معلمون دفعتهم الظروف المعيشية والبطالة للمهنة. (ص85)

بخصوص هذا التصنيف يقدم الكاتب نظرتة فيمايلي:

بخصوص المعلمون العصاميون، فالكاتب يرى أنهم " كونوا أنفسهم عن طريق التعليم المعمم و عن طريق غير ذلك من المجهودات الشخصية، و هم يتميزون بالروح الجزائرية فكرا و منهاجا و تطبيقا إلى جانب سعة ثقافتهم المحترمة.

(ب) وأما فيما يتعلق بالمعلمين بسبب الظروف التاريخية، فان الكاتب يؤكد"معلمون كونتهم المدرسة شبه الجزائرية السابقة و لم يبذلوا أي مجهود شخصي لرفع مستواهم الثقافي، لكنهم عموما قادرين نتيجة التجربة الطويلة في التعليم على فهم الدروس و توصيلها بكل أمانة و تفاعل إلى تلاميذهم.

-ج) في حين الصنف الثالث من المعلمين " معلم بدل من بطال" فالكاتب يقول بشأنهم" معلمون دفعتهم ظروف متباينة قسرا إلى التعليم، ولو وجدوا اليوم مخرجا منه إلى غيره لما انتظروا لحظة ، يتميزون بالضعف الثقافي الخطير و عدم القدرة على استيعاب دروس المواد المقررة ، فضلا عن تلقينها بطرق تربوية حديثة إلى تلاميذهم."

نلاحظ أننا أمام ثلاثة أنماط من المعلمين في المدرسة الجزائرية ، هذه الأنماط لا يوجد بينها أي تجانس أو تقارب، حيث نجد المعلم بالاقدمية أو الذي له خبرة فهو معلم ينتظر التقاعد و لا يبالي بأي تكوين كونه أصبح قديما في المهنة و له الخبرة ، كما نجد نمط آخر لا يرى في مهنة المعلم إلا هروبا من البطالة، وهو التجأ إليها لشده يده كما يقال، و لو وجد أفضل منها فلن يتأخر لحظة واحدة، و لهذا فهو غير مبال، لا بتكوين أو رفع مستوى. أما النمط الثالث فهو نمط كما يرى الكاتب يحب مهنته، و لهذا فهو يعمل كل ما في وسعه ليكون في مستواها. و لهذا نجد أن المعلمين في المدرسة الجزائرية يمثلون مجموعة غير متجانسة، سواء من حيث حب المهنة و الذي يعد أكثر من ضروري للعمل فيها بجد و عطاء فيها بقوة. إلى جانب تشتت و اختلاف المستويات، حيث نجد الممرنون و هم الأغلبية، يليها فئة المساعدون

¹ عياش يحياوي (1983) المعلم والتيارات الفكرية الدخيلة (ص 83-85) - مجلة التربية - 06 - السنة الثانية - وزارة التربية - الجزائر

ثم المعلمون ثم المدرسون و هو ما يؤثر على الانسجام المطلوب و بالتالي عدم فعالية أي برنامج تكويني. ما انعكس على أدائهم في الميدان، وكرس لظهور سلبيات أعاققت قيام مؤسسة المدرسة بالعمل المرجو منها، هذه السلبيات نوجزها فيمايلي:

السلوكات السلبية للمدرسين في الجزائر: هي مجموعة من السلوكات سجلها (أمهيس) حول

السلوك التعليمي الذي يمارسه المدرسون الجزائريون، والتي يراها سلبية تؤثر على أدائهم ميدانيا¹:

الاستعمال الذي لا يكون دائما واضحا،

استعمالات تتسم بالغموض،

نقص التحكم في المضامين و تنظيمهم،

عدم معرفة مساقات الاكتساب عند التلاميذ.

- تقويم ناقص للفعل البيداغوجي و للوسائل. (ص 8)

وانطلاقا من هذه السلوكات السلبية التي يسجلها الكاتب و هو برتبة مفتش التربية والتكوين فانه

يقسم صعوبات الاستعمال إلى قسمين (اتجاهين):

1-الاتجاه الأول: صعوبات انضباطية / وقتية-(ponctuelle) : حيث المعلمون لا يستعملون

التصرف اتجاه مضمون من المضامين أو الطريقة.

2-الاتجاه الثاني: صعوبات عميقة : المعلمون لا يستطيعون التصرف في المجلد، و للرفع من

المستوى و تقادي أو إيجاد حل لهذه السلوكات و الصعوبات التي تسم المعلم الجزائري و تحد من

فاعليته. (ص 09)

إلى جانب هذه المظاهر السلبية للمدرسين و التي تؤثر على عملهم التدريسي، فان هناك بعض

الممارسات و التي يمكن اعتبارها مؤشرات، تدعو للاهتمام بتكوينهم حيث تكون هناك مساهمة لتطورات

الحاصلة في المجتمع و تكون المدرسة هي صانعة التغيير و لا تكون على هامشه، حيث أورد (تركي)

مجموعة من العناصر التي يرى أنها تعكس الركود في المهنة، مرجعا ذلك إلى "بفعل طول مباشرتهم

للتعليم فان الركود يظهر في:

- الجمود على طرق التدريس المستخدمة منذ زمن طويل.

- عدم الاطلاع على المؤلفات التربوية الجديدة و البحوث.

- الكسل عن تجديد المعلومات الثقافية و التربوية بعد الترسيم.

¹AMHIS BELKHIR(1982) maitres et outils didactiques (pp 06-09) - l'éducation – n2 – 1 . Année – MEN – ALGERIE

- عدم محاولتهم بناء تجارب خاصة بهم و اعتمادهم على تجارب ماضية مألوفة بدون نقد أو غرلة أو تطوير أو تجديد.¹ (ص442)

المدرس في الجزائر، الى التطرق للخصائص والصفات التي يرى الختصين توافرها لدى المدرس:

المدرس: خصائص و صفات:

تتنوع هذه الخصائص بتنوع المهام و الوظائف و الصفات التي يقوم بها المدرسين، فهي:
- خصائص أكاديمية و مهنية، و خصائص تدريسية، و سمات شخصية، و مواصفات تنفيذية.
يؤكد (نشواني) "لقد غدا التعليم مهنة تتطلب بالإضافة إلى بعض الخصائص المعرفية مهارات و كفايات معنية توفرها لدى المعلم ليكون تعليمه فعالاً".² (ص 229) و حول هذه الخصائص يؤكد (نشواني)³ "إن خصائص المعلم الفعال (المنتج) يتم إدراكها من وجهات نظر مختلفة (الطلاب - المعلمين) (أنفسهم) - المديرين - الموجهين التربويين - الإباء". (ص233)

كيف ننتقل من ماهو كائن إلى ما يجب أن يكون أو ماذا يجب أن نفعل؟

الإجابة على هذا التساؤل تكمن في التغيير الذي يجب على المعلم القيام به وإجراءه، هذا التغيير يرجع في قسطه الأكبر إلى التكوين، خصوصاً وأن عصرنا هذا موسوم "بعصر التكوين"، نظراً للتطور الكبير والمتلاحق الذي يشهده واقعنا، فما بالك بقطاع يعتبر من أهم القطاعات في المجتمع، ألا وهو قطاع التربية. تؤكد (جوديت شولمان): "إن كل متتبع لعمل المعلمين المضني يخرج بقناعة تتمثل في أن طرقتنا في إعداد المعلمين وتهيئتهم لإعطاء الدروس داخل قاعات الدرس هي طرق في أغلب الحالات غير مجدية وفي حالات أخرى بعيدة كل البعد عن تجارب المعلمين واحتياجاتهم".⁴ (ص270) وبهذا تؤكد (شولمان) وجود هوى بين نظرية التدريس الممارسة أثناء التكوين والممارسة العملية الموجودة في المدرسة، على أساس أن التركيز لا يتم على أهمية الدوافع المنبثقة من داخل الفرد وإنما على الحوافز الخارجية الممارسة في المجال التربوي.

وبتعبير (حروش) هناك عادات بيداغوجية راسخة عند المعلمين لا بد من زحزحتها وذلك ب:

- إحداث تغيير نفسي لدى هؤلاء يستوجب إقناعهم بالتنازل عن شعورهم (بنوع من الكفاية الذاتية وبتمكنهم من المادة والمعرفة) أي الحد نوعاً ما من سيطرة الأنا أو الذاتية لدى المعلم.
- وإيجاد معادلة متوازنة لديهم كونهم الآن مكونين أكثر مما هم معلمو معارف، (ص10)

¹ تركي رايح (1990) أصول التربية والتعليم - ط2 - د.م.ج - الجزائر

² نشواني عبد المجيد (1986) علم النفس التربوي - ط3 - دار الفرقان - الأردن و مؤسسة الرسالة - لبنان.

³ نفس المرجع السابق

⁴ جوديت شولمان (1995) طرق فحص الحالة في إعداد المعلمين - م.ع للتربية - مجلد 15 - ع1 - تونس.

ويؤكد (حروش): "هناك مقاومة وتردد بدافع أنهم ليسو أكفاء للولوج إلى العمل بالمقاربة بالكفاءات." (ص10)¹ وهذا في نظري ينم عن شعور بالكسل وعدم حب الجديد باعتبارها آليات دفاعية لدى المعلمين خوفا من هذا الجديد.

و لا نرى بأس من سرد مقولة ل(PERRENOUD) يوضح من خلالها أهمية التكوين وضرورة الاهتمام به " نحن نتعلم المشي بالمشي والرقص بالرقص، فلماذا تريدون أن نتعلم التفكير والملاحظة والتصور والتواصل والتحليل والمساومة ، بغير ممارسة هذه الأنشطة في وضعيات متنوعة قدر الكفاية ، حتى لا تبقى الكفاءة مرتبطة بنمط وحيد من السياقات والرهانات والشركات." (ص10)² وبما أن الأمر بالأساس يتعلق بالمدرس الذي يقرر لوحده جودة التعليم ب%80 فان الحل يكمن في العمل على جعل المعلم كفاء، وذلك ب(تعريفه ، تحسيسه ، تمكينه وتكوينه) بالأفكار التعليمية المتعلقة بدوره الجديد من منظور المقاربة بالكفاءات.

و لا نجد حرجا من اقتراح حلول عليها تساعد في رفع الكفاءة التدريسية لمعلمينا - هي اقتراحات أخذناها من مختصين:-

- ومن ذلك نورد اقتراح (حروش) الذي طرح أفكارا نراها مناسبة وعملية، حيث يرى ضرورة إيصالها للمعلم لأدراك دوره الجديد، وتتمثل في: دور المنشط ، البحث الفردي والجماعي المقرون بالعمل أي النشاط خارج القسم ، التمرن على الملاحظة ، التمرن على التشاور ، التمرن على اتخاذ المبادرات والالتزام بالشجاعة البيداغوجية ، التمرن على تنشيط المجموعات، التمرن على تبادل الخبرات بين المعلمين والتعود عليها." ³ مع تأكيده على أن العمل الجماعي شكل من أشكال التكوين والرسكلة. وبهذا الاقتراح فهو يستند بقول (ج.ل. مارتينو):" من أراد تعليم المعارف يكفيه إن يكون عالما شيئا ما ، ومن أراد تكوين الكفاءات فالأجدر به أن يمتلكها هو." ⁴

فمهمة المعلم بمنظور الكفاءات لم تعد تتمثل في التعليم المباشر بل في جعل المتعلمين يتعلمون بأنفسهم، ولهذا يرى (حروش): " أن تغيير المناهج ليس كافيا ولن يكون مجديا إذا لم يصحب ذلك تجديد التكوين من حيث علاقتهم ب :

المعرفة، علاقتهم بالمتعلمين، كيفية تقديم الدروس أو الكفاءة المهنية بوجه عام." (ص10)⁵ كما أن (أمهيس) يقترح بعض الحلول التي يراها كفيلة برفع مستوى مدرسينا¹:

¹ موهوب حروش 2003 - لماذا تستخفون الكفاءات - الورشة التكوينية حول المناهج الجديدة- تبيارة

² نفس المرجع السابق

³ نفس المرجع السابق

⁴ نفس المرجع السابق

⁵ نفس المرجع السابق

- 1- مستوى التكوين العام و المهني: حيث يجب أن يكون هناك تفصيل لمضامين التكوين خصوصا في ميادين المنهجية و فلسفة العلوم.
- 2- على المستوى الميداني : من خلال التجديد البيداغوجي الذي يجعل من المدرس في مستوى معين من التأهيل مشارك حقيقي في تكوينه بإعطاء إمكانية الإبداع الشخصي.
- وفي الختام يجب التأكيد على أن التعليم في ظل المقاربة بالكفاءات يتطلب بالضرورة إحداث تغييرات هامة في مجال الممارسة البيداغوجية ، بل ثورة بالنظر إلى عقليتنا التي تخاف من كل جديد و تأتي أن تتجدد وتحب الجمود والتحجر. خصوصا وأن دور المدرس هو أكثر من أساسي لنجاح المقاربة بالكفاءات في مدرستنا الجزائرية.

¹ AMHIS BELKHIR (1982) maitres et outils didactiques (pp 06-09) - l'éducation – n2 – 1 . Année – MEN – ALGERIE

البناء التنظيمي وجودة حياة العمل (دراسة ميدانية على عينة في المؤسسة العمومية الجزائرية)

مراحي عبد الكريم¹

أ.د. مزيان محمد²

مقدمة:

يعدُّ الاهتمام بالعنصر البشري كأهم مورد لنجاح المنظمة على المدى البعيد، لهذا فهو في تزايد مستمر عبر الزمن، فبعد أن كنا نتكلم عن "تسيير الأفراد" وصلنا إلى "إدارة الموارد البشرية" ولكن التقدم لا بد أن يستمر لإعطاء الفرد المكانة التي يستحقها فعلا داخل المنظمة، فالكتابات الحديثة جدا في هذا المجال تتكلم عن "إدارة رأس المال البشري" (Human Capital Management)، و"إدارة رأس المال الفكري" (Intellectual Capital Management)، لذا تبنت الإدارة في الكثير من المنظمات اليوم مبدأ الاهتمام بالعنصر البشري كأحد المؤثرات القوية التي تعطي ميزة تنافسية خاصة، التي تركز على نوعية الحياة الوظيفية، لأن إنتاجية رأس المال البشري أو رأس المال الفكري، هو وأساس أي اقتصاد ناجح في العالم، والمحك الرئيسي في إطالة بقاء أي منظمة ناجحة تحافظ على مكانتها وحصتها من السوق. وأصبحت القوة الدافعة لتلك المنظمات هي الأفراد ذوي المعرفة والذكاء والمهارات التي تتلاءم مع متطلبات القرن الحالي.

إن الفرد الذي يعمل بمفرده لا يواجه أي مشكلات، فهو المسئول الوحيد عن أهدافه وجدولة أعماله وحل مشاكله، وكذلك اتخاذ القرارات التي يراها مناسبة، أما إذا انظم إليه فرد آخر أو أكثر للمشاركة في انجاز أعماله ينشأ على الفور بما يسمى بالتنظيم. إذ هو ظاهرة إدارية تصاحب ظهور أي جماعة تحاول أن تعمل على تحقيق أعمال معينة، كما انه الإطار الذي تتحدد بموجبه أوجه النشاطات اللازمة لتحقيق الأهداف المسطرة، وتنتهي أي عملية تنظيم ببناء الهيكل التنظيمي.

يعد البناء التنظيمي واحدا من التطبيقات السلوكية في الإدارة، الذي يتضمن العديد من المفاهيم والنظريات والعمليات الموجهة لإجراء التحسينات في الهياكل التنظيمية والتي تتبناها المؤسسات بهدف تعظيم الفاعلية التنظيمية التي يمكن الاستدلال عليها من خلال تحقيق الأهداف الإستراتيجية للمؤسسة. ونظرا لزيادة المنافسة بين المنظمات، أصبح النجاح في السوق هو لتلك المنظمات التي تعمل جاهدة على تحسين ظروف بيئة العمل المادية و الغير مادية، وتساهم في تحقيق الصورة الذاتية للفرد في مكان العمل، مع المحافظة على التوازن بين الحياة والعمل، لهذا يجب الاهتمام بموضوع جودة حياة

¹ أستاذ مساعد " أ " قسم العلوم الاجتماعية جامعة سعيدة(ppsychologue@yahoo.fr).

² أستاذ التعليم العالي كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية جامعة محمد بن احمد "وهران2".

العمل بدراسة وتحليل المكونات والأساليب التي تستند إليها الإدارة في المنظمات بقصد توفير حياة وظيفية أفضل للعاملين بما يسهم في رفع أداء المنظمة ويحقق الإشباع لحاجاتهم ورغباتهم (ماهر، 1999).

I. تقديم البحث:

1. مشكلة الدراسة:

يعتبر الهيكل التنظيمي لأي مؤسسة وسيلة أو أداة هادفة لمساعدتها علي تحقيق أهدافها بكفاءة وفاعلية، من خلال المساعدة في تنفيذ الخطط واتخاذ القرارات وتحديد ادوار الأفراد وتحقيق الانسجام بين مختلف الوحدات والأنشطة، وتقادي التداخل والازدواجية والاختناقات وغيرها، ومن ناحية أخرى فان للبناء التنظيمي تأثير كبير علي سلوك الأفراد والجماعات في المؤسسات، فتقسيم العمل والتخصص يتضمن إسناد مهام وواجبات محددة للفرد، والالتزامات المترتبة علي الفرد وتوقعاته نتيجة لذلك قد توفر له الشعور بالرضا عن العمل، فالمؤسسة التي تسعى إلى تحقيق مزايا تنافسية معتمدة على مواردها البشرية لابد وان تجري التحسينات المستمرة على الجودة، لا سيما برامج التطوير التي تركز على جودة حياة العمل، لان موضوع جودة حياة العمل "Quality of work life(Qwl)" يهتم بدراسة وتحليل المكونات والأساليب التي تستند إليها الإدارة في المنظمات بقصد توفير حياة وظيفية أفضل للعاملين بما يسهم في رفع أداء المنظمة ويحقق الإشباع لحاجاتهم ورغباتهم (ماهر ، 1999)، فكلما تميزت بيئة العمل بالقبول والرضا من العاملين ساهم ذلك في جعل الأفراد مستغرقين بشكل كامل في وظائفهم بما يؤدي في النهاية للحصول على أداء أفضل (Chiu & Shiou Lu, 2003).

وفي ضوء ما سبق عمد الباحث إلى التعرف على العلاقة بين متغيرات جودة حياة العمل والبناء التنظيمي في نموذج واحد لإزالة الغموض حول العلاقة التبادلية بينهم، والتنبؤ بجودة حياة العمل من خلال البناء التنظيمي لكشف طبيعة وحجم تأثير البناء التنظيمي على جودة حياة العمل.

و في هذا الإطار سنحاول الإجابة على الإشكالية الرئيسية التالية:

تساؤلات الدراسة:

- هل توجد علاقة ارتباطية ذات دلالة إحصائية بين البناء التنظيمي ومستوى جودة حياة العمل؟.
- هل يمكن تعميم النموذج على مجتمع بحثي آخر من خلال التنبؤ لجودة الحياة العمل عن طريق عمليات البناء التنظيمي؟.

2. أهداف الدراسة:

تهدف الدراسة إلى التعرف على مستوى جودة حياة العمل في المؤسسة العمومية الجزائرية، وتحديد اثر عوامل جودة حياة العمل على البناء التنظيمي في المؤسسة العمومية الجزائرية أو كذا محاولة ربط متغيرات جودة حياة العمل مع البناء التنظيمي في نموذج واحد لإزالة الغموض حول العلاقة التبادلية بينهم، وكذلك العمل على عرض بعض النتائج، وتقديم بعض المقترحات والتوصيات التي تهدف إلى تحسين جودة حياة العمل التي تساهم في عملية البناء التنظيمي.

3. أهمية الدراسة:

تظهر أهمية الدراسة من خلال النقاط التالية:

1- تعتبر الدراسة الأولى من نوعها في المؤسسة العمومية الجزائرية التي تناولت تأثير أبعاد البناء التنظيمي على جودة حياة العمل.

2- يساهم البحث في زيادة المعرفة النظرية والتطبيقية للباحثين في جانب مهم من جوانب جودة حياة العمل.

3- المساهمة في إظهار ملامح القوة، وإحداث التغيير والتطور الذي تتطلبه وحدات الجهاز الإداري للدولة الجزائرية.

4. فرضيات الدراسة:

من خلال ما أقرت به الدراسات السابقة حول الموضوع، فإنه يمكن طرح الفرضية العامة التالية:

• توجد علاقة ارتباطية ذات دلالة إحصائية عند مستوى الدلالة (0.01) بين البناء التنظيمي ومستوى جودة حياة العمل.

• إمكانية تعميم النموذج على مجتمع بحثي آخر من خلال التنبؤ بتأثير البناء التنظيمي في جودة حياة العمل .

5. مصطلحات الدراسة:

البناء التنظيمي:

هو نظام رسمي يتكون من مجموعة من العلاقات التي توحد وتنظم الأنشطة والفعاليات، أو هو التصميم الأساسي والرسمي للمنظمة والذي يحتوي كافة الأنشطة الرئيسية والفرعية التي يتم تأطيرها وتحديدتها ضمن وحدات تنظيمية متكاملة ومرتبطة بأهداف المنظمة، وتكمن أهمية البناء التنظيمي في تخصيص الأفراد والموارد الأخرى للوظائف، وتحديد مسؤوليات الأفراد العاملين وبيان كيفية التعامل مع الآخرين، وتحديد ما هو مطلوب من العاملين استنادا إلى قواعد وإجراءات العمل، أي بناء السلطة في المؤسسات التي نراه جليا من خلال الرسم البياني للمؤسسات، بهدف مواكبة ما يطرأ من تغييرات حولها، ويتحدد البناء التنظيمي للمؤسسة بالعلاقات المتبادلة بين المسؤوليات المرتبطة بالمراكز المختلفة، إذ يؤدي تعاضم الحاجة في المؤسسات المختلفة إلى ظهور تنوع في تنظيمات المؤسسة ولا يوجد نمط واحد من التصاميم أو الأبنية التنظيمية ملائمة لجميع المؤسسات والتنظيمات، بل تختلف عن بعضها بعض على أساس طبيعة المهمة المسندة، ويشير هذا البعد إلى تصميم وظائف تتسم بالأهمية والتنوع والتحدي والثراء من وجهة نظر شاغلها، وهناك من يرى بأهمية توزيع العمل، وكذلك التناوب في العمل من أجل تقليل الرتابة والملل الذي يشعر به الموظف، وكذلك حتى يشعر الموظف بأهمية وقيمة دوره في المنظمة (أبوالنصر، 2007: 26).

1- جودة حياة العمل:

تعرف بأنها الممارسات التي تبادر بها الإدارة من خلال الأنشطة الإدارية المتعددة لتحسين كفاية التنظيم وزيادة الرضا الوظيفي للعاملين، وكذلك هي انتهاج سياسة للموارد البشرية تمكن من توفير حياة وظيفية تشبع حاجياتهم وتحقق أداء أفضل للمنظمة (المغربي، 2004: 4). ظهر مفهوم جودة حياة العمل ليواكب سياسات التغيير والتطوير التنظيمي وليخفف من حالات التوتر والقلق التي سادت في الغرب بين العاملين خوفاً من الاستغناء عنهم، أو تخفيضاً للخدمات والمزايا الاجتماعية المقدمة لهم، أو تخفيضاً لمعدلات أجورهم، بجانب حرص تلك المنظمات على تحقيق الرضا الوظيفي المؤثر على التزام العاملين. ومن ثم تعظيم أهمية استخدام وترشيد أداء الموارد البشرية واعتبارها أحد الاستراتيجيات الفعالة في تدعيم التميز التنافسي لمنظمات الأعمال (جاد الرب، 2003: 356)، فيرى كلا من Hian & Einsteion (1990) أن مصطلح جودة حياة العمل قد قدم لأول مرة عام 1972 خلال المؤتمر الدولي لعلاقات العمل، ونال هذا المفهوم اهتماماً كبيراً بعد أن قامت مؤسسات: United Auto workers and General Motors ببرامج لتحسين وإصلاح العمل، وانتشر كذلك مفهوم الجودة الشاملة على نطاق واسع بزيادة الحاجة إلى إعادة هندسة النظم الإدارية وإكسابها مهارات متنوعة، إضافة للنظر إلى الموارد البشرية كأحد العوامل المحددة للنجاح في الشركات اليابانية نتيجة سياسات التوظيف الدائم والتعلم والتدريب وحلقات الجودة كجزء من الحياة الوظيفية (جاد الرب، 2008: 19-22)، ويذهب الهيتي (2003) إلى ربط نوعية حياة العمل بظروف العمل الاجتماعية والطبيعية والنفسية ويعرفها بالنوعية العالية لحياة العمل التي تتحقق من خلال جو عمل ملائم واستخدام إجراءات ونظم عمل تشعر الفرد العامل بأهميته في المنظمة وتحفيزه بانتهاج الأداء الأفضل، أما السالم (2008) فيشير إلى جودة حياة بيئة العمل بقوله أنها هي الصفات أو الجوانب الإيجابية أو الغير ايجابية المرتبطة ببيئة العمل كما يراها أو يدركها العاملون، أما محمد السيد جاد الرب (2008) فيعرف جودة حياة العمل أنها مجموعة من العمليات المتكاملة والمخططة والمستمرة، والتي تستهدف تحسين مختلف الجوانب التي تؤثر على الحياة الوظيفية للعاملين وحيلتهم الشخصية أيضاً، والذي يسلمهم بدوره في تحقيق الأهداف الإستراتيجية للمنظمة والعاملين فيهل والمتعاملين معها، أما الطبال عبد الله (2004) فيعرفها بأنها مدخل أو فلسفة للتطوير التنظيمي يستهدف تحقيق التنمية الشاملة للعاملين سواء تنظيمياً أو اجتماعياً أو صحياً أو اقتصادياً، ورفع مستوى العاملين مادياً ومعنوياً مما ينعكس ذلك في النهاية على الولاء والالتزام للمنظمة والبقاء فيها، وبالتالي تحسين مستوى الأداء والإنتاجية والفاعلية التنظيمية للمنظمة، ويعرفها كل من Lewis, Goodman & fanclt بأنها مجموعة الأنشطة التي تمارسها المنظمات بغية تنمية وتطوير الحياة في أثناء العمل بما ينعكس إيجاباً على إنتاجية المنظمة (المغربي، 2004: 5). لقد استحوذ مفهوم جودة حياة العمل مجال واسع من الظواهر التنظيمية سواء في شكله الكلي والموضوعي أو في احد أبعاده ومكوناته، حيث يشير مفهوم جودة حياة العمل إلى توفير

المنظمة لعوامل وأبعاد وظيفية أفضل للعاملين بها، ويتطلب ذلك انتهاج سياسات الموارد البشرية التي تمكن من توفير حياة وظيفية تشبع حاجاتهم، وتحقق أداء أفضل للمنظمة (حسن نصار وبحر، 2013: 12)، ويعبر عنها كذلك انها وصول الفرد لدرجة النضج الشخصي والنفسي، اللذين يحققان له السعادة الذاتية، ومن ثم إيجاد معنى لحياته من خلال الأمل الذي يبعثه على كافة أشكال حياته بحيث يصبح راضيا عنها، (خميس، 2010)

II. الإجراءات المنهجية للدراسة:

1. منهج البحث و التصميم المعتمد: في ضوء طبيعة البحث والأهداف التي يسعى إلى تحقيقها يجري استخدام المنهج الوصفي التحليلي، والذي يعتمد على دراسة الواقع أو الظاهرة كما هي في الواقع، ويهتم بوصفها وصفاً دقيقاً، ويعبر عنها تعبيراً كيفياً، بما يوضح حجمها ودرجات ارتباط البناء التنظيمي مع مستوى جودة حياة العمل. وهذا المنهج لا يهدف إلى وصف الظواهر أو وصف الواقع كما هو بل يتعداه إلى الوصول إلى استنتاجات تساهم في فهم الواقع وتطويره. ولهذا قام الباحثان باستخدام المنهج الوصفي التحليلي لأنه المنهج المناسب لمثل هذه الأبحاث، ولأنه يمكن من تجميع المعلومات اللازمة لتحقيق أهداف البحث الحالي والإجابة على تساؤلاته.

2. المجتمع المعني بالبحث وعينة الدراسة:

تبحث هذه الدراسة في أوساط إدارات مؤسسة سونلغاز، وذلك لمعرفة مدى نجاعة الإدارة الوصية في تحقيق الأهداف الرئيسية لتطبيق عمليات البناء التنظيمي ومراعاة مستوى جودة حياة العمل عند إجراء هذه العمليات.

مواصفات العينة: قام الباحثان بتوزيع الاستمارات على كل إدارات مؤسسة سونلغاز

الجدول رقم (01): توزيع عينة الدراسة حسب متغير الجنس

المتغير	التصنيف	التكرار	النسبة المئوية
الجنس	ذكر	44	69.84%
	أنثى	19	30.16%
	المجموع	63	100%

المصدر: من إعداد الباحث

يوضح الجدول رقم (01) توزيع عينة الدراسة حسب متغير الجنس والغالبية العظمى من مفردات الدراسة تتمثل في جنس الذكر بنسبة 69.84%، وتليها الأنثى بنسبة 30.16% وهذا دليل على مشاركة الأنثى في المهام الإدارية والهندسية بجانب الذكر، وذلك حسب الخصوصيات الديمغرافية للمنطقة.

الجدول رقم (02) : توزيع عينة الدراسة حسب متغير السن

المتغير	التصنيف	التكرار	%النسبة المئوية
السن	أقل من 29 سنة	38	60.32%
	من 30 إلى 39 سنة	21	33.33%

06.35%	04	أكثر من 40 سنة	
100%	63	المجموع	

المصدر: من إعداد الباحث

بالنظر إلى البيانات الواردة بالجدول رقم (02) الذي يمثل توزيع العينة حسب متغير السن يتضح لنا أن نسبة 60.32% تمثل العينة الأقل من 29 سنة وهذا تجسيدا لسياسة الدولة للقضاء على ظاهرة البطالة، وفي المقابل 33.33% من العينة تمثل من 30 سنة إلى 39 سنة، و 06.35% هي نسبة الأكثر من 40 سنة، وهذا يوضح جهود الدولة في التركيز على العنصر البشري في الخماسي الأخير من السنوات الأخيرة.

الجدول رقم (03): توزيع عينة الدراسة حسب متغير الخبرة الإدارية

المتغير	التصنيف	التكرار	%النسبة المئوية
الخبرة الإدارية	أقل من 5 سنوات	47	74.60%
	من 6 إلى 14	11	17.46%
	أكثر من 15	5	7.94%
المجموع		63	100%

المصدر: من إعداد الباحث

يظهر الجدول رقم (03) الذي يمثل توزيع عينة الدراسة حسب متغير الخبرة الإدارية، وفيها نسبة 74.60% من مجموع المبحوثين يمثلون عينة تضم أقل من 5 سنوات خبرة إدارية مقابل 17.46% من المبحوثين يمثلون عينة تضم من 6 سنوات خبرة إلى 14 سنة، وفي الأخير 7.94% تمثل الفئة الأكثر من 15 سنة، وهذا يوضح تركيز جهود سياسة الدولة في الآونة الأخيرة بتطبيق قانون 06/21 الخاص بتشجيع العمل، وهذه الميزة تلبس الإدارة الجزائرية ثوباً جديداً يتصف بالميزة الشبابية للعنصر البشري، ما يلفت نظر الباحث لتركيز دراسته على الصفة الشبابية التي تتصف بها الإدارة الجزائرية بصفة عامة، والمؤسسة العمومية لسونا لغاز بصورة جزئية.

الجدول رقم (04): توزيع عينة الدراسة حسب متغير التخصص العلمي

المتغير	التصنيف	التكرار	%النسبة المئوية
التخصص العلمي	علوم إدارية	15	23.81%
	علوم إنسانية	9	14.29%
	علوم هندسية	39	61.90%
المجموع		63	100%

المصدر: من إعداد الباحث

يتضح من خلال الجدول رقم (04) أن الغالبية العظمى من مفردات الدراسة تمثلت في تخصص العلوم هندسية بنسبة 61.90%، تليها تخصص العلوم إدارية بنسبة 23.81% ثم أخيراً العلوم إنسانية بنسبة

14.29% وهذا راجع إلى النشاط الرئيسي التي تعمل من اجله مؤسسة سونالغاز والذي يتمثل في توزيع وصيانة الشبكة الكهربائية على مستوى الوطن.

3. المعالجة الإحصائية و أساليبها:

للإجابة عن تساؤلات الدراسة استخدم الباحث برنامج الحزم الإحصائية للعلوم الاجتماعية (SPSS22)، وقد استخدم الأساليب الإحصائية التالية للإجابة عن تساؤلات وفروض البحث:

- 1- التوزيع التكراري والنسب المئوية والأوساط الحسابية لوصف خصائص مفردات الدراسة.
- 2- استخدام معامل ارتباط بيرسون للتعرف على العلاقة بين متغير البناء التنظيمي وجودة حياة العمل.
- 3- استخدام نموذج الانحدار المتعدد للتعرف على أثر البناء التنظيمي على جودة حياة العمل.
- 4- استخدام اختبار تحليل التباين ANOVA للتعرف على مدى اختلاف مفردات الدراسة نحو البناء التنظيمي وجودة حياة العمل.

4. محددات الدراسة: يحدد البحث بالمجالات الحدودية التالية:

- 1.4. الحدود الموضوعية: يقتصر هذا البحث على دراسة البناء التنظيمي وعلاقته بجودة حياة العمل.
- 2.4. الحدود المكانية: اقتصر هذا البحث على الإطارين العليا للمديرية الجهوية لسونالغاز لمدينة سعيدة.
- 3.4. الحدود الزمنية: تم إجراء البحث خلال شهر أكتوبر 2016م حتى نوفمبر 2016م.
- 4.4. الحدود البشرية: اقتصر هذا البحث على الإطارين العليا للمديرية الجهوية لسونالغاز بمدينة سعيدة.
5. صدق و ثبات الاستبيان:

1.5- صدق المحكمين: عرض الباحثان الاستبيان على مجموعة من المحكمين تألفت من 5 مختصين في الإدارة، والإحصاء التطبيقي ومجموعة من الأساتذة، وقد استجاب الباحثان لآراء المحكمين وقاما بإجراء ما يلزم، من حذف وتعديل في ضوء المقترحات المقدمة.

2.5- ثبات الاستبيان: لقياس مدى ثبات أدوات البحث (الاستمارة) استخدم الباحثان معادلة ألفا كرونباخ Alpha Crunback's للتأكد من ثبات أداة البحث، وكذا التجزئة النصفية.

جدول رقم (05) قيم معامل ثبات الاستمارة

مستوى الثبات		
مجموع الفقرات	ألفا كرونباخ	التجزئة النصفية
34	0.726	0.615

المصدر: مخرجات برنامج (V.SPSS.22)

III.

نتائج الدراسة:

• عرض وتحليل نتائج الفرضية الأولى:

تنص الفرضية الرئيسية الأولى على انه " توجد علاقة ارتباطيه ذات دلالة إحصائية عند مستوى الدلالة 0.01 بين البناء التنظيمي ومستوى جودة حياة العمل"، ولإثبات صحة هذه الفرضية تم استخدام معاملات الارتباط لبيرسون (pearson correlation) والذي اظهر النتيجة التي يوضحها الجدول التالي: الجدول رقم (06) يوضح نتائج معاملات الارتباط لجودة حياة العمل و البناء التنظيمي.

المتغيرات	جودة حياة العمل	مستوى الدلالة
البناء التنظيمي	0,665**	0,000

دال عند مستوى الدلالة (0.001). المصدر: مخرجات برنامج (V.SPSS.22)**

يتضح لنا من خلال الجدول السابق: ان هناك ارتباط طردي بين البناء التنظيمي وجودة حياة العمل بلغت قيمته (+0.665)، عند مستوى الدلالة (0.000) وهي قيمة معنوية أقل من مستوى الدلالة (0.001)، وبالتالي فإننا نرفض الفرض الصفري ونقبل الفرض البديل القائل بان هناك علاقة الارتباط بين المتغيرين (البناء التنظيمي وجودة حياة العمل) تختلف عن الصفر أي أن علاقة الارتباط معنوية، وهذه العلاقة موجبة أي علاقة طردية مما يدل انه كلما ارتفع مستوى عمليات البناء التنظيمي كان هناك إدراك ايجابي لجودة حياة العمل.

• عرض وتحليل نتائج الفرضية الثانية:

تنص الفرضية الثانية على " إمكانية تعميم النموذج على مجتمع بحثي آخر من خلال التنبؤ بتأثير البناء التنظيمي في جودة حياة العمل".

لإجابة عن السؤال الذي ينص على "ما هي درجة تأثير البناء التنظيمي في جودة حياة العمل؟" تم استخدام معادلة الانحدار المتعدد (Multiple Regression) بطريقة الإدخال (Enter) والتي تُستخدم لاختبار العلاقة بين عدة متغيرات مستقلة والمتغير التابع.

جدول رقم (07): معادلة الانحدار الخطي (ملخص نموذج)

معامل	معامل	معامل	خطا معياري
0.665**	0.442	0.44	3,806
	1		

دال عند مستوى الدلالة (0.01). المصدر: مخرجات

برنامج (V.SPSS.22)**

ويتضح من الجدول رقم (07) أن نتائج اختبار معادلة الانحدار المتعدد كانت دالة إحصائياً حيث أظهرت أن معامل الارتباط بين المتغيرات المستقلة (البناء التنظيمي)، والمتغير التابع (جودة حياة العمل)

قدر ب (0.665)، كما أن المتغير المستقل (البناء التنظيمي) يفسر (40.41%) من التباين في المتغير التابع (جودة حياة العمل).

وتدل نسبة معامل التحديد المعدل (R^2) على أن إمكانية تعميم النموذج على مجتمع بحثي آخر كانت بنسبة (40.42%).

الجدول رقم (08) يمثل نتائج تحليل التباين للانحدار للتأكد من صلاحية النموذج

مستوى الدلالة	قيمة F	متوسط الم	درجة الحرية	معامل التحديد R^2	المتغير المستقل	المتغير التابع
0.00	286,083	4	161	0.42	البناء التنظيمي	جودة حياة العمل

المصدر: مخرجات دال عند مستوى الدلالة (0.01).

برنامج (V.SPSS.22)**

تحليل الانحدار:

وتوضح قيمة ف ($F = 286,083$) والتي كانت دالة إحصائياً عند مستوى (0.01)، أن العلاقة بين المتغيرات المستقلة (البناء التنظيمي) والمتغير التابع (جودة حياة العمل) هي علاقة خطية، كما وتشير إلى صلاحية النموذج بالتنبؤ بالتباين في المتغير التابع. وبناءً على هذه النتيجة تم قبول الفرضية البحثية التي تنص "إمكانية تعميم النموذج على مجتمع بحثي آخر من خلال التنبؤ بتأثير البناء التنظيمي في جودة حياة العمل".

مناقشة النتائج و التوصيات

أظهرت التحاليل الإحصائية لاختبار الفرضية الأولى على ثبوت العلاقة الارتباطية ذات دلالة إحصائية عند مستوى الدلالة (0.01) بين البناء التنظيمي ومستوى جودة حياة العمل بعلاقة ارتباطية طردية موجبة قدرت ب (0.665) أي كلما زاد مستوى جودة الحياة العمل زاد المتغير المستقل. وكذلك تحليل التباين يوضح المتغير المستقل هو بعد البناء التنظيمي والمتغير التابع هو جودة حياة العمل وقد كانت قيمة مستوى الدلالة (0.000) وهي أقل من (0.001) وهذا يعني قبول معادلة الانحدار بنسبة مئوية تساوي (44.20%) وتتفق هذه النتيجة مع نتائج دراسة سيندي كريستين (2005)، ودراسة م. ك. مالهوترا، ودراسة غروف (1999)، ودراسة تنغ غروفوك وفيلدرال (1999). إذن تتفق الدراسة الحالية مع مجموعة من الدراسات سابقة الذكر حول علاقة البناء التنظيمي ومستوى جودة حياة العمل. ويمكن تفسير هذه النتيجة الايجابية على أن مصطلح البناء التنظيمي يشير إلى ترتيب مراكز معينة في المؤسسة، وتوزع

الصلاحيات والمسؤوليات، ويعني هذا التعريف أن المؤسسة تتكون من أفراد يشغلون مراكز معينة، وكل مركز ترتبط به سلطات ومسؤوليات معينة، ويتحدد البناء التنظيمي للمؤسسة بالعلاقات المتبادلة بين المسؤوليات المرتبطة بالمراكز المختلفة، ويؤدي تعاظم الحاجة في المؤسسات المختلفة إلى ظهور تنوع في تنظيمات المؤسسة، ولا يوجد نمط واحد من التصاميم أو الأبنية التنظيمية ملائمة لجميع المؤسسات، والتنظيمات تختلف عن بعضها بعض على أساس طبيعة المهمة المسندة إليها وتصمم التنظيمات المؤسسات كي تلائم المهمة وصالحه وملائمة للمؤثرات الخارجية المحيطة بالعملية. ونتيجة على ذلك، فإنه يتم رفض الفرض الصفري، وبالتالي قبول الفرض البديل الذي ينص على وجود علاقة ارتباطية ذات دلالة إحصائية بين متغير البناء التنظيمي ومستوى جودة حياة العمل.

الخاتمة:

وانطلاقاً من كل ما ورد أعلاه يمكننا القول بأن نجاح وفاعلية عملية البناء التنظيمي يمكن قياسه من خلال ما يتركه من أثار في جودة حياة العمل وفق ما يدركه الأفراد العاملين أنفسهم. ولضمان استمرارية النظام وعدم التجاوز عليه، يجب أن تتباين الآراء في طريقة تصورنا لجداية العلاقة بين الفرد والمنظمة، ورغم أن الفرد قد يخسر جزءاً من حرياته نتيجة خضوعه للنظام إلا أن ذلك يعد عاملاً أساسياً لاستقرار المجتمع والفرد، وهذا لن يتم إلا بأسلوب من للتطبيع الاجتماعي وعدالة في الضبط الاجتماعي وتكييف مؤسسي للنظام التنظيمي، وكثيراً ما تلعب العوامل الاجتماعية والموروث الاجتماعي للفرد دوراً مهماً في زيادة تكيفه نحو المجتمع الجديد الذي ينتمي إليه، فالفرد لا يخرج من مجتمع لأخر، دون أن يحمل هذه العادات والتقاليد بشكل مباشر أو غير مباشر معه، وهي أدوات مهمة تساعد الفرد أو تحطمه أثناء تكيفه في البيئة الجديدة، فالأشخاص المتطرفون في أفكارهم، يصعب عليهم الاندماج في مجتمع يرونه مثلاً سيئاً، فهم لا يرون الجيد منه بل يركزون على الجانب السلبي منه، وهذا الشخص يكون في باطنه شخص ضعيف متشائم، لا توجد لديه رغبة في المعرفة والمحاولة الفعالة لاكتساب الخبرات الاجتماعية المختلفة، المستندة على بناء أسس التفاعل الإيجابي بين كل من الأفراد العاملين في مختلف المواقع الوظيفية من جهة، والسياسات والأنظمة المعتمدة لإحداث الموازنة بين الأدوار الوظيفية والنفسية والاجتماعية للأفراد العاملين من جهة أخرى.

المراجع:

- 1- أبو النصر، مدحت محمد. (2007). إدارة و تنمية الموارد البشرية: الاتجاهات المعاصرة، القاهرة: مجموعة النيل العربية.
- 2- آل فرج الطائي، محمد عبد الحسن. (2009). المدخل إلى نظم المعلومات الإدارية. الطبعة الثانية، عمان: دار وائل للنشر والتوزيع.

- 3- المغربي، عبد الحميد عبد الفتاح.(2004).جودة حياة العمل وأثرها في تنمية الاستغراق الوظيفي، دراسة ميدانية، بحث مقبول للنشر، مجلة الدراسات والبحوث التجارية،العدد الثاني،جامعة الزقازيق: مصر.
- 4- السالم،مؤيد سعيد.(2008).إدارة الموارد البشرية مدخل استراتيجي تكاملي، عمان: إثراء للنشر والتوزيع.
- 5- الطبال، عبد الله.(2004). جودة الحياة الوظيفية وعلاقتها بالالتزام التنظيمي لعاملين، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة قناة السويس مصر:كلية التجارة بالسويس.
- 6- الهيتي، خالد عبد الرحمن.(2003). إدارة الموارد البشرية، عمان: دار وائل للنشر.
- 7- بنيامين س، بلانشارد.(2007).إدارة هندسة النظم، ترجمة د.حاتم النجدي، بيروت:المنظمة العربية للترجمة.
- 8- حسن نصار،إيمان و بحر،يوسف عبد عطية.(2013).جودة حياة العمل وأثرها على الاستغراق الوظيفي، مصر: منشورات المنظمة العربية للتنمية الإدارية.
- 9- محمد السيد جاد الرب.(1999). جودة الحياة الوظيفية في شركات قطاع الأعمال، بحث مقدم للجنة العلمية الدائمة للترقية-إدارة الأعمال، مصر.
- 10- محمد السيد جاد الرب.(2003). إدارة الموارد البشرية، الإسماعيلية: جامعة قناة السويس.
- 11- محمد السيد جاد الرب.(2008). جودة الحياة الوظيفية QWL في منظمات الأعمال العصرية، مصر: دار الفكر العربي للنشر.
- 12- مصطفى، احمد ماهر.(1999).أساليب جودة الحياة الوظيفية، مجلة كلية التجارة للبحوث العلمية،العدد الأول، المجلد السادس والثلاثون، جامعة الإسكندرية، مارس،ص ص 109-189.
- 13- Cascio, Wayne f.(2001).Managing Human Resources: Productivity, Quality Of Work Life, Profits NEW YORK,MC GRAW-Hill, Irwin.
- 14- Chiu,tai cheng and meei shih oulu.(2003).A Study Of The Relationship Between The Organizational Climate And Job Involvement Taking A Certain Medical Center And Its Entrusted Hospitals, Scandinavian Journal Of Psychology, VOL.40,N°2.

النشاط الزراعي في بلاد المغرب الأوسط

خلال القرنين 7 - 8 هـ / 13 - 14 م

د. شباب عبدالكريم¹

مدخل:

طغت الدراسات والبحوث المتعلقة بالتاريخ السياسي والعسكري ونظم الحكم لبلاد المغرب الأوسط على حساب الدراسات الحضارية العامة، خاصة تلك المتعلقة بالنشاط الاقتصادي. تحاول هذه الورقة إبراز جوانب من النشاط الزراعي في هذه المنطقة الهامة من بلاد الغرب الإسلامي، خلال فترة القرنين 7 و8 هـ، من حيث مدى تنوع المحاصيل والزروع، والظروف البشرية والطبيعية التي تحكمت في ذلك النشاط الزراعي، والتنظيم الزراعي، أسسه وبنياته.

يقدم عبدالرحمن بن خلدون في كتابه "العبر" إشارات مقتضبة حول النشاط الاقتصادي الهام على ذلك العهد (ق 7+8 هـ). فالمرينيون * الذين هاجموا تلمسان عام 761هـ/1272م "حطموا زروعها"². كما أن السلطان الزياني أبا حمو موسى الثاني (760-791 هـ / 1358-1389م) الذي هاجم بلاد الديالم ***، انتسفها واثمها وحطم زروعها³.

ودائماً في سياق حديثه عن توسعات الدولة الزيانية يشير ابن خلدون أن عثمان بن يغمراسن (681-703 هـ / 1282-1303م) غزا منطقة متيجة "فانتسف نعمها وحطم زروعها"⁴، وفي سنة 686 هـ / 1287م توجه إلى بلاد توجين فاكنتسح حبوبها ونقل زروعها إلى مازونة⁵.

تكشف هذه النصوص التي وردت ضمن الإطار السياسي العام للأحداث في بلاد المغرب الأوسط، أن هذه المنطقة كانت بلاد خصب ونماء، امتهنت فيها الفلاحة على نطاق واسع، وكانت مصدر عيش ورزق لكثير من سكانها. وتقدم لنا كتب الرحالة والجغرافيين، وبعض المصادر التاريخية الدور الكبير الذي لعبته الروافد والأنهار والينابيع المائية في ازدهار الفلاحة، ويفيدنا الجغرافي الإدريسي

¹ أستاذ محاضر قسم ب جامعة سعيدة

* بنو مرين بن ورتاجن بن ماخوخ بن حديج بن فاتن بن يدر بن يخفت بن عبد الله بن ورتتصيص بن المعز بن إبراهيم بن سحيك بن واسين من قبيلة زناتة، كانت مواطنهم قبل تكوينهم دولة من فكيك إلى سجماسة إلى ملوية، نجحوا في الاستقلال بالمغرب الأقصى بعدما تمكن زعيمهم أبو يحيى بن عبد الحق في افتتاح فاس من أيدي الموحدين عام 646 هـ. عبد الرحمن بن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، المجلد 7، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1968م، ص 357.

² - نفسه، ص 260م.

**** * الديالم: أحد بطون قبيلة زغبة العربية، نسبة إلى ديلم بن حسن بن إبراهيم بن رومي. انظر بن خلدون، مج 6 ص 95.

³ - نفسه، ص 274.

⁴ - المصدر نفسه، ص 190.

⁵ - المصدر نفسه، ص 191-327.

أن " مدينة يَلَّ بها عيون ومياه كثيرة"¹. أما تلمسان "قلها نهر يأتيها من جبلها المسمى بالصخرتين.... و هذا الوادي يمر في شرقي المدينة، وعليه أرجاء كثيرة، ومما جاورها من المزارع كلها للسقي"². كما ذكر أن لمدينة " مليانة نهر يسقي أكثر مزارعها"³، أما الجغرافي ابن سعيد فيقدم أيضاً جوانب هامة من الثروة المائية التي تزخر بها بلاد المغرب الأوسط، فذكر أن جبال الونشريس منها ينبع نهر الشلف ويصب عند مستغانم، وهو مثل النيل.⁴ أما نهر المسيلة فيعتبره من "أجل الأنهار"، كما ذكر نهر يسر الذي يصب في مدينة أرشغون⁵. أما مليانة فلها " نهر يسقي أكثر حدائقها وجناتها"⁶.

هذا وجدير بالذكر أن مصادر السقاية في بلاد المغرب الأوسط كانت متنوعة، فالأراضي التي كانت على ضفاف الأودية كانت تستفيد من السقي، وقد ذكرنا سابقاً ما أورده الإدريسي وابن سعيد حول أراضي تلمسان ومليانة ومستغانم والدور الإيجابي الذي لعبته أوديتها.

وقد زدتنا بعض النوازل بمعلومات قيمة عن نظام الري في تلمسان حيث كان منظماً تنظيمياً دقيقاً، فحسب الونشريسي كان بها عين ماء واحدة تسقي البساتين، فمنهم من كان يروي أرضه نهاراً، ومنهم من يسقيها ليلاً، وفئة ثالثة كانت تسقي من الغداة إلى الزوال⁷. وقد استخدم فلاح المغرب الأوسط الدواليب والنواعير وهي آلات لرفع المياه، وتديرها الدواب كما في مليانة ومنطقة الشلف⁸.

أما الجهات الشرقية للمغرب الأوسط فيذكر العمري أن بعض أراضيها تعتمد على المطر كمصدر للسقاية⁹، أما الجهات الواحية فإن المياه الجوفية تعوض الأمطار¹⁰. وإذا كانت مدينة فاس قد عرفت تنظيمًا للري جد متطور حتى القرن 4/10م، والمتمثل في تقنية إقامة السدود على واديه¹، فإننا لا نستبعد على الفلاحين معرفتهم بهذا الأسلوب التقني.

1- أبو عبد الله الشريف الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، ب ت، مج1، ص 251.

2- الإدريسي، مصدر سابق، ص 248.

3- المصدر نفسه، ص 253.

4- ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، تح اسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط2، 1982. ص 142.

5- المصدر نفسه، ص 127-140.

6- الإدريسي، مصدر سابق، م 1، ص 253.

7- أبو العباس الونشريسي، المعيار المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب ج5، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف الدكتور محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1981. ص 111.

8- سليمان بهلولي، الدولة السليمانية والامارات العلوية في المغرب الأوسط 173-342هـ/789م - 954م، رسالة ماجستير مخطوطة، جامعة وهران 2000م، ص 91.

9- ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأبصار، نشرة جزئية لحسن حسني عبد الوهاب تحت عنوان: وصف إفريقية والأندلس أواسط القرن الثامن هـ، تونس ب ت، ص 02

10- إبراهيم حركات، النشاط الاقتصادي الإسلامي في العصر الوسيط حتى القرن 9هـ/15م، دار إفريقيا الشرق، الدار البيضاء 1996، ص 89.

أنواع المزروعات:

تتوعدت الغلات الفلاحية في بلاد المغرب الأوسط بسبب تعدد المناخات والترب واختلاف تقنيات الفلاحة بين البادية والحواضر. وقد شكلت الحبوب خاصة القمح والشعير المصدر الأساسي لمعاش الناس، كما أن شروطه الطبيعية والبشرية متوفرة². ويصف لنا الجغرافي ابن سعيد أهمية منطقة تنس الزراعية بقوله: "وهي مشهورة بكثرة القمح"³، أما الإدريسي فيذكر أن شعير بجاية "يكفي لكثير من البلاد"⁴.

كما زرعت الخضر والبقول طيلة فترة القرنين 7 و8هـ/ 13 و14م وقبلها، أما البقول فقد وردت في معظم المصادر باسم القطاني ويقصد به الفول والحمص والعدس، والجلبان، والقطاني إما يؤكل أخضراً أو يابساً. ويشد الطالب على الخضر والبقول من قبل سكان الحواضر لذا نجد زراعتها تتمركز حول الحواضر. حيث تتوفر التربة الخصبة والمياه⁵ كتيهت، مليانة، بجاية، وهران،

أما الفواكه فتميزت زراعتها بالانتشار، ويكشف لنا الإدريسي مناطق عديدة كتنس، معسكر، المرسى الكبير، المسيلة، شرشال⁶. أما ابن حوقل فيصف مدينة سطيف أنها "كثيرة الفواكه والثمار" أما مليانة "ففيها جميع الفواكه والثمار"، وجبل ميلة "فيه جميع الفواكه من التفاح الجليل والسفرجل، والأعنان الكثيرة"⁷. كما عرف المغرب الأوسط زراعة الكروم فمدينة المسيلة لها كروم كثيرة في معظمها على نهر الشلف، أما شرشال فكرومها ظاهرة⁸. أما الزيتون فيصف لنا البكري مدينة طولقة بأنها "كثيرة البساتين بالزيتون"⁹.

يضاف إلى كل هذا أن المغرب الأوسط عرف النباتات النسيجية وهي مواد أولية نباتية، فبجاية حسب ابن سعيد المغربي كانت تنتج كميات كبيرة من القطن¹⁰ بالإضافة إلى مستغانم والمسيلة، أما متيجة فهي أكثر النواحي كثاناً ومنها يحمل¹¹.

1- الوثنريسي، المعيار ج 5، ص 20-21.

2- بهلولي سليمان، مرجع سابق ص 91.

3- ابن سعيد، مصدر سابق ص 142.

4- الإدريسي، مج 1، ص 260.

5- بهلولي سليمان، مرجع سابق ص 93.

6- الإدريسي، مصدر سابق مج 1، ص ص 252، 254، 258.

7- ابن حوقل، صورة الأرض، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ب ت، ص ص 166-171.

8- الإدريسي، مصدر سابق مج 1، ص ص 253-258.

9- أبو عبيد الله البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، مكتبة المثنى، بغداد ب ت، ص 72.

10- ابن سعيد، مصدر سابق، ص 142.

11- البكري، مصدر سابق، ص 59-65-69.

أما الشهدانج * فزرع في المسيلة ونواحيها¹، ويمكن أن نزيد على هذا تربية النحل التي اعتنى بها الفلاحون في شرشال وجزائر بني مزغنة، لذلك كان إنتاج العسل من الوفرة بحيث "ينقل إلى سائر البلاد والأقطار المجاورة لهم والمتباعدة عنهم"².

يظهر مما تقدم أن المغرب الأوسط عرف خصباً نماء كبيرين، واستمرت هذه الحالة الاقتصادية الايجابية إلى فترة القرنين السابع والثامن الهجريين.
التنظيم الزراعي:

كان التنظيم الزراعي في بلاد المغرب الأوسط لا يختلف كثيراً عن التنظيم المعمول به في سائر بلاد المغرب الإسلامي عامة، خاصة من حيث طبيعة ملكية الأراضي، وطرق وتقنيات استغلالها، فقد أشار ابن خلدون في كتابه "العبر" إلى بعض البيوتات الكبيرة التي امتهنت الزراعة، خاصة في السهول التي تقع بجوار المدن، فأسرة بني الملاح الأندلسية التي استقرت بتلمسان مع بداية تأسيس الدولة الزيانية، احترفت سكة الدنانير والدرهم "وزادوا إليها الفلاحة"³.

ويؤكد يحيى بن خلدون ظاهرة ممارسة البيوتات المعروفة بحرفة الزراعة كعائلة المرازقة⁴. وما من شك أن العقار الفلاحي الذي حازت عليه العديد من البيوتات المشهورة كان مصدره الإقطاعيات السلطانية التي كانوا مسمولين بها. وقد أكد عبدالرحمن بن خلدون في أكثر من مجال، بخصوص طبقة الخاصة أن ثروتها مستمدة من الجاه بحكم قربها من السلطة الحاكمة، وقد أقدم السلطان الزياني يغمراسن بن زيان على إقطاع الفقيه أبي إسحاق إبراهيم بن يخلف بن عبدالسلام التنسي أراض زراعية⁵.

* الشهدانج: نبات من أصل صيني أو أصل فارسي، وهو نبات مماثل للقمح، وكانت تستعمل خيوطه في تحضير خيط قوي وممتين، ويستعمل في صناعة أثواب رقيقة وورق جيد. انظر: جودت عبد الكريم، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين 3 و4هـ / 9 و10م، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ب ت، ص 56.

¹ - الإدريسي، مصدر سابق مج 1 ص 253.

² - الإدريسي، مصدر سابق، ص 258.

³ - ابن خلدون، العبر مج 7، ص 213.

⁴ - يحيى بن خلدون، مصدر سابق، ص 114.

* أبو إسحاق إبراهيم بن يخلف بن عبد السلام التنسي، من العلماء الكبار عرف بالزهد والتشف، حاز مكانة رفيعة عند الملوك الزيانيين، انتهت عليه رئاسة التدريس والفتوى في أقطار المغرب، ألف في العلم كثيراً، وأشهر تأليفه شرح كتاب تلقين المبتدأ وتذكرة المنتهى" لأبي محمد عبد الوهاب المالكي في الفروع، وقد ضاع هذا الكتاب أثناء الحصار الطويل لتلمسان، وتوفي العالم أبو إسحاق عام 680 هـ / 1281م. انظر يحيى بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تح عبد الحميد حاجيات، ج 1، المكتبة الوطنية، الجزائر 1986. ص ، أحمد بابا التتبيكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تق عبد الحميد الهرامة، كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس ليبيا 1989م، ص 38.

⁵ - محمد بن عبد الله التنسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، تحقيق محمود بوعيايد، إصدارات المكتبة الوطنية، الجزائر 1985م، ص 127.

وقد كانت الأراضي المقتطعة لفائدة أصحاب السلطان وبطانته في غالب الأحيان ذات ملكية خاصة، لأنه قلما توجد أراضي ذات ملكية جماعية إذا كانت ذات مردود اقتصادي جيد، لأنه يكثر طلبها والتنافس على اقتنائها، ولنا في الأراضي المسقية الموجودة في أحواز المدن خير دليل على هذه الوضعية، لأنها ذات خصب مضمون بسبب المياه، وذات سوق مضمونة بسبب قربها من المدن¹.

أما البادية فان غالبية الأراضي كانت مشاعة تستغلها القبائل بشكل جماعي، خاصة مساح الرعي للسوائم. لكن يجب التنبيه إلى أن بعض القبائل كانت إلى جانب حرفة الرعي، تمارس أنشطة فلاحية كقبائل توجين وسويد، "ففي هذه الحالة تضطر أن تترك بعض أفرادها لحماية مزروعاتها إلى حين عودتها من صنعها"². وبخصوص حجم الملكيات الفلاحية بالمغرب الأوسط ونوعيتها يمكن تسجيل أن الظروف الطبيعية تحكمت إلى حد كبير في هذا الجانب، وذلك لوقوع بلاد المغرب على حافة الصحراء الكبرى، وانفتاحها على سواحل البحر الأبيض المتوسط، وهذا ما نتج عنه اختلافاً في طبيعة ملكية الأراضي من إقليم لآخر، فتركزت الملكيات الخاصة بجوار المدن³.

تنوعت ملكيات الأراضي في المغرب الأوسط، وباستثناء أراضي الإقطاع التي أشار إليها ابن خلدون، فانه أغفل باقي أنواع الملكيات الأخرى التي يمكن استقاء معلومات بشأنها من المصادر التاريخية الأخرى وكتب النوازل والرحلات.

أ- الأراضي الموظفة: وهي تلك الأراضي التي فرض عليها "وظيفة*" للدولة، وحسب الونشريسي يمكن ملاحظة أنه في حالة شراء تلك الأراضي لا يلزم المشتري دفع الوظيف إلا بداية من اليوم الذي اشتراها فيه⁴.

ب- أراضي الإقطاع: يمكن اعتبارها الأرض التي يقطعها السلاطين وأصحاب الحكم عموماً لأفراد معينين لقاء خدمات معينة قدموها للدولة، وقد أشار ابن خلدون إليها في أكثر من مكان، حيث أورد أن السلطان أبي حمو الأوسط أقطع بعد عام 749هـ عرب المعقل مواطن بتلمسان، لاستمالتهم في صفه ضد المرينيين، و نفس الأمر فعله مع عرب حصين عام 768هـ. ولا شك أن كبار قادة الجيش استفادوا من هذه الأراضي كالقائد العسكري عبد الله بن مسلم، ويورد ابن خلدون بخصوص المكانة التي تبوأها في

¹ - عبد المجيد زيان، النظريات الاقتصادية عند ابن خلدون وأسسها من الفكر الإسلامي والواقع المجتمعي، دراسة فلسفية واجتماعية، المؤسسة الوطنية للكتاب، ديوان المطبوعات الجامعية، ط2، الجزائر 1988، ص 225.

² - جودت عبد الكريم، مرجع سابق، ص 19.

³ - ناصر الدين سعيدوني، دراسات تاريخية في الملكية والوقف والجباية، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت 2001، ص 14-15.

⁴ - الونشريسي، المعيار ج6، ص 102.

* الوظيف هو الضريبة. انظر : كمال السيد أبو مصطفى، جوانب من الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي من خلال نوازل وفتاوى المعيار المغرب للونشريسي، مركز الإسكندرية للكتاب، 1996. ص 62.

الدولة "فعلا كعبه واستفحل أمره" ولا شك أن هذه العبارة توحى أن عبد الله بن مسلم استفاد من امتيازات هامة من ضمنها الأراضي المقتطعة¹.

ت- الأراضي الموات: وهي الأرض البور التي يقطعها السلطان أو ولي الأمر لمن يحييها ويزرعها، وأورد الونشريسي أن رجلا من أهل تلمسان، قام عام 708هـ/1306 م باستصلاح أرض بورٍ مهمة قرب العمران، وعرسها ثم باعها لرجل آخر، الشيء الذي يؤكد أن الأرض البور تصبح ملكاً لمن يحييها فيتصرف فيها كما يشاء².

ث- أراضي الحبوس: كان الهدف من حبس تلك الأراضي هو تحقيق الرعاية الاجتماعية والتكافل الاجتماعي. وتفيد إحدى النوازل وجود الأراضي المحتبسة على المساكين ببلاد المغرب، أطلق عليها أرض المساكين، كانت تزرع وتوزع عائداً على الفقراء³.

هذا ومن المفيد الإشارة إلى أن استغلال الأرض وتقليبها وتهيتها لم يكن يقوم به مالك الأرض دائماً، وإنما عرف أيضاً نظام الشركات الزراعية، ويتضح ذلك من إحدى النوازل للونشريسي حيث أشار إلى أخوين شقيقين كانت بينهما أرض زراعية، وكان أحدهما يستغل الأرض ويقتسم مع أخيه الآخر محصول الأرض عند حصاده⁴، كما عرفت شركة المناصفة وذلك بأن يشترك المالك بأرضه بينما يقوم الشريك بالتقليب والبذر والعمل، ويكون المحصول مناصفة بينهما، كما كان المالك أحياناً يؤجر أرضه مقابل أجر معلوم⁵.

هذا وقد كان النشاط الفلاحي يواجه مشاكل عدة طول فترة القرنين 7 و8هـ/13 و14م، أبرزها الجفاف وقد أشار ابن خلدون إلى أعوام 692م، وما بعدها "أصاب الناس قحط ونالتهم سنة وهنوا لها"⁶. كما أن الصراعات السياسية بين الدول على زعامة بلاد المغرب أثرت إلى حد كبير على الفلاحة، ويقدم لنا ابن أبي زرع نصاً حول تخريب بني مرين وحلفائهم من قبائل توجين لزروع بعض نواحي المغرب الأوسط عام 670هـ/1272م، حيث كتب: "فقطعوا الثمار والجنات، وأفسدوا الزروع، حتى لم يدعوا بتلك النواحي قوت يوم، حاشاً السدرة والدوم"⁷.

¹ - ابن خلدون، العبر مج 7، ص 260.

² - الونشريسي، ج 5 ص 116-117.

³ - الونشريسي، ج 7، ص 63، 332.

⁴ - الونشريسي، ج 5، ص 44-45.

⁵ - المصدر نفسه، ج 8، ص 138.

⁶ - ابن خلدون، العبر مج 7، ص 454.

⁷ - محمد ابن أبي زرع، الأنيب المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط 1972، ص 311.

أما أساليب الزراعة، فعرف الفلاح في المغرب الأوسط أسلوب المناوبة، وتسوية التربة وتقليم الأشجار وتلقيحها، والزراعة الواسعة والزراعة الكثيفة، ويذكر أن فلاحى مدينة باديس* كانوا يزرعون الشعير مرتين في العام على مياه سائحة كثيرة عندهم¹. كما تمت الاستعانة بالثيران والبقر لعمليات الدرس والحرث².

خلاصة

إن المعطيات التي أوردناها، تسمح لنا باستخلاص الرأي الذي مفاده أن بلاد المغرب الأوسط عرفت خصباً كبيراً ووفرة إنتاجية هامة خلال فترة القرنين 7-8 هـ/13-14م، تمثلت في تنوع المحاصيل الفلاحية من حبوب وخضر وفواكه وبقول وغيرها، مدعومة بتوفر إمكانيات طبيعية كوفرة المياه وامتداد السهول الخصبة، وبشرية تمثلت في إمام المزارعين بالأساليب والتقنيات المعروفة وقتذاك. مع العلم أن التنظيم الزراعي في المنطقة كان يتشابه كثيراً مع التنظيم المعروف في بلاد المغرب الإسلامي عامة، من حيث طبيعة ملكية الأراضي وطرق وتقنيات استغلالها.

¹ - بهلولي سليمان، مرجع سابق، ص 29.

*بادس: بكسر الدال المهملة، وسين غير معجمة: اسم لموضعين بالمغرب، الأول بادس فاس والثاني بادس الزاب، ولعل المقصود من السياق العام هو الموضع الثاني. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج1، ص 317.

² - الونشريسي، مصدر سابق، ج 9 ص 108-110.

محمد بن مرزوق الخطيب السياسي الأديب

د/ فتحي محمد¹

1: تقديم:

ورد في الأثر عن سيد البشر عليه الصلاة والسلام ، أنه قال: من أرخ مؤمناً فكأنما أحياه ومن قرأ تاريخه فكأنما زاره ، ومن زاره استوجب رضوان الله وحق على المزور أن يكرم زائره)²، إيماناً منا بقديسية القول وأحقيته في التعريف بأعلام أمتنا والوقوف على خلالهم الحميدة ومآثرهم الجليلة ، ارتأينا تعريف القارئ الكريم بأحد أفضال الجزائر الذي لمع نجمه في القرن الثامن الهجري ، عايش تحولاته السياسية والثقافية والأدبية مع ملوك بني الأحمر في غرناطة وبني مرين في العدو المقابلة، واطلع على أحوال البلدان المشرقية من خلال تطوافه في حواضرها محتكاً بجهاذة الفكر والسياسة والأدب، فمن هو هذا العلم؟ وما هي عوامل نبوغه؟ وما هي إسهاماته الأدبية والسياسية مغرباً ومشرقاً؟ نحاول التعرف على هذه الشخصية الفذة من خلال الترجمة لها والوقوف على مآثرها.

نسبه:

ينتمي ابن مرزوق إلى قبيلة عجيصة البربرية التي استوطنت أحواز قلعة بني حماد في جبال المسيلة، وإقليم الزاب بالشرق الجزائري، ثم هاجرت إلى القيروان وفي غمرة الزحف الهلالي عادت لتستقر في تلمسان، وتوارثت سدنة ضريح الولي الشاعر الصوفي أبو بومدين شعيب الأندلسي المولد والنشأة، كابر عن صاغر لكونه صفي وخلي لجد الأكبر لأسرة المرازقة أبو بكر بن مرزوق الفقيه الصوفي.

مولده ونشأته:

ولد أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد الأول بن محمد الثاني بن أبي بكر بن مرزوق ، في تلمسان سنة (711 / 781 - 1311 / 1379) ، ويعرف بالخطيب والجد والرئيس ، فهو سليل عائلة عريقة عرفت بحبها للعلم وأهله والنبوغ فيه، وبالجاه والثراء المادي والروحي، بيتهم بيت علم وولاية وصلاح (3)وتقوى، §§ فلأركان الدين حافظين وللمعاصي رافضين فكانت رغبتهم قوية في جعل التصوف تصوفاً شعبياً سنياً ونشره على نطاق واسع والنظر إليه بالمنظار الإسلامي المتكامل⁴ ، كما ينظر إليه أبو بومدين شعيب وأبو حامد الغزالي والقشيري وغيرهم.

نشأ محمد وتربى بمسقط رأسه في جو أسري علمي محفوف بالمكانم، حفظ كتاب الله الكريم على عادة أقران عصره وتعلم مبادئ اللغة العربية وحقق علومها على مشايخ تلمسان، ثم أخذ عن علماء بجاية

¹ جامعة سيدي بلعباس

² محمد بن علي السنوسي الخطابي الحسني: الدرر السنية في أخبار السلالة الإدريسية، مصر، 1349، هـ ص 6.

³ أحمد المقري: فح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، القاهرة، 1949، 7 / 338

⁴ عبد العزيز فيلالي: تلمسان في العهد الزياني، د، ت، 2 / 400.

فعد نبراس زمانه، في عالم التاريخ والأدب والسياسية والدين، سيما في مصر والمغرب والأندلس والشام¹،
ومن أهم أعلام القرن الثامن الهجري في هذه الأقطار.

رحلاته:

إلى الحجاز.

رحل محمد ابن مرزوق مع أبيه أحمد إلى الحجاز لأداء فريضة الحج ، ولما قضى نسكه تفرغ
لطلب العلم فأخذ عن شيوخ الحرمين ، وممن التقى بهم في الموسم الفضيل ، ثم ارتحل بنفسه يغدُ السير
ويقطع المفاوز والقفار بمثابرة وصبر لزيارة الحواضر العلمية مثل القدس ، دمشق، القاهرة، ومكة والمدينة
وغيرها، طاف بهذه الحواضر وتتلذذ على جلة مشايخها واغترف من عبيق فيضهم الروحي والأدبي وتزود
بخبراتهم المعرفية والروحانية ، ولكثرة شيوخه ، أفرد لهم مؤلفاً خاصاً أسماه(عجالة المستوفز المستجاز في
ذكر من سمع من المشايخ دون من أجاز من أئمة المغرب والشام والحجاز) ، وهذا ما كان يرنو إليه
الأب في هذه الرحلة من اصطحابه لابنه وهو في مقتبل العمر لطلب العلم أسوة بمشاهير عصره ، ألزمه
حضور المجالس العلمية وحلقات الإقراء وكفله مؤونة ذلك ، نلفيه يقول : أن أبي هاجر من أقصى بلاد
المغرب لطلب العلم وهو المنفق علي ولا أريد انتقاص أجره² عند الله.

كان الوالد أبو العباس أحمد بن مرزوق صاحب فضل ومحل احترام وتقدير في المجتمع
المشرقي عامة والمصري خاصة ، جاور في القاهرة القاضي شهاب الدين بن فضل الله صاحب قلم
الإنشاء ورئيس الكتابة وحامل راية الأدب بمصر والشام وقتها، فكان إذا لقي أحدهم أحمد بن مرزوق
وهو راكب يترجل تقديراً له وكذلك يفعل معه أمراء مص³، وقد نرجع تبوء أحمد المرزوقي لهذه المكانة
الرفيعة ، إلى ثرائه المادي وزهده في الدنيا وهي مبسوطه في يده ، وتبئله وتصوفه ولبسه الخرقه
الصوفية مع ابنه محمد على يد الشيخ شهاب الدين بن أحمد بن الشيخ عماد الدين عبد الرحيم السمرائي
خادم الشيخ الصوفي السهروردي⁴ ومن جهة ثانية وقر لابنه دثاراً روحياً وأدبياً متميزاً.

نزل ابن مرزوق مصر مع أبيه في ضيافة الشيخ المرشدي ، صاحب زاوية فوة المرشدية يقول
عنه : لقيناه في ارتحالنا إلى المشرق حين حملني إليه أبي وأنا ابن تسع عشرة سنة ، فنزلنا عنده فوافقتنا
صلاة الجمعة ومن عادته أن لا يتخذ للمسجد إماماً ، وحضر يوماً من أعلام الفقهاء ، فلما قرب وقت
الصلاة تشوف من حضر من الخطباء والفقهاء إلى إمامة المصلين ، فإذا الشيخ رفع بصره إلي وقال :
لي يا محمد تعال ، فقمت فباحثني في موضع خلوة ، ثم قادني إلى المنبر ، وقال ارق وناولني السيف
الذي يتكئ عليه الخطيب عندهم ، فقمت وانطلق لساني بما لا أدري ما هو ، إلا أنني أنظر الناس وهم

¹ عبد الرحمن الجبالي: تاريخ الجزائر العام، 1980، 2 / 131

² عبد العزيز فيلاي: 2 / 395.

³ نفسه: 2 / 395.

⁴ نفسه: 2 / 394.

ينظرون إلي ويخشعون من وعظي ، فأكملت الخطبة ونزلت، فقال لي : أحسنت يا محمد ، وقرآك عندنا أن نوليك الخطابة ، وأن لا تخطب بخطبة غيرك ما وليت وحييت ، ثم سافرنا وحججنا¹ بيت الله . يستقرأ من النص أن إلقاء الخطبة كانت أثناء الرحلة قبل أداء فريضة الحج، وأن الشيخ المرشدي كان على دراية مسبقة بنبوغ الشاب وسعة ثقافته وجزارة علمه، لكونه صديق والده، وعلى الرغم من ذلك لم تظمن نفس الشيخ من القدرات المعرفية لضيفه الشاب إلا من خلال الجلوس معه في امتحان قصير في خلوته، بعدها قدّمه لخطبة الجمعة على جهابذة كبار فقهاء وعلماء الديار المصرية، الذين كانت أعناقهم تشرئب إليها، لأن خطيب الجمعة كان لا يعين إلا حين موعد الصلاة.

أبان ابن مرزوق وهو فتى يافعاً دون سن العشرين عن قدرته الخطابية التي ارتجلها دون تحضير مسبق ، فكان لها وقعها الإيجابي في نفوس مستمعيه (أني أنظر الناس وهم يخشعون من وعظي) ، والخطيب لا يؤثر في المتلقي إلا إذا كان يتمتع بعقل نير وثقافة واسعة وموهبة خطابية وقدرة على سبر أغوار نفوس الحضور ومتحلياً برباطة جأش وصوت جوهري وإلقاء حسن وكل ما من شأنه أن يستميل مستمعيه ويؤثر فيهم²، ولعل هذه العوامل قد توفرت في ابن مرزوق الابن، لأن الخطابة في مفهومها الاصطلاحي نص إبداعي وفن أدبي نثري ، يتفرد في موضوعه أو يتعدد.

سرّ الشيخ المرشدي واستبشر خيراً بمستقبل الشاب فأثنى عليه وأقرّه خطيباً، وقد تُعد هذه إجازة علمية قبل أوانها والتي لم تكن وقتئذ بمرسوم رسمي، فعلا شأن ابن مرزوق وأضحى علماً من أعلام زمانه، لأن حامل هذا اللقب، قد يرشح ليكون مرجعاً في الفتوى وقضايا الشريعة الإسلامية، فقد فرض نفسه بعلمه وبخلقه ودينه وتكوينه العلمي المحلي قبل الجلوس لمشايخ المشرق والإقراء لهم. أفحم الشاب الخطيب الحضور بفصاحة لسانه وحسن معانيه بلغة تتم عن ثقافة أدبية واسعة وبتربيته الحكيمة وشخصيته الفذة، فتحدث المجتمع المصري بهذا التآلق الخطابى لابن مرزوق وأصبح حديث الناس، وأقبل الحضور عليه بالتقبيل والتثناء حباً وإعجاباً بجزارة علمه ونبوغه المبكر.

عُرِض على محمد الشاب بالقاهرة تولى الإقراء والجلوس لخلق التدريس وهو في رحلته إلى طلب المزيد من العلم وقدموا له مرتباً مغزياً قدره ثمانية دنانير من الذهب، ونحو مائة وثمانين وسقاً من القمح في السنة وهو مرتب سخي ومغزى ، ثم عرضوا عليه مجلساً آخر بجامع ابن طولون ، إلا أن والده رفض هذا العرض الجذاب قائلاً لابنه : إنما هاجرت بك لطلب العلم ، لا للظهور في الدنيا والاستكثار منها³، فتلك لم تكن الغاية التي يرنو إليها الأب في امتشاق الصعاب ، بل كانت غايته العليا طلب العلم لذات العلم وطرق أبواب المجد ، قمين به وهو الخبير البصير أن يحجب عن ابنه المغريات المطروحة ، لأنه

¹ ابن مريم: الستان، مراجعة، محمد بن أبي شنب، الجزائر، 1908، ص 1088.

² ينظر محمد الجابري: بنية العقل العربي، بيروت، 1986، ص 25.

³ أحمد المقري: النفح، 5 / 533.

يدرك الاستعداد الفطري لفضة كبده وقدراته وعزيمته القوية في السير سيراً حثيثاً نحو الهدف المرجو من الرحلة ، فالمواهب البشرية خامات كامنة قد تهوي إلى الضياع والذبول إذا لم تحظ بصانع حاذق يوجهها الوجهة الصحيحة لتنتفع بها الأمة في هيكل بناء حضارتها وتفاخر بها غيرها ، لأن الاستثمار في العلم وبناء العقول وصقلها أفضل ما يمكن أن تقوم الأسر وأولي الأمر في إعداد الناشئة لبناء المستقبل فلا تنعم البشرية بغير العلم وبدونه تبقى حياتها بهيمية وعالة على غيرها ، ولولاه لما خلد التاريخ ذكر المرزوقي وأقرانه وعلت أمة على أخرى.

والسؤال الذي يفرض نفسه على المتلقي أين وممن اكتسب ابن مرزوق هذه الطاقة العلمية والخطابية التي أبان عنها أثناء رحلته قبل بلوغه الديار المشرقية بقوله: ثم (سافرنا وحججنا).

لا جرم أن هذه الكفاءة العلمية سبقتها عدة وإعداد وهي ثمار غراس تكوينه القبلي التي اكتسبها وتلقاها في الجزائر، لأن البلاد المغاربية في عمومها كانت تتوفر على إرث أدبي وعلمي لا فت، إذ بلغت أوج رقيها الأدبي والنقدي في القرن الخامس الهجري الذي يعد العصر الذهبي للأدب المغربي بظهور ابن رشيق المسيلي والنهشلي، والحسن بن علي التاهرتي (ت 501 هـ) الذي تتلمذ عليه القاضي عياض وأخذ عنه في الأدب والنحو وعلوم الحديث وغيرها من العلوم ، وابن النحوي (ت 513 هـ) ويحي الورجلاني صاحب كتاب سير الأئمة وأخبارهم ، والقائمة لا تحصر في هذا المقام.

نما هذا الإرث العلمي والأدبي وتطور في ظل الدولة الموحدية (524 . 668 هـ / 1130 - 1269 م) بشكل لا فت ، فأولى خلفاءها الحركة الأدبية عنايتهم الفانقة بفرضهم التعليم على الناشئة ذكوراً وإناثاً في كل أصقاع ملكهم وبعد تهاوي أركانها، وتفكك أوصالها وتوارثت الدويلات الثلاث ساحتها المغاربية ، نشطت الحركة التعليمية والأدبية أكثر ، إذ أسس أولو الأمر مدارس عليا على نمط المدارس النظامية في المشرق وكانت الأسبقية للحفصيين فقد بنى أبو زكرياء الحفصي (ت 647 هـ) مدارس بإفريقيا (تونس) ، وجدت هذه المدارس عناية خاصة من ذوي الشأن، فأجروا الأرزاق والمنح للأساتذة والطلبة وعهدوا بالتدريس فيها لأشهر العلماء والأدباء.

وهكذا كانت هذه الفترة، بالنسبة للحركة الفكرية والأدبية في المغرب الأوسط مرحلة نمو وإشعاع، نبغ فيها عدد وافر من العلماء في سائر الميادين وذاع صيتهم، وشغلوا مناصب سامية في سائر أقطار المغرب والأندلس من قضاء وتدريس وكتابة وغير ذلك، ونشطت العلوم النقلية والعقلية، فأحرزت البلاد على تقدم ملحوظ في هذه المجالات.

ولعل مرد هذا التطور الفكري والأدبي بالمغرب الأوسط، إلى الدولة العبد الوادية التي استطاعت أن تبعث الحركة العلمية في هذه الربوع، بتأسيس أبي حمو الزياني مدرسته الأولى في تلمسان، فنهض بالعلم نهضة شاملة، فأتيح للشعراء والأدباء الفرص للإبداع وإثراء نتاجهم الأدبي والعلمي وللناشئة الإقبال على طلب العلم.

كما كان لهجرة الأندلسيين أثناء عصر الموحدين وبعده، إلى تلمسان وبجاية وغيرها من مدن المغرب الأوسط، أثراً هاماً في هذا التطور¹ من ذلك فلا غرابة من نبوغ ابن مرزوق وتألقه الخطابي وهو في طريق رحلته إلى طلب المزيد من العلم وهذا ديدن نبغاء طالبي العلم في التاريخ القديم، فقد رحل القاضي عياض إلى الأندلس طالباً، إلا أنه كان إنزيم مجالس الإقراء وإثرائها بحضوره المتميز، قال عنه شيخه عبد الله بن محمد الخشني (ت 526) ما وصل إلينا من المغرب أنبل من عياض²، ولم يثبت عنه أن رحل إلى المشرق قط.

ولكن من الذي أسهم في تعليم ابن مرزوق حتى نبغ واكتسب هذه المعارف، لا ريب أن هناك عوامل كثيرة تدخلت في تكوينه منها الجو العلمي العام الذي كانت عليه البلاد المغاربية ومنها الجزائر، كما سبق الذكر وغيرها من العوامل لعل أبرزها.

التنشئة الأسرية:

حفل تاريخ العائلة المرزوقية بشخصيات مرموقة في العلم برزت فيه واشتهرت بالتقوى مما جعل منها ذات وضع اجتماعي وثقافي ممتاز في جميع بلدان المغرب الكبير³، فبيتهم بيت علم وولاية وصلاح⁴، نشأ محمد في بيت شرف وجاه وثراء مادي متوارث كابري عن كابر، ألزمه أبوه التفرغ لطلب العلم وأصبح عليه نعمه التي أكسبته العفة والتبئل ومجاهدة النفس والامتناع عن الأخذ الهبات والمنح من أحد، والالتزام بحضور حلق الإقراء والمجالس العلمية، نلفيه يقول: إن أبي قد هاجر من أقصى بلاد المغرب لطلب العلم وهو المنفق علي ولا أريد أن أنقص أجره أو قدره أمام الله والناس.

أوبة محمد إلى تلمسان:

أثر الأب (أحمد) أن ينهي حياته في مجاورة الحرمين، فرغَّب ابنه في الرجوع إلى مسقط الرأس، بعد غياب طويل، من الحل والترحال في حواضر المشرق العربي طلباً للعلم والمعرفة، فامتثل الابن رغبة أبيه وانكفاً راجعاً إلى ريع صباه بتلمسان، حلَّ ابن مرزوق بها في يوم 17 رمضان 737 / 20 أبريل 1337م

نزوله في مصر

وفي أثناء هذا الرجوع عرَّج محمد الخطيب على مصر لزيارة الشيخ المرشدي في الإسكندرية تنفيذاً لوصية والده، فكلفه الشيخ المرشدي ثانية بارتجال خطبة في الجامع الأعظم بالإسكندرية فأبهر الحضور بحسن بيانه وعمق معانيه، فذاع صيته في القاهرة، وأضحى حديث الخاص قبل العام، فكان عندما يمر بديكان أو مجلس من مجالس القضاء أو قاعة من قاعات الدروس يبادر من كان فيه بالقيام

¹ عبد 11 ينظر الحميد حاجيات: أبو حمو موسى الثاني حياته وآثاره، الجزائر، 1974، ص 36.

² الحسين بن محمد شواط: القاضي عياض، دمشق، 1999، ص 76.

³ محمد بن مرزوق: المسند الصحيح في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، الجزائر، 1981، ص 17.

⁴ أحمد المقرئ: النفح، 7 / 388.

إجلالا واحتراماً، وتعظيماً وتقديراً لعلمه، ومما زاده تشريفاً أن الشيخ المرشدي نعتة بالخطيب بقوله:
ياخطيب ، كن خطيباً أنت الخطيب¹ فتأكد لديه عندئذ أنه في مصاف الخطباء.

فعاد نبراساً واريماً في العلم والفضيلة، وطبيباً حكيماً أديباً وشاعراً مرموقاً وخطيباً مصقاعاً ومؤرخاً
لحوادث الزمان وفقياً ومحدثاً، نلفيه يقول: معتداً بنفسه، لا يوجد اليوم من يسند أحاديث الصحاح سماعاً
من باب الإسكندرية إلى البرين والأندلس غيري² فأبان عن قوة حافظته وعظيم قدره وعلوه كعبه على أقران
زمانه في مصر والمغرب الإسلامي بعدوته الشمالية والجنوبية في الخطابة وعلم الحديث، وأنه ملك
ناصية ذلك عن جدارة واستحقاق، فذكر عنه أنه خطب على ثمانية وأربعين منبراً في بلاد الإسلام مشرقاً
ومغرباً.

في البلاط المريني:

تزامنت أوبة الخطيب مع التواجد المريني في تلمسان ، فأدناه السلطان أبو الحسن إلى بلاطه
وأصبح أثيراً لديه وأصبح عليه نعمه، واتخذة معلماً لأولاده وأودعه أمانة سر كتابته ، وأوكله خطابة مسجد
العُباد في تلمسان لعلو كعبه في شتى فنون العلم ولورعه وتقواه وماضيه الأسري العريق، فأضحت
للخطيب عند السلطان حظوة ومكانة وأصبح من خاصته في مجلسه العلمي، وأشركه في بعض حروبه
كمعركة طريف الشهيرة بالأندلس سنة 741 / 1340م، جرياً على مألوف الأمراء والملوك في إشراك
العلماء والأدباء في مغازيهم لتحفيز الجُند وتسجيل مآثر حروبهم ، وفي هذه الحرب أسر ابن السلطان
(أبو عمر تاشفين) من نصارى القشتاليين بالأندلس، فافتكه بن مرزوق بدبلوماسية تتم عن حنكة سياسية
نيرة، فبوأه هذا النجاح مكانة خاصة في البلاط المريني ، فأكسبه السلطان رضاه وأصبح عليه نعمه ما
ظهر منها وما باطن ، غير أن معاشرته أولي الحل والعقد والوقوف على أبواب الملوك غير مأمونة
العواقب ، جلبت هذه الحظوة السلطانية النكبات على ابن مرزوق وأوقته السجن عدة مرات.

من فاس إلى تلمسان:

عصفت بالعرش المريني ريح عاتية زلزلت أركانه الداخلية والخارجية، فضل فيها الخطيب النأي
بالنفس بالعودة إلى حلق التدريس في تلمسان التي استرجع عرشها السلطان أبا سعيد عثمان بن عبد
الرحمن الزياني، فوقع بن مرزوق ضحية خلاف بين السلطان وأخيه ثابت حول مهادنة سلطان فاس التي
كلف بها الخطيب، فغدروا به بعد اقتراحهم الإصلاح بينهم تقية على أنفسهم³ ، فأبعد على إثرها إلى
الأندلس في عام 752 / 1351م بعد إطلاق سراحه من السجن.

ابن مرزوق في الأندلس:

¹ عبد العزيز فيلالي: 2 / 395

² 417. المقري: النفع، 5 /

³ نفسه: 5 / 14.

استقبله صاحب غرناطة (أبو الحاج بن الأحمر) سابع سلاطين بني الأحمر، استقبالا يليق بمقام العلماء النبهاء، وكانت المدينة حينها تعج بكبار العلماء والأدباء، لكونها أعظم مركز للدراسات الأدبية والعلمية والإسلامية في هذا القطر الغربي من العالم الإسلامي تُظفر بن مرزوق بخطابة جامع الحمراء والتدريس في المدرسة السلطانية ومن تلاميذه في الأندلس، نذكر منهم:

/ 1 لسان الدين بن الخطيب وزير السلطان (713 / 1313، 776 / 1374)، الشهير بذي الوزارتين والمعروف بشيخ العدوتين في النظم والنثر وسائر العلوم الأدبية، كان من أحد تلامذة بن مرزوق النجباء أخذ عنه علوم الشريعة واللغة والأدب، وكانت لهما صلوات ودية وعلمية، يصف لسان الدين بن الخطيب شيخه بقوله: هذا الرجل من طرف دهره ظرفاً وخصوصية ولطافة مليح التوسل حسن اللقاء، نظيف البزة لطيف التأتي خير البيت، طلق الوجه خلوب اللسان، طيب الحديث، مقدر الألفاظ عارف بالأبواب، ألف مألوف كثير الأتباع والعلق، مجدي الجاه، غاص المنزل بالطلبة، منقاد الدعوة، بارع الخط أنيفه، عذب التلاوة، متسع الرواية، مشارك في فنون من أصول وفروع وتفسير، يكتب ويشعر ويقيد ويؤلف، فلا يعدو السداد في ذلك، فارس منبر غير جزوع ولا هيباب² من أحد.

يظهر النص شخصية ابن مرزوق العلمية المميزة، بقدراتها الأدبية والعلمية في الأندلس والتي كانت عامل جذب جهابذة طلبة العلم إلى حلقه العلمية والتتلمذ على يديه، ومما يجب ذكره في هذا المقام أن التطور الأدبي الذي عرفه الأندلس هو نفسه الذي كان سائداً في حواضر المغرب الإسلامي كافة، بفعل التأثير والتأثر والمشيمة المشتركة، فالشخصية المبدعة غير محكومة بظروف البيئة أو الإقليم كما هو الشأن اليوم، فكان النتاج الأدبي إرثاً مشتركاً بين العدوتين.

/ 2 الشاعر والكاتب ابن زمرك محمد بن يوسف الصريحي(733 / 1333- 395 / 1393)، جنح إلى مصاحبة ابن مرزوق والتتلمذ عليه واختص في الأخذ عنه في العلوم الشرعية والتعمق في المعارف الصوفية، وعن طريقه تعرف على الأمير المريني أبي سالم إبراهيم في منفاه الاختياري بغرناطة، أشاد الشاعر بمقام شيخه ومكانته بين العلماء وفي صقل شخصيته بقوله³

تُفَرُّ لَكَ الْأَعْلَامُ أَنْتَ فخرُهَا - وَتُنْتَبِي عَلَى عَلِيَاكَ بِالنَّظْمِ وَالنَّثْرِ
وَتُنْتَبِي عَنكَ الصَّالِحَاتُ بِفَعْلِهَا - وَتَصْحَبُكَ الْأَيَّامُ بِالْيَمْنِ وَالْيُسْرِ
لَقَدْ كُنْتَ فِي الْعِبَادِ شَمْسَ هَدَايَةٍ - تُبَيِّنُ هَدْيَ اللَّهِ فِي الْعُرْفِ وَالنُّكْرِ
وَلِلْمَجْدِ مَا تُخْفِي وَلِلْفَخْرِ مَا بَدَا - وَلِللَّهِ مَا تَأْتِيهِ فِي السَّرِّ وَالْجَهْرِ
تَمَنَّ بِعَرَفَانَ وَتَوْلِي عَوَارِفًا - فَيَا فَوْزًا مِنْ تَقْرِي هُنَاكَ وَمِنْ تَقْرِي

¹ 18 نفسه: 5 / 396.

² لسان الدين بن الخطيب: السحر والشعر، مصر، 1999، ص

³ الديوان، ص 295، 296.

يقرُّ ابن زمرك بفضل شيخه ابن مرزوق عليه في تكوينه العلمي وترقيته في مدارج العلم والمعرفة وتوليه مقاليد السياسة في بلاط بني الأحمر، فعن طريق هذا الشيخ حقق ابن زمرك غايتين، تعميق معارفه الصوفية وتمكنه من التعرف على الأمير أبي سالم المريني المنشق عن أخيه في غرناطة والتي أهلته لتحقيق طموحه السياسي، يقول في ذلك¹:

جبرت مهيضاً من جناحي ورشْتُهُ - وسهَّلت لي من جانب الزَّمن الوعرِ
وبوَأنتي من ذروة العرِّ مَعقلي - وشرَّفنتي من حيثُ أدري ولا أدري
إليك انقطاعي في مَغيبِي ومَشهدي - ووَردي وإصداري وسِرِّي والجهرِ
فكم مِنحةً أوليتها جليلاً - وكم حكمةً يوماً شرحتَ بها صدري
وكم من خُطأً أعملتُها في لِقائِكُمْ - لأغرِفَ من بحرٍ وأقْطِفَ من زهرِ
رعى الله دهرًا أنت إنسانُ عينيه - ودُمتَ لهذا الفُطرِ أجدى من القَطْرِ

عاد ابن مرزوق الخطيب إلى فاس بعد أن تمكن السلطان المريني أبو عنان من إزاحة أبيه والاستيلاء على العرش واستعادة تلمسان، فأضحى من مقربيه، لا يفارقه في حل أو ترحال، ثم نكبته الظروف السياسية فأودعه السجن فلم يغادره، إلا بعد أن ترك أبي عنان الحياة في 28 ذو الحجة 759 هـ.

ابن مرزوق في البلاط المريني:

ويتولى الأمير أبو سالم بن أبي الحسن العرش المريني في عام 760 / 1359، أوكل زمام دولته لابن مرزوق صفيه وخليل منفاه في الأندلس، فأضحى نجي خلوته والغالب على هواه، فانصرفت إليه الوجوه وخضعت له الرقاب ووطئ عتبه الأشراف والوزراء وعكف على بابهِ القواد والأمراء وصار زمام الأمور بيده...، فمرضت قلوب أهل الحل والعقد من تقدُّمه فتربصوا به وبالذولة²، فسجن بعد القضاء على ولي نعمته السلطان أبي سالم.

جدد ابن زمرك العهد واللقاء مع شيخه ابن مرزوق في ظل العرش المريني بفاس على عهد السلطان أبي سالم، واعتبره من خاصته في تكوينه العلمي³ جلس الشيخ الخطيب للإقراء في حضرة السلطان وغيبته، فتولى شرح كتاب الشفاء بتعريف حقوق المصطفى عليه الصلاة والسلام للقاضي عياض، وعلى الرغم من أن موضوع الكتاب في سيرة المصطفى، إلا أنه يعد من أشهر كتب عياض وأجلها وأعظمها قدرًا وأكثرها فائدة وأوسعها انتشارًا، ولا عجب أن تلقته الأمة شرقاً وغرباً وامتدحه فطاحل العلماء نظماً ونثراً، وأقبلوا عليه مدارساً واختصاراً وشرحاً⁴ قديماً وحديثاً من الفقهاء والأدباء.

¹الديوان: ص 297.

² ابن خلدون عبد الرحمن: العبر، 1983، 13 / 649.

³ أحمد بابا التتبيكتي: نيل الابتهاج، تقديم عبد الله الهرامة، طرابلس، 2000، ص 479.

⁴الحسين بن محمد شواط: ص، 217.

مدح ابن زمرك شيخه ابن مرزوق التلمساني بقصيدة وافية على شرحه لكتاب الشفا منها قوله ¹

ولا مثل تعريفِ الشفاءِ حقوقَهُ . فقد بان فيه للعقول جميعُها
بمرآة حُسنٍ قد جلتها يدُ النهى . فأوصافُه يُلناحُ فيه بديعُها
ولله ممَّن قد تصدَّى لشرحه . فلبَّاه من عُرِّ المعاني مُطيعُها
فكم مُجملٌ فصلت منه وحكمة . إذا كتم الإدماجُ منه تُشيعُها
بقيت لأعلام الزمانِ تنيلُها . هدىً ولأحداثِ الخطوبِ تروغُها

كان ابن مرزوق آية في الفهم والذكاء والصدق والنزاهة واستنباط الأحكام واستجلاء المعاني من غموض مقاصدها، فمن ذلك جاء شرحه مستفيضاً ومستوفى لكتاب الشفاء، فحرك قرائح الشعراء التي تماهت مع ابن مرزوق ووجدت نفسها فيه، لأن العملية المعرفية لا تتم إلا داخل إطار ثقافي خاص، أي من خلال منظومة مرجعية ثوابتها الموروث الثقافي والروحي والواقع الاجتماعي الموحد فأقبلت هذه القرائح بالمدح والثناء على هذا الشرح المتميز (لابن مرزوق) منهم لسان الدين بن الخطيب بقوله²:

أزاهير رياض - أم شفاء لعياض
جدل الباطل للح - ق بأسياف مواض
سد الله بن مرزو - ق إلى تلك المراض
زبدة العرفان معنى - كل نسك وارتياض

وله أيضاً في ذات السياق قوله:

يامن له الفضلُ على غيره - والشمس تخفى عند اشراق بوح
يا خير مشروح وفي واكتفى - من ابن مرزوق بخير الشروح³

ومن قراء الشفاء أيضاً على ابن مرزوق في فاس، المقري التلمساني نل فيه يقول: وعاشرته كثيراً سافراً وحضراً وسمعت بقراءته وسمع بقراءتي، وقرأت عليه الكثير، وقيدت من فوائده، فأول ما قرأت عليه بالقاهرة في أحد مساجدها وقرأت بمدينة فاس، وبظاهر قسنطينة، وبمدينة بجاية وبمنزلي في تلمسان، ثم قرأت عليه أكثر كتاب الموطأ رواية يحيى، وأعجله السفر فأتمته عليه في غير القاهرة ... ثم قرأت عليه كتاب الشفاء لعياض⁴

¹الديوان، تحقيق، محمد توفيق النفير، ص 439.

²أحمد المقري: النفج، 5 / 400.

³نفسه، 5 / 411

⁴نفسه، 5 / 200.

وذلك لأن ابن مرزوق كان آية في القراءة والإقراء وفي فنون العلم والأدب والسياسة والدين ومن أبرز الشخصيات الجزائرية التي عرفها العالم في القرن الثامن الهجري ولا سيما بالمغرب [الكبير] والأندلس والشام¹ وغيرها من البلدان العربية.

رحلته إلى تونس:

وبتبدل الأحوال في البلاط المريني بفاس سنة 762 هـ / 1361 م رمت رياح الغضب السياسي بابن مرزوق في السجن، وبعد إطلاق صراحه رحل إلى تونس التي شغف بحبها وحب أهلها، قبل وفادته السلطان أبي إسحاق الحفصي واستقبله استقبالا حسناً وأولاه الخطابية في مسجد الموحدين، والتدريس في مدرسة الشماعين، وبمقتل السلطان الحفصي سنة 770 هـ / 1369 م فأصبح الحال غير الحال، فاضطر ابن مرزوق إلى ترك البلاد المغربية نهائياً والرحيل إلى المشرق.

رحيله إلى مصر:

دخل الإسكندرية أولاً في عام 773 / 1372 ثم القاهرة ملقياً بها عصى الترحال أرضاً، فسبقته مكانته العلمية وسمعته السياسية فنفتت بضائعه العلمية والأدبية، وجلس للإقراء كعاته أينما حلّ، فأولاه السلطان المملوكي الأشرف شعبان بن حسين وظائف علمية، فعينه قاضياً ومفتياً وخطيباً ومدرساً في مساجد صلاح الدين الثلاثة الشخنية، والصرغتمشية، والنمحية²، وظل موفور الجاه معزز الجانب إلى أن أدرسته الوفاة بالقاهرة في ربيع الأول 781 / يونيو 1379 م.

ثالث ثلاثة

يمكننا القول أن ظروف ابن مرزوق الشخصية والأدبية والسياسية تتشابه مع ظروف عبد الرحمن بن خلدون ولسان الدين بن الخطيب، لتقلبهم في بلاطات الأمراء والملوك ومشاركتهم في صنع تاريخ المغرب الإسلامي في القرن الثامن الهجري، ولذلك لقدرتهم الأدبية وحنكتهم السياسية، قال عنهم بروفنسال: أن هؤلاء الثلاث هم المؤرخين الأساسيين للمغرب العربي في نهاية العصور الوسطى³ وقال المهدي البوعبدلي عن مؤلف المسند الصحيح لابن مرزوق⁴، أنه لا يمكن أن تتم دراسة ما عن المغرب العربي بدون معرفة هذه المؤلف، لتقلب صاحبه في بلاط ثمانية ملوك في فاس وتلمسان وقرطاجنة وتونس والقاهرة.

¹ عبد الرحمن الجليلي: 2 / 131

² محمد بن مرزوق: ص 30.

³ 30 Lévi – Provençal – Le voyage d’Ibn Battuta dans le royaume de Grenade (1350), « mélange William Marçais », Paris 1950, p 205

⁴ محمد بن مرزوق: ص 14.

كان لهذا الثالوث المغاربي مشاركة فاعلة في صنع أحداث المغرب العربي والأندلس وغيره من البلدان العربية في القرن الثامن الهجري، فكان لصيتهم صدى خارج منطقتهم المغاربية غرباً وشرقاً، احتك هؤلاء بالأمراء والملوك والوزراء وكبار الدولة والشخصيات الثقافية التي عملوا معها جنباً إلى جنب في البلاط المريني بفاس وفي بلاط بني الأحمر بغرناطة، أنيطت بهؤلاء مناصب سامية التي لم تكن تسند إلا لمن برهن على كفاءة نادرة ومقدرة علمية فائقة وثقافة واسعة ومهارة فائقة في خدمة الملوك والأمراء وذوي الشأن.

يقول لسان الدين عن شيخه ابن مرزوق: درب على صحبة الملوك والأمراء يسحرهم بخلاصة لفظه، ويفتلهم في الذروة والغارب بمتنزه، ويهتدي إلى أغراضهم الكامنة بحدقه، ويصطنع غاشيتهم بتلطفه ممزوج الدعابة بالوقار والفكاهة بالنسك وبحشمة بالبسط، فكان خبيراً بنزعاتهم النفسية، لأن هؤلاء على الرغم من تكونهم الديني، إلى أن تفكيرهم كان أقرب إلى الحكماء منهم إلى الفقهاء.

آثاره العلمية

لقد ترك بن مرزوق ثروة علمية هامة كغيره من أعلام الجزائر الذين لا زالت نفائس مصنفاتهم في حكم الضياع ما دامت بعيدة عن الباحثين والأكاديميين، فهم وحدهم القادرين على استجلاء مكانها المعرفية وإظهارها للأجيال، ولعل من أهم مصنفات ابن مرزوق كتابه النفيس، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، ألفه في رمضان 722 / مارس 1371، (وهو مطبوع في الجزائر)، وأعدت طبعه وزارة الثقافة فلها كل الثناء والشكر في نقاتها للتراث الجزائري في إطار المهرجان الثقافي الدولي تلمسان عاصمة الثقافة العربية). ، تحدث محمد الخطيب في هذا الكتاب بشكل خاص عن سيرة السلطان المريني ومن خلاله كل ما يجب على الحاكم مسلم فعله تجاه رعيته بشكل عام.

قد يعد هذا المصنف كتاب تاريخ لأنه تحدث عن الدولة المرينية بشكل مستفيض، فهو معاصر لمن صنع أحداثها، ومن المشاركين فيها بحكم تواجده في البلاط، وكتاب أدب أيضاً لاحتوائه الكثير من النصوص النثرية والشعرية التي انتخبها الكاتب من مدونة الأدب العربي ومن قريضه الخاص، والحكم النثرية والأحكام الفقهية المدعمة بالنصوص الثبوتية من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة التي تومئ إلى عميق ثقافته الدينية وسعة اطلاعه في ضروب المعرفة.

كان هدف محمد الخطيب من هذا الكتاب إرضاء السلطان المريني أبا فارس بمدح والده أبي الحسن وتذكيره بالمكانة التي كان يحظى بها عند والده أملاً في إحياء مجده المفقود في البلاط المريني.

- النور البدر في التعريف بالفقيه المقرئ، وقد اعتبر أحمد المقرئ أن ابن مرزوق استوفى التعريف

بجده.

- برح الخفا في شرح الشفا للقاضي عياض.

- تظهر هذه المصنفات وغيرها ممن لم نأت على ذكرها طول باع صاحبها في النظم والنثر، وعن
وغزارة علمه ومرجعته المعرفية التي كانت سائدة في عصره ومصره، وفي كل الأحوال فهي جديرة
بالبحث والدراسة من المهتمين بالأدب الجزائري القديم.

خلاصة: يعد محمد بن مرزوق سليل عائلة ثرية وعريقة في الدين والعلم والأدب، تلمساني المولد
والمنشأ، رحل به أبوه إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، ومن ثم التفرغ لطلب العلم، فنبغ فيه وصار لوذعي
مصره وعصره في شتى أضرب العلم والمعرفة، فتبوأ مقعد صدق في البلاط المريني وأضحى من
خاصتهم، وتلمذ عليه الأديب لسان الدين بن الخطيب، والشاعر الفذ بن زمرك، وتوقفت به رحالة الحياة
في مصرفي عام 733 هـ. تاركاً وراءه ثروة أدبية وتاريخية للأجيال اللاحقة.

تيسير المرام في شرح الأحكام، وهو شرح لعمدة الأحكام عن سيد الأنام لتقي الدين الجمالني ت
1203 / 600.

- عجالة المستوفز المستجاز في ذكر من سمع من المشايخ أتى فيه على كل من تتلمذ لهم
مشرقاً ومغرباً.

- جنى الجنتين في فضل الليلتين ليلة القدر وليلة المولد النبوي الشريف

- إزالة الحاجب عن فروع ابن الحاجب.

- المنزع النبيل في شرح مختصر خليل وهو في أجزاء.

- شرح صحيح البخاري.

- شرح كتاب الشفاء للقاضي عياض لم يكمله

- كتاب في التنجيم، أثبت ابن الخطيب براعته علم الفلك.

كتاب الإمامة وإيضاح المرشد فيما تشتمل عليه الخلافة من الحكم والقواعد

الكتابة في عصر الخلافة بالأندلس 316-422 هـ / 929 - 1031 م

أ. عبد الرحمان رزقي¹

الأندلس تمثل بتاريخها الحافل وتراثها الزاخر قصة حضارة عظيمة وذلك لما قدمته للبشرية من عطاءات جمة نتيجة ذلك النتاج الفكري والثقافي الذي خلفه الأندلسيون. فكانت الكتابة إحدى الصور التي تجلى فيها العطاء وذلك لأنها من أهم الوظائف السلطانية التي لاغني عنها على المستويين الداخلي والخارجي، وسنحاول في هذه الدراسة التعرف على الكتابة في عصر الخلافة بالأندلس محاولين تعقب الأسئلة التالية: ماهي الشروط والمؤهلات التي كان يتم بها اختيار الكاتب في عصر الخلافة بالأندلس؟ فيما تمثلت مهام الكاتب في هذا العصر؟

1. شروط اختيار الكاتب:

إن اختيار الكاتب ليس بالمسألة الهينة نظرا لرفعة مرتبة الكتابة لذلك كان يتم اختياره من أرفع طبقات المجتمع ومن أهل المروءة والحشمة منهم، وذوي العلم وعارضة البلاغة، ولقد خصص القلقشندي جزء مهم من كتابه صبح الأعشى لصفات الكتاب وشروط اختيارهم ، ومدى ثقافتهم وآدابهم ، فذكر الشروط التي يجب ان تتوفر في الكتاب وهي محصورة في عشر صفات أولها الإسلام وذلك " ليؤتمن فيها يكتبه ويمليه " ² ، وكان شرطا أساسيا في كتاب المغرب والأندلس جرى حكام الدولة الأموية في الأندلس على حشد أقطاب العلم والبلاغة إلى حواضرهم من الكتاب الذين امتازوا بقسط وافر من الثقافة العربية التي أعانتهم وأهلتهم لشغل هذا المنصب **كابن القصيرة** الكاتب ، ومحمد بن مسعودن 540 هـ /114 م ، وأبي القاسم محمد بن عبد الله ت 515 هـ، وغيرهم من الكتاب الذين جعلوا من أنفسهم محط نظر واهتمام أهل الحكم والسياسة، فهذا ابن دحيه الكلبي مثلا يصف لنا الكاتب أبا القاسم محمد بن عبد الله 515 هـ بن الجد بقوله " وكان من أهل التفنن في

¹ جامعة تلمسان

². القلقشندي " صبح الأعشى في كتابة الإنشا ، ج، دار الكتب المصرية ، القاهرة 1922، ص 61.

المعارف والتقدم في الأدب والبلاغة ، وله حظ جيد من الفقه والتكلم في الحديث " (1) . كما كان الكاتب أبو عبد الله محمد بن مسعود بن أبي الخصال ت 540 هـ / 1146 م "احد من انتهى إليه علم الأدب ، وله مع ذلك في علم القرآن والحديث والأثر وما يتعلق بهذه العلوم الباع الأرحب واليد الطولى " (2) .

ويستمر الفلقشندي في سرد شروط الكاتب لأن أولى في كاتب السلطان لعموم النفع والضرر به، منها الذكورة ، الحرية ، البلوغ ، العدالة، البلاغة ، رجاحة العقل ، الرأي ، المعرفة بالأحكام الشرعية ، قوة العزم ، شرف النفس ، والكفاءة لما يتولاه .

إذ تولى عدد غير هين من النصارى واليهود مناصب حساسة في الدولة الأموية بالأندلس وتحديدا في فترة الخلافة، ومن الأسماء التي تذكرها المصادر التاريخية حسداي بن إسحاق بن عزرات 975 م وكذلك ريثموند المعروف باسم ربيع بن زيد (3) ، وكان محظيا عند الخليفة عبد الرحمن الناصر وابنه المستنصر بالله فيما بعد وعلى ما يبدو ان تجاوز شرط الدين ، كانت له دوافعه، منها استمالة هذه الفئة من المجتمع وضمان ولائها للدولة ، ضعف الوازع الديني لدى بعض الخلفاء، الكفاءة الأدبية العالية. فحسداي وصل إلى الكتابة السلطانية وبعض الأعمال بأنه : وحيد عصره الذي لا يعدل به خادم الملك في الأدب وسعة الحيلة " (4) ، ويفترض إلى جانب هذا أن كان متقنا للغة النصارى في الأندلس ، كذلك العبرية. فكان من الطبيعي أن يتمكن هؤلاء الذميين -نصارى ويهود - من الارتقاء إلى هذه الخطط السلطانية من أجل خدمة مصالح الدولة ، من غير أن يشكوا أي مصدر قلق أو تخوف لدى السلطة الحاكمة

أما فيما يتعلق بالشروط العلمية التي يجب أن تتوفر في الكاتب أن يكون ذا علم وثقافة واسعة ، إذ أن الكاتب هو مستقر أسرار الملك ولسانه الناطق عنه في آفاق مملكته وأقطار بلاده ، فلا يختاره السلطان ممن يوقعه موقع نقص بين رعيته أو مراسليه من الملوك ، فكان بذلك أحوج إلى أن يكون له مشاركة في جميع العلوم ، إلى الاستكثار من حفظ الرسائل

1. ابن دحية ، المطرب، المصدر السابق ، ص 147.

2. عبد الواحد المراكشي . المصدر السابق ، ص 237.

3. اعتمد عليه الخليفة عبد الناصر في الكثير من السفارات، كان سفيرا كفوا للخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله ،

وقد اوفده لدى الملك اوتو الأول . ابن عذاري ، المصدر السابق ج2، ص218.

4. ابن حيان ، المصدر السابق ، تحقيق شالميتا ، ص466.

السلطانية وعيون الأحاديث النبوية ، كما ينبغي أن يكون أكثر علمه أخبار الملوك والسير والدول والتواريخ ومعرفة أخبار الدول كما يجب أن يكون مستعدا للرد على أي نوع من المكاتب ، وفي أي موضوع كان إلى أي شخص مهما كانت مرتبته جليلا كان ام رضيعا ، فيخاطب كلا حسب مرتبته فهذا وحده دليل على سعة علم الكاتب ووفرة ثقافته.

وتعتبر رسالة عبد الحميد بن يحيى الكاتب (16) التي كتبها إلى الكتاب من أهم الدساتير التي تناولت الصفات العلمية والذاتية والأخلاقية التي يجب أن يتمتع بها الكاتب ، ليبقى في مستوى مهنة الكتابة الشريفة التي يمارسها.

2. مهام الكاتب ورسوم الكتابة:

لعل من أهم الوظائف الأساسية الموكلة للكاتب هي تحرير الرسائل الرسمية التي تحمل في طياتها أنواع الأوامر والقرارات التي يريد الخليفة إنفاذها إلى من يريد مخاطبته من الزعماء والملوك خارج دولته ، أو إلى مختلف العمال والولاة والقضاة وأصحاب الأشغال وغيرهم داخل البلاد ، وكانت تتم هذه العملية في ديوان الإنشاء، حيث يعمل الكاتب على تحرير الرسائل وكتابتها بنفسه ، أو يعمل على إملائها على أحد مساعديه فيكتبها (2).

إن عمل كاتب السلطان الرئيسي لم يقتصر على تحرير الرسائل المتسمة بالبلاغة وإنشاء المخاطبات الرسمية بل يتسلم الرسائل الواردة إلى الخلفية ، فيعمل على قراءتها عليه واستشارته حول نوع الرد عليها ، هذا مع إشراف الكاتب الرئيسي على مراقبة صغار الكتاب في الديوان والإشراف عليهم في كتاباتهم الثانوية التي يقومون بها (3).

ولقد كانت الوزارة في هذه المرحلة تعتبر مجرد وزارة تنفيذ (4) ، دون أن يكون للكاتب استقلال بالقرارات ذلك لأن الخلفاء الأمويين أحكموا قبضتهم على مقاليد الأمور ، وأشرفوا بأنفسهم على أحوال البلاد ، ومن هنا كان الوزراء منفذين لأوامرهم ، فلم يكن للوزير أو الكاتب نفوذ سياسي كما كان في كثير من الممالك ، إلا ما كان يبدئانه في شؤون الدولة من المشاورات كالعلاقات العسكرية وغيرها بصفتهم طرفي نقاش ، إلا أن صاحب الإحاطة يورد

1. هو الكاتب الشهير عبد الحميد بن يحيى بن سعد. ترجمته في ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج3 ص228.

. القلقشندي، المصدر السابق، ج5، ص144.2

3. نفس المصدر والصفحة.

4. يقسم المارودي الوزارة إلى قسمين: وزارة تنفيذ ووزارة تفويض فاخص وزير التنفيذ بتنفيذ أوامر الخليفة. المارودي،

المصدر السابق، ج1، ص128-134.

لنا إشارة من أن ابن عطية " فوض إليه -أي الخليفة - النظر في أموره كلها ، فنهض بأعباء ما فوض إليه وظهر فيه استقلاله وغناؤه وكانت وزارته زينا للوقت وكامالا للدولة " (1) ولا يعلم هل كانت وزارته وزارة تفويض فعلا حسب ما قرره الماوردي سابقا ، أم أنه قصد بها القيام المثالي بأعباء الوزارة نظرا لخبرته الإدارية كونه كان من الموظفين والكتاب السابقين .

ومن المهام الأخرى والاختصاصات التي يضطلع بها كتاب الدولة الأموية كتابة نص البيعة ، ثم إلقائها على الوفود المبايعة ، وكان لهذه المبايعة صيغة خاصة يلقيها الكاتب من على المنبر وهي " تبايعون أمير المؤمنين على ما بايع عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من السمع والطاعة في المنشط والمكره والسير والعسر ، والنصح له ولولاته وعامة المسلمين ، هذا ماله عليكم ، ولكم عليه ألا يجمر بعوثكم وألا يدخر عنكم شيئا مما تعمكم مصلحته ، وأن يجعل لكم عطائكم ، وألا يحتجب عنكم ، أعانكم الله على الوفاء ، وأعانه على ما تقلد من أموركم " (2)

وهذه الصيغة عادة ما تكون مثقلة بتعابير البراءة من الله عز وجل ومن رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأن جميع نسائه طوالق وما يملك من إماء وعبيد أحرار لوجه الله وكل ما يملك من ثروة فهي لفقراء المسلمين ، وأن يحج إلى بيت الله الحرام ثلاثين حجة ما شيا من مكانه هذا إن نكت البيعة أو بدل ولائه لأمير المؤمنين .

كذلك كان الخليفة الأموي يوكل احيانا مسألة التحقيق مع بعض العمال والولاة على الأقاليم إذا بلغه عنهم سوء تصرفهم مع الرعية ، أو ظلمهم للناس أو تبذيرهم لأموال بيت المال والإسراف في لإنفاقها ، يكل إلى بعض الكتاب التحري في المسألة ومحاسبة هذا الوالي أو العامل على ذلك ، من ذلك ما قام به الخليفة عبد الرحمن المستنظر بالله من تعيين الكاتب ابن برد الأكبر مع بعض الموظفين لمحاسبة عمر بن عبد الله الأمير على اشبيلية ، لمحاسبته والوقوف على عمله ، لما بلغه من ظلمه وجوره . كتب ابن عذاري يقول ".... فابرز لمحاسبته أبا محمد ابن يحيى وأبا عبد الله الكاتب وكان تحت نظرهما من كتاب الجهات نحو خمسين كاتباً ، وأقاموا في نسخ وتقييد ، وتبيض وتسويد ، واكباب على بحث

¹ . ابن الخطيب ، الإحاطة ، المصدر سابق ، ج1، ص182-134 .

ابن حيان ، المصدر السابق ، ج2، ص230.²

وتتقيب ، وتصديق بعض وتكذيب " (1) ويحضر جلسة التحقيق هذه ويشهد عليها مجموعة من الفقهاء والقضاة ويكتب محضر في ذلك يشار فيه إلى تاريخ اليوم والشهر والسنة ، وقد تستمر هذه الجلسة أياما معدودة.

وفي بعض الأحيان يناط بالكاتب بالإضافة إلى عمله في مجال القلم والإنشاء ، قيادة الجيوش المتوجهة للقيام بقمع حركة تمردية أو مواجهة جيش معاد أو القضاء على شغب مدينة أو مقاطعة ، أو مرافقة بعض القادة الكبار أثناء ذلك ، كأن يكون ولي العهد ، أو الخليفة ذاته. من ذلك ما حدث مع ابن مرهون الكاتب على عهد الخليفة المستكفي بالله لما خرج عليه بعض المنتزعين وتمردوا على طاعته ، فنجده أوكل قيادة الجيش إلى وزير الكاتب أبي جعفر بن هارون وفي ذلك يقول ابن عذاري " وحين بلغ الخليفة خروجهم على غير طريقه ساء ظنه بهم ، فوجه في الحين ابن هارون ليصدهم عن تعديهم ، ويردهم عن التغيير الذي يريدهم فوصل ابن هارون فوجدهم قد أحدثوا أحداثا وقتلوا فنفذ لهم من الله القضاء ، وحق لهم من الحسام الاقتضاء ، فقتلوا وصلبوا" (2)

وكانت هناك مجموعة من الرسوم السلطانية الخاصة بالكاتب ، فاقترضت مثلا أن يكون له مجلس خاص بديوان الرسائل أو ببيت الكتابة ، ويكون له فراش الوزارة (3). ويفترض أن يزود بدواة وكروسي ومسند ومخدة (4) ، وكان عليه الإكثار من التعطير ومواصلة استعمال البخور والمسك والطيب.

وفي هذا السياق يصف أحد الكتاب المراتب الأدبية والتشريفات العالية التي حظي بها صاحب العلوم من وسائل الوصول إلى منصب الوزارة ، كما ظهر في الأندلس طائفة من الرجال الذين تربعوا مناصب الملك وتقلبوا مراكز الدولة وكانوا جميعا من الأدباء والعلماء والكتاب (5).

ولا بد من التنويه بأنه في كثير من الأحيان كان يطلق لقب الوزير على الكاتب تشريفا له وتعظيما وليس بالضرورة أنه يقوم بمهام الوزير .

1. ابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص154.

2. ابن عذاري ، المصدر نفسه، ص51.

3. ابن القوطيه، المصدر السابق، ص97.

4. القلقشندي، ج1، ص102.

5. ابراهيم علي أبو الخشب ، تاريخ الأدب العربي في الأندلس ، القاهرة، (د.ت) ، ص 300.

أن هذا التداخل بين الوزارة والكتابة نجده في بداية الدولة الأموية في الأندلس وتحديدًا في عصر الإمارة ، إلا أن الدولة في البداية عهدها ونشأتها لم تتخذ الرتب والألقاب ولم يكن ذلك إلا بعد استقرارها ، وهذا ما نلمسه من خلال المصادر التاريخية ، كتب ابن خلدون يقول "..... لم يكن عندهم من الرتب غير الوزير، فكانوا أولاً يخصون بهذا الاسم الكاتب المتصرف المشارك للسلطان في خاص أمره كابن عطية ، وعبد السلام الكومي ، وكان له مع ذلك النظر في الأشغال المالية" (1).

وأشار إلى ذلك صاحب كتاب المعجب "..... فإنها لم تستكمن في مقام الحضارة الداعية إلى انتحال الألقاب وتميز المراتب والخطط الملوكية إلا في أوساطها لما استفحل أمرها ، فلم يكن لهم من المراتب إلا الوزير ، وكانوا يخصون بهذا الاسم الكاتب المتصرف التصرف العام ، المشارك للسلطان في الرأي الخاص" (2)، وقد جرت العادة بعد التشريف بلقب الوزير أن يتبع بحظوة ورزق معلوم بالإضافة إلى راتبه الشهري الذي يتقاضاه الكاتب ، هذا في داخل قصر الخليفة ن أما في خارجه فقد نال الديار الفاخرة والبساتين ، ومن أمثلة ذلك الكاتب **عبد الرحمن الزجاجي** كاتب الخليفة **عبد الرحمن الناصر** لدين الله الذي امتلك حيرا (3) خارج باب اليهود بقرطبة وهو من أجمل الأماكن " به جابية ، كل لج هبها كابية ، قد قريصت بالذهب واللازورد" (4).

تابع الخليفة الحكم المستنصر بالله نهج أبيه في تكريم كتابه الخاصين ، فصاحب الكتابة العليا وزيره الحاجب المصحفي (5) نال حظوة كبيرة فأصبح من كبار رجال دولته، وكان مقداً في صناعة الكتابة ، وجمعت له الكتابة الخاصة والكتابة العليا، كما تقلد الحجابة ، وقد سبق له أن أدب الحكم المستنصر مما أزلفه وأكرمه.

1. ابن خلدون، المقدمة، ج1، ص253.

2. عبد الواحد المراكشي ، المصدر السابق، ص 266-267.

3. الحير: هو مكان يجتمع فيه الماء ، وهو هنا المقصود به البستان .المنجد في اللغة والإعلام.ص365.

4. المقري ، المصدر السابق، ج2، ص161.

5. هو ابو الحسن جعفر بن عثمان، استكتبه الناصر ورقاه في المناصب الكبرى مثل النظر في أعمال جزيرة ميورقه وكذا الشرطة الوسطى ابن الأبار. المصدر السابق، ج1، ص257. كان من أهل الأدب والعلم تقلد الوزارة فنتله المنصور ابن أبي عامر سنة 372هـ/972م في السجن.

وفي ذلك يقول ابن خاقان " وعنه كان يسمع ويبصر فأدرك بذلك ما أدرك ، ونصب
لأمانيه الحبال والشرك " (1). كانت له منية بغربي قرطبة ، لكنها آلت بعد نكبته إلى حاجب
المنصور .

ديوان الرسائل قائلًا " فنعننا الشريفة اقتضت حكمتها أن تضع كل شيء في محله :
وفضلها المنيف أبي أن يكون إلا لأهله ، وسرنا المصون ، بخل أن يجلس إلا في صدور
الكرام الكاتبين . " (2).

وكان من المعتاد أن يجلس أهل الخدمة السلطانية عند حضور الخليفة في الأعياد
والاحتفالات وعند قدوم سفارات الوفود الأجنبية من ملوك النصارى المسيحيين كل حسب
مرتبه ، وكانت مرتبة الكاتب الخاص هو جلوسه عن ذات يمين الخليفة (3).

وكانت للكاتب لدى السلطان عطلة مرتبطة برسم تعطيل الخدمة في الديوان يوم الأحد
عطلة الأسبوع وهو تقليد قديم يعود إلى عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم الأول ،
وكان أول من سن هذا التقليد كاتب الأمير محمد قومس بن انتنجان . مما دل على مدى تأثير
المجتمع الإسلامي في الأندلس بالنصارى المستعمرين في رسوم حياتهم ومثل ذلك رأينا
أيضا في اصطناعهم للأعياد النصرانية وكان لديوان الرسائل مجموعة من الرسوم الإدارية
وكذا الرمزية وهو ما سوف نعمل على بيانه من خلال استجلاء التكامل داخل نظام رسوم
الكتابة السلطانية وكتابها .

أ. رسوم تعيين الكاتب:

كان يسبق قرار تعيين كاتب الخليفة مجموعة من الرسوم الإدارية منها إجراء اختبار
قدرة وكفاءة ومهارة للكاتب في الأمور البلاغية ، فان اثبت جدارته نال منصبه ، وعادة كان
هذا الرسم من اختصاصات الخليفة ، الذي يمنح له قبوله صك سلطاني في شكل ظهير أو
أمر (4) مؤرخ يتم بموجبه تقليد كاتب السلطان الذي يكون محلفا ويؤدي اليمين قبل مباشرة
عمله مثل أمر عبد الرحمن الناصر المؤرخ سنة 344 هـ الذي أصدر بموجبه تقليد الكتابة

ابن خاقان، مطمح الأنفس، المصدر السابق ، ص56.1

2. تقي الدين أبي بكر بن حبه الحنفي الحموي ، قهوة الإنشاء، مخطوطة، تاريخ النسخ 840هـ/1402م، رقم 1898
المكتبة الوطنية ، الحامة، الجزائر، ورقة رقم 3.

. ابن حيان، المصدر السابق ، ص81.3

. ابن القوطية، المصدر السابق ، ص97، ابن حيان ، المصدر السابق.4

السلطانية وتوزيعها على أربعة من وزرائه . هذا ولقد كانت هذه الرسوم جارية على معظم الخطط والوظائف الكبرى في الدولة الأموية في الأندلس كالحجابه والقضاء والولاية وغيرها.

ب. رسوم الكتاب السلطاني :

حرص الخلفاء الأمويون بأندلس على شكل والمضمون في رسائلهم وقد وضعوا شروطاً ألزموا جميع الكتاب التقيد بها ، ومنة هذه الرسوم أن تكون الكتب من الخلفاء وإليهم وإلى الرؤساء بأكمل الخطوط وأبينها وأحسنها (1) ويراعي المداد ويميز الرق فيحسن اختياره ، ولا يستثني أحد من هذه التعليمات سواء ولاية الكور وقادة الثغور من إتباع هذه الرسوم ، فمن أرسل كتاب الدار الوزراء بقرطبة في رق رديء أو مداد دبي ، أو كان خطه غير جيد ، أو في عبارته لحن وما شكل ذلك ، فلا ينظر في طلبه ، بل سيعاقب بالعزل وإغرام المال . (2) وكان رسم كتابتها أن تكون الأسطر ممتدة إلى سطح البطاقة الأيسر وأن تكون أسفل الأسطر في البطاقة، ينقص من سطر البسملة الربع أو نحوه وأن تكون الكتب من الملوك والرؤساء إلى من دونهم في طول البطاقة. (3) وينبغي للملك أن يكرم صديقه أو من يكتب إليه عن أن يكتب إليه في ظهر كتابه أو ظهر غيره ن إلا من الضرورة القصوى وتكون تسوية البطاقة على وجهين ، وأن تسوى الجهة الواحدة منفردة ثم تقاس عليها الجهة الأخرى . (4) وكان الوزراء يطالعون بأرائهم إلى الأمير في بطاقة ، لكن وزيره النضر بن سلمه طالعه برأيه في أمر ما في ورقة ، فلما وقف عليها الأمير عبد الله لم يعجبه ذلك فكتب له :

ليست ترجى لفائدة

أنت يا نضر أبده

لكنيف ومائدة (5)

إنما أنت عدة

ولم تتميز الرسائل السلطانية من حيث الأركان والعناصر المكونة عن ما هو معمول به في باقي الدول الإسلامية .وهي : البسملة والتصلية على رسول الله الكريم صلى الله عليه وعلى اله وسلم وعلى صحبه والبعدية (أما بعد) ، ذكر المرسل إليه والدعاء لهما ، التحية

. ابن السماك العاملي ، رونق التحبير، ص153

ابن بسام الشنتريني ، المصدر السابق ، ق1، م1، ص293

ابن سماك العاملي ، المصدر السابق، ص53.

نفس المصدر والصفحة.4

. ابن عذاري ، مصدر السابق ، ج2، ص154.5

والتحميد ، والغرض من الكتاب ، والخاتمة وتاريخ الكتاب وتختتم بالسلام والدعاء. ويورد ابن عذاري في البيان المغرب نمودجا لذلك هو عبارة عن كتاب عبد الرحمن الناصر إلى الولاية عندما لقب نفسه الخليفة أمير المؤمنين .⁽¹⁾ في حين أن القلقشندي بعد معاينته للرسائل السلطانية في الأندلس وجد فيها سمات تميزت بها عن بلاد المشرق. ومن أهم هذه الميزات التي طبعت أسلوب كتاب الرسائل في المغرب والأندلس: ميزة ميم الجمع ، ويقصد بها تكريم المكتوب إليه وإجلاله واستعمال واستعمال عبارة (إنا كتبنا إليك كتب الله لكم). ذكر الخليفة الداعين له بعبارات الترضية ، ذكر المكتوب إليه باسمه ضمن الرسالة .⁽²⁾ ولقد جاء في كتاب الحلل الموشية نص في غاية الأهمية مفاده أن الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله بعد مرور عام على تلقيه بلقب الخليفة " نفذ كتابة أن يكون الخطاب كله جوابا بالكتابة عنة (بالهاء التي هي كناية الغائب " دون الكاف" التي هي كناية المخاطب مفرقا بينه وبين من هو دونه، وأن يلتزم ذلك أهل المملكة تعظيما لقدره وإكبارا لمحلّه فجرى الرسم بذلك."³

ولا بد من الإشارة إلى أن الانقلابات السياسية والاضطرابات التي طرأت على الأندلس مع بداية القرن الخامس الهجري /الحادي عشر ميلادي، وتحديدا عندما اندلعت الفتنة سنة 399، أدخلت ميزات أخرى على الكتابة وتأثرت بها، حيث تميزت بالتدني والتدهور وأصبحت تتماشى مع الظروف ولا تعبر بالضرورة عن القناعة والرضاء والإيمان الصادق بما يكتب الكاتب . فقد تدهورت كافة الخطوط وأصبحت عبارة عن زخرفة لفظية مسطرة. لذلك تدنت خطة الكتابة السلطانية وكتابتها ورسومها. ومن الأمثلة على ضعف شخصية كتاب الخلفاء الذين أصبحوا ألعوبة في يد حكام هذه المرحلة التاريخية. مستهدفين ومذمومين من قبل العامة ، الكاتب ابن برد الأكبر وكان يعتبر من أقطاب النشر السلطاني وله حظ وافر من الأدب والبلاغة وقد تولى ديوان الإنشاء بعد ابن الجزيري في الدولة العامرية- حيث

1. المصدر نفسه ج2، ص198-199.

2. القلقشندي، صبح الأعشى، ج7، ص30-36. سامية جباري ، أدب الرسائل الديوانية في المغرب والأندلس، من فتح

الأندلس إلى سقوط غرناطة.رسالة ماجستير غير مطبوعة، جامعة الجزائرص165.

3. مجهول، الحلل الموشية، ص32.

قام بأمر من الخليفة هشام المؤيد وتحت تهديد بالقتل بسيف الحاجب عبد الرحمن (شنجول) بإصدار مرسوم ولاية العهد (1)

لهذا الحاجب بشهادة وإمضاء القاضي بن ذكوان. (2)

ولعل من أوضح المواقف التي أبرزت رضوخ كتاب السلاطين لمنطق القوة وسيف السلطة وضعف وركاكة الأسلوب واللغة والبيان ، ما ورد عن صاحب الذخيرة حول عقد البيعة للكاتب المذكور أنفا ابن برد الأكبر باسم سليمان الملقب بالمستعين حيث يقول " وكان أحمد بن برد قد تقدم في عقدها باسم سليمان بن المرتضى فبشره وحك اسمه ، وكتب اسم عبد الرحمن (المستظهر بالله (3) مكانه . (4)

ولقد ازداد أمر الكتابة السلطانية تدهورا وانحطاطا عندما أصبح يرتقي إليها من لا يفقه شيئا ولا تتوفر فيه الشروط التي سبق لنا ذكرها ، فابن بسام يخبرنا بأن الخليفة المستكفي (5) كان يقول للناس أجمعين ارتاعوا كيف شئتم وتسموا بما أحببتهم من الخطط. فتسمى بالوزارة في أيامه مفردة ومثناه أرانل الدائرة وأخا بث النظار ، فضلا عن زعانف الكتاب والخدمة ". (6) ويبدو من الألفاظ والكلمات التي استعملها الكاتب تدمره الشديد وامتعاضه من الأوضاع التي ألت إليها أمور الكتابة، وهو نقد جلي لا شك في ذلك.

الحميدي، المصدر السابق ، ق1، ج1، ص 91-92.¹

². هو أبو العباس أحمد بن عبد الله بن ذكوان : اشتهر بالعلم والفصل كان مستشارا للحاجب المنصور ويعول عليه في معظم أموره حتى تدبير الملك. لقب بقاضي القضاة وكان أول من تسمى بهذا الاسم في الأندلس توفي سنة 413هـ/1035م. النباهي، المرقبة العليا، ص115.

³. المستظهر بالله هو عبد الرحمن الخامس بن هشام ، ولد سنة 392هـ/1002م. وكان أول من رد الأمر إليه من بني أمية لقب بالمستظهر بعد مبايعته في جامع قرطبة في 16 رمضان 414هـ/1023م. ولم تدم خلافة إلا أشهر. قتل من نفس السنة بنظر ابن بسام ، المصدر السابق ق1، م1، ص48-55. ابن عذاري، المصدر السابق، ج3، ص125، المراكشي، ج1، ص105.

. ابن بسام ، المصدر السابق ، ق1، ج1، ص49.⁴

⁵. نفس المصدر، ص336.

⁶. المستكفي : هو أبو عبد الرحمن محمد بن عبد الرحمن ، ولد سنة 366- وكان أبوه قد قتله محمد بن ابي عامر في أول دولة هشام المؤيد، ابن حزم ن المصدر السابق ، ص100، الحميدي ، المصدر السابق، ص28.

إن القيمة التاريخية لهذا النص تكمن في صراحته ، حيث جاءت العبارات واضحة لا تورية فيها ، بل عكس الأوضاع السياسية والإدارية المتدهورة التي آلت إليها خطط مؤسسات الدولة من الفوضى والارتجال.

وبالرغم من ذلك نستطيع من خلال هذه النصوص وغيرها أن نقف عند مستوى الانحطاط الذي بلغته الكتابة السلطانية في الأندلس في هذه الفترة الحرجة من تاريخها ، كانعكاس للتدهور الأخلاقي والاجتماعي والنفسي والثقافي لكتاب السلاطين إبان فترة الفتنة إذ تعد من أهم ما جاء في الباب تصوير نماذج الكتاب، وبدورها تأثرت رسوم الكتابة بتداعيات الفتنة.

ومن خلال دراسة بعض النصوص كنماذج يتضح لنا أن رسوم وتشريعات الكتابة الرسمية أصبح لا يتقيد بها من قبل الخاص والعام . وأصبح الخلفاء يقبلون الاعتذار عن رداءة الرق والبشر بل تجاوز ذلك إلى المكافأة بالعطاء والثناء . وهذه الحالة بكل تأكيد بعيدة كل البعد عن ما كان يجري سابقا، حيث يعاقب الكاتب بالعزل وإغرام المال في حال إخلاله برسم من رسوم الكتابة.

وبتضح مما سبق ذكره أن عناية الأمويين بالأندلس بنظام الكتابة ورسومها لم يكن يهدف إلى تزيين الواجهة السياسية فقط وإنما إبراز نخبة من طبقة الكتاب ، وكان وراء ذلك كذلك دافع إقامة مؤسسات إدارية متدرجة حازمة قوية ذات أبعاد إستراتيجية تمثلت تحديدا في التخصص والانضباط الدقيق لإدارتها مما نتج عنه مجموعة من الدلالات الحضارية أضفت على الأندلس فيلا عصر الخلافة الرخاء والازدهار.

الانعكاسات الاقتصادية لخروج الأندلسيين من إسبانيا

طبيبي عبد العالي¹

إشراف: د نبيله عبد الشكور

مقدمة

ما من شك في أن إخراج الأندلسيين من إسبانيا كان له الأثر الإيجابي في النفوس، ذلك لأن الحكومة الإسبانية استطاعت توحيد البلاد سياسيا ودينيا، والاستيلاء على كل الممتلكات التي كانت بيد الأندلسيين، لكن هذا الصدى الإيجابي سرعان ما تلاشى بفعل فقدان العناصر النشيطة التي غادرت البلاد تاركة وراءها الخراب الذي نتج عنه قلة الإنتاج الزراعي وكساد التجارة وركود الصناعة وتناقص عدد السكان.

فمع تساقط الحواضر الإسلامية تباعا بيد الإسبان ثلاثت كل مقومات الدولة، بفعل مكوناتها البشرية المتحضرة التي كانت محور الاقتصاد والفن والثقافة والعمود الفقري في تطور الأندلس عبر كل عصوره، ومع خروجها حملت معها كل صنائعها وفنونها وبذلك فقدت إسبانيا أهميتها في جميع المجالات الاقتصادية والاجتماعية والعمرائية، وتضررت كثيرا بفعل الفراغ الذي تركه المهاجرون بها، وانحدرت عظمة هذه الدولة التي كان إلى وقت قصير مركز العالم بفنه وصناعاته ومدارسه وجامعاته التي ملأت الدنيا، وقد حل محلها البؤس والفقر وخلت من طلاب العلم والتجار وغدت إسبانيا في ذيل الأمم مع إقصائها لأهم شريحة في مجتمعتها.

تأثير الهجرات الأولى على الاقتصاد

لقد انحدرت إسبانيا في أتون الظلام وتدهورت حالتها بفعل الخروج الكثيف للأندلسيين منها، ورغم أن الأندلس لم يكن قد ضاع كله، إلا أن هجرة الأغنياء والرؤساء وبعض رجال الدين أول الأمر تاركين وراءهم الضعاف من العمال والمزارعين وأهل المدن²، قد قضى على فنون كل الحواضر الإسلامية من طليطلة إلى اشبيلية فغرناطة فخرت المدائن وحل البؤس وعمت الفوضى وانحطت إسبانيا بعد خروج العرب منها³، ورغم أن تأثير الهجرة على إسبانيا كان تدريجيا موازاة مع سقوط المدن، حيث سمح الإسبان للمدجنين بالبقاء في البلاد لمعرفةهم بأن في بقائهم من الفائدة ما يجعلها تتغاضى عن ترحيلهم، لأن

¹ باحث في التاريخ الوسيط جامع الجزائر 2

² ابن الأبار، الحلة السيرة، تحقيق وتعليق: حسين مؤنس، ط2، دار المعارف، القاهرة 1985، ص37

³ محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس العصر الرابع نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين، ط4، مكتبة الخانجي،

القاهرة 1997، ص432

الضرورة الاقتصادية حتمت عليهم الإبقاء على الكثير منهم لخدمة الأرض والقيام بالأعمال التي يأنف منها الإسبان¹.

وحتى في الفترات اللاحقة عندما همت السلطات بإخراج من بقي من المدجنين من أماكن إقامتهم خرجت جماعات من الأشراف والنبلاء ليعارضوا هذا الإجراء، ليس حبا فيهم ولكن خوفا على مصالحهم وأعمالهم، وقد أدى ذلك إلى الموافقة على إبقائهم شريطة تحولهم عن دينهم ودخولهم في المسيحية²، إلا أن خروج المسلمين من إسبانيا بعد سقوط غرناطة وما تلاها من عمليات الطرد المتتالية وحتى بداية القرن السابع عشر كان له من التأثير ما جعل عظمة إسبانيا تهتز في نظر سادتها، وهنا يقول الكاردينال زمينز عن هجرة المسلمين من بلاده "إنهم يفتقدون إلى ديننا، ولكننا نفتقد إلى فنونهم³.

ومع سقوط غرناطة تسارعت الأحداث وبدأ حكام إسبانيا الجدد في طرد العرب منها وهم لا يعرفون أنهم بفعلهم هذا قد أقدموا على إدخال بلادهم في أتون الظلام الذي لن يخرجوا منه بعدما كانت هذه البلاد سلة أوروبا ومركز إشعاع للحضارة ومنبرا للفنون والعلوم عبر كامل تاريخها.

انخفض مردود الإنتاج الفلاحي بإسبانيا كثيرا نظرا للظروف التي واجهتهم بفعل هجرة اليد العاملة المختصة في هذا المجال، فخربت الضياع الكبيرة برحيل أهلها ومن يعمل بها وحل بها شبح الجوع بمن بقي من النصارى رغم كل الإجراءات التي قامت بها السلطات هناك، فهذه بلنسية التي كانت حديقة إسبانيا الغناء وتحمل المتعة إلى الأبصار وهي التي قلما يسقط المطر بها، إلا أن سكانها كانوا يستخدمون مياه الينابيع المنقولة بواسطة قنوات ضيقة من الآجر لري حدائقهم التي ظلت معظم وقتها مغطاة بالشجر والحشائش والعنب استحالت إلى قفر جاف وموحش وبدا بها شبح الجوع الداهم بالرغم من أنه جيء بالكثير من السكان إليها ليعملوا مع من بقي من المسلمين هناك في خدمة الأرض⁴.

وحتى المدن التي كانت إلى وقت قريب تكتظ بالسكان والصناع والمهرة والتجار خوت وذهب مجدها، فهذه مدينة برغش التي عمرت بفضل تجارتها بالصوف القشتالي فقدت معظم سوقها، ومدينة

¹ عبد الرحمان علي الحجي، التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي إلى سقوط غرناطة، ط2، دار القلم، دمشق 1981، ص534

² عنان، المرجع السابق، ص353

³ عادل سعيد بشتاوي، الأندلسيون المواركة، أنتر ناسيونال برس، القاهرة 1983، ص290

⁴ عنان، المرجع السابق، ص420

شقوبية التي اشتهرت بصناعة الملابس الجميلة انتهت إلى غور شديد، وعجز كبار الملاك والنبلاء عن تسديد الضرائب المفروضة عليهم وأعلنوا إفلاسهم¹.

ومع أن الحكومة قد منحت كل السكان الجدد أضعاف ما كان يملكه المورسكيون من الأراضي إلا أن الإنتاج قد انهار بسبب قلة اليد العاملة المختصة في مجال الزراعة، وزاد لهيب الأسعار بشكل مفرط وقلت المعاملات التجارية حتى أن أحد الرهبان قال في الوضع الصعب الذي آلت إليه إسبانيا بعد خروج المورسكيين منها إنها كانت تدابير أملتها التقوى المسيحية، لكن فيما هو دنيوي هناك حاجة كبيرة إليهم، لأن أصحاب الأراضي لا يجدون من يعمل بها ولذلك فهم يمرون بحالة فقر مدقع².

أصبحت المدن كلها مرتعا لقطاع الطرق واللصوص الذين ملأت بهم القرى المهجورة وعانت البلاد بعد ما كانت أيام العرب في أبعى مجدها و أضحت اليوم مكانا للبوؤس والانحلال³ وتضررت اسبانيا كليا من هذه الهجرة حيث اندثرت الصناعات التي كانت قائمة في البلاد أيام العرب كصناعة الأسلحة بسرقسطة وصناعة الحرير والورق وغيرها من الصناعات التي قال فيها أحد المؤرخين إن أسوأ شيء هو أنه بذهابهم افتقدنا شعبا كادحا وذكيا ومدربا على المهارات النافعة، وبمعنى آخر طبقة العمال الأكثر دفعا للضرائب⁴، وحتى الصناعات التي عرفت الازدهار في السابق تكاد تتعرض اليوم للدمار، فعوض عن اشتغال الإسبان بتصنيع إنتاجهم من الصوف والحرير كما في السابق، راحوا يصدرون تلك المواد إلى دول أخرى مثل هولندا وفرنسا وانجلترا من أجل تصنيعها والعودة إليهم بأسعار مرتفعة⁵.

التأثير الاقتصادي بعد الطرد:

تطبيقا لأحكام المرسوم الذي بموجبه تم طرد المورسكيين عملت كل الهيئات الرسمية و الشعبية على تنفيذ كل بنوده، اعتقادا منها أن ذلك هو الحل الأمثل لها وللشعب ككل للتخلص من المورسكيين إلى غير رجعة، وكل طرف كانت له أسبابه في ذلك، فالأثرياء كانوا يرون في أنفسهم الوريث الأصلي لكل ممتلكاتهم، في حين أن الفقراء وعامة الناس كانوا يرون في ذلك تنصلا من الأعباء التي كانت عليهم

¹ عادل سعيد بشتاوي، الأمة الأندلسية الشهيدة (تاريخ 100 عام من المواجهة والاضطهاد بعد سقوط غرناطة)، ص 351

² أنطونيو دومينغيز، و برنارد بننت، تاريخ مسلمي الأندلس المورسكيين حياة... ومأساة أقلية، ترجمة عبد العال صالح طه، ط1، دار

الإشراق للطباعة والنشر، الدوحة قطر 1988، ص 255

³ عنان، المرجع السابق، ص 431

⁴ ميغيل أنخيل بونيس إيبارا، المورسكيون في الفكر التاريخي، ترجمة ومراجعة: وسام محمد جزر و جمال عبد الرحمان، ط1،

المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة 2006، ص 114

⁵ بشتاوي، الأندلسيون المواركة، ص 195

تجاه المورسكيين خاصة تلك الديون التي كانت تثقل كاهلهم، ورغم أن الطرد حقق لإسبانيا ما كانت تصبوا إليه إلا أنه جلب لها من الخسائر ما لا يمكن تعويضه، فبخروج المورسكيين بدت القرى وهي خاوية على عروشها وقد سكنها الأشرار وقطاع الطرق وتناقصت أعداد العمال الذين يمثلون القسم الأكبر في مداخل الخزينة التي تأثرت كثيرا لهذا الطرد¹. ولم تستطع إسبانيا الخروج من أتون التخلف الذي وضعت نفسها فيه إلا بمرور الكثير من الوقت والجهد.

حمل المورسكيون سر صناعتهم معهم وظلت البلاد لفترات طويلة من دون إنتاج، حتى في الفترات التي عملت فيها السلطات على تعويض هذا النقص بالمستوطنين الجدد الذين أعفتم من الكثير من الضرائب تشجيعا لهم على خدمتها إلا أن الأمور ساءت كثيرا، بفعل جهل المزارعين الجدد بتقنيات الزراعة التي كان المورسكيون يمثلون فيها أهل الاختصاص².

يقول المؤرخ لافونتي الذي أثارت بعض آرائه الكثير من الانتقادات في إسبانيا على أساس أنها خرجت على المؤلف يقول: أسوأ شيء هو انه بذهابهم افتقدنا شعبا كادحا وذكيا ومدربا على المهارات النافعة... والكل يتحمل نقص الأيدي العاملة والذكاء الذين أصبحا مستحيلا تعويضهما³.

ومن خلال قول، كامبو مانس يمكننا تحديد فترة بداية الآثار السلبية التي عانت منها إسبانيا بفعل طردها للمورسكيين حيث يقول: إن بدء تدهور صناعتنا يرجع إلى سنة 1609م، حينما بدئ بنفي المورسكيين، فمنذ ذلك الحين بدأ خراب المصانع، وعبثا حاول ساستنا أن ينسبوا كارثة القرن السابع عشر إلى أسباب أخرى، وهي وإن كانت جزئية فهي لا يمكن أن تصارع ضربة بهذه المفاجأة، وهي ضربة لم تستطع الأمة أن تنهض منها حتى اليوم،... ومن ثمة يمكن القول بأن بلاد العرب السعيدة قد استحالت إلى بلاد الغرب الفقراء⁴، التي هجرها أهلها وانهارت الكنائس فيها وتقوضت المساكن حتى صار الناس يهيمون وزوجاتهم وأولادهم في الطرقات يأكلون العشب ويقتاتون بالجذور ويبحثون عن خلاص من هذه الشرور⁵.

¹ ميغيل أنخيل المرجع السابق، ص 109-111

² ميغيل أنخيل المرجع نفسه، ص 114

³ ميغيل أنخيل المرجع نفسه، ص 123

⁴ عنان، المرجع السابق، ص 422

⁵ بشتاوي، الأمة الأندلسية، ص 351-352

لقد كان نشاط المورسكيين معينا لحياة الآخرين، لكن تهور إسبانيا المدعومة من الكنيسة المسيحية في سبيل الوحدة الدينية التي ضحت في سبيلها بكل شيء ، أدت إلى انحدارها سريعا إلى غمر اليأس والشقاء في الوقت الذي كانت فيه أمم أوروبا تنهض وتسير إلى الأمام¹.

وإذا تتبعنا الأحداث داخل كل مدينة فالأمر يختلف باختلاف نسبة وجود المورسكين فيها، ففي غرناطة التي أكثر المدن تأثرا بخروج المورسكيين منها بسبب كثرة وجودهم فيها والتي كانت تفوق كل المدن الإسبانية، فقد كتب المجمع الديراني مذكرة ذكر فيها أن هذا البلد أصبح خرابا لكونه كله كان من المورسكيين ، ثم أعيد توطينه بأناس تأهيلهم سيئ وليست لديهم رغبة في العمل².

أما في بلنسية التي كان فيها منتج الأرز والقمح يسجل دائما فائضا يساعدها في التصدير إلى الدول المجاورة، فقد أضحت بعد سنة 1609م من المستوردين لهذه المادة الحيوية من سردينيا نتيجة لفقر الحقول بالمدينة التي كانت حديقة إسبانيا الغناء³، والتي كان سكانها من المورسكيين يكفون وحدهم لإحداث الخصب والرخاء في سائر البلاد التي استحالَت إلى صحراء جافة مشوهة وقد حل بها شبح الجوع في كل مكان⁴.

أما في مدينة يثودار يال فقد أعلن مجلس إدارتها سنة 1623م أن عدد السكان قد وصل إلى ألف مواطن وكلهم فقراء، لأن طرد المورسكيين أدى إلى خروج حوالي خمسة آلاف شخص منها ، وهم الذين كانوا يساهمون في كل شيء من الضروريات ويزودون المدينة بكل ما تحتاجه⁵. وفي طليطلة التي كانت أول ما سقط من المدن الكبار في تاريخ الأندلس فقد أعلن نائبها في البرلمان سنة 1617م أنه من المستحيل عليه دفع ضرائب المكوس بسبب طرد ثلاثة آلاف مورسكي كان الكثير منهم رجال أعمال ولهم تجارات متنوعة⁶.

وفي اللحظة التي تأكد فيها المسلمون من إصرار الحكومة على تنفيذ قرار الطرد النهائي قاموا ببيع كل ممتلكاتهم وقايضوا أثمانها بالذهب، واتخذوا بعدها دارا للسباكة ضربوا فيها عملات مزيفة صنعوها

¹ عنان، المرجع السابق، ص428

² عبد الله محمد جمال الدين المسلمون المنصرون أو المورسكيون الأندلسيون صفحة مهمة من تاريخ المسلمين في الأندلس، ط1،

دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة 1991

³ جمال الدين، المرجع نفسه، ص276

⁴ عنان، المرجع السابق، ص426

⁵ جمال الدين المرجع السابق، ص294

⁶ جمال الدين، المرجع نفسه، ص294

بكميات كثيرة وروجوها في الأسواق، ولم يتم القضاء عليها إلا بعد الاستدانة، وإصدار مرسوم حرم بمقتضاه البيع والشراء أو تبادل العملة مع المورسكيين نظرا لوجود عملة مزيفة¹.

لوبالمجمل لم يمض وقت طويل على رحيل المورسكيين من أسبانيا حتى حل بها الكساد وساءت أحوال النبلاء بها فراسلوا الملك يشرحون له حالهم وكيف تراكمت عليهم الضرائب ولم يعودوا يستطيعون دفع مستحقات العمال، لأن كل ممتلكاتهم قد فقدت قيمتها، وصاروا ينزلون بأنفسهم إلى الحقول للعمل بأيديهم لكسب قوتهم وقوت عيالهم²، حتى أن المطران ريبيرا حينما خاطب الملك حول الأخطار التي أحدثها خروج المورسكيين من بلنسية قال :...لكن أؤكد لجلالنتكم أنني عندما أفكر في هذا (يقصد نتائج الطرد) فإنه تأتيني رغبة شديدة في أن يقبض الرب روجي قبل أن أرى تلك المصائب التي لن يستطيع أحد علاجها³.

لم ينتهي الأمر هاهنا بل وصلت هذه المعاناة إلى خزانة الدولة بفعل قلة مواردها التي كانت تعتمد على مداخيل الضرائب فراحت ترفع منها على الجميع خاصة منهم الحرفيين والعمال معللين ذلك الارتفاع برحيل المورسكيين الذين كانوا يمثلون سلة الخزانة الإسبانية من مداخلها⁴.

والحقيقة أنه مع خروج المسلمين من الأندلس لم تتح الفرصة للمؤرخين في تداول تبعات هذا النزوح وانعكاساته على اسبانيا، بفعل التعنيم الذي مورس في وقته والذي كان لا يسمح بموجبه الا بتمجيد الانتصارات المسيحية على المسلمين دونما ذكر لتبعات هجرتهم على المدى القريب والبعيد، وحتى بعد الطرد الذي مورس بحق من بقي من المورسكيين بعد سقوط غرناطة لم يسمح بسماع الأصوات المعارضة لهذا العمل الشنيع ولا لآثاره المدمرة على البلد برمته، في حين كان للأصوات المؤيدة الكلمة العليا، ذلك أنها كانت تؤيد ما قامت به السلطات من مبدأ التخلص من المسلمين الذين كانوا في نظرهم من الغرباء الذين امتصوا خيرات بلادهم، ومع بروز جيل جديد من المؤرخين المتحررين بدأ التطرق للمأساة برمتها والتطرق لتبعاتها وهنا يقول الكاتب ستانلي لين بول تعقيا على ما أنزله الاسبان بالمسلمين من مذابح وتهجير بعد أن انتصروا عليهم في غرناطة:... لكن الاسبان لم يدركوا أنهم قتلوا الإوزة التي تبيض بيضة من ذهب في كل يوم. فقد بقيت أسبانيا قرونا في حكم العرب ، الذين كانوا مركز ومنبع الفنون والعلوم،

¹ جمال الدين، المرجع نفسه، ص282

² بشتاوي، الأمة الأندلسية، ص349

³ دومنغيز، المرجع السابق، ص263

⁴ دومنغيز، المرجع نفسه، ص255

والذي لم تصله أي مملكة في أوربا، لقد بقيت حضارة العرب إلى حين بعد خروجهم من اسبانيا وضاعة لامعة، ولكن ضوءها كان يشبه ضوء القمر الذي يستعير نوره من نور الشمس، وعقب ذلك كسوف بقيت بعده اسبانيا تتعثر في الظلام¹.

وهكذا اختفى من الأرض الإسبانية إلى الأبد الشعب الباسل اليقظ الذكي المستتير ، الذي أحيا بهمته وجده تلك الأراضي التي أسلمتها كبرياء القوط الخاملة إلى الجذب، فدر عليها الرخاء والفيض، ... ولكن شيئاً لا يدوم في هذا العالم ، فإن الشعب قاهر القوط ... قد ذهب ذهاب الأشباح ... فماذا أنشأ الإسبان مكانهم ، لا نستطيع أن نجيب إلا أن نقول : إن حزنا خالدا يغمر هذه الأرض... التي كان فيها الشرف والمجد العربي المغلوب، والانحلال واليؤس للإسباني الظافر².

الخاتمة

لقد تضاربت الآراء حول تأثير طرد المورسكيين على الاقتصاد الإسباني فمنهم من أنكر ذلك التأثير ونفى وجوده بالأساس معتبرا التهويل بشأنه من الأمور التي لا وجود لها، في حين ذهبت بعض الآراء إلى القول بوجود بعض الانعكاسات السلبية لهجرة الأندلسيين بعد الطرد وإن كانت هذه الأصوات قليلة مقارنة بسابقتها ، لكن على العموم يمكن أن نرجع ذلك إلى سببين رئيسيين هما:

- عامل الكثافة السكانية في المدن الإسبانية التي مسها التهجير، فكلما كانت الأعداد كبيرة كان التأثير كبير والعكس صحيح، لذلك تجد بعض الدراسات لا تكاد تعير هذا الجانب أي أهمية نظرا لاعتمادها على دراسة المناطق التي لم تكن فيها أعداد كبيرة من المورسكيين، في حين أن الدراسات التي أقرت بوجود تأثير اعتمدت في دراستها على المدن التي كانت بها كثافة سكانية عالية من المورسكيين

- العامل الثاني هو عامل المهارة أو التخصص الذي أبدع فيه المورسكيون دون غيرهم من السكان النصارى، لذلك كان خروج هذه الفئة بمثابة الضربة القاضية لتلك الحرف التي كانوا يمارسونها، والتي لم تجد من يعمل بها بعد خروجهم. وعليه لا يمكن لأي عاقل أن ينكر بأن خروج المورسكيين كان له من الأثر ما لا تخطئه عين ومن يقول بغير ذلك فهو ينكر الأمر الواقع كما جاء ذلك على لسان أحد المؤرخين الإسبان المتحررين من تأثير الكنيسة.

¹ بشتاوي، الأندلسيون المواركة، ص197، بشتاوي، الأمة الأندلسية، ص353

² عنان، المرجع السابق، ص431

وفي المجمل فإن الإسبان حين تمكنوا من القضاء على العرب لم يقوموا على تقديم البديل الحضاري والاقتصادي بل كان همهم الأول إخراج من كانوا يعتبرونهم الأعداء، لذلك تغيرت إسبانيا من حاضرة أوروبا الأولى إلى أتون الظلام والجهل الذي لم تفق منه إلا بعد مرور الكثير من الوقت والجهد.

إسهامات فقهاء المغرب الأوسط في علم أصول الفقه ما بين القرنين

4هـ-10م/9هـ-15م

أ بويكر زاوي¹

مقدمة :

شهدت بلاد المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط نهضة علمية راقية ارتكزت بالأساس على عاملين أساسيين هما قيام مراكز اشعاع علمي و بروز نخب فكرية عالمية ، استقادت من دعم ورعاية السلاطين من أجل تعزيز تلك النهضة ، ما جعل المغرب الأوسط خلالها أحد أهم مراكز الفكر والحضارة في العالم الإسلامي عامة و بلاد المغرب على وجه الخصوص ، ولعل من أبرز مميزات هذا العهد على الصعيد العلمي هو الزخم الكبير الذي حظي به الفقه المالكي في مسار حركة العلوم ، خاصة بعد جولات الصراع الذي قادها وخرج منتصرا ضد الشيعة الإسماعيلية وكذا المحنة التي مرّ بها على العهد الموحد ، والتي تكلفت بالحسم المذهبي لصالحه حيث انكب فقهاء المغرب الأوسط على مدارس المصنفات الفقهية و التأليف فيها، ومن بين أهم المجالات التي نالت إهتمام علماء المغرب الأوسط علم أصول الفقه، بإعتباره أحد المباحث الأساسية التي لا بد لطالب العلم من الإحاطة بها ضمن تكوينه الفقهي ، وقد تجلّى هذا الإهتمام بشكل أساسي في مدارس المصنفات الأساسية التي أسست لهذا العلم من جهة، ومن جهة أخرى نشاط حركة التأليف والتصنيف في مباحثه، وقد تنوعت تلك التأليف ما بين شروح ومختصرات، وهي بذلك تدل على الحاجة لتبسيط تلك المباحث لعموم الطلبة في حلق العلم .

تأسيسا على ذلك تحاول هذه المساهمة تسليط الضوء على مكانة علم أصول الفقه بالمغرب

الأوسط بين القرنين الرابع والتاسع هجريين من خلال المحاور التالية :

* دخول مصنفات أصول الفقه إلى المغرب الأوسط ، ومكانتها في حلق العلم .

* إسهامات علماء المغرب الأوسط في علم أصول الفقه .

كتب علم أصول الفقه المتداولة في حلق العلم بالمغرب الأوسط :

تقدم لنا كتب البرامج والفهارس وكتب الرحلات معلومات جد هامة حول البيئة الثقافية ومستوى حركة التعليم وبرامج التدريس في المغرب الأوسط ، و إن لم يشهد هذا النوع من التأليف إهتماما واضحا من طرف علماء المغرب الأوسط بإستثناء البرنامج الذي ختم به الغبريني(ت 714هـ) كتابه عنوان الدراية² ، وكتاب " عجاله المستوفز المستجاز في ذكر من سمع من المشايخ دون من أجاز من أئمة

¹ طالب دكتوراه قسم التاريخ - جامعة تلمسان -

²-أبي العباس أحمد بن أحمد عبد الله الغبريني ، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية ، تحقيق ، محمد بن أبي شنب ، الطبعة الأولى ، دار البصائر للنشر والتوزيع ، الجزائر، 2007

المغرب والشام والحجاز¹ لابن مرزوق الخطيب ، و كتاب " غنيمة الوافد وبغية الطالب الماجد "2 للشيخ عبد الرحمن الثعالبي (ت 875هـ/)، وهو ما صعب عملية التأريخ للمشهد الثقافي والعلمي بالمغرب الأوسط ، فإن كتب الرحلات والفهارس الأندلسية أو المنسوبة لعلماء من المغرب الأقصى وغيرها ، تقدم معلومات وإن كانت متناثرة إلا أنها وافية حول حركة العلوم وأهم برامج التدريس ومواده المقررة ويأتي على رأسها برنامج التجيبي (ت 730هـ)³ و برنامج المجاري (ت 862هـ)⁴ " رحلة القلصادي " (ت 891هـ)⁵ ، وفهرس ابن غازي (ت 919هـ) المسماة ب "التعلل برسوم الإسناد بعد إنتقال أهل المنزل والناد "6 ، ، التي تحفل بذكر كتب درس أصول الفقه المتداولة آنذاك في حلق العلم و المروية بأسانيدها عن مؤلفيها ، وهي بذلك تسد الخلل وتعطي للباحث سندا تاريخيا وتوثيقيا ، يقيه الوقوع في التخمينات والإسقاطات .

– المستصفي من علم الأصول⁷ للشيخ أبي حامد محمد الغزالي (ت 505هـ)

يعد هذا الكتاب من أهم المصنفات التي كتبت في علم أصول الفقه،حتى و إن كان مؤلفه شافعي المذهب إلا أن كتابه تموقع وتم تداوله بين مالكية المغرب الأوسط في حلق الدرس عندهم ، وقد بين المؤلف سبب تأليفه ومنهجه قائلا: " فأقترح علي طائفة من محصلي علم الفقه تصنيفا في أصول الفقه أصرف العناية فيه إلى التلفيق بين الترتيب والتحقيق ، وإلى التوسط بين الإخلال والإملال على وجه يقع في الفهم دون كتاب تهذيب الأصول لميله إلى الإستقصاء والإستذكار ، وفوق كتاب المنحول لميله إلى الإيجاز والإختصار ، فأجبتهم إلى ذلك مستعينا بالله ، وجمعت فيه بين الترتيب والتحقيق ، الترتيب للحفظ و التحقيق لفهم المعاني فصنفته و أتيت فيه بترتيب لطيف عجيب ، يطلع الناظر في أول وهلة على جميع مقاصد هذا العلم ، ويفيده الإحتواء على جميع مسارح النظر فيه "8 ، ويبدو أن هذا الكتاب

¹ - مخطوط ضمن مجموع يحمل الرقم 7579 بالخزانة الحسنية بالرباط ، نقلا عن بن داود نصر الدين ، الحياة الفكرية والتعليمية بتلمسان من خلال علماء بني مرزوق من ق 7/13م إلى القرن 10هـ/16م ، الطبعة الاولى ، كنوز للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 2011 ، وقد أخبرني الدكتور بن داود أن المخطوط في وضعية مهترئة يصعب معها الإستفادة منه .

² - عبد الرحمان بن محمد بن مخلوف الثعالبي ، غنيمة الوافد وبغية الطالب الماجد ،ويليه رحلة عبد الرحمان الثعالبي ، تحقيق ، محمد شايب الشريف ، الطبعة الأولى ، دار ابن حزم ،بيروت ، لبنان ، 2005

³ -القاسم بن يوسف التجيبي السبتي ، برنامج التجيبي ، تحقيق وإعداد ، عبد الحفيظ منصور ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا ، تونس ن 1981

⁴ -أبي عبد الله محمد المجاري الأندلسي ، برنامج المجاري ، تحقيق ، محمد أبو الأجفان ، الطبعة الأولى ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، 1982

⁵ -أبي الحسن علي القلصادي الأندلسي ، رحلة القلصادي ، دراسة وتحقيق ، محمد أبو الأجفان ، الشركة التونسية للتوزيع ، تونس 1978

⁶ - ابن غازي ، فهرسة ابن غازي ، تحقيق ، محمد الزاهي ، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع ، تونس ، د ت

⁷ -أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي ، المستصفي من علم الأصول ، قدم له وحقق نصه وضبطه وترجمه إلى الإنجليزية ، أحمد زكي حماد ، دار الميمان للنشر والتوزيع ، المملكة العربية السعودية ، د ت

⁸ - الغزالي ، المصدر السابق ، ص 05

كان متداولاً بالمغرب الأوسط في فترة مبكرة ففي القرن السادس إختصره بتلمسان الفقيه علي بن عبد الرحمان ابن قنون (ت 577هـ) وسمى مختصره بـ "المقتضب الأشفي في إختصار المستصفي" ، بعد ذلك يظهر هذا الكتاب ضمن برنامج مشيخة الغبريني كأحد الكتب التي كان يحدثها بها " الفقيه أبو العباس أحمد بن محمد الصدفي عن أبي الحسن أحمد بن محمد بن قاسم بن أبي بكر بن خير عن أبي بكر ابن العربي القاضي عنه (أي عن الغزالي) "1 ، وقد قرأه القلصادي كذلك على الشيخ محمد بن النجار (ت 846هـ)، وتظهر حركة الشروح والمختصرات على هذا المصنف حجم التأثير الذي خلفه بخلق العلم خلال القرنين السادس والسابع الهجريين، ويبدو أن هذا الإهتمام الكبير بهذا المصنف راجع بالدرجة الأولى إلى مكانة مؤلفه الذي عدّ من أهم العقول في العالم الإسلامي خلال العصور الوسطى، وأحدث بـ

- كتاب " المعالم في علم أصول الفقه "2 للإمام الفقيه المفسر الأصولي فخر الدين الرازي (ت 606هـ)

يعدّ هذا الكتاب من بين أهم المصنفات الأصولية التي تموقت في درس أصول الفقه بالمغرب الأوسط ، وقد تميز أسلوب الرازي فيه بالدقة والإختصار ومحاولة أداء المطلوب في عبارة مفضية³ وقد قسم الرازي كتابه إلى عشرة أبواب تحت كل باب مجموعة من المسائل فتحدث عن أحكام اللغات ، و عن الأوامر والنواهي ، وعن العام والخاص ، والمجمل والمبين ، وعن الأفعال ، وعن النسخ، و الإجماع ، والأخبار ، وعن القياس ، وختم كتابه بباب عاشر خصصه لمسائل متفرقة في علم الأصول. وإن كان هذا الكتاب مشرقياً الأصول فإن دخوله إلى بلاد المغرب راجع إلى جهود الفقيه المالكي ابن زيتون (ت 691هـ)⁴، الذي كان أول من أدخله إلى تونس ومنها إلى باقي أقطار المغرب ، وقد أحدث هذا الكتاب ومنهج الرازي فيه نقاشاً علمياً أفرز وجود تيارين متباينين في المنهج المتبع في أصول الفقه⁵ ، أو ما يعرف بـ " طريقة المتقدمين " وهم أتباع المنهج القرويين (نسبة للقيروان) وبين " طريقة المتأخرين " المتأثرين بالفخر الرازي والذي أدمج المنطق في أصول الفقه والتي نعنها الغبريني بـ' الطرق المقفلة والقوانين المغلقة في أصول الفقه "6 ، يقدم لنا كتاب عنوان الدراية جزءاً من ذلك النقاش المحتدم بين مالكية بجاية حول المنهج المتبع ، فأبو زيد عبد الرحيم بن عمر اليزناتني " كان

- الغبريني ، المصدر السابق ، ص 187¹

²- فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازي ، المعالم في علم أصول الفقه ، تحقيق وتعليق ، عادل أحمد عبد الموجود ، علي محمد معوض ، دار المعرفة ، مؤسسة المختار للنشر وتوزيع الكتاب ، مصر ، 1994.

- مقدمة المحقق ، ص 23³

⁴- راجع ترجمته عند الغبريني ، المصدر السابق ، ص 47، ونيل الإبتهاج ، المصدر السابق ، ص 362

⁵- برنشفيك ، ج 02 ص 303

⁶- الغبريني ، المصدر السابق ، ص 53

محصولا لمذهب مالك ولأصول الفقه على طريقة الأقدمين " ¹ ، وإن كان هذا المنهج قد تعرض للإنكار والصد من طرف ابن أبي البركات بن أبي الدنيا الصدفي الطرابلسي بتونس ²، الذي قال عنه الغبريني : " وكان في الفقه على طريقة القرويين ولا يرى بالطريقة المتأخرة طريقة فخر الدين ومن تبعه ، وكان ينكر علم المنطق " ³ فإن الفقيه البجائي الذائع الصيت ناصر الدين المشدالي (ت731هـ) ⁴ ، سيقف موقفا وسطا بين هذين التيارين والذي كان " تحصيله لأصول الفقه و أصول الدين على طريقة الأقدمين وعلى طريقة المتأخرين ، وهو مما ينفع بالأخذ عنه والسماع منه" ⁵ ، ويدل هذا النقاش العلمي بين أقطاب المدرسة المالكية البجائية والتونسية حول هذا الكتاب ، فضلا عن حركة الشروح (كما سيأتي لاحقا) ، إلى تدوال كتاب المعالم في حلق الدرس ، فقد ورد في معرض ترجمة ابن عميرة المخزومي الأندلسي المقيم ببجاية ما يدل على ذلك ، قال الغبريني "وقد رأيت له تعليقا على كتاب المعالم في أصول الفقه لا بأس به ، وهو جواب لسؤال سائل وهو مكمل لعشرة أبواب حسبما سأل السائل ...". ⁶ .

- كتاب " منتهى السؤل والأمل في علمي الأصول والجدل" ⁷ المعروف " مختصر ابن الحاجب الأصلي لأبي عمرو ابن الحاجب (ت 646هـ) .

يعد مختصر ابن الحاجب الأصولي من أبرز وأهم الكتب المتداولة في حلق العلم بالمغرب الأوسط ، وقد بين ابن الحاجب الحاجة لتأليفه قائلا : "فإني لما رأيت قصور الهمم عن الإكثار وميلها إلى الإيجاز والإختصار ، صنفت مختصرا في أصول الفقه ، ثم إختصرته على وجه بديع ، وسبيل منيع ، لا يصد اللبيب عن تعلمه صاد ، ولا يرد الأريب عن تعلمه راد" ⁸ ، وقد إحتل هذا الكتاب مكانة رفيعة بين كتب الأصول " وماذلك إلا لأنه جمع المسائل الأصولية في أسلوب موجز ، وحوى كثيرا مما إشتملت عليه الكتب الطويلة في عبارات دقيقة مختصرة " ⁹ ، وقد وجد هذا الكتاب طريقه إلى بلاد المغرب بفضل جهود الفقيه البجائي ناصر الدين المشدالي ، الذي جلبه إلى بجاية ، ومن خلالها إلى سائر أقطار المغرب ¹⁰، صحيح أن مانقله ابن خلدون في مقدمته كان في سياق الحديث عن كتب الفقه وهو بذلك يقصد

¹-الغبريني ، المصدر نفسه ، ص 120

²-برنشفيك ، المرجع السابق ، ج 02 ، ص 303

³-الغبريني ، عنوان الدراية ، ص 53

⁴- ترجمته في الغبريني ، المصدر نفسه ، ص 105 ، 106،التبكتي ، المصدر السابق ، ص ص 610،609

⁵- الغبريني ، المصدر السابق ، ص 106

⁶- الغبريني ، المصدر السابق ، ص 142

⁷- ابن الحاجب ، مختصر منتهى السؤل والأمل في علمي الأصول والجدل ، دراسة وتحقيق وتعليق ، نذير حمادو ، الطبعة الأولى الشركة الجزائرية اللبنانية ، الجزائر ، دار ابن حزم ، لبنان ، 2006

⁸- ابن الحاجب ، المصدر السابق ، ص ص 199 ، 200

⁹- ابن الحاجب ، المصدر نفسه ، ج 01 ، مقدمة المحقق ، ص 79

¹⁰- ابن خلدون ، المقدمة ، دار ابن الجوزي للطبع والنشر والتوزيع ، مصر ، 2010 ، ص 382

المختصر الفرعي ، ولكن ما تقدمه كتب البرامج من أسانيد للمختصر الأصلي والتي تنتهي عند الناصر المشدالي تقف دليلاً على أنه جلبهما معا وبثهما وحرص على تدريسهما ، قال التجيبي : " مختصر أبي عمرو ابن الحاجب رحمه الله تعالى في أصول الفقه ، سمعت كثيراً منه تفقها على الفاضل ناصر الدين أبي علي المشدالي .."¹ ، وكان للتواصل العلمي الكبير بين حاضرتي بجاية وتلمسان أثره الواضح في إتصال السند الفقهي بين الحاضرتين² ، ففي فهرسة ابن غازي وفي معرض ذكر مروياته التي يرويها عن ابن مرزوق الكفيف يقدم معلومات عن ذلك فيقول " أخبرنا (ابن مرزوق الكفيف)³ به عن أبيه قراءة عليه في ستة وثلاثين يوماً ، عن جده الخطيب (ابن مرزوق الخطيب)⁴ ، إجازة عن ناصر الدين المشدالي عن زين الدين الزواوي عن مؤلفه .."⁵ ، وهذا نفس السند الذي قرأ به المجاري المختصر الأصلي على يد ابن مرزوق الحفيد (ت 842هـ)⁶ ، وكان قد قرأه كذلك عن سعيد العقباني(ت 711هـ)⁷ ، ويبدو أن هذا الكتاب قد إستحوذ على برنامج الدرس في حلق العلم بالمغرب الأوسط ، فقد " وفد الفقيه البجائي أبو العباس أحمد بن عمران البجائي على تلمسان تاجراً ، دخل المدرسة القديمة فحضر مجلس أبي زيد بن الإمام (ت 743هـ) ، فألفاهم يتكلمون في قول ابن الحاجب في الأصول في حد العلم أنه صفة توجب تمييزاً لا يحتمل النقيض فنأدى فنأدى " ياسيدي هذا الحد غير مانع إذ ينقص بالفصل والخاصة ، فقال له الشيخ أبوزيد " من هذا الذي أنبأنا مقاله عن مقامه ؟" فقال " محبكم أحمد بن عمران " وجاء به أبوزيد إلى أخيه أبي موسى مسلماً عليه فقال له " سمعنا أنك أوردت على أخينا سؤالاً فأورده علينا " فلما قرره بين يديه قال له " يافقيه إنما قال ابن الحاجب : صفة توجب تمييزاً والخاصة إنما توجب تمييزاً لا تمييزاً"⁸ وقد درس هذا الكتاب الشيخ الأبلي أثناء مكوثه بتونس وممن أخذ عنه ابن عرفة الذي

¹ - التجيبي ، المصدر السابق ، ص 274

² - حول التواصل بين حاضرتي بجاية وتلمسان ينظر ، عبد الجليل قريان ، التلاقح العلمي بين حاضرتي بجاية وتلمسان في العصر الوسيط - قراءة تاريخية - مجلة عصور الجديدة ، العدد 10، مخبر البحث التاريخي ، تاريخ الجزائر ، جامعة وهران ، الجزائر ، 2014. ، ص 148 وما بعدها ، مريم بلهاشمي ، العلاقات الثقافية بين مدينتي بجاية وتلمسان خلال القرن 07-09هـ/13-15م ، ماجيستر في تاريخ المغرب الإسلامي ، إشراف لخضر عبدلي ، جامعة تلمسان ، 2011.

³ - ترجمته في التتبعي ، المصدر السابق ، ص 136 ، 137

⁴ - ترجمته في ، محمد ابن مريم التلمساني ، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، منشورات السهل ، الجزائر ، 2009 ، ص 276، 277 التتبعي ، المصدر نفسه ، ص 450، ابن خلدون ، رحلة ابن خلدون ، عارضها بأصولها وعلق على حواشيتها ، محمد بن تاويت الطنجي ، الطبعة الأولى ، منشورات علي بيضون دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، 2004، ص 60 وما بعدها

⁵ - ابن غازي الفهرسة ، المصدر السابق ، ص 185

⁶ - المجاري ، البرنامج ، المصدر السابق ، ص 135

⁷ - المجاري ، المصدر نفسه ، ص 129

⁸ - الشاطبي ، الإفادات والإنشادات ، الطبعة الأولى ، دراسة وتحقيق محمد أبو الأجنان ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، 1983 ، ص

قرأه عليه " قراءة بحث وتحقيق " ¹ وقرأه كذلك القلصادي على عدد من الشيوخ أثناء مروره بتلمسان ² وهذا دليل واضح على تبوء هذا الكتاب لمكانة مرموقة في درس أصول الفقه بالمغرب الأوسط وحاضرتيه بجاية وتلمسان .

كتاب تنقيح الفصول في الأصول ³ للقرافي (ت 684هـ) :

وهو كتاب في مقدمات وقواعد علم الأصول ⁴ ، ويعتبر هذا الكتاب من بين الكتب الأصولية التي كانت معتمدة في درس أصول الفقه بالمغرب الأوسط فبالإضافة إلى الشرح عليه كان يدرس كذلك في حلق العلم فقد كان يرويه ابن غازي عن ابن مرزوق الكفيف ⁵ عن أبيه عن الخطيب جده عن المسند أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن عدلان ... ⁵، وقد قرأه القلصادي ⁶، أثناء مكوثه بتلمسان على الشيخ محمد الشريف (ت 847هـ) ⁷

- كتاب الورقات في أصول الفقه ⁸ لعبد الملك الجويني (ت 478هـ) :

لم يظهر هذا الكتاب في كتب البرامج والفهارس ولا كتب الرحلات التي أرخت للحياة الثقافية للمغرب الأوسط ككتاب للدرس ، إلا في القرن التاسع هجري، مع ترجيحنا أنه كان متداولاً قبل ذلك حتى وإن لم تسعنا النصوص في إثبات ذلك ، وقد شرحه الشيخ ابن زكري (ت 899هـ) ، وسمى شرحه ب " غاية المرام في شرح مقدمة الإمام " ، ويبدو أن هذا الشرح قد كان بهدف تسهيل فهمه وإستيعابه من طرف الطلبة ، وقد حققه الدكتور محند إيدير مشنان وهو أستاذ بكلية العلوم الإسلامية بجامعة الجزائر ⁹.

¹ - المجاري ، البرنامج ، ص 145

² - القلصادي ، الرحلة ، ص 104

³ - القرافي ، التنقيح ، مخطوط على موقع المصطفى الإلكترونية www.al-mostafa.com

⁴ - عبد الرحمان بالأعرج ، علاقات دول المغرب الإسلامي بدول المماليك سياسيا وثقافيا بين القرنين السابع والتاسع هجريين ، 7-9هـ/13-15م ، دكتوراه في تاريخ المغرب الإسلامي ، إشراف مبخوت بودواية ، قسم التاريخ وعلم الآثار ، كلية العلوم الإجتماعية والإنسانية ن جامعة أوبكر بلقايد ، تلمسان ، ص 279

⁵ - ابن غازي ، الفهرسة ، ص 185

⁶ - القلصادي ، الرحلة ، ص 100

⁷ محمد الشريف : إمام مسجد الخراطين ، شرح التسهيل لإبن حبان ، وتصدر للتدريس بتلمسان ويبدو من جملة الكتب التي كان يدرسها غلبة اللغة والأدب على تحصيله دفن بخارج باب الجياد ، ينظر : القلصادي ، المصدر نفسه ص ص 99، 100 ، ونيل الإبتهاج ، المصدر السابق ، ص 526

⁸ - عبد الملك بن عبد الله الجويني الشافعي ، الورقات في أصول الفقه ، الطبعة الرابعة ، مركز توعية الفقه الإسلامي ، حيدر آباد ، الهند ، 1998

⁹ - ابن زكري ، غاية المرام في شرح مقدمة الإمام ، دراسة وتحقيق ، محند إيدير مشنان ، الطبعة الأولى ، دار التراث ناشرون ، الجزائر ، دار ابن حزم ، لبنان ، 2005

- منهاج الوصول إلى علم الأصول¹ لعبد الله بن عمر البضاوي (ت 685هـ):

هذا الكتاب هو كذلك تأخر ذكره ضمن كتب الفهارس والرحلات التي إهتمت برصد الحراك الثقافي بالمغرب الأوسط إلى غاية القرن التاسع والوحيد الذي تكفل بذلك هو القلصادي الذي ذكره ضمن الكتب التي قرأها على الشيخ محمد بن النجار².

يمكن القول بعد هذه العجالة أنها هذه أبرز الكتب المقررة في درس أصول الفقه والتي أثبتتها إعتقادا على ما حفلت به كتب الفهارس والبرامج والرحلات ، ولكن هذا لا يعني انها كانت هي الوحيدة المتداولة في الدرس الأصولي بالمغرب الأوسط فقد كانت هناك كتب أخرى متداولة ولكن على نطاق ضيق ككتاب **جامع الجوامع في أصول الفقه للسبكي**³، وكتاب **الأحكام لسيف الدين الآمدي**⁴، وكتاب **المحصل في علم أصول الفقه**⁵، وكتاب **التحصيل لسراج الدين الأموري**⁶.

* الملاح العام لحركة التأليف في علم أصول الفقه بالمغرب الأوسط :

إن المتتبع لحركة التأليف في علم أصول الفقه بالمغرب الأوسط ، يلاحظ سيطرة الإختصار والشرح على مصنفات أصولية مشرقية بالأساس ، ويبدو أن هذه الظاهرة لم تكن مقتصرة على هذا العلم أو على بلاد المغرب الأوسط فقد سجل لنا ابن خلدون سيطرة هذا المنهج على المتأخرين فقال : " ذهب كثير من المتأخرين إلى إختصار الطرق والأنحاء في العلوم ، يولعون بها ويدونون منها برنامجا مختصرا في كل علم في كل علم يشتمل على حصر مسائله و أدلتها و أدلتها بإختصار في الألفاظ وحشو القليل منها بالمعاني الكثيرة من ذلك الفن...وهو فساد في التعليم وفيه إخلال بالتحصيل"⁷ ، وقد شهد هذا النوع من التأليف إنتقادا من طرف جملة من علماء العصر آنذاك فقد إنتقد

¹ - عبد الله بن عمر البضاوي ، مناج الوصول إلى علم الأصول ، ومعه تخريج أحاديث المنهاج لزين الدين عبد الرحيم بن الحسين العراقي ، إعتنى به وعلق عليه ، مصطفى شيخ مصطفى ، الطبعة الأولى ، مؤسسة الرسالة ناشرون ، لبنان ، د ت

² - القلصادي ، المصدر السابق ، ص 102

³ - السبكي ، جامع الجوامع في أصول الفقه ، علق عليه ووضع حواشيه ، عبد المنعم خليل إبراهيم ، الطبعة الثانية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، 2003.، مختار حساني ، تاريخ الدولة الزيانية ، الجزء الثاني ، منشورات الحضارة ، الجزائر ، 2009 ، ص 214،

⁴ - علي بن محمد الآمدي ، الإحكام في أصول الأحكام ، علق عليه ، عبد الرزاق عفيفي ، الطبعة الأولى ، دار الصمعي للنشر والتوزيع ، المملكة العربية السعودية ، 2003، ابن خلدون ، المقدمة ، ص 386، عبد الجليل قريان ، التعليم بتلمسان في العهد الزياني ، الطبعة الأولى ، جسور للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 2011 ، ص 252.خطيف صابرة ، فقهاء تلمسان والسلطة الزيانية ن جسور للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 2011، ص 321

⁵ - فخر الدين الرازي ، المحصول في علم أصول الفقه ، دراسة وتحقيق ، طه جابر فياض العلواني ، مؤسسة الرسالة ، د ت ، عبد الجليل قريان ، المرجع السابق ، ص 252

⁶ - عبد الجليل قريان ، المرجع السابق ، ص 252

⁷ - ابن خلدون ، المقدمة ، ص 486

المقري(759هـ) كثرة النقل من المختصرات¹، وقد عزز المقري موقفه قائلاً: " ثم كلّ أهل هذه المائة عن حال من قبلهم من حفظ المختصرات وشق الشروح والأصول الكبار ، فأقتصروا على حفظ ما قل لفظه ونزر حظه ، و أفنوا أعمارهم في حل لغوزه وفهم رموزه ، ولم يصلوا إلى رد مافيه إلى أصوله بالتصحيح ، فضلا عن معرفة الضعيف من ذلك والصحيح ، لا هو حل مقفل ، وفهم امر مجمل"²، والظاهر أن سيطرة هذا النوع من التأليف كان الهدف منه هو جعلها كمقررات وبرامج للدرس ، بما يقرب الأصول إلى الطلبة المبتدئين ويسهل عليهم الفهم والحفظ ، بالرغم من إنتقاد ثلّة من العلماء لذلك وعلى رأسهم ابن خلدون الذي عقد فصلا كاملا حولها معتبرها مخرطة بالتعليم³،

ففي المغرب الأوسط من جملة 24 تأليف تيسر لنا إحصائها ،شكلت التأليف المستقلة حوالي 05 مؤلفات ،فيما حوالي 19 مؤلف هي عبارة عن مختصرات وشروح وحواشي وتعليقات على مؤلفات أخرى .

-حركة التأليف في علم أصول الفقه بالمغرب الأوسط من القرن 4هـ حتى 10هـ /10-

15م:

يعد الشيخ أبي جعفر أحمد بن نصر الداودي (ت 402هـ)⁴، واضع الأسس الأولى للكتابة الفقهية بالمغرب الأوسط فقد صنف في العديد من الميادين، وكان علم أصول الفقه من بين المجالات التي أسهم فيها فقد صنف كتاب " الأصول " ⁵، وإن لم يشهد القرن الخامس هجري أي نشاط تألّفي في علم أصول الفقه حسب علمنا ،فإن القرن السادس هجري عرف نشاطا ملحوظا في هذا المجال ، حيث ألف ابن الرمامة محمد بن علي (ت 567هـ)⁶ " مختصرا نبيل في أصول الفقه "، وقد كان حافظا للفقه

¹ - الونشريسي ، المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب ، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف الدكتور محمد حجي ، الجزء 2 ، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للملكة المغربية ، 1981، ص 479، ابو سليمان عبد الكريم قبول ، الإختصار والمختصرات في المذهب المالكي ، دار الفجر للطباعة والنشر والتوزيع ، الجزائر ، 2006، ص 68

² - الونشريسي ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص 480 وحول جملة الآراء والمواقف من هذا النهج في الكتابة الفقهية ينظر ، ابو سليمان عبد الكريم قبول ، المرجع السابق ، ص ص 83، 65 ، عمر الجيدي ، مباحث في المذهب المالكي في المغرب ، الطبعة الأولى ، مطبعة المعارف الجديدة ، الهلال العربية للطباعة والنشر ، المغرب ، 1993، ص ص 87 ومابعدھا .

³ - ابن خلدون المقدمة ، ص 486

⁴ - ترجمته في ،القاضي عياض بن موسى بن عياض السبتي ، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ، تحقيق سيد أحمد أعراب ، الجزء السابع ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، المملكة المغربية ، 1982، ص ص 104، 102 ،:ابن خير ، فهرسة ابن خير الأموي الإشبيلي ، تحقيق ، إبراهيم الأبياري ، الجزء الأول ، دار الكتاب المصري ، القاهرة ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، 1989، ص 107، ابن فرحون ، المصدر السابق ، ص ص 166، 165،

⁵ - القاضي عياض ، المصدر السابق ، ص 103

⁶ - ترجمته في عبد الملك المراكشي ، الذيل والتكملة ، حققه وعلق عليه ، إحسان عباس ، محمد بن شريفة ، بشار عواد معروف ، الطبعة الأولى ، المجلد الخامس ، السفر الثامن ، دار الغرب الإسلامي ، تونس ، 2012، ص ص 220، 219، عادل نويهض ،معجم أعلام الجزائر ، ص ص 239، 238.

نظارا فيه بارعا في معرفة أصوله ماهرا في إستنباط معانيه²، و ألف أبو علي حسن بن علي حسن المسيلي (ت حوالي 580هـ)³، "النبراس في الرد على منكر القياس" ⁴، أما بتلمسان فألف علي بن عبد الرحمن ابن قنون كتاب "المقتضب الأشفي في إختصار المستصفي"⁵.

في القرن السابع تواصلت حركة الشروح على أمهات الكتب في علم أصول الفقه، ببجاية ألف العالم محمد بن إبراهيم الفهري⁶ "تقييد على المستصفي"⁷، وألف محمد بن سحنون الكومي الندرومي (ت624هـ) كتاب " إختصار كتاب المستصفي"⁸ وألف شرف الدين محمد عبد الله بن محمد الفهري التلمساني (ت 644هـ) ، " شرح المعالم في أصول الفقه"⁹، وهو من القلة من المصنفات التي وصلتنا ، وقد جاء الشرح في عشرة أبواب محافظا بذلك الشارح على نفس التقسيم الذي وضعه الرازي لمعالمه .

شهدت حركة التأليف في علم أصول الفقه في القرن الثامن نهضة كبيرة بالمقارنة مع القرون السابقة ، حيث أحصينا حوالي تسع مؤلفات في أصول الفقه ، ويبدو أن ذلك كان مدفوعا بالنهضة العلمية الكبيرة التي شهدتها أقطار المغرب الإسلامي عامة ، والمغرب الأوسط على وجه الخصوص¹⁰ ، بالموازاة مع الحسم المذهبي لصالح المذهب المالكي ، فقد ألف ابن أبي العيش الخزرجي (ت 911هـ)¹¹ كتاب في أصول الفقه¹² ونلاحظ في هذا المجال إستمرار حركة الشروح على أمهات كتب أصول الفقه ، وإن سجلنا إستمرار تأثير كتاب المعالم للفخر الرازي ، حيث ألف جمال الدين أبو محمد عبد الله محمد بن يحيى الباهلي (ت744هـ)¹³، كتاب " غاية المحصول في أصول الفقه"¹، وألف الحسن بن حسن أبو

¹ - عبد الملك المراكشي ، المصدر السابق ، 220

² - عبد الملك المراكشي ، المصدر نفسه ، ص 219

³ - ترجمته في : الغبريني ، عنوان الدراية ص ص 13،18، نويهض ، ص ص 467،468

⁴ - الغبريني ، المصدر نفسه ، ص 13

⁵ -

⁶ - ترجمته في توشيح الديباج ، ص 224،226، عنوان الدراية ، المصدر السابق ، ص 95،97

⁷ - عنوان الدراية ، المصدر نفسه ، ص 96

⁸ - عادل نويهض ، المرجع السابق ، ص 512

⁹ - (ابن التلمساني) عبد الله بن محمد بن علي شرف الدين أبو محمد الفهري المصري ، شرح المعالم في أصول الفقه ، تحقيق ، الشيخ عادل أحمد عبد الموجود ، الشيخ علي محمد معوض ، الطبعة الأولى ، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، 1999

¹⁰ - ينظر في هذا : قويدر بلعباس ، الحياة الثقافية في بلد المغرب الأوسط خلال القرن الثامن الهجري الرابع عشر ميلادي ،

ماجيستر في التاريخ الوسيط ، إشراف خالد بلعربي ، جامعة الجبالي اليايس سيدي بلعباس 2010

¹¹ - ترجمته في التبتكي ، المصدر السابق ، 579،580،، مخلوف ، المرجع السابق ، ج1،361

¹² - عادل نويهض ، المرجع السابق ، ص 383، مختار حساني ، الحواضر والأمصار الإسلامية ، ج4 ، ص ص 100، 101

¹³ - ترجمته عند ابن فرحون المالكي ، الديباج ، ص ؟، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ، تحقيق ، محمد أبو الفضل إبراهيم ، الطبعة الأولى، الجزء الأول ، 1967، ص 460

علي البجائي (ت754هـ)²، " شرح المعالم للرازي " ³، إلا أننا بالمقابل سجلنا أربع شروح على مختصر ابن الحاجب الأصلي ، الأول لإبن أبي حجلة التلمساني (ت 776هـ)، والثاني لإبن قنفل القسطنطيني (ت810هـ)⁴، و الثالث لسعيد العقباني (ت811هـ) ⁵ والرابع وصلنا ليحي بن موسى الرهوني (ت773هـ)⁶ الذي سماه "تحفة المسؤول في شرح مختصر منتهى السؤل" ⁷، وإن لم تحدد المصادر مكان ولادته بالتحديد إلا أنه يبدو لنا و من خلال المشيخة العلمية التي أخذ عنها في المراحل الباكرة من حياته أنه من مواليد المغرب الأوسط ، فقد أخذ عن الآبلي و أبو العباس أحمد بن إدريس البجائي ، أما أهم مؤلفين في هذا القرن فهو " مفتاح الأصول في بناء الفروع على الأصول ، وكتاب "مثار الغلط في الأدلة" ⁸ ، ويعد كتاب مفتاح الأصول أيقونة الكتابات الأصولية بالمغرب الأوسط ، هذا الكتاب على صغر حجمه يتميز بمنهج وأسلوب فريد ، وقد نهج الشريف التلمساني فيه " منهج الفقهاء في الغالب،و إلا فهو جمع بين الطريقتين : طريقة الفقهاء والمتكلمين ، مع دمج لطريقة تخريج الفروع على الأصول"⁹، وقد إجتهد المحقق في حصر مصادر الشريف في كتابه والتي أوصلها لسبع وأربعين مصدرا ما بين كتب التفسير والحديث والفقه والأصول واللغة وغيرها ،ومن بينها تسع مصادر أساسية في علم أصول

¹- عادل نويهض ، المرجع السابق ، ص 469

²- ترجمته في ، التنبكتي ، المصدر السابق ، ص 158

³- محمد بن مخلوف ، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ، إعتنى به وخرّج آياته ، عبد الغني ميتون جمال أحمد حسن ، الطبعة الأولى ، الجزء الأول ، المكتبة العصرية ، بيروت ، لبنان ، ص 307،2014، عادل نويهض ، المرجع السابق ، ص 54

⁴- ترجمته في مخلوف ، المرجع السابق ، ج 1 ، ص ص 330 ، 331

⁵- ترجمته في ، ابن فرحون ، المصدر السابق ، ص 204 ، مخلوف ، المرجع السابق ، ج 1 ، ص 331

⁶- ترجمته في ، لإبن العماد الحنبلي الدمشقي ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، أشرف على تحقيقه وخرّج أحاديثه ، عبد القادر الأرنؤوط ، حققه وعلق عليه ، محمود الأرنؤوط ، الطبعة الأولى ، المجلد الثامن ، دار إبن كثير ، دمشق ، بيروت ، 1996، ص ص 395،394 ، ابن فرحون ، المصدر السابق ، ج2، ص 362

⁷- أبي زكرياء يحي بن موسى الرهوني ، تحفة المسؤول في شرح مختصر منتهى السؤل،دراسة وتحقيق الهادي بن الحسين شبيلي ، الطبعة الأولى ، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث ، دبي ، 2002

⁸- الإمام الشريف أبي عبد الله محمد بن أحمد الحسني التلمساني ، مفتاح الأصول إلى بناء الفروع على الأصول ويليهِ مثار الغلط في الأدلة ، دراسة وتحقيق ، الشيخ محمد علي فركوس ، الطبعة الأولى ، المكتبة المكية ، مكة المكرمة ، مؤسسة الريان للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، 1998، وقد نشر كتاب مثار الغلط في الأدلة منفصلا بعناية جلال علي عامر الجهاني دون أن تحمل النشيرية بيانات النشر

⁹- ضيف الله بن هادي بن علي الزيداني الشهري، أصول الفقه في القرن الثامن الهجري دراسة تاريخية تحليلية ، دكتوراه في أصول الفقه ، إشراف عبد الكريم بن علي النملة ، كلية الشريعة ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض ، 1426هـ ، ص 848 و حول طريقة تخريج الفروع على الأصول ينظر نفسه ، ص 919

الفقه¹. وقد أصبح هذا الكتاب من بين أهم كتب الدرس الأصولي ببلاد المغرب الإسلامي ، وإستمر تأثيره حتى عصور متأخرة .

خلال القرن التاسع إستمرت حركة الشروح على أمهات مصادر أصول الفقه ، فقد سجلنا خمس مؤلفات في أصول الفقه ، ثلاث مصنفات منها هي شروح على المختصر الأصلي لإبن الحاجب، وهو ما يعني تبوأ هذا الكتاب لمكانة هامة في الدرس الأصولي بحلق العلم بالمغرب الأوسط ، فقد شرح اجزاء منه إبن زاغو (849هـ)²، وألف الشيخ علي بن ثابت (ت 830هـ)³، شرحا على التنقيح للقرافي⁴ ، أما أهم المصنفات التي ألفت في هذا القرن فهي ما كتبه العالم أحمد بن زكري (ت 899هـ)⁵، حيث ألفت شرحا على الورقات في أصول الفقه⁶ ، سماه " غاية المرام في مقدمة الإمام " ، والظاهر أن سبب تأليفه لهذا الشرح كان لتسهيل متن الورقات لطلبة العلم في الحلقات التي كان يعقدها⁷ ، وقد لاحظ المحقق إعتقاد الشيخ إبن زكري على كتاب البرهان للجويني وكتاب الإحكام للآمدي ، ومختصر إبن الحاجب وشرح تنقيح الفصول للقرافي، ملاحظا في الوقت نفسه ترجيحه لإختيارات إبن الحاجب⁸.

خلاصة :

وعلى عكس ما ذهب إليه بعض الدراسات من دعوى قصور فقهاء المغرب الأوسط في علم أصول الفقه⁹ ، يجد الباحث في موضوع مكانة علم أصول الفقه بالمغرب الأوسط ، نفسه أمام زخم كبير من التأليف في أصول الفقه ، صحيح أن أغلب الكتابات كانت عبارة عن شروح ومختصرات وهي ميزة العصر - على مؤلفات أصولية مشرقية ، إلا أنها تقدم الدليل الواضح على عناية علماء المغرب الأوسط

¹ - الشريف التلمساني ، المصدر السابق ، مقدمة المحقق ، ص ص 241 ، 245

² - التتبيكي ، المصدر السابق ، ص 527 ، مخلوف ، المرجع السابق ، ج 1 ، ص 336 ، بن داود نصر الدين ، أسر العلماء بتلمسان ومساهماتها في حضارة بني زيان ، النشر الجديد الجامعي ، تلمسان ، 2016 ، ص 296.

³ - ترجمته في التتبيكي ، المصدر السابق ، ص 335 ، مخلوف ، المرجع السابق ، ج 1 ص 333 ،

⁴ - مخلوف ، المرجع نفسه ، ج 1 ص 333

⁵ - ترجمته في التتبيكي ، المصدر السابق ، ص 129 ، مخلوف ، المرجع السابق ، ج 1 ص 352

⁶ - إبن مريم ، المصدر السابق ، ص 69 حساناني مختار ، الحواضر والأمصار الإسلامية ، ج 4 ، ص 183

⁷ - إبن زكري ، المصدر السابق ، ص 260

⁸ - إبن زكري ، المصدر السابق ، ج 1 ، مقدمة المحقق ، ص 245 ، ويمكن الرجوع إلى محمد صالح ، المنهج الأصولي عند الشيخ إبن زكري من خلال كتابه " غاية المرام " ، مذكرة ماجيستر في العلوم الإسلامية ومناهج البحث ، إشراف خليفي الشيخ ، قسم العلوم الإسلامية ، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإجتماعية ، جامعة أبي بكر بلقايد ، تلمسان ، 2014/2015 ، ص 34 وما بعدها وحول إختيارات إبن الحاجب الأصولية يمكن الرجوع إلى ، أحمد بوزيان ، إختيارات إبن الحاجب الأصولية التي خالف بها في المنتهى مذهب المالكية - دراسة إستقرائية مقارنة - ، مذكرة ماجيستر في العلوم الإسلامية ، تخصص أصول الفقه ، إشراف محمد علي فركوس ، قسم الشريعة ، كلية العلوم الإسلامية ، جامعة الجزائر ، 2009

⁹ - ينظر مثلا صابرة خطيف ، فقهاء تلمسان والسلطة الزيانية ، الطبعة الأولى ، جسور للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 2014 ، ص 320 ، وأنظر رأي عمر الجبدي في هذا الموضوع في كتابه مباحث في المذهب المالكي ، المرجع السابق ، ص 139 وما بعدها .

بأصول الفقه تدريسا و تأليفا ، على الرغم من تسجيلنا لإعراض العديد من الفقهاء الذين برعوا في علم أصول الفقه ولم يرى حاجة في الكتابة ، كما هو الحال عند أبو عبد الله محمد بن براهيم الفهري المشتهر بالأصولي الذي " كان له علم بالفقه والأصلين والخلافيات والجدل وله في المعقول الحكمي نظر وسئل في التصنيف فامتنع وقال : قد سبق الناس بذلك وماعساي أن يأتي به ".¹

¹ - الغبريني ، المصدر السابق ، ص 96

الثورات المحلية في الجزائر خلال العهد العثماني وموقف العلماء منها".

عبو ابراهيم¹.

مقدمة:

عرفت الجزائر مع نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر عدة ثورات قادها زعماء الطرق الصوفية بسبب سياسة الحكام العثمانيين، وتغيّر الظروف الدولية نتيجة انقلاب موازين القوى العالمية، ومن العوامل الرئيسة لهذه الثورات، الضرائب، التي كانت العمود الفقري للبناء الاقتصادي في الجزائر العثمانية، والذي كان يستخلص من الرسوم الجمركية، والسلع المصدرة، والإتاوات، والرسوم على المحلات التجارية، والغنائم البحرية، وفدية الأسرى، و بما في ذلك هدايا القناصل. و مما يلاحظ أن هذا النظام الضريبي في الجزائر العثمانية لم يكن عادلا، "ولا يراعي القائمون عليه طبيعة الإنتاج ولا وضعية الفلاحين وحالتهم"²، فبالرغم من تنوع مصادر الدخل، فإن معظمها كان يأتي من القطاعات الاقتصادية ولاسيما القطاع الفلاحي. ومنذ أواخر القرن السابع عشر، انتهج الحكام العثمانيون سياسة جديدة ترمي إلى مد نفوذ البايليك إلى الجهات الداخلية وإخضاع القبائل الممتعة، وقد اتبعوا في ذلك أسلوبا يعتمد على القوة وعدم مراعاة ظروف وأحوال الأهالي وتجاهل رأي رجال الدين، كما جعل تقلص الضرائب وموارد الخزينة "الحكام العثمانيون يتوجهون نحو الداخل لتوفير احتياجاتهم المالية عن طريق مضاعفة الضرائب وإخضاع القبائل"³.

وقد كانت جباية الضرائب في كثير من الأحيان تتم بوسائل الضغط العسكري والإكراه، وفي هذا الصدد يذكر الزهار "...هكذا وضع الأوائل الجباية على المنهج الشرعي والأواخر صاروا يخرجون المحلات لاستخلاص المغارم والظلمات و نهب أموال المسلمين، وما وقع هذا حتى صار الناس فجّارا والأمراء ظالمين"⁴، وكل ما تجمعته البايات كان يقدم للحكام في الجزائر كل ثلاث سنوات وكان معظمها عبارة عن ترصيات أو رشاوى للداي وكبار القادة بمدينة الجزائر لشراء ذممهم، لأنهم بواسطتها يكسبون ثقة الداوي.

و يؤكد ابن سحنون ذلك فيقول: " وفرضوا على الناس المغارم شتاء وصيفا، وعيّنوا للجند عطاء مخصوصا وضربوا عليهم البعوث تخرج كل سنة أواسط أفريل إلى عمال الجباية فمنها من يرجع إلى

¹ جامعة معسكر.

² سعيدوني ناصر الدين البوعبدلي المهدي ، الجزائر في التاريخ . العهد العثماني، ج4، الجزائر، ص33.

³ نفسه، ص36.

⁴ الزهار الشريف، مذكرات 1754-1830، نشر و تحقيق أحمد توفيق المدني، الجزائر 1974، الجزائر، 1980، ص35.

الجزائر بعد أربعة أشهر ومنها من يرجع بعد سنة¹ ، ويذكر ابن هطال عما حدث خلال حملة الباي محمد الكبير إلى الجنوب...فدخلها من غير حصار عليها، ولا قتال فانتهدت جميع ما فيها من القماش والسمن وغير ذلك مما ترغب النفوس، وقد وجد فيها من القمح والشعير ما لا يحصى عدده إلا الله تعالى فحملت منه الناس الشيء الكثير وكانت الحصيلة خمسمائة ريال بوجو ومائة خادم ومائتين وخمسين جملا، وكان ذلك عام 1195هـ².

وإلى جانب عجز السكان المحليين على دفع الضرائب وسطوة قبائل المخزن، انتشرت الأوبئة والأمراض الخطيرة التي انتشرت كالهشيم وسط السكان بسبب انعدام الرعاية الصحيّة والمستشفيات، وفي هذا الصدد يشير العنتري إلى سكان قسنطينة: "... حتى صاروا يقتاتون الدم والميتة وغير ذلك مما لا يباح إقتنائه، والحاصل بعد ذلك ارتفعت أسعار الحبوب إلى ما لا نهاية، وكانت الدراهم قليلة بين أيدي الناس في ذلك الزمان جدا"³.

ومما زاد في نفور العلماء ورجال الصوفية، إسقاط البايات العثمانيين امتياز عدم دفع الضرائب عن شيوخ الصوفية بعدما كانوا لفترة طويلة هم الذين يجبون الضرائب في مناطقهم ولصالحهم، مما أدى إلى الانفصال بين الطرفين، وفقد بذلك التحالف العثماني- الصوفي دعامة الأساسية، فنارت حفيظة رجال الصوفية بعد ازدياد شكاوى القبائل ضحايا ظلم وجشع البايات، فسقطت هيبة الحكام في نظر العامة، ولأول مرة وقع تحدي قوي للسلطة العثمانية ورغم ذلك لم ينتج عنه تعديل في سياسة وأسلوب الحكام⁴.

2/ القطيعة بين العلماء والسلطة العثمانية:

إن التحالف بين السلطة العثمانية والعلماء والذي دام عدة قرون سرعان ما تلاشى وطرأت عليه تغيرات جذرية حالت دون استمراره، بل على العكس من ذلك تحوّل العلماء ورجال الصوفية إلى أداة تحريض للسكان ضد الحكام والسلطة العثمانية بفعل بروز عوامل متشابكة و متداخلة نذكر منها على وجه الخصوص:

أ / السياسة الضريبية:

بسبب تقلص في الموارد، توجّه اهتمام الحكام نحو الداخل لتوفير احتياجاتهم المالية، فلم يجد هؤلاء إلا مضاعفة الضرائب على الرعيّة وإخضاع القبائل التي لم تتلها يد السلطة ورغم اندلاع الثورات

¹ ابن سحنون، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تقديم و تحقيق الشيخ المهدي البوعبدلي، منشورات التعليم الأصلي و الشؤون الدينية، مطبعة البعث، قسنطينة، ص442.

² ابن هطال التلمساني، رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي الجزائري، تحقيق وتقديم محمد بن عبد الكريم، ط1، القاهرة، 1969، ص56.

³ العنتري، سنين القحط والمسبغة، أو مجاعات قسنطينة، تحقيق ونشر رابح بونار، الجزائر، 1974 ص34.

⁴ العنتريس، سنين القحط.....مصدر سابق، ص39.

ومعارضة العلماء ورجال الصوفية إلا أن الحكام استمروا في فرضها حتى بعد انتهاء ثورة درقاوة، و في هذا الصدد يؤكد الورثاني "أن العثمانيين لما دخلوا بسكرة أضروا بأهلها وأجحفوا بهم في الخراج، لذا اجتمعت عليهم غارات العرب من الخارج، وظلم الأتراك من الداخل"¹.

ب / علاقة الحكام بالرعية:

إن أهم ما يميز الطبقة الحاكمة في الجزائر كونها غير متجانسة، لا تربطها بالسكان إلا دفع الضرائب "والقبائل التي أطلق عليها اسم الرعية طبقت عليها قوانين الحرب الإسلامية التي تقع على بلد غير مسلم بعد فتحه"².

فقد كان الهدف الأساسي للحكام العثمانيين والأجهزة التابعة لهم جمع الأموال عن طريق فرض الضرائب، وليس الرقي الاجتماعي والاقتصادي، فاحتكروا المناصب والوظائف السامية وأحاطوا أنفسهم بالحذر والخوف من السكان، ورفضوا فكرة المساواة بالسكان، وواصلوا تعديهم والتناول حتى على الأوقاف، وهذا ما جعل الورثاني يقول "أنهم جعلوا جميع الخطط الشرعية لهم ظلما وعدوانا"³.

و عموما إن سياسة العثمانيين وتصرفاتهم الخاطئة اتجاه الرعية نتج عنها سخط السكان ونفورهم، وفشل الحكام بالتالي في تعزيز وتأكيد فكرة التضامن الإسلامي التي لطالما كانت الحجر الأساس في بسط النفوذ العثماني في المغرب الأوسط وتشكيل إمبراطورية مترامية الأطراف في شمال إفريقيا.

ج / الانسحاب الإسباني من وهران 1792م.

يعتبر استرجاع وهران من الاحتلال الصليبي نقطة تحوّل في التحالف الذي جمع العلماء ورجال التصوف بالحكام العثمانيين، ليتحوّل هذا التحالف إلى قطيعة وتصادم وتشجيع على قيام الثورات الشعبية. لقد كان الوجود الإسباني بالسواحل خاصة وهران والمرسى الكبير "مصدر تحالف بين العثمانيين والجزائريين"⁴، فالجهاد البحري أكسب العثمانيين المجد وجعل العلماء والصوفية يقفون إلى جانبهم للدفاع عن الإسلام والمسلمين ويصفونهم بالمنقذين، وبالتالي يقبلون بتواجدهم.

ولكن بعد انحصار الجهاد البحري والجلء الإسباني عن مدينة وهران 1792م تحوّل التحالف إلى تباعد ونفور، ولم يعد يشغل بال الحكام العثمانيين إلا تثبيت وجودهم داخل البلاد.

3/ نتائج القطيعة بين العلماء والحكام العثمانيين.

¹ الورثاني الحسين، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، تحقيق ونشر بن أبي شنب، مكتبة الثقافة الدينية، ج1، 2006م، ص118.

² سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 1500-1830 ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ص208.

³ الورثاني، المصدر السابق، ص111.

⁴ سعد الله، تاريخ، المرجع السابق، ص137

تميّز الحكام العثمانيون بالانعزال عن السكان المحليين وترقّعوا عنهم، وتفنّنوا في فرض الضرائب التي تميزت في الكثير من الأحيان بالإجحاف والقسوة والظلم حفاظا على امتيازاتهم، كما عمل الحكام على وضع الوسطاء من العلماء وشيوخ الزوايا بينهم و بين الرعية.

لقد قامت الثورات هذه المرة بدوافع دينية لأن هذه المرة قادها زعماء الطرق الدينية، الأمر الذي ساعدها على تجنيد السكان ضد السلطة العثمانية بسبب سياسة التمييز الذي طبقها الحكام في حين كانت المصلحة تقتضي تطبيق المساواة.

1- نماذج من الثورات الشعبية.

أولا/ ثورة ابن الشريف الدرقاوي 1220هـ/1805م.

هو عبد القادر بن الشريف، ويعرف بابن الشريف الدرقاوي نسبة إلى الطريقة الدرقاوية التي كان ينتمي إليها، أما أصله فقد أكدت أغلب المصادر على أنه من قبيلة وادي العبد بالغرب الجزائري، فقال عنه الزباني "أنه عبد القادر بن الشريف من أولاد سيدي بليل السكاني قاطن وادي العبد".¹

والظاهر أن ابن الشريف أخذ عن شيخه مولاي العربي العلم و الزهد في الدنيا، قال عنه أبو عبد الله محمد العربي: "كان رضي الله عنه عالما زاهدا كثير القيام والصيام والصدقة، مجاهدا في سبيل الله و من ذرية مولانا إدريس رضي الله عنهم، وقد كان الشيخ في شبابه تحير في أمر نفسه، فأراه الله ذلك عيانا وكشف له عن نور، كالنور الذي تسميه العامة عروس المطر(قوس قزح"².

7/ تعاليم الطريقة الدرقاوية:

- 1- إرجاع المسلمين إلى مبادئ الصوفية الحقّة.
- 2- عدم الاعتراف بالحاكمية إلا لله، فهم يمتنون كل شخص يمارس سلطة سياسية على أمثاله من الناس، وفي نفس الوقت يحترمون الأشخاص الذين يدعون النسب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.
- 3- وحسب الطريقة فإن واجبات المرید المقدسة وهي:
 - المشي حافي القدمين، ولبس الأصواف المرقعة.
 - إقامة الشعائر والمدائح الدينية بواسطة الرقص وحمل السبحة الكبيرة، والعيش في وحدة، ومكابدة الجوع، وقيام الليل، والابتعاد عن الكذب.

¹ الزباني بن يوسف، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تحقيق المهدي البوعبدلي، الجزائر، 1979، ص208.

² أبو عبد الله محمد العربي الدرقاوي، بشور الهدية في مذهب الصوفية-المعروف برسائل مولاي العربي الدرقاوي- المكتبة المصرية، بيروت، ط2004، 1، ص9.

- عدم مخالطة الناس، وتحاشي المتمكّنين في الأرض (الحكام).

8/ فكر المقاومة عند ابن الشريف الدرقاوي.

بدأ ابن الشريف الدرقاوي نشاطه الديني والدعوي بزواية أولاد بليل بضواحي فرنده¹ لتفقيه الناس وتعليم الصبية. وكغيره من العلماء ورجال الصوفية، أظهر ابن الشريف الزهد والصلاح، وأبدى التقوى ولقّن تعاليم وأوراد الطريقة الدرقاوية للأتباع، فلبس اللباس المرقع، وعلّق البيّوش والقرون، وابتدع أموراً ينكرها الشرع كادعائه أنه المهدي المنتظر، وأنه صاحب الوقت، وأظهر الكرامات حتى تتبّعه العامة من الناس "فصدّقه الناس وكثّر أتباعه من القبائل الذين قاموا بنصرته بما كان يظهره لهم من شعوذة ويعدّهم بنصر قريب، مما ساعده للاستعداد للحرب المقدسة ضد الأتراك"².

بدأ ابن الشريف في جمع الأنصار عندما راح يجول البلاد وينشر تعاليمه بين السكان المحليين والتي وجدت "صدى واسعاً وخاصة بين سكان الصحراء الذين كانوا يقدمون له الهدايا"³، وكانوا يشكون إليه الظلم من جراء الضرائب المتزايدة عليهم، وهو بدوره ينقل إلى شيخه ما كان يلقاه السكان من ظلم وجشع الحكام العثمانيين.

نقل الزباني عن ابن شريف قوله: "يا سيدي إن بوطننا قوما يقال لهم الترك...يظلمون الناس، ولا يعبئون بالعلماء والأولياء، نسأل منكم أن يكون هلاكهم على يدك ليستريح منهم العباد وتطهر منهم البلاد. فقال له شيخه: "عليك بجهادهم وقتالهم وإن الله ينصرك عليهم..."⁴. بينما يروي المزارعي أن شيخه كان يقول: "أنصرهم والله ينصرك عليهم"⁵.

-نقل عنه أبو عبد الله العربي: "... ونرى أن الطريقة لا بد أن يقوم أمرها بحول الله وقوته إذ هي مأخوذة عن شيوخنا رضي الله عنهم عن رسول الله صلى الله عليه و سلم عن سيدنا جبريل عليه السلام عن الله عز وجل، فإن ذلك بإذن من الله ورسوله عليه وسلم"⁶. استغل ابن الشريف هذه الفتاوى وتعاليم الطريقة الدرقاوية التي تدعو الرجوع إلى الإسلام الأول، وتحاشي المتمكّنين في الأرض من الحكام الظالمين، فاستقوى بها واتخذ من التأييد شيخ الطريقة له وسيلة للثورة على الحكام العثمانيين، فراح

¹ بلدية فرنده تقع ضمن ولاية تيارت وفق التقسيم الإداري.

² André Delpech, « résumé historique sur le soulèvement des Derkaoua dans la province d'Oran », *R.A18.1874.p.38.2*

³ الزباني، المصدر السابق، ص208.

⁴ نفسه، ص208.

⁵ نفسه، ص303.

⁶ أبو عبد الله محمد العربي الدرقاوي، بشور الهدية في مذهب الصوفية- المعروف برسائل مولاي العربي الدرقاوي- المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2004، ص32.

يستجمع الأنصار والقبائل من حوله لنشر فكرة المقاومة بين صفوف المناصرين من القبائل المحلية، فأعلن الجهاد ضد الحكام العثمانيين محلاً دماءهم بعد مبايعة قبائل المنطقة الغربية له¹، والتي سرعان ما تجمعت كالسيل الجارف نحو قرية فرطاسة² بين وادي مينا ووادي العبد عام 1219هـ/1805م وألحقت بجيش الباي مصطفى العجمي³ هزيمة نكراء، نتج عنها مقتل خلق كبير من الجيش العثماني وقبائل المخزن في مقدمتهم كاتب الباي العالم الجليل الحاج أحمد بن هطال التلمساني، وأبو عبد الله محمد الغزلاوي واستمر جيش درقاوة في تتبّع فلول الجيش العثماني حتى أسوار مدينتي معسكر و وهران بعدما تركوا عتادهم للثائرين⁴.

لقد دفع النصر الذي حققه درقاوة بفرطاسة بابن الشريف إلى الإعلان أمام المناصرين من القبائل بقوله: "إنا نزعنا عنكم ما كنتم فيه من الحقر والذلة والمسكنة، وأداء المغارم والجزية الثقيلة، والمؤن الكثيرة الجليلة، الذي هو حرام على من انتظم بالدخول في سلك الإسلام، وقد قطعنا دابر الترك الظلام وأتباعهم الشرار اللئام، فالواجب عليكم مبايعتنا والإذعان وطاعتنا."⁵

و هكذا طلب ابن الشريف من القبائل المحلية الطاعة والإذعان بعدما أنهى المغارم والجزية الثقيلة عن السكان المحليين، وإعلان الجهاد ضد الحكام العثمانيين و المواليين لهم من رجال البايلك، وقد ترتب عن انتصار ابن الشريف دخوله إلى معسكر دون مقاومة، حيث جعل منها مقراً له ولعائلته.⁶

وأثناء حصار مدينة وهران من قبل درقاوة، وصل مولاي العربي شيخ الطريقة الدرقاوية من المغرب بطلب من السلطة العثمانية للتدخل وإيقاف الثورة، لكن ابن الشريف شكاً لشيخه ضرر الأتراك وجورهم، فصدر من الشيخ ما يشجع على الثورة ضدهم ، وفي هذا الصدد يذكر المزاري: "قرأى بالعيان ما لا يقدر

¹ سارعت قبائل: الحشم، أدواير، الغراية، الزمالة مسا ندة ابن الشريف خوفاً من إتلاف محاصيلها الزراعية من طرف درقاوة.

² بلدية تبعد بحوالي 60 كلم غرب مقر ولاية معسكر، وأصبحت تسمى ب" واد الأبطال" ضمن التقسيم الإداري الجديد.

³ هو مصطفى بن عبد الله العجمي، تولى الملك 1215هـ/1800م، كان رجلاً عاقلاً غير أنه كان جباناً، ظهرت في أيامه الثورة الدرقاوية، وفي السنة الثانية من توليه الحكم غزا أهل أنكاد وانهزم أمامهم، ثم عزل. عاد إلى الحكم مرة ثانية سنة 1222هـ/1807م حارب فيها الدرقاويين وهزمهم بوادي الخير. في هذه الأثناء جاءه الخبر بتعيينه خزانجياً فيها فسار إليها. أنظر مسلم بن عبد القادر، تاريخ بايات وهران، ص 27.

⁴ الزباني، المصدر السابق، ص 209.

⁵ المزاري بن عودة، طلوع سعد السعود في أخبار وهران و اسيانبا و فرنسا، ج1، تحقيق و دراسة يحي بوعزيز، ط1، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ص 306.

⁶ مسلم بن عبد القادر، تاريخ بايات وهران المتأخر، أو خاتم أنبس الغريب و المسافرين، تقديم و تحقيق رابح بونار، المكتبة. و. و. ك.، الجزائر، 1983، ص 74.

عليه بكلمة البهتان، وإزعاجه قتال المخزن وما فيه من الأعيان بعد أن أمرهم بحمل الشواكير والفيضان، وأنهم في يومهم يدخلون وهران، ويصيرونها بالهدم والتخريب مغارات للفيران¹.

لقد حاول مولاي العربي الدرقاوي إرجاع ابن الشريف الثائر إلى تعاليم الصحيحة للطريقة الدرقاوية، ولما فشل رحل إليه شخصيا والتحق به وهو محاصر لوهران، ولاحظ عدم احترامه له كما كان سابقا.

ولوضع حد لثورة ابن الشريف، تم تعيين باي جديد على وهران، وهو محمد بن محمد بن عثمان المعروف بالمقلش الذي تمكن من فك الحصار عن المدينة² ونشبت قوات الثائرين وألحق بهم عدة هزائم بعد وصول الإمدادات من الجزائر للجيش العثماني³.

ويؤكد الشريف الزهار الهزائم التي ألحقت بالثائر ابن الشريف والخسائر البشرية التي ألحقت به "مات من العرب عدد لا يحصى، وكانت تجتمع رؤوس بني آدم مثل الجبال"⁴.

موقف العلماء من الثورات المحلية:

تميّزت السياسة العثمانية في الفترة الأخيرة من الوجود العثماني بالقسوة ومعاداة العلماء ورجال الصوفية رغبة منها في إخضاعهم، وهذا العمل أدى إلى حدوث نوع من القطيعة بين الطرفين "بعدها كانت لفترة طويلة تميزت بالودّ والتفاهم وكسب رضا وتأيد العلماء وشيوخ الزوايا"⁵.

لقد تأثر علماء الجزائر بما كان يجري من خلال هذه الثورات، فبعضها كان له طابع ديني، وبعضها كان له طابع سياسي، وبعضها كان له دوافع اقتصادية، كما أن البعض منها كان نتيجة تمرد شخص حبا في المغامرة أو حبا في الجاه والسمعة"⁶.

إن المصادر المحلية التي أرخت لهذه الثورات جاءت متحيّزة للسلطة العثمانية وفق منظور السلطة الحاكمة والثقافة التقليدية السائدة آنذاك، وهي المصادر الوحيدة بين أيدينا في غياب مصادر محلية محايدة. و في هذا الصدد يذكر الزهار "بأنها نار فتنة"⁷، ويعتبرها أبو رأس الناصري فتنة "فاتصلت علينا أوامر النكبات و البليّات من الخوف والروع الذي الفؤاد مودوع"⁸، ويذهب مسلم بن عبد القادر، والصالح

¹ المزاري، المصدر السابق، ص311.

² الزهار، المصدر السابق، ص87.

³ مسلم بن عبد القادر، المصدر السابق، ص95.

⁴ الزهار، المصدر السابق، ص87.

⁵ نفسه، ص57.

⁶ سعد الله، تاريخ الجزائر...، ج1، لمرجع السابق، ص206

⁷ الزهار، المصدر السابق، ص86

⁸ أبو رأس، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي و نعمته، تحقيق محمد بن عند الكريم، الجزائر، 1990، ص24.

العنتري إلى أنها أدت إلى البلاء: "فحصلت للناس شدة ومجاعة، وأشرف الضعفاء على الهلاك... وتفرقوا بسبب الهول الواقع في وطنهم"¹.

إن موقف الحافظ أبو رأس من ثورة درقاوة كان واضحا منذ اندلاعها، فهو يعتبرها فئة باغية، أفستد الحرث والنسل ولم تراع حرمة رعية ولا مقدساتها، بالإضافة إلى كونها ساهمت في الجمود الثقافي، لأن المصالح والشريعة لا يتحققان إلا في ظل سلطة قوية يذعن لها القاصي والداني، وهذا لم يتوفر في الثورة الدرقاوية -حسبه- لذلك شجبها وأعتبرها فتنة أصابت البلاد والعباد.

ونفس الموقف المعارض لثورة ابن الصخري 1057هـ/1637م ضد الحكم العثماني، عبّر عنه العالم الفكون بقسنطينة، عندما حدث التقارب بين الباي الجديد الذي عينته السلطات العثمانية والعالم الفكون الذي اتخذ موقفا معارضا و حازما من الثورة، الأمر الذي جنّب قسنطينة الفوضى السياسية و أصبحت تنعم بالاستقرار والهدوء، كما عارض الفكون ثورة ابن الأحرش ومنع الثائرين من التوغل داخل مدينة قسنطينة.

أما العلماء الذين أيّدوا الثورات المحلية ووقفوا إلى جانبها، نذكر العالم "العربي المشرفي" المعروف بأبي حامد، من العلماء الجزائريين الذين أيّدوا الثورة الدرقاوية من خلال كتاب سماه "الذخيرة" قال فيه: "وفي حدود العشرين من قرننا هذا، ثار عليهم درقاوة أهل النظافة والنقاوة"²، ومن جهة ثانية خصّ الثورة الدرقاوية بتأليف سماه "درأ الشقاوة عن السادات درقاوة"³ أنتصر من خلاله للطريقة الدرقاوية على حساب الطرق الصوفية الأخرى.

وعلى خلاف علماء البلاط، يرى سعيدوني في الثورة التي قادها ابن الأحرش: "... تعتبر بحق ثورة شعبية وانتفاضة فلاحية على المظالم والقهر الذي كان تعاني منه الأرياف الجزائرية أواخر العهد العثماني، وذلك من جراء السياسة المالية الثقيلة للبايليك، والتصرفات الجائرة لبعض الحكام، ومستتهضا للقبائل الجبلية بشمال قسنطينة على الخروج من حالة الخمول والجمود التي كانت عليها"⁴.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1- سعيدوني ناصر الدين/ المهدي البوعبدلي، الجزائر في التاريخ- العهد العثماني- ج4، م.و.ك، الجزائر، 1984،

¹ العنتري، المصدر السابق، ص33.

² العربي المشرفي، الذخيرة، ص17.

³ عباس بن ابراهيم، الأعلام بمن حل مراكش وأغامت من الأعلام، ج9، المغرب، المطبعة الملكية، 1999، ص27.

⁴ سعيدوني، وراقات جزائرية، مرجع سابق، ص308.

- 2- : النظام المالي للجزائر في العهد العثماني 1800-1830، الجزائر، 1979.
- 3- الدرقاوي أبو عبد الله محمد العربي، بشور الهدية في مذهب الصوفية- المعروف برسائل مولاي العربي الدرقاوي، المكتبة المصرية، بيروت، ط، 2004م،
- 4- العنثري محمد الصالح، الفريدة المونسة أو تاريخ بايات قسنطينة، قسنطينة، مراجعة وتقديم وتحقيق يحي بوعزيز، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2008م،
- 5- الزهار الشريف، مذكرات "1754-1830"، نشر وتحقيق أحمد توفيق المدني، الجزائر 1974م،
ش.و.ن.ت، الجزائر، 1980م.-الزياني محمد بن يوسف، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تحقيق و تقديم المهدي بوعبدلي، الجزائر 1979م.

جوانب من التراث العلمي المخطوط لأسرة المشارف بمعسكر

تقي الدين بوكعبر¹

مقدمة :

يعتبر المخطوط بصفة عامة والجزائري منه بصفة خاصة كنزا معرفيا هاما لا تزال الدراسات الحديثة تستغله وتدرسه بهدف ابراز دور وجهود علمائنا و التعريف باسهاماتهم و التأكيد على أن هذه الأرض كانت دائمة عامرة بأعلامها و رجالها .

ولعل منطقة الغرب الجزائري ومنطقة معسكر بشكل خاص بالغة الأهمية كونها كانت من أهم - على غرار باقي المناطق - الحواضر العلمية الجزائرية خاصة خلال فترة التواجد التركي بالجزائر مع ملاحظة أن غالبية مكتبات المنطقة و خزائنها لا تزال بعيدة عن منال الباحثين وهذا تقصيرا منهم و تقصيرا من أطرف أصحابها لأنهم بهذا يحرمون أجيالا من معرفة تاريخها و رجالها و آثارهم .

من هنا كان عنوان هذه المداخلة " التراث و دوره في المحافظة على الهوية " لإبراز دور و أهمية هذا التراث في اظهار ملامح هويتنا و تاريخنا و ثقافتنا التي تعرضت خلال فترة الاحتلال الفرنسي للطمس و التحريف و النهب محاولة مني ربط الحاضر بالماضي .

قد اخترت كنموذج تراث علماء اسرة المشارف بمعسكر كونها أنجبت العديد من الأعلام الذين شاركوا و ساهموا في الحراك العلمي بالجزائر و لا يزال تراثهم إلى حد الساعة خزين المكتبات الخاصة منها و العامة، و لأهمية تراثهم لما تتضمنه من معطيات تاريخية تكاد تنعدم في المصادر الأخرى ولأهميته في رسم معلم المجتمع الجزائري عموما و المعسكري على وجه الخصوص .ومن خلال هذه المداخلة سأحاول الاجابة على التساؤلات التالية :

ما هي أهمية المخطوط في تحديد معالم هويتنا ؟ ما أوجه الاستفادة اليوم من تراث علماء أسرة المشارف في الحفاظ على هويتنا الوطنية ؟

تعريف المخطوط :

هو كل كتاب أو وثيقة خطت و كتبت باليد استحدث هذا اللفظ بعد ظهور آلة الكتابة، و هو وحدة تاريخية كاملة يحمل بين سطوره حياة أجيال سابقة ممثلة في نوعيات اوراقه و احباره و فنون تجليده و مضمونه و غيرها من خصائص عصر كتابته²

علاقة المخطوط بالتراث و الهوية :

¹ باحث في التاريخ، جامعة وهران

² مصطفى السيد يوسف : صيانة المخطوطات علما و عملا، عالم الكتب القاهرة 2002، ص 19

" الانسان حالة يحكي قصتها تراثه ومتى فقد تراثه انطمس اثره و ضاعت معالم حياته ¹ فالتراث هو كل ما تركه الأسلاف من ثمار عقولهم في مختلف فروع العلم و المعرفة من أدب و بلاغة و شريعة و فلسفة و طب و صيدلة و كيمياء و رياضيات و موسقى الى آخر العلوم التى تخدم حياة الانسان ². فلا يمكن معرفة حالة هذا الانسان ولا معالم و حدود هويته دون الوقوف على تراثه كل تراثه . كذلك الاعتناء بهذا التراث المتمثل في المخطوط نوع من أنواع الوفاء لما تركه السابقون ومن باب الاعتراف بجميلهم و صنيعهم و الجهود التى بذلوها في كتابة هذه المخطوطات .

مكانة أسرة المشاركة :

تعتبر أسرة المشارف من أشهر الأسر بالغرب الجزائري بنسبها و حسبها و بأدوارها التاريخية و الاجتماعية و السياسية ، قال الرماصي ³ : " هم _ أي المشاركة _ صالحون مبرزون في العدالة لا

¹ نوار جدواني: مخطوطات المكتبة الوطنية و اهميتها للباحثين، مجلة الثقافة عدد خاص بالمخطوطات، العدد 117_118 سنة 1999، ص 60

² نوار جدواني : نفس المرجع، ص 60

³ مصطفى بن عبد الله بن محمد مؤمن الرماصي عالم من فقهاء المالكية العلامة المتقن المحقق النقاد المدقق له عدة تأليف منها: شرحه على متن السنوسية سماه كفاية المريد على شرح عقيدة التوحيد و حاشيته على شرح التتائي لخليل وحاشية على الخرشي و له الهدية في أخبار الراشدية و مما وقفت عليه من مؤلفاته فتاويه ونوازله، توفي سنة 1724 م حسب صاحب معجم أعلام الجزائر و سنة 1723 م حسب صاحب شجرة النور . و الملاحظ انه رغم شهرة الرماصي و مكانته العلمية كيف وهذا المشرفي يبني رده هذا على شهادته إلا أن ترجمته في المصادر التى تمكنت من الاطلاع قليلة .وقد ذهب صاحب شجرة النور الزكية و محمد بن عبد الكريم في تعليقه على فتح الاله الى انه ابو الخيرات مصطفى بن عبد الله بن موسى الرماصي و جعله صاحب شجرة النور الزكية من علماء فاس بل وكثير من علماء الجزائر جعلهم من علماء فاس مغفلا القطر الجزائري تماما و ناسبا علمائه الى فاس ولا يخفى ما في هذا التوجيه من خلل وعليه ارجح الى ما ذهب اليه صاحب تعريف الخلف بحكم أنه أكثر اطلاعا على ما سطره وكتبه علماء الجزائر راجع : أبو راس الناصر : فتح الاله و منته في التحدث بفضل ربي و نعمته، حققه و ضبطه و علق عليه محمد بن عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1990 ، ص 82

محمد بن محمد مخلوف : شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، خرج حواشيه وعلق عليه عبد المجيد خيالي، ط 01، ج 1 ،دار الكتب العلمية لبنان 2002، ص 482

جورج دالفان : القول الاحوط ببعض ما تنتشر من علوم بالمغربين الاقصى و الاوسط، مخطوط مصور بمكتبتي، اللوحة 52 ، 81

الحفناوي أبو القاسم محمد : تعريف الخلف برجال السلف، ج 02، مؤسسة الرسالة المكتبة العتيقة ، ج 02، ص 578_588

عادل نويهض : معجم اعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحديث، ط 03، مؤسسة نويهض الثقافية 1983، ص 152 ،

يتهمون في شئ من الأشياء لا في نسب ولا في غيره¹ ". وقال السيد دح بن زرفة : " منهم _ أي من المشاركة _ رجال أعلام ذوو فضائل و أحلام و نهى و علوم ضاهت بهم في المغرب ناحية الراشدية على الخصوص و العموم² "، و يقول المشرفي ما نصه: " فعلماء المشارف هم سيوف تلك الدولة _ اي العثمانية و تحفة تلك العصابة و قضاة إيالتها و اليهم المرجع في الحل و الربط و الاتقان و الضبط يحلون ويبرمون³ ".

و يقول صاحب القول الأعم متحدث عن أسرة الشيخ المشرفي : " كانوا معتبرين عند الملوك وكانت لهم ولاية خطط الشرعية أيام الأتراك و أيام ابن عمنا الأمير و غيرهم من أبناء عمهم⁴ ". فكثير من علماء المشارف كانوا قضاة و كتاب سواء في العهد العثماني أو في دولة الامير عبد القادر و سلاحظ ذلك لاحقاً.والظاهر أن الأسرة كانت تمسك بنقابة الأشراف إذ يقول المشرفي : " كانت النقابة في المشاركة لا تتعداهم ولا تخرج عنهم⁵ ".

و بخصوص نظام نقابة الأشراف يقول حمدان خوجة : " وجد في كل مدينة نقيب الأشراف وهو بمثابة الحاكم الثاني⁶ ".

كان النقباء يتمتعون بمكانة مرموقة لدى رجال الدولة و المجتمع⁷، لكن اكتفى الأشراف بالتمتع بالامتيازات خاصة كالإعفاء من الضرائب ولم يشكلوا قوة ضاغطة⁸، و بالتالي يظهر أن ولايتهم كانت ولاية خاصة لا عامة .

من خلال هذه النصوص يظهر أن هذه الأسرة كانت تحظى بمكانة مرموقة لدى الخاص و العام و هذا لاعتبارين النسب و العلم.

علماء أسرة المشاركة و تراثهم :

¹ البيديري : تنوير قلوب أهل التقوي و المعارف بنسب سادات غريس الموسومين بالمشارف، مكتبة الحبيب بن قالة المشرفي، اللوحة 3

² البيديري : المصدر السابق، اللوحة 04

³ العربي المشرفي : الرد على ابي راس الناصر، مخطوط مصور بمكتبتي، اللوحة 02.

⁴ بلهاشمي بن بكار : كتاب مجموع النسب و الحسب و الفضائل و التاريخ و الأدب، مطبعة ابن خلدون تلمسان الجزائر 1961، ص 335.

⁵ العربي المشرفي : ياقوت النسب، مخطوط مصور بمكتبتي، اللوحة 23

⁶ خوجة حمدان بن عثمان : المرأة، تقديم وتعريب وتعليق محمد العربي الزبييري، الجزائر الشركة الوطنية للنشر و التوزيع 1982، ص 125

⁷ ابو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي، ج 01، ص 241.

⁸ عائشة غطاس : الحرف و الحرفيون بمدينة الجزائر 1700_1830 مقارنة اجتماعية اقتصادية، منشورات ANEP. 2007، ص 88

نبغ في هذه الأسرة علماء عدة على رأسهم يوسف بن عيسى عاش في القرن 10 هـ / 16 م¹، من الأعيان الثابتين في العلم و الشرف إمام همام عالم عامل فاضل زاهد ورع كثير الصوم قليل النوم²، كان معروفا بالعلم و الصلاح و التأليف³ وقد وصفه الشيخ سيدي دحو بن زرفة فقال : " الشيخ الصوفي النحوي و اللغوي و المحدث الذي جمع الله له بين الشريعة و الحقيقة السيد يوسف بن عيسى الشريف الحسني"⁴ و وصفه فقال: " كان ممن طالع الكتب الشرعية و التأليف الأدبية، والأدعية السننية الكثيرة الإستعمال"، و وصفه مصطفى الرماصي فقال : " الولي الصالح المتبرك به حيا و ميتا سيدي يوسف بن عيسى مختط زاوية الكرط وأهليه ومبتدعه"⁵ .

كذلك من أعلام هذه الأسرة على بن مشرف⁶ الذي تنسب إليه هذه الأسرة، حقيقة المعلومات، والمعطيات حول هذه الشخصية تكاد تكون منعدمة كل ما وقفت عليه أنه ترك لورثته أرض تسمى ذيل السلوقي⁷، تعود ملكية هذه الأرض حسبما أشار البيدري إلى السيد يوسف بن عيسى، ثم تولى السيد على مشرف شؤونها فعرف بالماسك أي الذي يتولى شؤون الأرض، وقد حاول بعض الحشم أخذ جزء من هذه الأرض يسمى أرض الخيل فتصدى لهم هذا الأخير ومنعهم من الإستلاء عليها⁸ .

مكن تقسيم أسرة المشارف إلى أربعة بيوتات كبرى وهي :

علماء بيت المشرفي⁹ :

من اشهرهم عبد القادر المشرفي توفي 10 رمضان 1192 هـ / 1778 م¹⁰ أبو المكارم عبد القادر بن عبد الله بن محمد بن احمد بن ابي الجلال المشرفي و أشار صاحب القول الأحوط ان كنيته هي ابن دح و أنه ولد بوهران¹¹، وهذا ما أكده ابنه الطاهر المشرفي في حديثه عن كرامات أبيه قال : "ومن كراماته

¹ عبد الحق شرف : العربي بن عبد القادر بن علي حياته و اثاره، ماجستير جامعة وهران ص 60 .

² جلول الجبالي : النفيس في ذكر اعلام غريس، منشورات دار الأديب الجزائر 2012، ص 42.

³ محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي : الحل البهية ملوك الدولة العلوية و عد بعض مفاخرها غير المتناهية، دراسة وتحقيق ادريس بوهليلة، ج 01، وزارة الأوقاف الاسلامية المغرب 2005، ص 56 .

⁴ البيدري : نفس المصدر، اللوحة 3

⁵ المصدر السابق، اللوحة 03

⁶ حسبما ما اخبرني به الحبيب جلول بن قالة فإن على بن مشرف هذا مدفون بمسجد الكرط وإلى زمن قريب كان قبره اضافة الى شخصين آخرين من أسرة بن قالة بارز لكن عندما تمت عملية توسيع المسجد تم طمس هذه القبور و سويت بالأرض

⁷ وثيقة لتقسيم ارث بين اولاد على بن مشرف بمكتبتي الخاصة

⁸ البيدري : نفس المصدر، اللوحة 04

⁹ العربي المشرفي : ياقوتة النسب، اللوحة 19

¹⁰ أبو راس الناصر : فتح الإله، ص 24

¹¹ جورج دولفان : نفس المصدر، اللوحة 57

رؤية والده ليلة ولادته نورا خارجا من ضريح السيد عبد القادر بن المختار و صار يعلوا ذلك النور و يمتد حتى دخل لداره بوهران فسمى ابنه باسمه¹، قال عنه العربي المشرفي : " كان المشرفي رضي الله عنه في علم الأصول و الفروع بحر الأبحار وقد شغله عن التأليف قيامه بوظيفة العبادة ولو جمعت فتاواه الفرعية ودونت لمألت الديوان² " و وصفه تلميذه أبو راس فقال : " شيخنا ذو الرأي النير الصفي و المنصب الحفي و السر الخفي³ . من شيوخه العلامة ابو عبد الله محمد المنور التلمساني⁴.

و الذي يظهر لي أن عبد القادر المشرفي و غيره من علماء المشاركة كانوا ينفرون من السلطة و من الحكم و من المناصب كما سنلاحظ ذلك في تراجم بعضهم . يقول أبو راس في حق شيخه : " قليل التردد إلى الأمراء فضلا عن دونهم من القواد و الوزراء⁵ "، و قال عنه : " عرض عليه القضاء مرارا فلم يلتفت إليه ولا عرج عليه⁶ . " كان يرفض اعطيات و هبات وهدايا البايات وفي هذا الصدد يروى العربي المشرفي فيقول : " وحكى لنا أن الباي محمد المذكور كان يبعث له صرت من الذهب ذات عدد كثير إعانة له على رزق الطلبة فيردها عليه و تكرر ذلك من الباي و هو في كل ذلك لا يقبل عطيته ويقول لطلبة الشيخ رضي الله عنه حين رأهم يجنحون لقبول العطية شفقة منهم عليه من قتله دقيق الشعير وماء أبي العوينات فلا أحياء الله⁷، بل وكان ينهى أقاربه عن تقلد المناصب اذ يقول أبو راس : " ومنها ان ابن عمه السيد عبد الله بن احمد رجع كاتباً عند الباي فنهاه⁸.

يمكن تعليل نفور المشرفي من السلطة لعامل الزهد إذ يقول ابو راس الناصر فيه : " كأنه الامام الجنيد أو عمر بن عبيد⁹ . يعتبر عبد القادر المشرفي من الفقهاء المالكية كما نبغ في علم القراءات يقول ابو راس: وثم على استاذنا منصور الذي به تم علم المقروءات فما يسطو¹⁰

من مؤلفاته : "بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الاسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر"، وذكر محقق هذا الكتاب أن المشرفي يعرف بالسقط¹ إلا أن الظاهر و المعول عليه أن السقاط شخصية

¹ الطاهر المشرفي : شرح على نظم الدررة الشريفة في أصول الطريقة، مصور مكتبة الملك عبد العزيز بالدار البيضاء المغرب الأقصى، اللوحة رقم 04

² مختار حساني : ثورة الأمير من خلال ثلاث مخطوطات ن دار الحكمة الجزائر 2007، ص 23 .

³ ابو راس الناصر : فتح الإله، ص 53 .

⁴ ذكر العربي المشرفي نص اجازته له في معرض رده على ابي راس فانظرها.

⁵ ابو راس الناصر : فتح الإله، ص 53

⁶ ابو راس : المصدر السابق ص 53 .

⁷ العربي المشرفي : الرد على ابي راس الناصر، اللوحة 11 - 12

⁸ العربي المشرفي : المصدر السابق ص 54 .

⁹ ابو راس : فتح الإله، ص 53 .

¹⁰ أبو راس : المصدر السابق ص 57 .

أخرى اللهم إلا إذا عرف كلاهما و اشتها بنفس الاسم وهذا مستبعد لأن من ترجم لعبد القادر المشرفي لم يذكر له هذا اللقب². ومن مؤلفاته كذلك منظومة في التصوف تظم 163 بيت فرغ من تأليفها سنة 1150 هـ³.

درّس الشيخ عبد القادر المشرفي بمعسكر في مكان يقال له عواجة⁴، ثم انتقل الى زاوية القيطنة⁵ حيث كان مديرا لهذا المعهد⁶، هذه الزاوية التي كانت تستقطب المريدين من كل الجهات⁷، ثم أسس معهده

-
- ¹ عبد القادر المشرفي : بهجة الناظر في اخبار الداخلين تحت ولاية الاسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر، تحقيق و تقديم محمد بن عبد الكريم، منشورات دار مكتبة الحياة لبنان، ص 06
- ² وردت ترجمة لعبد القادر المشرفي عند كل من :
- عبد القادر المشرفي : بهجة الناظر، ص 06 .
- ابو راس الناصر : فتح الإله، ص 53_57.
- العربي المشرفي : ياقوتة النسب، اللوحة 19 .
- العربي المشرفي : ذخيرة اواخر و الاول فيما ينتظم من أخبار الدول، دراسة و تعليق عبد المنعم القاسمي الحسني، ماجستير أصول الدين جامعة الجزائر مارس 2001، ص 26 .
- محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي : الحلل البهية، ص 56 .
- يحي بوعزيز : اعلام الفكر و الثقافة، ص 231 .
- عادل نويهض : معجم اعلام الجزائر، ص 303
- جاكر لحسن : نشاط جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في مدينة معسكر 1931_1956، دار الغرب للنشر و التوزيع وهران 2003، ص ص 44_47 .
- ³ الطاهر المشرفي : نفس المصدر، اللوحة 157
- ⁴ عواجة تقع بأرض أولاد رحو فروحة انظر
- ابو راس الناصر : فتح الاله، ص 21 .
- محمد بن بوسف الزياني : دليل الخيران و انيس السهران في أخبار مدينة وهران، تقديم و تعليق المهدي البوعبدلي، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع الجزائر 1978، ص 247
- ⁵ زاوية اسسها جد الأمير عبد القادر مصطفى بن المختار الراشدي تقع هذه الزاوية على بعد 20 كلم شمال معسكر بين بوحنيقية و حسين على ضفاف نهر وادي الحمام محاذية لجبل سطنبول ممن درس بها الشيخ عبد القادر المشرفي وممن تخرج منها الشيخ ابو راس لناصر انظر :
- ابو راس الناصر : فتح الإله، ص 43
- بوعزيز : موضوعات و قضايا، ج 01، ص 146
- ⁶ بوجلال قدور : العلم و العلماء في بابل الغرب 1711_1830 معسكرو مازونة نموذجا، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث المركز الجامعي مصطفى اسطيمولي معسكر 2088_2009، ص 11 .
- ⁷ الأمير عبد القادر : سيرة ذاتية كتبها في السجن سنة 1844، تحقيق محمد الصغير بناني و اخرون، طبعة خاصة، شركة دار الأمة للطباعة و النشر و التوزيع الجزائر 2008، ص 48

الخاص أشار بعض الباحثين أنه كان بالكروط¹ , لكن أشار العربي المشرفي بأن معهده هذا كان قريبا من معسكر بمكان يسمى أبي العيونات²، و كان بمعهده ما لا يقل عن 200 طالب³ يعيّلهم من ماله رافضا مساعدات السلطة كما أشرنا سابقا . وصفه البيدري المعاصر له فقال : " أخونا ذو المناقب الفاخرة و المكارم التي تضمنها خير الدنيا و الآخرة محقق ما خفى من مسائل المعقول و مدقق ما أشكل من أصول و فروع المنقول العالم الأتقي النقي النقي"⁴ .

من علماء هذه الأسرة الطاهر بن الشيخ المشرفي قال عنه أبو راس : " العلامة الماهر ذي المسكنة في العلم الباطن و الظاهر و للإمارة و الهوى قاهر تلميذنا السيد الطاهر ابن شيخنا عبد القادر⁵ ". يشير المشرفي أنه كان على منهاج أبيه في التدريس و رفضه لمنصب القضاء إذ يقول : " جبره ملك الأتراك على القضاء بعد إبايت منه و امتناعه"⁶ . يعرف بابن دح , أخذ عن والده ثم رحل إلى فاس وأخذ عن شيوخها من مؤلفاته شرح النصيحة الزروقية , و شرح نظم عقد الجمان الملتقط في قعر قاموس الحقيقة الوسط⁷ . وقفت له على مجموعة مخطوطات , و هي شرح نظم الدرّة الشريفة في أصول الطريقة⁸ و مخطوط شرح التصلية على النبي المختار المروية عن عبد القادر الجيلاني⁹ و مجموعة اشعار في الشوق للحج و زيارة النبي صل الله عليه واله وسلم¹⁰ مات ودفن بوهران , ويظهر أنه كان حيا حتى تاريخ 1211 هـ / أواسط اكتوبر 1796¹¹ و أما بعده فمجهول , وقد رثاه الشيخ عبد القادر بن السنوسي في مرثية تقع في 29 بيت، وقد ترجم له عدة¹².

¹ جاكّر لحسن : نشاط جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في مدينة معسكر، ص 45 .

² لم اهتدي بعد لتحديد هذا المكان بالضبط

³ العربي المشرفي : ياقوتة النسب، اللوحة 19 / الرد على ابي راس الناصر، اللوحة 12

⁴ البيدري : نفس المصدر، اللوحة 02

⁵ ابو راس الناصر : فتح الإله، ص 71 .

⁶ العربي المشرفي : ياقوتة النسب، اللوحة 19 .

⁷ عبد المنعم القاسمي : اعلام التصوف، ص 178 .

⁸ مخطوط مصور عن مكتبة الملك عبد العزيز بالدار البيضاء يقع في 158 لوحة شرح فيه منظومة أبيه في النصوص فرغ من نسخه في ذي الحجة 1228 هـ / 1812 م

⁹ مخطوط مصور عن مكتبة الملك عبد العزيز بالدار البيضاء يقع في 25 لوحة فرغ من نسخه في ذي الحجة 1228 هـ

¹⁰ مخطوط مصور بمكتبة الملك عبد العزيز بالدار البيضاء

¹¹ ابو راس الناصر : فتح الإله، ص 71 .

¹² انظر :ابو راس الناصر : فتح الإله، ص 71 العربي المشرفي : ياقوتة النسب، اللوحة 19 العربي المشرفي : الرد على ابي راس الناصر، اللوحة

ومن علماء هذه الأسرة السيد محمد بن الشيخ عبد القادر المشرفي لم يتمكن من الوصول الى ترجمته إلا أني وقفت له على منظومة شعرية تقع في 56 بيتا جاء في مطلع المخطوطة : " الحمد لله وحده هذه قصيدة الفقيه السيد محمد بن الشيخ سيدي عبد القادر المشرفي أيام قراءته بفاس بلغ لأبيه انه كان مشغولا بلب زهرات الدنيا ... " ¹ .

كذلك من أعلام هذه الأسرة بن عبد الله السقاط و هو الحافظ الحجة شمس الدين² العلامة عبد القادر بن مصطفى بن الشيخ المشرفي³ شيخ الاسلام بوهران و معسكر⁴، اختُلفَ في ضبط اسم شهرته فقال بعضهم سقط و قال البعض الآخر السقاط⁵ وقال بعضهم ساقاط⁶ , و أصل هذه التسمية أنه كان راكبا على حصانه فضربه سبع فسقط فسمي كذلك⁷ . كان متضلعا في جميع الفنون كالفقه و الحديث و المنطق و العروض و النحو و الشعر⁸. من بين شيوخه الشيخ أبي راس الناصر⁹ .
تولى القضاء بمعسكر سنين عديدة¹⁰ وفي هذا الصدد يشير دumas في مراسلاته أنه عزل من منصب القضاء بسبب عدم عدله في أحكامه التي كان يصدرها¹، ولا أظن هذه التهمة تثبت عليه ودليل ذلك أن

عبد الحي الكتاني : فهرس الفهارس و الأتبات ومعجم المعاجم و المشيخات و المسلسلات، ط 02، ج 01، دار الغرب الإسلامي لبنان 1992، ص 644.

يحي بوعزيز : أعلام الفكر و الثقافة، ص 232 . عادل نويهض : معجم أعلام الجزائر، ص 304 .

¹ محمد بن الشيخ المشرفي : نظم لأبيه الشيخ عبد القادر المشرفي، مخطوطة بمكتبة خاصة

² العربي المشرفي : ذخيرة الأواخر، ص 73 .

³ أشار بعضهم الى اسمه فقال بن عبد الله بن مصطفى بن الشيخ بن عبد الله المشرفي الهاشمي لكن بعد التحقيق يظهر أن اسمه كما ثبته في المتن انظر :

فارس كعوان : المرجع نفسه، ص 220 .

⁴ العربي المشرفي : الرد على ابي راس الناصر، اللوحة 10

⁵ انظر كل من : العربي المشرفي : ذخيرة الأواخر، ص 73. العربي المشرفي : ياقوتة النسب، اللوحة 20 العربي المشرفي :

الرد على أبي راس الناصر، اللوحة 10 محمد بن الأمير عبد القادر : تحفة الزائر في تاريخ الجزائر و الأمير عبد القادر، شرح وتعليق ممدوح حقي، ط 02، ج 01 و 02، دار البيقظة ببيرون 1964، ص 206 الأغا بن عودة المازاري : طلوع سعد السعود، ج 01، ص 99. احمد بن عبد الرحمن الشقراني الراشدي : القول الأوسط في أخبار بعض من حل بالمغرب الأوسط، تحقيق و تقديم ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الاسلامي لبنان 1999، ط 01، ص 36 .

يحي بوعزيز : اعلام الفكر و الثقافة، ص 232.

⁶ انظر كل من : محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي : الحل البهية، ج 01 ص 57 العربي بن عبد الله المعسكري : نفس المصدر، ص 68 بلهاشمي بن بكار : نفس المصدر، ص 334 .

⁷ عبد الحي الكتاني : فهرس الفهارس، ج 01، ص 577 .

⁸ محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي : المصدر نفسه، ج 01، ص 57.

⁹ العربي المشرفي : الرد على أبي راس، اللوحة 12

¹⁰ العربي المشرفي : ياقوتة النسب، اللوحة 20.

دوماس صرح أن السقاط كان مع الإحتلال²، والواقع التاريخي يكذب هذا الدعاء كونه بقي مع الأمير لآخر لحظة من جهاده و يعتبر السقاط من رجال الأمير عبد القادر حيث أرسله بهدايا إلى ملك المغرب و معه نص سؤال حول قضية المتعاملين من الجزائريين مع المحتل الفرنسي هذا في 19 ذي الحجة 1252 هـ / 1837 م³، يشير بيلار أنه كان للسقاط رحلة قبل أن يبعثه الأمير كسفير للمغرب كان ذلك سنة 1832 م و أنه تحصل من ملك الغرب على ظهير ملكي يعفيه من الضرائب هو و كل ذرية عبد القادر المشرفي⁴، ولعلها كانت مناورة من ملك المغرب حتى يستميل المشاركة خصوصا و الجزائريين عموما إلى طاعته و الولاء له . لكنه أثر الرجوع إلى موطنه و بايع الأمير عبد القادر على الجهاد و السمع و الطاعة و بقي معه حتى آخر أيامه، يقول الشقراني في حق السقاط واصفا له حين بايع الأمير : " علامة الدهر الملقب بسقاط ذي العلم الذي ليس فيه تخفي و القوة و البسالة و المثابرة و الحزم و الشهامة و الكر على العدو بالمداومة و شدة الإقدام و الضرب بالحسام فلا عين رأته ولا أذن سمعت فله دره⁵ . و هذا ما يفند مزاعم دوماس من أن السقاط كان مع الإحتلال الفرنسي للجزائر . توفي سنة 1270 هـ / 1853 م⁶ بمكناس قيل مسموما و قيل مخنوقا، و دفن قرب ضريح الشيخ أبي عبد الله محمد بن عيسى⁷.

وقد وقفت على بعض اجازات العلماء له منها اجازة الشيخ صالح بن حسين الكواشي⁸ و اجازة الشيخ حسين بن مصطفى بن خليل التونسي⁹ ويظهر ان الساقط سافر إليه اذ جاء فيها : " وقد لازمني في كتب عديدة هي من اعظم ما يتعاطى بتونس¹⁰ . كما وقفت له على اجازة من أحد علماء قسنطينة في طريق رجوعه من أداء فريضة الحج مما جاء في نص الاجازة : " الحمد لله أما بعد حمد الله حق حمده و

¹ Georges Yver , Les correspondances du capitaine daumas 1837_1839 , Editions el maarifa , Alger 2008 , p 613

² p 613:YEVEVER G OP.CIT

³ محمد بن الامير عبد القادر : الزائر في تاريخ الجزائر و الأمير عبد القادر، شرح وتعليق ممدوح حقي، ج 1، بيروت دار اليقظة العربية 1964، ص 206

⁴ les musulmans d algerie au maroc archives marocaines v XI , n : MICHAUX BELLAIRE 01 , P 63-64

⁵ احمد بن عبد الرحمن الشقراني الراشدي : المصدر نفسه، ص 36 .

⁶ ابن زيدان عبد الرحمن بن محمد السجلماسي : اتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، تحقيق على عمر، ج 05، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة 2008، ص 419.

⁷ عبد الحي الكتاني : فهرس الفهارس، ج 01، ص 578.

⁸ اشارة الكتاني في فهرس الفهارس ج 01 ص 369 أنه توفي سنة 1218 هـ / 1803 م

⁹ قال عنه الكتاني في فهرس الفهارس ج 01 ص 308 : " هو العلامة الشيخ مصطفى بن خليل التونسي قرأ بالأزهر ومكة المكرمة وأجيز فيهما "

¹⁰ اجازات بعض العلماء للساقط مخطوطة مصورة مكتبة خاصة

الصلاة و السلام على من لا نبي بعده وعلى آله و صحبه و جنده فإنه لما اجتمع بالعبد الفقير إلى
.....¹ وهو على جمعهم إذا يشاء قدير الشاب الظريف و الفاضل العفيف و العالم النبيه، والخير النزيه
الأخ سيدي عبد القادر المكنى بابن عبد الله بن الشيخ المشرفي الغريسي الوهراني بلغه الله من الخير كل
الأمانى بمحروسة قسنطينة لما أجاز بها قافلا من حجتة عامله الله بنيته...²، ويظهر أنه أثناء هذه
الرحلة زار جامع الأزهر حيث وقفت له على إجازة من الشيخ محمد الشنواني الأزهرى³ ما جاء في نصها
: " أما بعد فقد طلب مني ولدي الألمي الفاضل الدراكة اللوذعي الكامل المعظم المجد الشيخ ابو محمد
عبد القادر المدعو بابن عبد الله بن مصطفى بن عبد القادر بن عبد الله الشريف الحسني الإدريسي نسبا
المغربي المشرفي قبيلة الراشدي الغريسي وطنا ومولدا...⁴. من خلال هذه الإجازات تظهر المكانة
العلمية المرموقة التي احتلها السقاط بين علماء عصره وفي مختلف الأمصار .
علماء بيت الأحمر :

ينتسبون للعلامة محمد بن رصاع من أشهر علماء هذه الأسرة عبد القادر بن مصطفى الأحمر دَرَسَ
بالزيتونة النحو والفقہ ثم رحل إلى الأزهر ثم إلى الحرمين الشريفين ثم رجع إلى مصر ومات بها سنة
1852 م / 1269 هـ . وقد وقفت له على رسالة لمحمد الدسوقي خطها بيده وهي تقيدات لشرح أم
البراهين لمحمد بن يوسف السنوسي جاء في آخرها ما يلي : " انتهى بحمد الله و حسن عونه على يد
كاتبه لنفسه ثم لمن شاء الله من بعده الفقير إلى مولاه عبد القادر بن المصطفى أمنه الله المشرفي
الغريسي الحسني الراشدي بمصر القاهرة بعد رجوعه من مكة المشرفة في هجرته من وطنه لما استولى
عليه الفرنسيين⁵، كما يظهر فإن سبب رحيله هو الاحتلال الفرنسي للبلاد .

كذلك من علماء هذه الأسرة محمد بن عبد القادر بن مصطفى المشرفي وقفت له على مخطوطة يفسر
فيها قوله تعالى : " الله نور السموات و الأرض " ⁶ جاء في أولها : " بسم الله الرحمن الرحيم و به نستعين
و صلى الله علي سيدنا محمد واله الحمد لله فائض الأنوار و فاتح الأبصار و كاشف الأسرار و رافع
الأسرار ... " و في آخرها : " تمت بحمد الله و حسن عونه و توفيقه على يد أفقر و أحقر و أذل العباد

¹ كلمة غير واضحة في نص المخطوط

² اجازات السقاط مخطوطة مصورة بمكتبة خاصة لوحة واحدة، لكن مبتورة الاخير و بالتالي مجهل اسم الشيخ المجيز
وتاريخ الإجازة

³ وصفه الكتاني في فهرس الفهارس ج 02 ص 466 فقال : " محمد بن علي الشنواني العلامة أحد كبار علماء الأزهر
وشيوخه المتوفى سنة 1233 له حاشية على مختصر ابن أبي جمرة للبخاري

⁴ اجازات السقاط نفس المصدر

⁵ مخطوط مصور بمكتبة الشيخ بلقرد بمعسكر

⁶ مخطوطة مصورة بمكتبة الشيخ بلقرد بوكعبر

إلى مولاه الغني محمد بن عبد القادر بن المصطفى المشرفي الحسني الغريسي بالأزهر وذلك في أول يوم من ذي الحجة سنة 1277 هـ¹.

كذلك من علماء هذه الأسرة محمد بن محمد بن المصطفى المشرفي قال عنه العربي المشرفي : " أنجب أهل الوقت في علم الأدب² " و قال عنه : " فاق أقرانه في فصاحة اللسان و بلاغة الحسان ولا زال صغير السن كبير القدر في الفن³ ". ولد حوالي سنة 1839م / 1255 هـ⁴ , وهاجر أبوه إلى فاس في حدود سنة 1844 م / 1260 هـ⁵ , درس محمد المشرفي على أبرز شيوخ عصره و أشهرهم فكرا و فقها و تدينا و تدريسا في مقدمتهم ابن عمه العربي المشرفي⁶ .

له عدة مؤلفات بلغ عددها 11 عنوانا و هي⁷ :

الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية .

الدر المكنون في التعريف بشيخنا سيد محمد جنون .

العمدة في ذكر من اشتهر نسبه الشريف بعمالة وجدة .

رحلة إلى مشرع الرمل .

إظهار العقوق في الدر على من منع التوسل إلى الله تعالى بالنبي و الولي الصدوق.

إيقاظ أهل الغفلة و المنام و النيابة عمن استيقظ ولم يقدر على الكلام.

قصيدة في هجو القاضي محمد بن الرشيد العراقي .

ديوان شعر .

منهاج البشري و سعادة الدنيا و الأخرى و التحذير و الأغراء .

تأليف في الرد على ابن مهنا .

السهام الصائبة لنحر الهفاف السائبة في رد دعاويه الكاذبة و كشف سفسطاته الفارغة و سماه أيضا رمي

الجمار في الرد على الحمار و سماه أيضا الإشراف على جهل الحمار الهفاف .

قد اطلعت على نسخ منه فما رأيته يتورع عن وصف من كان يتناقش معه بأقبح الأوصاف من ذلك قوله

: " ثم انه لما ظفرنا بنسخة مما سطره الحمار الهفاف¹ علمنا أنه محتاج للإيكاف إذ ما جاء به من

¹ الموافق ل : 10 / 06 / 1861 م .

² العربي المشرفي : ياقوتة النسب، اللوحة 21

³ العربي المشرفي : ذخيرة، ص 74 .

⁴ محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي : الحلل البهية، ج 01، ص 65 .

⁵ محمد المشرفي ك الحلل البهية، ج 01، ص 66

⁶ عبد الحي الكتاني : فهرس الفهارس، ج 01، ص 147 .

⁷ محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي : المصدر نفسه، ص ص 71_ 76 .

اللعن و الكذب و الكفر و اللعب يشعر بأنه حمار في صورة بشر من نوع الأشرار² . ومن يطلع على هذا الرد يتأكد له صحة قول صاحب معجم الشيوخ من أنه كان هجاء³، نشير أن السيد احمد المجاهد بن محمد بن عبد القادر بن علي بوطالب⁴ صاحب الإنصاف في نصره نجل الحفاف ورد اعتراضات السفساف هو الآخر أغلظ القول لمحمد المشرفي بوصفه بالسفساف⁵ وقوله مثلا: " على أنه من سكان غليزان التي معناه كدية الذبان وبينه وبين الجزائريين ما بين الضب و النون و لم اجعل نفسي حكما لأن السفساف لا يصلح أن يكون لنجل الحفاف خصما وإنما نزيف اعتراضاته مقابلة بالمثل لأنها تنبئ عن ضعيفة و استهزاء وهزل و مجش في الكلام و تقشي و انتقام⁶ "، بالتالي كان رد المشرفي في السهام الصائبة على هذا الحال. و يظهر من خلال هذه الرسالة أن الذي كان يزور الجزائر من أجل التجارة هو محمد المشرفي وليس كما قال المهدي البوعبدلي من أن العربي المشرفي كان تاجرا يزور الجزائر⁷ وما يؤكد هذا الأمر قول محمد المشرفي :

وفي غليزان لنا متجر و أصله غيل ازان بلده⁸ .

و قول العربي المشرفي : " ورماء الفقر بالحجارة ففر إلى التجارة⁹ "، كما زار مدن عدة كوهران و تلمسان و الجزائر المدينة¹ . عين محمد المشرفي قاضيا لقبيلة الشراكة بالمغرب الأقصى مدة طويلة²، كما مارس

¹ جاء في لسان العرب ج 09 ص 348 ما يلي : " هَفَّافٌ وَالْيَهْفُوفُ الْجَبَانُ ابْنُ سَيْدِهِ الْيَهْفُوفُ الْحَدِيدُ الْقَلْبُ وَزَادَ غَيْرُهُ مِنَ الرِّجَالِ وَهُوَ أَيْضًا الْأَحْمَقُ "

² السهام الصائبة للوحة 05 تقع هذه المخطوطة في اكثر من 359 لوحة إلا أن النسخة التي عندي مبتورة من 128 الى 145 ومن 146 الى 161 ومن 176 الى 353 ومن 354 الى 359 .

³ عبد الحفيظ الفاسي : المصدر نفسه، ص 146 .

⁴ احمد بن محمد بن عبد القادر الغريسي ولد بوادي الحمام قرب معسكر سنة 1252 هـ و توفي سنة 1307 هـ _ 1889 م تتلمذ على عدة شيوخ منهم الأمير عبد القادر الجزائري بالشام تولى منصب قاضي بسطيف و بقي بالقضاء لأكثر من 30 سنة من مؤلفاته : الإنصاف في رد اعتراضات السفساف و نصر ابن الحفاف و الحسام في تكسير السهام و كنز الرغائب في منتخبات الجوانب انظر ترجمته عند :لحفاوي : نفس المرجع، ج 02، ص 94 عادل نويهض : معجم أعلام الجزائر، ص 21محمد بسكر : أعلام الفكر الجزائري من خلال اثارهم المخطوطة و المطبوعة، طبعة خاصة، ج 01، دار كردادة للنشر و التوزيع، الجزائر 2013، ص 110

⁵ جاء في لسان العرب ج 09 ص 152 ما يلي : " سَفْسَافٌ الشَّعْرُ رَدِيئُهُ وَشِعْرٌ سَفْسَافٌ رَدِيءٌ وَسَفْسَافٌ الْأَخْلَاقُ رَدِيئُهَا . "

⁶ السيد احمد المجاهد بن محمد بن عبد القادر بن علي بوطالب : الانصاف في نصره نجل الحفاف ورد اعتراضات السفساف، مخطوطة مصورة بمكتبة الشيخ بلقدر، اللوحة 02

⁷ رسائل في التراث و الثقافة : مراسلات الشيخ المهدي البوعبدلي، دراسة وتعليق ابو القاسم سعد الله، عالم المعرفة الجزائر 2011، ص 103 ،

⁸ محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي : الحل البهية، ج 01، ص 80 .

⁹ العربي المشرفي : ذخيرة اواخر، ص 74 .

مهنة الإفتاء و جمعت فتواه في كتاب : " مجموعة الفتاوي و الأجوبة الفقيهية³ "، توفي سنة 1334 هـ / 1916م⁴ .

من هذا البيت أولاد المنصور ومنهم العالم الفقيه السيد ابن فريحة بن رصاع بن المنصور⁵ .
علماء بيت أولاد سيدي بوجلال :

ورد ذكره في عقد الجمان ما نصه : " سيدي احمد أبي الجلال المشرفي من ذرية سيدي يوسف بن عيسى الشريف الحسني على ما وقفت عليه من وثائق للعلماء⁶ " . من أشهر علماء هذا البيت هو أبو محمد العربي بن علي بن عبد القادر المشرفي، و رايت أن اثبت هذا الإسم له للقرائن عدة .

القرينة الأولى: ما ذكره هو بنفسه، ورد انه العربي بن علي في كل من ذخيرة الأواخر⁷ و في المخطوط قيد الدراسة⁸ و في كتابه فتح المنان⁹، وفي كناشته رقم ك 471¹⁰ وكذلك ورد هكذا اسمه في رسالة وجهها لأحد أصحابه¹¹ . بل صرح الزركلي أن ضبط اسمه بالعربي بن علي كثير الورد في المخطوطات التي وقف عليها¹².

القرينة الثانية: ما ذكره المعاصرون له مثل تلميذه و ابن عمه محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي إذ سماه أبو محمد العربي بن علي المشرفي¹³، وكذلك سماه هكذا كل من السيد محمد الفاطمي بن الحسين الحسني الصقلي و الحاج إدريس بن علي القرباوي المالكي السناني في تقريريهما لكتابه

¹ محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي : الحل البهية، ج 01، ص 81 .

² ابن سودة : اتحاف المطالع، ص 414 .

³ محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي : نفس المصدر، ص 82 .

⁴ انظر : محمد بن محمد بن مصطفى : نفس المصدر، ص 85 . ابن سودة : اتحاف المطالع، ص 414 .

⁵ البيدري : نفس المصدر، اللوحة 02

⁶ التوجيني : عقد الجمان، مخطوط مصور بمكتبتي اللوحة 05

⁷ ابو محمد العربي المشرفي : ذخيرة الاواخر ص 02 من المقدمة .

⁸ ابو محمد العربي المشرفي : الرد على ابي راس الناصر، مخطوط بمكتبة الشيخ بلقرن معسكر، اللوحة 01 .

⁹ العربي المشرفي : فتح المنان في شرح قصيدة ابن الونان، مخطوط مصور بمكتبتي، اللوحة رقم 01

¹⁰ انظر كل من : الزاوي الجيلالي و المشرفي عبد الكريم : " نافذة على بعض علماء معسكر رثاء الشيخ الرماصي لشيوخه

عمرو التراري المشرفي، المجلة الجزائرية للمخطوطات، العدد الثاني و الثالث 2004-2005، ص 97 . الزركلي :

الأعلام، ط 05، ج 04، دار العلم للملايين لبنان 1980، ص 224

¹¹ عبد الحق شرف : " رسالة أخوية من العربي المشرفي الى السيد عبد القادر بن حليلة " ، المجلة الجزائرية للمخطوطات،

مخبر مخطوطات الحضارة الاسلامية جامعة وهران العدد الخامس 2008، ص 174 .

¹² الزركلي : نفس المرجع، ج 04، ص 224

¹³ محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي : الحل البهية، ص 138 .

الذخيرة¹، و كذلك ذكر أحد أقرانه وهو أبو عبد الله الأعرج السليمانى من أن اسمه أبو محمد بن علي كما رجحته².

القرينة الثالثة: ما ذهب إليه بعض الباحثين و المحققين كالحفناوي³ و أبو القاسم سعد الله⁴ و يحي بوعزيز⁵ و عبد المنعم القاسمي الحسني⁶ و بلبروات بن عتو⁷ و الزاوي الجيلالي المشرفي و عبد الكريم المشرفي⁸ و محمد بوركبة⁹ إلى أن اسمه هو العربي بن علي . هذا من جانب الباحثين الجزائريين وقد مال غيرهم إلى نفس هذا الرأي مثل محمد رضا حكالة في معجمه¹⁰

و ما قرره بعض الباحثين و المحققين المغاربة مثل السملالي¹¹ و ادريس بوهليلة¹²، كذلك مال إلى هذا الرأي الباحث هنري بيرس¹³.
و إنما رأيت أن أرجح أن اسمه أبو محمد العربي المشرفي لعدة اعتبارات:

-
- 1 ابو محمد العربي المشرفي : ذخيرة الأواخر، ص 01 .
 - 2 أبو عبد الله الأعرج السليمانى : كتاب الشماريخ القسم 2 و جزء من القسم 3، تحقيق حساني مختار، المكتبة الوطنية الجزائرية، ص 348 .
 - 3 الحفناوي أبو القاسم محمد : تعريف الخلف برجال السلف، ج 02، ص 547 .
 - 4 ابو القاسم سعد الله : أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر، طبعة خاصة، ج 02، عالم المعرفة 2011 ، ص 175 . إلا أنه يتراجع و يسميه محمد العربي بن عبد القادر بن علي انظر : سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي، طبعة خاصة، ج 07، عالم المعرفة الجزائر 2011، ص 407 .
 - 5 يحي بوعزيز : أعلام الفكر و الثقافة في الجزائر المحروسة، طبعة خاصة، ج 02، دار البصائر الجزائر 2009، ص 232 .
 - 6 عبد المنعم القاسمي الحسني : أعلام التصوف في الجزائر، ط 01، دار الخليل القاسمي 2005، ص 227 .
 - 7 بلبروات بن عتو : " إسهام العائلة المشرفية في الكتابة التاريخية " مجلة عصور الجديدة، العدد 3 و 4 2011_2012، ص 162 .
 - 8 الزاوي الجيلالي و المشرفي عبد الكريم : المرجع نفسه، ص 97.
 - 9 أبو راس الناصر : عجائب الأسفار و لطائف الأخبار ، دراسة و تحقيق محمد بوركبة، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه كلية العلوم الانسانية و الحضارة الاسلامية وهران 2007_2008، ج 01 ، ص 17 .
 - 10 محمد رضا حكالة : معجم المؤلفين، ط 01، مؤسسة الرسالة 1993، ص 373
 - 11 السملالي العباس بن إبراهيم : الإعلام بمن حل بمراكش و أغمات من الإعلام، راجعه عبد الوهاب بن منصور، ط 02، ج 09، المطبعة الملكية الرباط 1993، ص 27 .
 - 12 محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي : الحلل البهية، ج 01، ص 77 .
 - 13 I Algérie vue par deux voyageur musulmans en 1877-1878 , R A : V 76 , PERES Henri 1935 ,page 261

المشرفي في مخطوطه هذا الذي أنا بصدد دراسته يناقش أبا راس في قضية نسب عائلته -المشاركة- فكيف له أن يناقش في اسم و شرف جده العاشر مثلا وهو مختلف في اسمه. أنه من بين أغزر علماء الجزائر إنتاجا فكريا فلا يعقل أن يجهل أو يختلف في اسمه . هذا ما وجدته في اغلب كتبه التي تمكنت من الاطلاع عليها و هذا ما ذهب إليه معاصروه خاصة أقاربه و أهل مكة ادري بشعابها.

بعد محاولة ضبط اسمه انتقل إلى نقطة ثانية وهي الحديث عن تاريخ ميلاده . يقول أبو القاسم سعد الله في هذا الصدد : "ولا نعرف متى ولد العربي المشرفي"¹، لكن هناك بعض الإشارات التي تساعدنا على معرفة تاريخ ميلاده على سبيل التقريب منها قول صاحب إتحاف المطالع أنه توفي سنة 1313 هـ / 1895 م عن عمر 90 سنة² و بالتالي يكون ميلاده ما بين 1804 و 1805 . إلا أن هناك من يجعل تاريخ وفاته سنة 1893 م³ فيكون بذلك ميلاده ما بين 1802 -1803 ,

في حين أن صاحب الإعلام قال: "ولد في أواسط العشرة الرابعة من القرن الفارط"⁴ . في غياب المزيد من القرائن لا يسعنا إلا أن أذهب إلى ما ذهب إليه غالبية من ترجم للمشرفي المتفقين على أنه مات سنة 1895 و بالتالي يكون تاريخ ميلاده ما بين 1804 و 1805 . أما عن مكان ميلاده فهو الآخر نجد فيه اختلافا بين قائل من أنه ولد بتلمسان⁵ و بين قائل أنه ولد بغريس⁶ وقائل أنه ولد بالكرط⁷.

و الراجح أنه ولد بالكرط وهذه لعدة اعتبارات وهي :

¹ أبو القاسم سعد الله : ابحاث و آراء في تاريخ الجزائر، ج 02، ص 175 .
² ابن سودة : اتحاف المطالع، ص 330 .
³ انظر كل من : محمد حجي : نفس المرجع، ص 2805 موسوعة اعلام الجزائر 1830-1954، ص 335 . يحي بوعزيز : اعلام الفكر و الثقافة، ص 233 .
⁴ السملالي : نفس المصدر، ص 28 .
⁵ ابن سودة : اتحاف المطالع، ص 330 .
⁶ انظر كل من : أبو القاسم سعد الله : أبحاث و آراء، ج 2، ص 175 . يحي بوعزيز : أعلام الفكر، ص 232 . Henri Pérès : op.cit , p 261 و غريس منطقة سهلية جنوب مدينة معسكر بغرب الجزائر
⁷ انظر كل من : عبد الحق شرف : العربي بن عبد القادر بن علي المشرفي حياته و اثاره، ص 58. عبد المنعم القاسمي الحسني : المرجع نفسه، ص 227 . عادل نويهض : معجم اعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحديث، ط 03، مؤسسة نويهض الثقافية 1983، ص 303 .
و الكرط قرية صغيرة تقع في غرب مدينة معسكر بالغرب الجزائري والظاهر أن هذه المنطقة كانت مشمولة في مسمى غريس، والله أعلم

كون الكرط مسقط رأس كل المشارف، به زاويتهم التي اختطها جدهم سيدي يوسف بن عيسى¹.
 قرية الكرط جزء من سهل غريس ولعل من قال سهل غريس قصد به الكرط².
 المشهور عندنا في معسكر و المتواتر من الأخبار أن قرية الكرط هي منبع أسرة المشارفة .
 جرت العادة في الجزائر منذ العهد العثماني -بل قبله- إلى يومنا هذا أن الطفل إذا بلغ سنا أصبح فيه
 قادرا على الحفظ و الاستيعاب و التمييز يتم إلحاقه بكتّاب عادة يكون قريبا من منزله³، و في هذا الصدد
 يقول المشرفي: " قرأت القرآن قبل أن أبلغ الجنب "4، كما لا يبعد أنه تلقى تعليمه الابتدائي على يد والده
 وإن لم يعده ضمن قائمة شيوخه بل اقتصر على وصفه فقال: "والدنا كان في علم الفقه إليه المرجع و
 المفزع"⁵، كذلك أخذ عن السيد عبد الله بن ديدة حيث درس عليه أحكام القرآن و الرسم و الضبط. كما
 تتلمذ على كل من السيد محمد بن عبد الرحمن و العربي بوروية و محمد بن عدلة⁶.
 وبعد أن أتم المشرفي تعليمه الابتدائي بمسقط رأسه تاقت نفسه للمزيد في العلم فرحل إلى أهم
 الحواضر العلمية آنذاك و هي: معسكر، مستغانم، تلمسان و وهران .
 تتلمذ الشيخ المشرفي على كثير من شيوخ مدينة معسكر منهم :
 ابن عبد الله السقاط إذ أخذ عنه النحو و الفقه و علم العروض و التفسير⁷.
 مصطفى بن الطاهر .
 الحاج عبد القادر الأحمر .
 محمد بن محمد بن مصطفى الأحمر⁸ .

بن عبو مصطفى . وهؤلاء كلهم من أسرة المشارفة، كما تتلمذ بمعسكر على بعض علماء أسرة سيد
 دحو بن زرفة. من شيوخه من هذه الأسرة-أي أسرة سيدي دحو - السنوسي بن الحاج عبد القادر⁹

¹ العربي بن محمد بن عبد الله المعسكري : الحقيقة و المجاز في الرحلة الى الحجاز، تحقيق مخلوفي الميلود المحفوظي،
 ط 01، منشورات وزارة الشؤون الدينية و الأوقاف، 2011، ص 66

² عبد الحق شرف : العربي بن عبد القادر بن علي المشرفي حياته و آثاره، ص 58

³ ابو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي، طبعة خاصة، ج 01، عالم المعرفة الجزائر 2011، ص 332 .

⁴ عبد الحق شرف : العربي بن عبد القادر بن علي المشرفي، ص 62

⁵ العربي المشرفي : ياقوتة النسب الوهاجة، اللوحة 21

⁶ عبد الحق شرف : العربي بن عبد القادر بن علي المشرفي حياته و آثاره، ص 63 . إلا أنه لم أقف على تراجمهم

⁷ العربي المشرفي : ياقوتة النسب، اللوحة 20

⁸ هو تلميذه كما سأشير إلى ذلك لاحقا وعده في جملة شيوخه و هو في هذا يشبه أبا راس حين قال: " ومنهم شيخنا في علم
 المعقول و تلميذنا في الفقه المنقول الشيخ عبد القادر بن السنوسي". انظر :أبو راس الناصر : فتح الإله و منته، ص
 65 .

⁹ هو السنوسي بن عبد القادر بن سنوسي بن عبد الله بن دحو وصفه أبو راس فقال عنه : " الأجد الأندج و ما أشبه
 الشبل بالأسد فرع أنسه و جنى غرسه و بضعة نفسه و فخر يومه و أمسه من أفاض الرحمن عليه مواهبه بمنه على صغر

وصفه المشرفي فقال: "العلامة التحرير البالغ الغاية في التحقيق و التحرير إمام الشعراء وصدر المصادر للوارد و الصادر"¹. كما تتلمذ المشرفي على بعض علماء أسرة أولاد سيد أحمد بن علي وإن لم يسمهم هؤلاء هم شيوخ الشيخ العربي المشرفي بمعسكر قال عنهم: "هؤلاء العلماء الذين ذكرناهم هم شيوخنا نلنا منهم فصاحة العبارة و بركاتهم لا زالت تجري علينا"².

الظاهر أن المشرفي لما انتهى من تحصيل العلم بمدينة معسكر رحل إلى مدينة مستغانم وأخذ عن بعض شيوخها وهم حسب ما ذكرهم³: محمد بن صابر: و قد وصفه المشرفي فقال:"العلامة الداھية من تفتح له عن تدريس العلوم الشاهية

و صاغ في التصوير و السبك الصوغ الغساني جابر السيد محمد بن صابر"⁴. محمد بن عامر البرجي و قد وصفه المشرفي فقال:"العلامة الزاهد الورع العابد نديم الدفاتر لا يرى إلا ساهرا وسامرا"⁵.

محمد بن عاشر قال عنه المشرفي:" دوحة الناشر الجامع لنظائر العلوم و بقلمه كاتب و حاشر"⁶.

عبد القادر بن قندوز⁷ وصفه المشرفي فقال: " ذو الذهن الثاقب و شريف الأفعال و المناقب المتورع

سنه لفنون العلوم و الآداب جامعا مذ كان مراهقا يافعا من أعطي نجابة العبدوسي و نزاهة الحسن اليوسي تلميذنا العلامة السيد السنوسي " له قصيدة كتبها للشيخ محي الدين بن مصطفى الراشدي لمواساته لما سجن بوهران انظر: أبو راس الناصر: فتح الإله، ص ص 68_69. الاغا بن عودة المازاري: طلوع سعد السعود في أخبار وهران و الجزائر و اسبانيا و فرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، دراسة و تحقيق يحي بوعزيز، ط 01، ج 01، دار البصائر الجزائر 2007، ص 362 .

¹ أبو محمد العربي المشرفي: ذخيرة الأواخر، ص 74

² العربي المشرفي: ذخيرة الأواخر، ص 75 .

³ وردت أسمائهم في كتابه ذخيرة الأواخر ص 75-76 لكن لم أتمكن من الوقوف على تراجم بعضهم.

⁴ العربي المشرفي: ذخيرة الأواخر، ص 75 ,

⁵ المشرفي: المصدر السابق، ص 75

⁶ نفسه، ص 75

⁷ لعله ابن القندوز القداري التوجيني المستغانمي الذي قتله الباي حسن اثر أحداث فتنة درقاوة وصفه المشرفي فقال:" ذو الذهن الثاقب و شريف الأفعال و المناقب المتورع عن المباح و يستعمل لأهله ما يجوز الفقيه العلامة " كان له معهد به 400 طالب . و بعد مقتله رثاه بعض طلبته قائلا :

ارحم شيخي بالقندوز مريد الشيخ المعزوز

يا رب عذب حسن بركت بيت الله تعيان

بالنصر تبت يدا ازجر علينا الأعداء

ما يعرفوش الردا أصحاب الدنيا الفانية

ويسورة الإخلاص الفالاق مع الخناس

أمنعني من الوسواس فلا يقرب ليا انظر ترجمته عند: أبو عبد الله محمد بن موسى بن محمد الزقاي التلمساني: إتمام الوطر في التعريف بمن اشتهر في أوائل القرن الثالث عشر أو تاريخ علماء تلمسان خلال القرن الثالث عشر الهجري،

عن المباح و يستعمل لأهله ما يجوز الفقيه العلامة¹ .

خليل الفرندي مدحه المشرفي فقال: " نخبة الدين و الدنيا المعتكف على تدريس المختصر الجليل الفقيه النبيل لا في شتاء البرد ولا في حر الصيف إذا ركب منبر التدريس فحل حلفت عليه العيس².
أما بتلمسان فقد تتلمذ على كل من الشيخ الفقيه الحاج الداودي التلمساني³ و الشيخ محمد بن سعد التلمساني⁴ و السيد محمد الفخار⁵.

اعتناء و إخراج وتحقيق ماحي قندوز، دار كردادة للنشر و التوزيع الجزائر 2011، ص 74 اكمال فيلالي : " هجرة علماء غريس و تلمسان إلى فاس في نهاية القرن الخامس عشر و مطلع القرن السادس عشر، مجلة الهجرة و الرحلة، عدد خاص العدد الثالث افريل 2010، ص 26 .

¹ العربي المشرفي : ذخيرة الأواخر، ص 75

² المصدر السابق، ص ص 75- 76

³ أبو عبد الله السيد الحاج الداودي العربي ت 1270 هـ / 1853 م أصله من بيدر من ولد السيد أحمد بن الحاج ثم رحل إلى تلمسان طلبا للعلم بعد ذلك توجه لأداء فريضة الحج و في طريق العودة بقي مدة بمصر وأخذ عن علمائها كالدسوقي و هو أول من أدخل حاشية الدسوقي إلى المغرب تقلد مناصب منها مدرس بالجامع الأعظم بتلمسان ثم خطة القضاء بها ليعزل منها لاحقا هاجر إلى فاس بعد الإحتلال الفرنسي للجزائر حيث كان يدرس بجامع القرويين إلى ان مات سنة 1853 و ليس له عقب يذكر. من مؤلفاته : شرح همزية البوصيري، و شرح البردة، و حاشية على السعد، و شرح على البخاري. انظر ترجمته عند :أبو عبد الله محمد بن موسى بن محمد الزقاي التلمساني : نفس المصدر، ص ص 127-131 الحفناوي : نفس المصدر، ج 02، ص ص 115-116 .

⁴ محمد بن سعد ت 1264 هـ / 1847 م : من ذرية السيد الحاج احمد البيديري (حدود 930 هـ) وهو ابن الشيخ أبي محمد محمد بن الحاج البيديري ولد بتلمسان وأخذ العلم عن أبيه وعمه ثم رحل إلى مستغانم لطلب العلم ولم يرحل إلى غيرها فاخذ عن الشيخ بلقندوز المستغانمي لم يبق بها طويلا وعاد إلى تلمسان حيث أخذ يدرس بجامعها الأعظم، ولي خطة القضاء بها لكن يظهر أنه لم يكن محمود السيرة حيث اتهم بالأخذ من مال الوقف ففر إلى فاس و بقي بها إلى أن قامت دولة الأمير عبد القادر فعاد إلى وطنه و ولي القضاء بها طيلة حكم الأمير فيها من 1837 إلى 1842 وبعد الإحتلال الفرنسي لتلمسان رحل إلى تازة واستوطن بها ثم إلى فاس إلى أن مات بها ودفن قرب ضريح سيدي علي بن حزم. خلف خمسة أولاد انظر ترجمته عند :أبو عبد الله محمد بن موسى بن محمد الزقاي التلمساني : نفس المصدر، ص

ص 114-120 أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي، ج 04، عالم المعرفة الجزائر 2011، ص ص 502-504

⁵أبو عبد الله محمد بن ابي مدين الفخار ت 1250 : ولد بتلمسان اخر القرن الثاني عشر هجري اخذ في بادئ الامر عن شيوخ تلمسان ثم رحل الى فاس واخذ عن شوخها من امثال حمدون بن الحاج و السيد ادريس البقراوي و السيد محمد الزروالي و السيد طيب بن كيران ثم رجع الى تلمسان حيث تولى التدريس و الخطابة بجامعها الأعظم مات وعمره نيف و ستين سنة و الفخار نسبة الى حرفة اسلافه صنع و بيع الفخار انظر ترجمته عند : أبو عبد الله محمد بن موسى بن محمد الزقاي التلمساني : نفس المصدر، ص 103-108 .

أما بوهران فقد تتلمذ على يد الشيخ أحمد بن التهامي الذي وصفه فقال: "شيخ شيوخنا السيد أحمد بن التهامي بجامع وهران " حيث كان يحظر مجالسه في رسالة الوضع¹، و ابنه الشيخ مصطفى بن احمد التهامي².

أشار بعض الباحثين إلى أنه تتلمذ على يد الشيخ أبي راس الناصر³ دون أن يذكروا دليلهم في ذلك، رغم أن المشرفي لم يذكره ضمن قائمة شيوخه و الظاهر أن أبا راس شيخ شيوخ المشرفي إذ الكثير من شيوخ العربي المشرفي تلامذة الشيخ أبي راس الناصر .

يعتبر أبو محمد العربي بن علي المشرفي من أغزر علماء الجزائر إنتاجا فكريا حيث أحصى له أبو القاسم سعد الله 28 عنوانا رتبها ترتيبا أبجديا، ثم جاء الباحث عبد الحق شرف و أحصى له 32 عنوانا رتبها حسب مضامينها، ذكر العربي المشرفي في كتابه ذخيرة الأواخر 11 عنوانا . يظهر لي أن طريقة ترتيب مؤلفات المشرفي التي وضعها عبد الحق شرف أفضل طريقة كونها تسهل على القارئ و الباحث معرفة مضمون و محتوى و موضوع مختلف مؤلفات المشرفي، إلا أنني سأعتمد تقسيما آخر وهو ذكر عنوان المؤلفات الواردة في ذخيرة الأواخر ثم ذكر ما لم يذكر فيه مقتصرًا على ذكر عنوان الكتاب فقط، واخترت هذا التقسيم لأنه سوف يخدمني في المباحث اللاحقة من أجل تحديد مواقف الرجل من بعض القضايا .

أ _ المؤلفات الواردة في الذخيرة :

طرس الأخبار بما جرى آخر الأربعين من القرن الثالث عشر للمسلمين مع الكفار وفي عتو الحاج عبد القادر و أهل دائرته الفجار .الحسام المشرفي لقطع لسان الساب الجعري الناطق بخرافات الجعسوس سيئ الظن اكنسوس .إثم الجفون في من بعهد الله يوفون .

نزهة الأبصار لذوي المعرفة و الاستبصار تنفي عن المتكاسل الوسن في مناقب سيدي احمد بن محمد و ولده الحسن أو الرحلة السوسية .مشموم عرار النجد و الغيطان المعد لاستنشاق الوالي وأنفاس المولى السلطان0الحسام المشرفي للمهاجر المقنفي.الآيات الحوادث⁴.شرح القصيدة الشمقمقية أو فتح المنان في شرح قصيدة ابن الونان⁵ .تقايد على شمائل المصطفى .

¹ العربي المشرفي: ياقوتة النسب، اللوحة 25 .

² تنتظر ترجمته : براهيم لونيبي : " مصطفى بن تهامي 1788_1866 العالم و رجل الدولة " مجلة عصور السنة 02 عدد 3 جوان 2003، ص ص 95_103 .

³انظر كل من : أبو راس الناصر : عجائب الأسفار، ص 17 حمدادو بن عمر : أبو راس الناصري المعسكري و كتاباته التاريخية 1155-1238 / 1737-1823، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ و الحضارة و الإسلامية قسم الحضارة الإسلامية وهران 2002/2003، ص 82

⁴ مخطوط موجود بالمكتبة الوطنية بالجزائر بعنوان تاريخ المغرب الأقصى في القرن الثالث عشر تحت رقم 3013

⁵ ابن سودة : دليل مؤرخ المغرب الاقصى، ص 299 .

تقايد على شرح المكودي للخلاصة.ذخيرة الأواخر و الأول فيما ينتظم من أخبار الدول أو الرحلة للواسطة¹ .

ب _ المؤلفات التي لم تذكر في كتاب الذخيرة :

1. اقوال المطاعين في الطعن و الطواعين² .تاريخ الدولة العلوية³ .
2. رحلة إلى شمال المغرب⁴ أو تمهيد الجبال وما وراءها من المعمور و إصلاح حال السواحل و الثغور .الرحلة العريضة في أداء حج الفريضة⁵ .
3. الرسالة في أهل البصور الحثالة⁶ .
4. عجيب الذهاب و الجائي في فضيحة الغالي اللجائي⁷ .
5. الفتح و التيسير في شرح قصيدة حوت من هم على قدم البشير النذير أو الفتح و التيسير في شرح منظومة غوثية البدر المنير السيد محمد العربي الوزير⁸ .
6. كنانة⁹ 204 .
7. كنانة¹⁰ 471 .
8. ديوان النظم في من أيقظ للدين جفن الوسن مولانا الحسن¹¹
9. ورقات في رواج السكة بالزيادة¹² .
10. ياقوتة النسب الوهاجة و في ضمنها التعريف بسيدي محمد بن علي مولى مجاجة¹³ أو الياقوتة الثمينة¹⁴ .

¹ السملالي : المصدر نفسه، ص 27 .

² ابو القاسم سعد الله : ابحاث و اراء، ج 2، ص 179 / عبد الحق شرف : العربي المشرفي، ص 160

³ ابو القاسم سعد الله : نفس المرجع، ص 179 / عبد الحق شرف : نفس المرجع ، ص 129

⁴ ابو القاسم سعد الله : المرجع نفسه، ص 185 / عبد الحق شرف : المرجع نفسه، ص 136

⁵ ابو القاسم سعد الله : المرجع نفسه، ص 185 / عبد الحق شرف : المرجع نفسه، ص 132

⁶ ابو القاسم سعد الله : المرجع نفسه، ص 186 / عبد الحق شرف : المرجع نفسه، ص 123

⁷ ابو القاسم سعد الله : المرجع نفسه، ص 187 / عبد الحق شرف : المرجع نفسه، ص 150

⁸ ابو القاسم سعد الله : المرجع نفسه، ص 188 / عبد الحق شرف : المرجع نفسه، ص 153

⁹ ابو القاسم سعد الله : المرجع نفسه، ص 189 / عبد الحق شرف : المرجع نفسه، ص 154

¹⁰ ابو القاسم سعد الله : المرجع نفسه، ص 189 / عبد الحق شرف : المرجع نفسه، ص 156

¹¹ ابو القاسم سعد الله : المرجع نفسه، ص 183 / عبد الحق شرف : المرجع نفسه، ص 157

¹² ابو القاسم سعد الله : المرجع نفسه، ص 190 / عبد الحق شرف : المرجع نفسه، ص 161

¹³ ابو القاسم سعد الله : المرجع نفسه، ص 190 / عبد الحق شرف : المرجع نفسه، ص 129

¹⁴ بشير ضيف : فهرست معلمة التراث الجزائري بين القديم و الحديث، ج 03، منشورات تالة الجزائر 2002، ص 53

11. الدرّة الوهاجة في نسب صنهاجة¹ .
12. تقييد في ذم أهل فاس² .
13. الدر المكنون في الرد على العلامة جنون³ .
14. رحلة القبائل الجبيلية⁴ .
15. تاريخ علماء فاس⁵ .
16. رحلة الى نواحي فاس⁶ .
17. الرد على أبي راس الناصر .
18. جواب على سؤال السند ابي الحسن على بن طاهر المدني لعلماء فاس⁷ .
19. درأ الشقاوة عن السادات درقاوة⁸ .
20. النجم الثاقب⁹ .
21. نزهة الماشي في قبائح العياشي المستغامي¹⁰ .
22. المشرفي الحمزاوي لقطع فؤاد الخبزاي¹¹ .
23. تأليف في الأتاي¹² .

وقع اختلاف حول كتاب الرحلة الجزائرية هل هي جزء من كتاب ذخيرة الأواخر أم هي كتاب مستقل كتبه المشرفي بطلب من احد المستشرقين¹³ .

هذا ما أمكنني التوصل إليه من مؤلفات أبي محمد العربي المشرفي من خلال ما تمكنت من الاطلاع عليه من مصادر و مراجع، و يتضح مما سبق أنه كان من المكثرين في الكتابة حتى قال عنه صاحب

¹ الزركلي : الاعلام، ج 04، ص 224

² ابو القاسم سعد الله : المرجع نفسه، ص 180 / عبد الحق شرف : المرجع نفسه، ص 150

³ ابو القاسم سعد الله : المرجع نفسه، ص 182 / عبد الحق شرف : المرجع نفسه، ص 149

⁴ ابو القاسم سعد الله : المرجع نفسه، ص 186

⁵ السملالي : المصدر نفسه، ص 27 / عبد الحق شرف : المرجع نفسه، ص 131

⁶ ابو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي، ج 07، ص 466 / عبد الحق شرف : المرجع نفسه، ص 136

⁷ السملالي : المصدر نفسه، ص 27 / عبد الحق شرف : المرجع نفسه، ص 144

⁸ السملالي : نفس المرجع، ص 27 / عبد الحق شرف : نفس المرجع ، ص 149

⁹ عبد الحق شرف : المرجع نفسه، ص 150

¹⁰ المرجع السابق، ص 150

¹¹ ابن سودة : دليل مؤرخ، ص 316/ عبد الحق شرف : نفس المرجع ، ص 149،

¹² السملالي : المصدر نفسه، ص 27

¹³ ابو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي، ج 07، ص 466

الإعلام : " كان يكتب الكراس بين العشاءين"¹. ومن هذا البيت أولاد السيد عب ومنهم العالم الولي الصالح السيد محمد بن السيد عب أخ السيد احمد أبي الجلال².

بيت أولاد سيدي البشير و أولاد سيدي السنوسي³ .

علماء أولاد سيدي عبد القادر بن محمد :

من علماء هذا البيت الحاج بن عب بن مصطفى وهو أبو عبد الله محمد بن عب بن مصطفى بن أبي محمد عبد القادر بن عبد الله المشرفي فقيه المشرفين بمعسكر⁴ شيخ الأمير عبد القادر⁵، كان يملي على طلبته من حفظه⁶، تولى القضاء في دولة الأمير عبد القادر⁷ بالضبط القضاء العسكري⁸ وقد كان محبوبا جدا من طرف الأمير⁹. كذلك من مشاهير هذا البيت الحاج مصطفى بن عب تولى خطة الإنشاء في دولة الأمير، و السيد عبد القادر بن عب تولى خطة الشهادة في مجلس الأحكام الشرعية¹⁰ .

ومن فروع هذا البيت أولاد عبد القادر بن محمد أولاد البقرة منهم الفقيه العلامة السيد محمد الأكل تولى خطة القضاء في دولة الأمير و السيد مصطفى بن عب بن البقرة الفقيه النحوي¹¹.

و تخرج من قرية الكرط كذلك السيد العربي بن قاله بالقاف المعقودة هو أحد من تولى القضاء معسكر و كذلك الإمامة بأحد جوامعها¹².

خاتمة : من خلال الاطلاع على تراث هذه الأسرة كنموذج يمكن أن نلخص أهمية المخطوطات في النقاط التالية :

معرفة سير بعض الأحداث التي أما كان أصحاب المخطوطات شهود عيان فيها أو كانوا رواة لها ذكر تراجم بعض الأعلام من علماء الجزائر عموما و معسكر خصوصا و المشاركة بشكل خاص معرفة العادات و التقاليد السائدة في تلك الفترة ومدى التطور الحاصل في الميدان الاجتماعي¹ .

¹ السملالي : المصدر نفسه، ص 27 .

² البيدي : نفس المصدر اللوحة 02

³ ذكر العربي المشرفي هاتين الأسرتين دون ان يذكر أعلامها و مشاهيرها انظر :العربي المشرفي : ياقوتة النسب، اللوحة 21 .

⁴ عبد الحي الكتاني : فهرس الفهارس، ص 577 .

⁵ العربي المشرفي : ياقوتة النسب، اللوحة 22 .

⁶ العربي المشرفي : ذخيرة الأواخر، ص 74 .

⁷ العربي المشرفي : ياقوتة النسب، اللوحة 22 .

⁸ اديب حرب : التاريخ العسكري و الإداري للأمير عبد القادر، ج 02، دار الرائد للكتاب الجزائر 2004، ص 46

⁹ YEVER G : p 612 , OP .CIT

¹⁰ العربي المشرفي : ياقوتة النسب، اللوحة 22 .

¹¹ العربي المشرفي، المصدر السابق، اللوحة 22 .

¹² العربي بن عبد الله المعسكري : نفس المصدر، ص 68

من خلال مؤلفاتهم تظهر شخصيتهم الموسوعية اذ كتبوا في كل الفنون و أظهروا قوة خاصة في باب الردود على بعض علماء عصرهم وهذا حال جل علماء الجزائر ذوي الثقافة الموسوعية .
من خلال هذه المحاولة حاولت إبراز أهمية المخطوطات في تطوير و بلورة الوعي بالتاريخ المحلي بشكل خاص و الجزائري عامة، و أن هذه المخطوطات تمثل مستودعا معرفيا من خلاله يمكن تحديد معالم الهوية الوطنية اذ لا يمكن فهم الحاضر و وضع تصور للمستقبل من دون استوعاب الماضي .

¹ العربي المشرفي : ذخيرة الأواخر، ص 7

سياسة التعليم الفرنسية بالجزائر وموقف الجزائريين منها إبان الثورة التحريرية (1954-1962)

د. عبد القادر بوحسون¹

لقد طبق الاحتلال الفرنسي طيلة تواجده بالجزائر سياسة استعمارية فريدة من نوعها، حيث شملت مختلف المجالات: السياسية، العسكرية، الاقتصادية، الاجتماعية والثقافية، وكان الهدف من ورائها هو إخضاع الجزائريين وضمان ولائهم لفرنسا من أجل تحقيق حلم "الجزائر فرنسية". فبالإضافة إلى السيطرة العسكرية والاستغلال الاقتصادي لمختلف الموارد الطبيعية والبشرية عمل الاستعمار جاهدا على جعل الجزائر قطعة لا تتجزأ من التراب الفرنسي أرضا ولغة وثقافة ودينا، ومن أجل تحقيق ذلك انتهج المستعمر سياسة تعليمية مدروسة وممنهجة. فما هو مفهوم السياسة التعليمية الفرنسية؟ وما هي أهدافها ووسائلها؟ وكيف تعامل معها قادة الثورة التحريرية؟

في الحقيقة إن السياسة التعليمية هي جزء من السياسة الاستعمارية التي طبقتها فرنسا في الجزائر، ولما كان التعليم قضية مصيرية في حياة الأمم حاضرها ومستقبلها، وأحد المعايير الرئيسية لقياس رقي المجتمعات وازدهارها⁽²⁾، فقد ركزت عليه الإدارة الاستعمارية أيما تركيز لجعله أداة فعالة للاستعمار ونشر الأمن والسلام للمستوطنين، وهو ما عبر عنه أحد المسؤولين الفرنسيين بقوله: "إن الأداة الأكثر نجاعة لتحقيق السلم الكامل تتمثل في نشر اللغة الفرنسية وتعميمها بين الأهالي"⁽³⁾، كما صرح الدوق دومال Duc daumal: "إن الفتح (الإستعمار) يجب أن يتم بوسيلتين: السيف والمدرسة معا"، وقال أيضا: "لنشر السلام فإن فتح مدرسة بين الأهالي له من الأهمية ما يضاهي نشر كتيبة عسكرية في منطقة ما"⁽⁴⁾.

وعلى هذا الأساس ركزت فرنسا كثيرا على التعليم لعلها تخلص إلى استعمار لا يمكن محو آثاره، وذلك بعد تحطيم بنية المجتمع الجزائري، والقضاء على الأسس المادية والروحية التي يقوم عليها، وتحييد القيم الحضارية التي يستند إليها بمحاصرة الشعور الديني ومحاربة اللغة العربية، وإثارة النعرات القبلية وتوطين المستوطنين⁽⁵⁾.

¹ أستاذ التاريخ بجامعة د مولاي الطاهر سعيدة

² محمد فاضل الجمالي، فلسفة التعليم عند الشيخ البشير الإبراهيمي، مجلة الثقافة، العدد 87، جويلية أوت 1985، ص 323.

³ أحمد مهساس، الحركة الوطنية الثورية في الجزائر من الحرب العالمية الأولى إلى الثورة المسلحة، ترجمة سعيد محمود، محمد عباس، منشورات الذكرى الأربعين للاستقلال، 2002، ص 399.

⁴ عمار هلال، أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصرة 1830-1962، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995، ص 121.

⁵ ناصر الدين سعيدوني، الجزائر منطلقات وآفاق، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000، ص 20.

وحتى تتمكن فرنسا من تحقيق ذلك اتبعت سياسة مخادعة ظاهرها تعليم الجزائريين وتمدينهم والقضاء على الجهل والأمية وباطنها تحطيم بنية المجتمع الجزائري وتمزيق أواصره، فشرعت في إنشاء المدارس الخاصة بالجزائريين، والتي توخى منها منظرو المدرسة الاستعمارية تحقيق ثلاثة أهداف رئيسية وهي: الفرنسية، التنصير والإدماج.

1.الفرنسية:

المقصود بالفرنسية استبدال اللغة العربية باللغة الفرنسية وجعلها لغة التخاطب حتى تنقطع جميع الروابط التي تربط الجزائر ماضيا وحاضرا ومستقبلا بثقافتها العربية وتاريخها الإسلامي، وتنشئ جيل جديد صاعد في ظل سياسة الفرنسية⁽¹⁾.

وقد جاء في إحدى التعليمات الصادرة إلى الحاكم العام بالجزائر غداة الاحتلال: "إن إيالة الجزائر لن تصبح حقيقة مملكة فرنسية إلا عندما تُصبح لغتنا هناك قومية، والعمل الذي يترتب علينا إنجازه هو السعي وراء نشر اللغة الفرنسية بين الأهالي إلى أن تقوم محل اللغة العربية"⁽²⁾.

ومحاولة لتحقيق تلك الأهداف بادرت الإدارة الإستعمارية بإنشاء المدارس العربية الفرنسية، والتي كان الهدف منها قولبة الشبان الجزائريين في قالب فرنسي ليكونوا نماذج لحضارة المستقبل حسب زعمها⁽³⁾.

2.التنصير:

من أهداف السياسة التعليمية الفرنسية كذلك تنشيط الحركة التنصيرية وتشويه المؤسسات الدينية الجزائرية، وكان هذا منذ الوهلة الأولى للاستعمار وتواصل حتى خروجه، فقد صرح الجنرال دوبرومون سنة 1830 للقساوسة بقوله: "إنكم أعدتم معنا فتح باب المسيحية في افريقيا ، ولنا أمل أن تينع قريبا الحضارة التي انطفت في هذه الربوع"⁽⁴⁾، كما صرح الكاردينال لافيغري سنة 1869 قائلاً: "علينا أن نُخلص هذا الشعب من قرآنه، وعلينا أن نعني على الأقل بالأطفال لتنشئتهم على مبادئ غير التي شب عليها أجدادهم، فإن واجب فرنسا تعليمهم الإنجيل أو طردهم إلى أقاصي الصحراء بعيدين على العالم المتحضر"⁽⁵⁾.

3.الإدماج:

¹ رابح تركي، التعليم القومي والشخصية الجزائرية 1931-1965، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1981، ص 105.

² أحمد بن نعمان، حزب البعث الفرنسي، دار الأمة للطباعة والنشر، الجزائر، 1996، ص 39.

³ أحمد مهساس، التعليم والثقافة في الجزائر خلال الحقبة الاستعمارية، مجلة الثقافة، العدد 85، ماي جوان، 1985 ص 60.

⁴ عبد القادر حلوش، سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر، ط1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1999، ص 66.

⁵ الطاهر زرهوني، التعليم في الجزائر قبل وبعد الاستقلال، ط1، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر 1994 ص 33

يُقصد بالإدماج جعل الجزائريين سياسيا وثقافيا واجتماعيا فرنسيين، كما يعني كذلك جعل الجزائر إقليما فرنسيا وإلغاء كل الاختلافات الإدارية بين الجزائر وفرنسا⁽¹⁾، وكان الإدماج هدفا من أهداف السياسة التعليمية الفرنسية، فمن خلال المدرسة حاولت فرنسا أن تكون أشخاصا مجنسين و مغتربين ثقافيا وإداريا ولا تربطهم أية صلة بالمجتمع المهزوم والمسيطر عليه⁽²⁾.

وجدير بالذكر بأن هذه الأهداف الثلاثة (الفرنسة، التنصير والإدماج) كانت من أولويات السياسة الفرنسية منذ الاحتلال وإلى غاية الاستقلال ، ولتحقيق هذه الأهداف اتخذت فرنسا عدة وسائل وطرق طبقت في التعليم الحكومي، وإجراءات ضد التعليم العربي الحر.

فهذا الأخير (التعليم العربي الحر) ضيقت عليه فرنسا إلى أقصى حد في محاولة منها للقضاء على تعليم القرآن الكريم واللغة العربية، ولمّا كانت الأوقاف الإسلامية هي المصدر الأساسي لتمويل التعليم العربي الحر فقد أصدرت إدارة الاحتلال عدة قرارات وقوانين مكملة ومراسيم متدرجة وفي فترات متلاحقة لوضع اليد عليها والتصرف فيها، من خلال إخضاع الوقف لقوانين المعاملات العقارية الفرنسية⁽³⁾، مما يعد ضربة موجعة للتعليم الإسلامي، فمردود هذه الأوقاف كان يسد النفقات الضرورية للمشتغلين بالتعليم والقائمين على أماكن العبادة والتعليم من قضاة وأئمة ومدرسين وطلبة وغيرهم، بالإضافة إلى توفير دخل يغطي تكاليف رعاية وإصلاح هذه المؤسسات⁽⁴⁾.

كما عملت الإدارة الاستعمارية ما في وسعها لإبعاد التلاميذ الجزائريين عن تلك المدارس، ولمّا فشلت في ذلك عملت على إغلاقها ومنعها من مباشرة أعمالها وهدم الكثير منها، وقامت بإجراءات تعسفية ضد معلمها ، ولم تسلم من هذه الإجراءات حتى المساجد والكتاتيب⁽⁵⁾ التي حُول بعضها إلى كنائس والبعض الآخر إلى مخازن للأسلحة والذخيرة⁽⁶⁾.

وهذا ما عبر عنه المؤرخ الفرنسي موريس وال Maurice wal بقوله: " فقد بدأنا بالتخريب والتدمير الكامل للمدارس الابتدائية والزوايا الريفية وغيرها"⁽⁷⁾.

¹ رايح تركي، المرجع السابق، ص 113.

² أحمد مهساس، التعليم في الجزائر، المرجع السابق، ص 74.

³ بن عكى محمد آكلي، ديموقراطية التعليم النظامي في الجزائر خلال الفترة 1962.1984 بين الواقع والإنجاز، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 1987.1988، ص 99.

⁴ سعيدوني، المرجع السابق، ص 2220.

⁵ على سبيل المثال كان بمدينة الجزائر لوحدها 166 مسجد وزاوية وكتاب غداة الاحتلال، لم يبق بعد الاحتلال سوى القليل منها لا يتجاوز العشرين.

⁶ بوفلجة غيات، التربية والتكوين بالجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1999، ص 27.

⁷ بن عكى محمد آكلي، المرجع السابق، ص 100.

ومواصلة منها في التضييق على التعليم العربي الحر أصدرت فرنسا قانونا في 08 مارس 1938 نص على منع تعليم اللغة العربية سواء في المساجد أو الزوايا إلا بإذن من سلطات الاحتلال حتى تمنح رخصة لذلك، والغريب في الأمر أن هذا القانون وغيره لم يطبق إلا على التعليم العربي الإسلامي، أما المدارس التنصيرية والتعليم العبري فقد استثنيا من هذه القوانين، أما من كان يخالف هذه التعليمات من الجزائريين فكان يتعرض لعقوبات صارمة⁽¹⁾.

وهذه الإجراءات كلها كانت بهدف صرف الجزائريين عن تعليمهم الأصل وتوجيههم للتعليم الحكومي الفرنسي المخصص لهم، والذي هو بدوره تعرض للتضييق والتمييز إلى أقصى حد ممكن، ويظهر ذلك جليا من خلال عدد الجزائريين الضئيل الذي التحق بتلك المدارس مقارنة بعدد التلاميذ في سن الدراسة، كما أن هذا التعليم لم يُعمم على كافة طبقات المجتمع الجزائري، وإنما اقتصر على فئة محدودة تكون بمثابة الجسر الواصل بين فرنسا وبقية الجزائريين بعد أن تغرس فيهم أفكارها وإيديولوجيتها، والجدول التالي يبين انقسام فئات المجتمع الجزائري بين التعليم العربي الحر والتعليم الحكومي خلال الفترة الممتدة من 1883 إلى 1939⁽²⁾:

الأصل الاجتماعي	بداية المنهج الدراسي	فروع التعليم	نهاية المنهج الدراسي	السلك المهني
. النخبة . البورجوازية . الأرستقراطية العقارية . الموظفون بالقطاع العمومي	المدرسة الفرنسية التعليم الابتدائي	مدارس ابتدائية ثانويات دروس إضافية	جامعات فرنسية	مهن حرة (طب، محامات) . مهن إدارية . التعليم
. التجار الصغار . الفلاحون . الفقراء		. الكتابات . الزوايا مدارس الإصلاح	جامعات عربية (الزيتونة، القرويين، الأزهر)	. تعليم عربي بالوعظ والإرشاد

¹ عبد المالك مرتاض، أدب المقاومة الوطنية في الجزائر 1962.1830، ج1، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2003، ص 45، رابح تركي، المرجع السابق، ص 175.

² بن عكي، المرجع السابق، ص 180

ومن خلال الجدول يتضح أن التعليم الحكومي لم يكن لعامة المجتمع وإنما اقتصر على الطبقة المرموقة، ونتيجة لتلك السياسة كان عدد التلاميذ ضئيلا جدا في هذه المدارس، ففي سنة 1954 لم يتجاوز عددهم 6000 تلميذ، في حين بلغ عدد تلاميذ الأوربيين 30000 ، وبمعنى آخر 90% من سكان الجزائر (الجزائريين) كان نصيبهم من التعليم 20%، في حين 10% من السكان (الأوربيين) استحوذوا على 80% من التعليم⁽¹⁾.

ويضاف إلى هذا كله فقد قامت إدارة الاحتلال بفرض تكاليف باهظة على الجزائريين الراغبين في التعلم فاقت إمكانيات معظمهم، فكانت مصاريف الدخول إلى الثانويات تتراوح بين 40 و50 ألف فرنك تضاف إليها تكاليف الملابس والكتب والأدوات المدرسية⁽²⁾.

وبعد اندلاع الثورة التحريرية اتخذ المعمرون من ذلك ذريعة لضرب الثقافة العربية الإسلامية والقضاء على اللغة العربية أكثر من أي وقت مضى بحجة أن القرآن الكريم واللغة العربية وسيلة الدعوة للثورة على الاستعمار⁽³⁾.

وقد نتج عن ذلك كله تدهور التعليم وانتشار الأمية في أوساط الجزائريين، وهو ما عبر عنه أحد الموظفين الفرنسيين الكبار ويدعى أوجين فورميستر Eugene Fourmestraux بقوله: " لقد فرطنا في تعليم الأهالي حتى نزل إلى مستوى هو أدنى بكثير مما كان عليه قبل الاحتلال"⁽⁴⁾.

فقد بلغت نسبة المسجلين بالمدارس الفرنسية في التعليم الابتدائي موسم 1954 . 1955 15% فقط، أما التعليم الثانوي فبلغت نسبة المسجلين به في نفس الموسم 25,3%، وفي سنة 1960 بلغت 3,95% ولم تتجاوز هذه النسبة 1% في التعليم التقني، أما التعليم العالي فهو الآخر كان عدد الطلبة الجزائريين المنتسبين إليه قليلا جدا وهو ما يوضحه الجدول التالي⁽⁵⁾:

1	19	19	19	19	19	ال
196	60	59	58	56	54	سنوات
13	13	81	42	26	58	عد
72	17	4	1	7	9	د الطلبة

¹ رايح تركي، المرجع السابق، ص ص 152 . 157.

² المرجع نفسه، ص 164.

³ محمد العربي الزبيري، الثورة الجزائرية في عامها الأول، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 44.

⁴ Mostafa I achraf ,l'Algerie nation et société, 2eme édition, s.n.e.d, alger, p63 .

⁵ عمار هلال، أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصرة 1830 . 1962، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995، ص ص 152 . 154.

وهو عدد قليل جدا مقارنة بعدد السكان البالغ آنذاك 9 ملايين نسمة، وهو ما يفسر ارتفاع نسبة الأمية في أوساط الجزائريين، والتي بلغت 92% في جانفي 1962⁽¹⁾.

وأمام هذه الوضعية المزرية للتعليم والسياسة المدروسة من قبل سلطات الاحتلال السؤال الذي يطرح نفسه هو: كيف تعامل قادة الثورة مع هذا الواقع؟

لا عجب أن يكون لقادة الثورة التحريرية إستراتيجية لمجابهة هذه السياسة التعليمية الرامية إلى طمس الشخصية الوطنية مادام أن غالبيتهم قد درس في الكتاتيب والزوايا ومدارس جمعية العلماء المسلمين ومؤسسات أخرى عبرت عن رفضها للسياسة التعليمية الفرنسية، وعلى هذا الأساس نلاحظ اهتمام قادة الثورة بالتعليم والثقافة الإسلامية، ويتضح هذا جليا في بيان أول نوفمبر 1954 الذي تحدث عن القومية الوطنية ومحاولة فرنسا جعل الجزائر أرضا فرنسية رغم التاريخ والجغرافيا واللغة والديانة والعادات، كما ورد في البيان ذكر عبارة " إخواننا العرب والمسلمين" في إشارة للانتماء العربي الإسلامي⁽²⁾.

أما مؤتمر الصومام فقد تحدث فيه المؤتمرون عن مقومات الأمة من تاريخ ولغة ودين وعادات وتحدث عن انتماء الشعب الجزائري الحضاري(العربي الإسلامي)، ورحب المؤتمرون بانضمام المتقنين إلى الثورة واعتبروا ذلك فشلا لسياسة الفرنسية، كما تحدث المؤتمرون على تعمد المستعمر خنق اللغة الوطنية التي تتكلمها الأغلبية الساحقة من المواطنين (اللغة العربية)⁽³⁾.

وبعد تأسيس الحكومة المؤقتة بتاريخ 19 سبتمبر 1958 عين أحمد توفيق المدني فيها وزيرا للشؤون الثقافية، وهو أحد رجال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين والمتخرج من جامع الزيتونة ومن المتقنين ثقافة إسلامية، هذا وقد جاء في أول تصريح للحكومة ما يلي:"الجزائر جزء لا يتجزأ من المغرب العربي...وهي تتقاسم مع شعوبه التراث الرائع للحضارة العربية الإسلامية"⁽⁴⁾.

ومن جهة أخرى فقد حاول قادة الثورة من تطوير أساليب الكفاح وعدم الاقتصار على الكفاح المسلح، وذلك من أجل إسماع صوت الثورة في العالم، ولذلك رحب قادتها بانضمام طلبة المعاهد والمدارس الحرة والزوايا، كما قاموا بتأسيس أول مدرسة للاتصالات اللاسلكية في أوت 1956، والتي تخرجت منها دفعات من المكونين في مختلف المجالات⁽⁵⁾.

1 Saadallah A .K,la montes du nationalisme en Algerie ,entreprise nationale du livre , alger , 1983, p6.

2 أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج10، دار البصائر، الجزائر، 2007، ص ص 77. 78.

3 أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ص ص 87.83.

4 أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص ص 94.93.

5 وزارة المجاهدين، الطلبة الجزائريون وثورة التحرير الوطني، ص ص 28.25.

وقد أتت سياسة جبهة التحرير الوطني بانضمام عدد كبير من الطلبة الجزائريين للثورة بعد الإضراب العام يوم 19 ماي 1956، وهو الإضراب الذي أثار دهشة وإعجاب الأوساط الثقافية في العالم، وبرهن على تضامن الطالب الجزائري مع شعبه وثورته المباركة، وزيادة على الطلبة فقد اهتم قادة الثورة بالفن والأدب ، وشارك كل من الفنان والأديب في الثورة كل على طريقته، فأضحت الكلمة رصاصة واللوحة الفنية قنبلة تتفجر في وجه أعداء الحياة⁽¹⁾.

وهذا باختصار أهم ملامح السياسة التعليمية الفرنسية وبعض الوسائل التي انتهجتها الثورة التحريرية لمواجهتها، وذلك من أجل الحفاظ على الهوية الوطنية وإسماع صوت الجزائر الثائرة في مختلف البقاع والأقطار، لأن ما حدث في الجزائر منذ 1830 وإلى غاية 1962 ليس مجرد استعمار عسكري واستغلال اقتصادي ، وإنما هو جزء من صراع ثقافي بين الشعب الجزائري بمختلف فعالياته والإستعمار الفرنسي.

¹ عبد المجيد رمضان، ثوار الجزائر، دار نزهة الألباب، الجزائر، 2005، ص ص 120.115.

سوسيولوجية الهجرة الجزائرية في فرنسا

سعيدون زروقي¹

ترتبط ظاهرة الهجرة الجزائرية في فرنسا بالسياق التاريخي والسوسيولوجي الذي تطورت ضمنهما، بحيث يتعذر الكلام عن هذه الظاهرة بدون الأخذ بعين الاعتبار لهذين البعدين، الأمر الذي يستدعي الرجوع إلى أصل نشأة هذه الظاهرة والعوامل التاريخية، الاقتصادية والسياسية التي أنتجت انطلاقا من البلد الأصلي لهؤلاء المهاجرين وصولا إلى البلد الذي احتضنها. إذن يتعلق الأمر بمسار طويل ومعقد فبينما كان يغلب على الهجرة في بادئ الأمر طابع الشغل أي هجرة مؤقتة قد تنتهي بمجرد انتهاء الشغل، أخذت فيما بعد طابعا آخر وهو الاستقرار الدائم بعد أن إلتحق أفراد عائلات هؤلاء المهاجرين بذويهم في فرنسا في إطار سياسة جمع شمل العائلة (*le regroupement familial*) وما نتج عنه من ظهور لأجيال جديدة في هذا البلد استفاد أغلب أفرادها من الحصول على الجنسية الفرنسية سواء عن طريق حق الأرض (*le droit du sol*) أو عن طريق الإقتناء (*l'acquisition*). الشيء الذي غير ملامح وخصوصية مجتمع المهاجرين في هذا البلد. على صعيد آخر وعلى المستوى السوسيو-مهني تميز المهاجرون الأوائل بضعف الكفاءة المهنية، لذلك اتسمت معيشتهم بالهشاشة وعدم الإستقرار الشيء الذي أثر سلبا على أبنائهم فيما بعد. من ناحية أخرى ونظرا لعوامل التهميش والإقصاء وتواجدهم في محيط المجتمع لجأ أبناء المهاجرين إلى محاولة بناء هويتهم انطلاقا من موروث آبائهم الثقافي والديني من خلال الوسط العائلي على غرار اللغة العربية والدين الإسلامي.

عرفت الهجرة الجزائرية في فرنسا منذ بدايتها إلى الآن عدة تقلبات، على العموم منذ تاريخ استقلال الجزائر في 1962 لم تشهد تراجعا في عدد الوافدين إلى فرنسا حيث ازداد عددهم نظرا للوضع السياسي والأمني المتظهور الذي ميز سنوات التسعينيات في الجزائر.

على صعيد آخر وبينما كانت الهجرة الجزائرية تتسم بالطابع الريفي توسعت فيما بعد لتشمل المناطق الحضرية حيث انتهجت السلطات الفرنسية سياسات توافق المتطلبات الأساسية من اليد العاملة حيث أصبحت تميل لجلب يد عاملة ذات كفاءة علمية ومهنية عكس ما كانت عليه في السابق.

تمركز المهاجرون الجزائريون منذ البداية في أحياء فقيرة محادية للمناطق الصناعية في المدن الكبرى. داخل هذا المجال الجغرافي وغيره من الأماكن الغير لائقة من مراكز الإيواء وغيرها نشأت أجيال المهاجرين الجزائريين وأفرزت واقعا آخر في المجتمع الفرنسي أنتج ما يسمى بفشل الاندماج ضمن المجتمع وبذلك فشل السياسة الفرنسية في التعامل مع المهاجر منذ البداية.

¹باحث جامعة أحمد بن بلة 2 وهران.

تتطوي المقاربة السوسولوجية على مجموعة من الاعتبارات بغية الأخذ في آن واحد بطرفي السلسلة الخاصة بالهجرة. يتعلق الأمر في البداية بالرجوع إلى البعد التاريخي لهذه الظاهرة في البلدان التي عرفتتها. إن إعادة تشكيل التاريخ الاجتماعي الذي نمت فيه هذه الظاهرة في البلدان الأصلية التي أفرزت أفواجا من المهاجرين تسمح بتهيئة الشروط ونشأة هذه الهجرات بمجرد تحديد مختلف العوامل السوسولوجية، التاريخية، الإقتصادية والسياسية التي تسمح بفهم المنطق الجوهرى المرتبط بكل ظاهرة هجرة. بالإضافة إلى ذلك، ومن أجل فهم واقع الهجرة الجزائرية في فرنسا، يدعو عبد المالك صياد إلى "تهج إستمولوجي ينطلق من تسلسل زمني من خلال الجمع بين البعد التاريخي والبعد المتزامن لتجنب تفكيك فعل الهجرة (*le fait migratoire*) بوصفه فعلا إجتماعيا شاملا (*un fait social total*)"، إن الكلام عن الهجرة، يعني الكلام عن المجتمع بأكمله، كلام عن بعده التأريخي، بمعنى في إطار منظور تاريخي (تاريخ ديموغرافي وسياسي لتركيبية السكان الفرنسيين)، وكذلك في امتداده المتزامن، أي من وجهة نظر البنيات الموجودة للمجتمع وعملها، ولكن بشرط عدم الأخذ عمدا الجزء المبتور لهذا الموضوع من جزء ينتمي إليه، وهو الجزء الخاص بالهجرة². من ناحية أخرى، يشير عبد المالك صياد إلى أن الجزائريين في فرنسا قبل أن يكونوا مغتربين، كانوا في الأصل مهاجرين. قبل الغربة كانت الهجرة³، حيث أنهما وجهان لظاهرة واحدة. إن شرح وضعية المهاجرين في فرنسا يمر بإعادة تكوين مختلف مسارات المهاجرين التي سوف تمتد من البلد الأصل حتى البلد المستقبل. إن تطور واقع الهجرة يرتبط كذلك بمختلف التغيرات التي تحدث هنا وهناك من خلال كلا المجتمعين.

وبالأخذ بعين الاعتبار مختلف هذه المتطلبات السوسولوجية والابستمولوجية، بنى عبد المالك صياد مخططا من ثلاث أعمار من أجل تفسير الديناميكية التي تميز هذا المسار الذي قاد أجيال المهاجرين لتجاوز العمر الأول من الهجرة إلى مرحلته الأخيرة، العمر الثالث من هجرة مراقبة وخاضعة إلى النظام القروي لضمان بقائها ومن تم تحررها من مراقبة المجتمع لتصبح عاملا مشتركا لجمهير أكثر فأكثر عمالية. إن تعميم الهجرة بين مختلف المجموعات الاجتماعية ومن خلال كل المناطق الجغرافية في الجزائر وكذا شبه الإحترافية لحال المهاجر في فرنسا ثبت نهائيا الهجرة الجزائرية من هجرة العمل وهجرة الرجل لوحده. أسفر هذا المسار عن هجرة إسكان مع مجيء العائلات التي غيرت البناء المورفولوجي لهذا المجتمع الخاص بالمهاجرين في فرنسا.

¹ طالع مفهوم الفعل الإجماعي الشامل *le fait social total* من خلال أعمال Marcel Mauss

² A. Sayad, *L'immigration et les paradoxes de l'altérité*. Paris. Liber/ Raison D'agir 2006.

p 15

³ مصطلح الغربة يقابله بالفرنسية *Immigration* ومصطلح الهجرة يقابله بالفرنسية *Emigration*، نقول على سبيل المثال: هذا الرجل مهاجر من الجزائر، مغترب في فرنسا. بالفرنسية: *Cet homme est immigré d'Algérie*, *émigré en france*، لمزيد من التوضيح طالع مؤلفات عبد المالك صياد.

إن الهجرة الجزائرية في فرنسا مثالية بالنسبة للبعض¹ ونموذجية بالنسبة للبعض الآخر² تشبث حولها الجماعات الأخرى القادمة من بلدان المغرب العربي حيث تقدم مواصفات خاصة تميزها في نفس الوقت عن باقي الهجرات الأوربية وتبنيها كبنية مجتمع أصلي. نضجها المبكر نسبيا بالنسبة لهجرات بلدان العالم الثالث الأخرى، العوامل التاريخية التي نشأت فيها، والخيالات التي ميزتها طوال فترة تكونها لتسمح لها بالحفاظ والديمومة، أعطت حسب عبد المالك صياد شكلا جديدا لهذه الهجرة. إنها هجرة شغل التي جمعت رجالا لوحدهم قدمو للعمل لفترة مؤقتة محتفظين بعلاقتهم بالبلد الأصلي أين تعيش عائلاتهم. في الواقع، هذا هو ثمن مجموع خيالات وأوهام التي سمحت باستمرار الهجرة في فرنسا. كان من المفترض أن تكون هجرة مؤقتة من أجل الشغل، إلا أنها امتدت إلى هجرة دائمة من السكان. "الهجرة الجزائرية، ولكي تبقى على حالها، مضطرة للحفاظ على نفسها وبالتالي، الكشف عن سلسلة من الحيل والمحاكاة والتستر التي تعد أصل ظهور واستمرار ظاهرة الهجرة"³. لفترة طويلة خضع المهاجر إلى تناقض كبير، هذا الأخير بقي محصورا ضمن وهم المؤقت حيث برّر وجوده في فرنسا بالعمل فقط إلى حد إخفاء وهم الحياد السياسي للمهاجر لصالح وظيفته الاقتصادية. "لا ندرى ما إذا تعلق الأمر بحالة مؤقتة ولكن يودون التمديد لأجل غير مسمى، أو بالعكس، ما إذا تعلق الأمر بحالة أكثر ديمومة ولكن يودون العيش بشعور شديد بالمؤقت"⁴. يستخلص عبد المالك صياد أن الفصل في هذه المعضلة وصل إلى حد نبذ الغربية. ولهذا لا يستطيع المهاجر إلا إخفاء وضعيته الخاصة. هذه الحالة التي ليست مؤقتة ولا دائمة التي حدثت للمهاجر هي في الواقع عمل مشترك لثلاثة أجزاء تحكم ظاهرة الهجرة-الغربة التي تحافظ على نوع من التواطؤ المقصود. هناك أولاً المهاجرين أنفسهم الذين لهم كل المصلحة في إعتبار أن وضعيتهم مؤقتة. ثم المجتمعات الأصلية التي تستمر في الإعتقاد بأن مهاجريها ليسوا إلا غائبين وسوف يعودون، وأخيرا، مجتمع الهجرة الذي له كذلك كل المصلحة في الإحتفاظ بالمهاجر ضمن المؤقت بغية إستغلاله وحرمانه من أي حق في الحضور الدائم. من الآن فصاعدا تتضح الهجرة أكثر في المجتمع المستقبل لأنها بصدد تحقيق تحولها النهائي محاولة كسر أطر الأوهام التي كانت منغلقة ضمنها.

لقد عرفت الهجرة المغاربية في فرنسا الكثير من التحولات منذ نشأتها ابتداء من السنوات الأولى للقرن التاسع عشر تحت وطأة العديد من العوامل التي أثرت على مستقبلها. من هجرة متفرقة ذات هيمنة

¹ *Des illusions de l'émigré aux souffrances de l'immigré.* A. Sayad, *La double absence.* p 58.. Paris. Seuil, 1999

² Voir, J. Simon, *L'immigration algérienne en France. Des origines à l'indépendance.* Paris- méditerranée, 2000.

³ A. Sayad, *La double absence.* Op, cit. p 114.

⁴ A. Sayad, *L'immigration ou les paradoxes de l'altérité.* Op. cit. p 51.

ريفية وقروية، أصبحت عامة لتشمل بعد ذلك كل الطبقات الإجتماعية ومناطق جغرافية أخرى. من هجرة يسيطر عليها لفترة طويلة الجزائريون بالنظر إلى الظروف الإجتماعية، السياسية والإقتصادية نتيجة للإستعمار الذي خضعوا له، توسعت لتشمل دول المغرب العربي الأخرى من أجل كسر الإحتكار الذي يشكله العنصر الجزائري في هذا البلد. وأخيرا وكما يلاحظ صياد أنها هجرة ولدت ونمت تحت تأثير العمل، لتتطور بسرعة إلى هجرة إعمار "مؤكدة كذلك القاعدة الشبه عامة لكل حركات الهجرة: كل هجرة عمل تحتوي على بذور هجرة الإعمار التي توسع نطاقه"¹.

من جهة أخرى، فإن استقرار الهجرة المغاربية في فرنسا يتحدد إلى حد كبير بهذا المسار التاريخي، الاقتصادي والاجتماعي والثقافي الذي وزيادة على ذلك مازال يشكل الفضاء للأجيال الناتجة عن لم الشمل العائلي. إن التمركز القوي للعائلات المغاربية داخل المناطق السكنية المهمشة بسبب المستوى الاقتصادي للآباء الذين يتميزون بضعف الكفاءة المهنية شجع على إعادة تشكيل جماعات داخل الضواحي. داخل هذه الجماعات من المهاجرين يمثل الجزائريون الأغلبية مقارنة بالآخرين. في هذا الصدد يلاحظ *B. Stora* بأن "الشبكات الجماعية الجزائرية تعرض كأماكن لجوء بالنسبة للمغربيين والتونسيين. بالإضافة إلى ذلك، تمثل اللغة العربية جسرا للتواصل بين الجاليات المغاربية، حيث أن المغربيين والتونسيين يتبنون كثيرا في البداية اللهجة الجزائرية على حساب لهجاتهم. إن التواصل واقع إنه يتحسن بسرعة"².

من ناحية أخرى، بالإضافة إلى اللغة العربية التي تسهل المؤانسة داخل هذه المجموعة المغاربية، يشكل الدين كذلك عاملا آخر قادرا على توحيد الإلتواء الجماعي. ذلك ما يجعل الأحياء ذات التواجد القوي للمهاجرين تتميز بممارسة دينية مهمة أكثر من الأحياء الأخرى. يعني هذا أن الأجيال الجديدة الناتجة عن الهجرة المغاربية مازالت تنتج وتعيد إنتاج بعض الخصائص التي تنتمي إلى وسطهم الأصلي تحت تأثير الوسط العائلي والمحيط الاجتماعي الذي تشكله الأحياء. علاوة على ذلك، تدعوا هذه الأجيال إلى عيش هذه الأحداث الثقافية والاجتماعية في إطار الجمهورية عكس آرائهم الأكثر سرية ربما بسبب وضعهم الهش في الواقع وتجاه القانون. إن الهجرة المغاربية في فرنسا أدت إلى إحداث نوع من الوعي في أوساط المواطنين الفرنسيين فيما يخص وضعية الهجرة عموما التي أصبحت موضوعا تتغذى منه مختلف الحقول السياسية، الإعلامية والعلمية التي طالما اعتبرت المهاجر كقوة عمل مؤقتة عابرة.

على العموم، بعيدا عن تشكيل قطيعة مع الفترة السابقة، تمثل فترة ما بين الحربين لحظة تعزيز لحركة الهجرة التي أصبحت منذ ذلك الحين حقيقة لا مفر منها بالنسبة لجماهير العمال المستعدين لبيع

¹ Ibid. p 73.

² .B. Stora, *Ils venaient d'Algérie. L'immigration algérienne en France 1912-1992*. Paris

, p 416-417.1992Fayard,

قوة عملهم في فرنسا. إن حركة الذهاب والإياب المستمرة بين الضفتين التي دشنتها الموجات الأولى من المهاجرين قد أثرت على باقي المناطق في أوساط الطبقات الاجتماعية نظرا لأهمية الأجور مقارنة بغيرها الممنوحة من طرف أرباب العمل في المستعمرة. ولهذا السبب فإن واحدة من الخصوصيات الكبرى لهذه الفئة من السكان المغاربيين في فرنسا هو معدل النشاط المرتفع استثنائيا الذي بلغ في مرحلة ما بين الحربين سقف 95% متجاوزا إلى حد كبير معدل النشاط لدى الجنسيات الأخرى¹ قبل أن ينزل مع اندلاع الحرب العالمية الثانية والتغيرات الهيكلية التي عرفتتها الهجرة المغربية منذ نهاية الحرب.

أعدت الحرب العالمية الثانية صياغة تجربة الحرب العالمية الأولى مع دفعاتها من العمال والجنود المعبئين بسرعة لهذه الظروف، واضحة جدا لنظام الهجرة الحرة. تم توجيه العمال الجزائريين في شكل كتائب مكونة من فرق من 500 رجل تحت رقابة عسكرية في قوارب بدائية الصنع. ولكن، بعد الحرب عرفت الهجرة المغربية عموما والجزائرية خصوصا نحو فرنسا فترة هدوء طبعها، بدون شك بسبب الصدمات التي عاشها المهاجرون طيلة فترة الحرب لتنتقل بعد ذلك مع التوسع الاقتصادي الذي ميز مرحلة إعادة البناء. حدثت هذه الهجرة في أغلب الأحيان من طرف الجزائريين الذين لم يتوقفوا عن إثراء تجربة في الهجرة مقارنة مع بلدان الشمال الإفريقي الأخرى حيث ستكون الآثار جد واضحة على التركيبة السوسولوجية للأجيال اللاحقة.

إبتداء من 1962، على الرغم من العودة الناتجة عن الرفاه الذي تلى إستقلال الجزائر، سرعان ما شهدت هذه الحركة خيبة أمل لما وجدته من واقع صعب. عرفت الهجرة الجزائرية دفعة جديدة التي من الآن وصاعدا تستجيب إلى اتفاقيات تفاوض بين دولتين معنيتين بهذه الظاهرة.

هذا الزخم في حركة الهجرة عرف تحولا في المسار في ظل تعليق الهجرة من طرف الحكومة الفرنسية في جويلية 1974 وذلك بتوقيف كل أشكال الهجرة بما فيها الهجرة العائلية لتتخلى عن ذلك فيما بعد.

وضعت السياسة الجديدة حدا للهجرة الشرعية للشغل لفسح المجال إلى جمع الشمل العائلي الذي ثبت نهائيا الهجرة في فرنسا. وعليه فإن هذه العائلات الجديدة في فرنسا استمرت في التكاثر والنمو وذلك بإنتاج أجيال جديدة منقسمة ما بين محيط عائلي غالبا ما يتميز بالثقافة الأصلية المكتسبة من الأبوين ومحيط خارجي الذي يستجيب إلى نماذج ثقافية أخرى غالبا ما تتنافى مع ثقافة الأبوين. اليوم، هذه الأجيال تحاول أحيانا الانتظام من خلال المشاركة في المؤسسات الاقتصادية، الاجتماعية والسياسية للبلد المضيف وأحيانا بإنشاء شبكات جماعية خاصة بالفئة الأصلية.

¹ J. Singer-Kéler, « Les actifs Maghrébins dans les recensements français ». in L. Talha,

S. Andezian, P. R. Baduel, Maghrébins en France. Emigrés ou immigrés?, Op cit p 86

كانت الهجرة الجزائرية في فرنسا، هجرة شغل، وكان مصدرها غالبا ريفيا، نظرا لما عاناه هؤلاء السكان من حالات الفقر وغيرها، لقد قدمت جغرافية الهجرة في بدايتها تمركزا قويا للمهاجرين ذوي الأصول الريفية متكونين في غالب الأحيان من شباب البدو أميون وبدون تأهيل. إلى ذلك الحين كانت المناطق الريفية تضمن إستدامة توازن غير مستقر إلا أنها سرعان ما ضعفت أمام الكثير من الآثار التي نتجت عقب نشأة الإستعمار والثورات المتتالية التي عقب ذلك. إضافة إلى ذلك، فإن الطبيعة الإجتماعية لهذه المناطق قد سمحت بدون شك بالتكفل بالآثار المترتبة عن الهجرة حيث كان الهدف في أول الأمر وقبل كل شيء هو استمرار النظام البدوي¹.

كانت منطقة القبائل السباقية في تزويد فرنسا بالعمال منذ السنوات الأولى من القرن العشرين. على صعيد آخر، قدمت الحرب العالمية الأولى فرصة هامة لجلب عمال جدد من المستعمرات الفرنسية وكذا حشد أفواجا من الجنود الذين سوف يوسعون الرقعة الجغرافية التقليدية لتوظيف اليد العاملة. هذه التجربة سمحت بتجديد الوحدات الأولى من المهاجرين وبظهور مناطق جديدة للهجرة أثناء فترة ما بين الحربين. وعليه، أصبحت الهجرة ظاهرة عامة بعدما كانت عبارة عن فعل هامشي يقتصر على منطقة واحدة. بالنسبة للجزائر، وبالرغم من الأهمية التي تشكلها منطقة القبائل وتلمسان، فإن السهول العليا من منطقة قسنطينة، العاصمة، وهران، الهضاب العليا وكذا الجنوب قدمت بدورها الكثير من المهاجرين².

بعد إنتهاء الحرب العالمية الثانية التي شهدت تعبئة عشرات الآلاف من الجنود وعمال مستعمرات الشمال الإفريقي، أصبحت الهجرة ظاهرة تمتد لتشمل عائلات جديدة لاسيما من المناطق الحضرية. إن الطلب الكبير على اليد العاملة التي اقتضتها فترة إعادة البناء، إرادة السلطات الفرنسية في تنويع مصادر التوظيف، حرب الجزائر، الإتصال المطول للسكان المستعمرين بالمستعمر خصوصا عن طريق التمدريس والخدمة العسكرية إضافة إلى إستقلال المغرب وتونس، كلها أسباب تبرر ظهور مرشحين جدد للهجرة. إن تراجع عدد المهاجرين من أصول ريفية لصالح الحضر في فرنسا منذ سنوات 1970 يفسر بالسياسة الجديدة للهجرة التي انتهجتها السلطات العمومية التي أصبحت تتطلب الكفاءة المهنية أكثر وذلك بإقصاء الريفيين نهائيا الذين يتميزون بنقص الكفاءة مقارنة بالقادمين من المدن. حيث أن هؤلاء أغلبهم متعلمين وحاملي شهادات وعليه فهم أكثر كفاءة من غيرهم الذين لم تتح لهم الفرص في غالب الأحيان للوصول إلى أشكال التكوين المتواجدة في المدن. تشير *M. Tribalat* إلى أن "التدفقات من الجزائر والمغرب سوف تتشكل من الحضر، خصوصا مع سنوات الثمانينيات، حيث سيمثلون حوالي ثلثي الوافدين.

¹ 4.1A. Sayad, *La double absence*, Op cit. p 1

² J. Simon, Op cit, p 63.

إن التيارات الجديدة التي تطورت في سنوات السبعينيات قد تأثرت كثيرا بهذه الظاهرة الخاصة بالإنقضاء وكذا بالمهاجرين ذوي الأصول الحضرية السائدة"¹.

هذا المسار الخاص بالتجدر في فرنسا يمر من المهاجر القروي الغير مؤهل إلى مهاجر من أصول حضرية أكثر تأهيلا. وفي الأخير من مهاجر يعيش وحده إلى مهاجر يعيش مع عائلته، إلا أن تعليق هجرة العمل أدى بالبعض في الأخير لتقبل الغير قابل للتعويض وذلك بجلب عائلاتهم إلى فرنسا والبعض الآخر لبناء حياته أو إعادة بنائها في هذا البلد.

منذ بداية الهجرة، دفع البحث عن الشغل المهاجرين الأوائل لاكتشاف مناطق أخرى في فرنسا قادرة على توفير إمكانات التشغيل لهذه اليد العاملة الجزائرية. إن البعد الجماعي الذي يميز هذه الهجرة والطلب المتزايد للعاملين من أجل معالجة العجز المتكرر في اليد العاملة قد سهل تدفق هؤلاء المهاجرين من الشباب. على المدى الطويل، هذا الإتجاه للمهاجرين نحو المناطق الصناعية قد حدد تمركزهم الجغرافي في فرنسا. لقد تركزت الموجات الأولى من المهاجرين الجزائريين خاصة في مرسيليا، ليون والعاصمة باريس، مشكلة أحياء من جيتوهات (أحياء فقيرة مكتظة بالسكان) بسبب التدفق السريع والعدد المعترف من العاملين وبالخصوص الجزائريين².

هذا التمركز الأول للمهاجرين في فرنسا سوف يرسم ملامح المجال الجغرافي للمهاجرين ويعطي جانبا من الطبيعة غير المستقرة للمساكن المخصصة للمهاجرين الشيء الذي يعكس مدى تمثل المجتمع المضيف نحوهم³. "مسكن المهاجر لا يكون إلا للمهاجر: إنه مسكن إضطراري لوضعية إضطرارية: مسكن مؤقت، مؤقت على نحو مضاعف، لأن ساكنيه سوف يقطنونه مؤقتا، ولأنه في حد ذاته عبارة عن إستجابة لوضعية ذات صفة مؤقتة لمقيم مؤقت، لأنه بهذه الطريقة يتصور المهاجر دائما: مسكنا إقتصاديا، متواضعا (إن لم نقل ناقصا) لساكن لا يملك دخلا كبيرا والذي، أكثر من ذلك فرض عليه، حتى إقتصاديا: مسكن متواضع لساكن فقير⁴...".

إنها شروط الإقامة والحياة التي ستتقاسمها فيما بعد الأجيال اللاحقة من المهاجرين على نطاق واسع من خلال الأحياء الفقيرة، الفنادق المتواضعة ومراكز الإيواء وغيرها. على هذه الطريقة إستقرت الهجرة المغاربية في فرنسا. وبالنتيجة يشير كمال بوقسة فيما يخص الجزائريين أن: "الحياة الاجتماعية لهذه الدفعات الأولى تسمح لهم إذن بإفراز أنماط تنظيم أصلية وأسلوب حياة مغاير داخل الأماكن

¹ Tribalat, *Faire France, une enquête sue les immigrés et leurs enfants*. Paris. La .M 1
Découverte/Essais 1995. p 22-23.

² G. Meynier, *L'Algérie révélée : la guerre de 1914-1918 et le premier quart du XIXe siècle*. Genève, Droz, 1981, p 474.

³ A. Sayad, *L'immigration ou les paradoxes de l'altérité*. Op cit.

⁴ Ibid, p 82.

وفضاءات خارج العمل ومع كل المجتمع المحيط. إنتاج وإعادة إنتاج لبعض الملامح، عزلة، إنغلاق، تهميش، كل هذا سوف يكون كذلك في مركز تشكيل عزلات حقيقية حتى داخل الحي¹. الشيء الذي أثار سلبيا على اندماج هؤلاء المهاجرين في الفضاء الاجتماعي الفرنسي خصوصا الأجيال الأولى التي غالبا ما تتميز بالأمية والانفصال عن السكان الفرنسيين باللغة، بالعمل وبالسكن.

مع ذلك، سجلت الهجرة الجزائرية في فرنسا تطورا نوعيا وكيفيا من خلال التجربة المتراكمة من جيل لآخر، وصول العائلات الأولى للمهاجرين، التشكيلة الاقتصادية والاجتماعية الجديدة الناتجة عن الحرب العالمية الثانية، إضافة إلى مهاجرين شباب مثقفون أكثر بعد 1945 بدأوا في الإنتشار في جميع أنحاء فرنسا. كما أنه من بين هؤلاء المهاجرين، البعض حقق نقلة اجتماعية ترجمت بنقطة جغرافية أدت بهم إلى تغيير الحي المكتض بالمهاجرين، ولكن كونها منذ البداية هجرة شغل، بقي إستقرار الجزائريين في فرنسا دائما وعلى نطاق واسع متمركزا حول المناطق الجغرافية التي توفر وتخلق فرص عمل في الزراعة وفي القطاعات التي لا تتطلب مهارات مهنية.

ومختصر القول أن هذا المسار للهجرة الجزائرية في فرنسا ينبىء إلى حد ما بمسار الأجيال اللاحقة التي ستكون نتاج جمع الشمل العائلي. من بين الاستمراريات التي تحملها الوضعية الجديدة هي تمركز الأجيال الجديدة المنحدرة من الهجرة في نفس المناطق الجغرافية التي تظهر بشكل متزايد كمناطق إقصاء بسبب حرمان الفئات الاجتماعية في أوساط المهاجرين الذين يقطنونها. إن الفشل المدرسي الذي يميز أجزاء واسعة من أبناء المهاجرين لم يسمح بانجاز ترقية اجتماعية التي تمر عبر المدرسة. إن غياب التعبئة الاجتماعية التي تثبت هؤلاء الأبناء ضمن حرف يدوية غير مؤهلة، محتقرة ومشكلة في غالب الأحيان إعادة إنتاج لما ميز آبائهم من قبل، شكل ذلك عائقا حقيقيا أمام تغيير جغرافي ممكن. هذه العوامل وغيرها أنتجت إلى حد كبير نوعا من الفشل في تحقيق إندماج في المجتمع الفرنسي لهذه الأجيال من أبناء المهاجرين وبالخصوص الجزائريين، الشيء الذي دفعهم للبحث عن بديل آخر قد يضمن لهم نوعا من الوجود ومن تحقيق للهوية. ذلك ما دفع بالأجيال الشابة لتبني الدين الإسلامي كنظام حياة أو كنموذج حياة مواجهين بذلك نموذج الحياة السائد الذي تحكمه قيم ومبادئ العلمانية في فرنسا.

قائمة المراجع:

Meynier. G, *L'Algérie révélée : la guerre de 1914-1918 et le premier quart du XIXe siècle*. Genève, Droz, 1981.

Sayad. A, *L'immigration et les paradoxes de l'altérité*. Paris. Liber/ Raison D'agir 2006.

Sayad A, *La double absence. Des illusions de l'émigré aux souffrances de l'immigré*. Paris. Seuil, 1999.

¹ K. Bouguessa, « Mode de vie et représentation : La communauté algérienne en France pendant la colonisation ». in L. Talha, S. Andezian. P. R. Baduel,...Op cit, p 52.

- Simon. J, *L'immigration algérienne en France. Des origines à l'indépendance*. Paris-méditerranée, 2000.
- Stora.B, *Ils venaient d'Algérie. L'immigration algérienne en France 1912-1992*. Paris. Fayard, 1992.
- Talha. L, Andezian. S, Baduel. P. R, *Maghrébins en France. Emigrés ou immigrés ?* Paris, CNRS, 1983.
- Tribalat. M, *Faire France, une enquête sur les immigrés et leurs enfants*. Paris. La Découverte/Essais 1995.

القيم الإخبارية بالإذاعة الجزائرية و واقع الخدمة الاجتماعية دراسة ميدانية حول إذاعة مستغانم المحلية

الأستاذ: د. بداني فواد¹

مقدمة:

لقد شهد هذا القرن تطورات على مستوى الاتصالات و وسائل نشر المعلومات و الأخبار، و هذا باختراع الراديو و التلفزيون، والحاسبات الإلكترونية والأقمار الصناعية وشبكات المعلومات والانترنت... وغيرها من وسائل الاتصال والإعلام و لقد أحدثت هذه الوسائل الكثير من التغيير الشامل في الحياة اليومية و النشاط البشري حيث ظهرت أنماط جديدة من الاتصال البشري التقني السريع واللامحدود والمكثف ، الأمر الذي استدعى دراسة هذه الآثار التي أحدثتها هذه الوسائل وهذا من خلال الكشف عن مهنة الإعلام الإذاعي و مدى أهمية المعلومات و الأخبار في حياة الناس والمجتمع المحلي أين أصبحت المعلومة في مجال الأخبار سلاح يستغل في الكثير من المواقف و الوضعيات ، فهذا المقال في حقيقة الأمر هو دراسة ميدانية حول الإذاعة الجزائرية -إذاعة مستغانم المحلية أنموذجا- و اعتمدنا فيها على منهج تحليل المحتوى ، كون الدراسة تحاول أن تستنتج علاقة القيم الإخبارية بالقيم الاجتماعية للمجتمع المحلي المستغانمي و هذا بالإجابة على الأسئلة التالية: ما هي القيم الإخبارية الواردة في النشرات الإخبارية لإذاعة-مستغانم-و ما العوامل التي تؤثر في تحديدها؟ وهل تتوافق و قيم المجتمع المحلي ؟ و لقد استمعنا إلى العديد من النشرات الإخبارية وقد اخترنا النشرات الإخبارية المفصلة وليس المختصرات كون المفصلة يمكن استخلاص منها علاقة القيم الإخبارية بالقيم الاجتماعية و آليات الخدمة و بلغ عدد النشرات اثنان و تسعون(92) نشرة لثلاثة أشهر: جويلية، أوت و سبتمبر 2014م بحيث اخترنا لكل يوم نشرة الـ12:00 منتصف النهار بعدما تأكدنا من أن الجمهور يتابع النشرات في هذا الوقت كما أكد لنا الصحفيون أن هذا الموعد الإخباري الأكثر تفصيلا و الأكثر تأثيرا في المستمعين، لذا اخترنا هذه النشرة المفصلة و التي في الغالب لا تتعدى مدة ثلاثون(30) دقيقة و بنسبة تقديرية للتمثيل الحقيقي لهذه العينة اخترنا ثلاثون (30) نشرة مفصلة و قمنا بالاستماع إليها العديد من المرات وطبقنا عليها تحليل المضمون وفق منظور " Gerbner " .

هذا كتمهيد و باقي العناصر هي عبارة عن عناوين فرعية توضح الأبعاد النظرية والمنهجية للدراسة مع استخلاص النتائج و تحليلها ، لنختم بعد ذلك بخاتمة حول الموضوع .

1- ماهية القيمة الإخبارية: تُعرّف القيم الخبرية على أنها مجموعة المعايير المادية والذهنية التي على أساسها يتم تحويل الحدث إلى خبر صحفي ، فالقيم الإخبارية هي الصفات التركيبية المرتبطة

¹أستاذ محاضر (ب) بجامعة سعيدة - الجزائر-

بالتفاعل بين الحدث والجمهور وهي التي تكشف عن جوهر الحدث وعن استخدامه الاجتماعي أي تحويله إلى موضوع للاطلاع والمعرفة والفهم.

وهذه المعايير تختلف بين الباحثين في مجال الإعلام و كمانها من أصعب معاني البنيات في المجتمع المعاصر وذلك لما تحمله من معان إيديولوجية وذهنية أي أن التمايز في الأنظمة الاجتماعية والسياسية و القيمية والإعلامية على مستوى العالم له أثر في إيجاد اختلاف للقيم الإخبارية التي يقدمها كل نظام ، إذن فدلالة القيم الإخبارية تدل على وجود بنية معقدة للخبر على أساس أبعاد القيمة المتعددة ، نظرية أو نفعية ، فكرية أو إيديولوجية أو دينية و يقوم الفهم الدقيق للقيم الإخبارية على أساس فهم مغزى الحادثة التي ستُنقل إلى الجمهور وتفاعلها مع الوسيلة الإعلامية، فكل وسيلة لها قيمها الإخبارية الخاصة بها التي تتبع من طبيعتها¹.

2- عناصر القيم الإخبارية أما عناصر القيم الإخبارية هي الخصائص التي يتميز بها الخبر، ولا يوجد اتفاق عام حول عدد هذه العناصر (الخصائص)، وهناك اجتهادات حول عدد عناصر الخبر، فذهب البعض إلى أن عدد عناصر الخبر خمسة وهي: التوقيت، القرب، الحجم أو الضخامة، الأهمية والفائدة أو المصلحة الشخصية، فيما ذهب بعض آخر إلى أن عددها ثلاثة: الأهمية، القرب والشهرة، وقال آخرون أن عدد عناصر الخبر أربعة عشر عنصرا. فيما ذهب فريق رابع إلى أن عددها عشرون عنصرا ، و رغم تعدد الاتجاهات والاجتهادات إلا أن اتفاقا حول العناصر الأساسية للخبر يفرض نفسه على الجميع، ويمكن القول أن العناصر الأساسية للخبر هي:

2-1- الجدة أو الحالية: "فلا بد أن يكون الخبر جديدا ... " أن يكون مجاريا للأحداث وبأسرع وقت ممكن ويحتفظ الخبر بقيمته مادام غير معروف ولم يسبق نشره أو إذاعته، ولهذا تتنافس وسائل الإعلام على النشر فور وقوع الحدث لتحقيق ما يسمى بالسبق الصحفي²، لكن هذه الجدة لا تعني عدم أهمية أحداث وقعت منذ أوقات بعيدة، فما زالت أخبار الحرب الإسرائيلية الأخيرة على قطاع غزة (ديسمبر 2008م، يناير 2009م) تتداول من وسائل الإعلام كلما تكشفت بعض أسرارها أو اعترف جنود إسرائيليون شاركوا فيها بارتكاب جرائم قتل متعمد لمدنيين أو تأكدت بالوثائق وقائع استخدام الجيش الإسرائيلي لمادة الفسفور الأبيض و كذا الحال حول الغزو الأمريكي للعراق عام 2003 م، واستخدام الإدارة الأمريكية السابقة لذرائع امتلاك العراق لأسلحة دمار شامل، و كلما نشرت مذكرات لشخصيات لعبت أدوارا هامة في أحداث أو حروب، وكلما نشرت وثائق جديدة حول أحداث قديمة، كلما عادت أخبار "قديمة" إلى واجهة الإعلام مثلها مثل أية أخبار تمتلك شرط الجدة والحالية³.

1- سعيد ربيع عبد الجواد ، فن الخبر الصحفي، دار الفجر للنشر و التوزيع القاهرة ط1 2005م ، ص 73 .

2- سعيد ربيع عبد الجواد ، فن الخبر الصحفي ، مرجع سبق ذكره ، ص 75 .

3- مذكور مرعى ، الصحافة الإخبارية ، دار الشروق، القاهرة، ط1، ب س ، ص40.

2-2- الصراع:- و تتجسد في أخبار الحروب و الثورات والكوارث و الأزمات والحروب الأهلية والانتخابات السياسية، وفي هذه الحالات تغطي تلك الإخبار وتطوراتها السياسية والميدانية على واجهة نشرات الأخبار الإذاعية والتلفزيونية كما تحتل الصفحات الأولى في كل صحف العالم لأهميتها وجدتها وانتشار اهتمام أوساط الرأي العام في منطقة وقوعها وفي العالم بوقائعها¹.

2-3- الضخامة: - وهذا العنصر مرتبط بضخامة عدد الناس المهتمين أو المتأثرين بذلك الحدث، بغض النظر عن مكان وقوع الحدث، فالأزمة المالية التي تعصف بالعالم تهم معظم سكان الأرض و تأخير صرف الرواتب في بلد ما يهم أوساط الموظفين و التجار ومعظم أوساط المجتمع- - وسقوط عدد كبير من الضحايا في حرب أو كارثة طبيعية كالزلازل فيهم أعدادا ضخمة من الناس وهكذا...².

2-4- الشهرة:- و يعني أن يكون الخبر متعلقا بشخصية مهمة وبارزة على المستوى السياسي أو الرياضي أو الفني فموت رئيس أو ملك، أو موت فنان كبير الشهرة، أو موت لاعب كرة قدم مشهور جدا أخبار تشد اهتمام كبيرا جدا³.

2-5- التشويق والإثارة: و إذا ما توفر عنصر الإثارة أو التشويق في خبر ما، فإن التفاصيل المتلاحقة لذلك الخبر تضمن له الاستمرار لأيام أو أسابيع أو أكثر شرط أن يكون هناك جديدا في كل مرة كضمانة لشد انتباه أعداد كبيرة من القراء⁴.

2-6- الاهتمامات الإنسانية: وهو العنصر الذي يحرك أو يثير العواطف الإنسانية عند القارئ أو المشاهد أو المستمع، وعندما يتوفر عنصر الاهتمامات الإنسانية في الخبر فإن بقاء الخبر في دائرة الجدة والاهتمام يكون مضمونا، مثلا : مشهد طفلة -فلسطينية- وهي تجري بين جنث أفراد أسرتها الشهداء على شاطئ -بيت لاهيا- هي من اهتمامات إنسانية لكل الفلسطينيين والعرب وأوساط الرأي العام العالمي⁵.

2-7- المكانية : - كلما كان مكان وقوع الحدث اقرب، كلما كان للناس في مكان وقوعه والقريبين منه اهتمامات اكبر فقد كانت متابعات الناس في قطاع غزة لأخبار الحرب الإسرائيلية على القطاع اكبر كثيرا من اهتمامات أوساط الرأي العام العربي والدولي فمكان وقوع الحدث يحدد درجة أهميته لدى الناس وينطبق هذا على الحروب والكوارث ولا يمكن مساواة اهتمامات الناس في اندونيسيا

1- المرجع نفسه ، ص44 .

2 - سعيد ربيع عبد الجواد ، فن الخبر الصحفي ، مرجع سبق ذكره ، ص76 .

3- سعيد ربيع عبد الجواد ، مرجع سبق ذكره ، ص77.

4- مذكور مرعى ، الصحافة الإخبارية، مرجع سبق ذكره، ص45.

5- سعيد ربيع عبد الجواد ، مرجع سبق ذكره ، ص76 .

بأخبار تسونا مي باهتمامات الناس في باكستان بذات الحدث مع أن الناس في كل من باكستان واندونيسيا مسلمون¹.

2-8- الغرابة: كل ما هو غير عادي وغريب في الأحداث يعتبر خبرا جديدا، فإنجاب سيدة في الخمسين لطفل طبيعي خبر جديد، وزواج شيخ في الثمانين من فتاة في العشرين خبر جديد وإنجاب سيدة لثمانية أطفال خبر جديد².

2-9- المنافسة: و تحتل المنافسات في المسابقات الرياضية مساحات واسعة من التغطية الخبرية في كل أنحاء الدنيا وتكفي متابعة ملايين الجزائريين لمتابعة كأس الجمهورية في كرة القدم ، لتأكد من حضور عنصر المنافسة كعنصر أساسي وقوي في الخبر، والحال نفسه ينطبق على المنافسة بين فرق تمثل بلدانها في المسابقات الكروية أو الرياضية عموما³.

2-10- التوقع: أحد جوانب أهمية الخبر الصحفي تكمن في مدى إثارته من توقع للاحتمالات ايجابية أو سلبية وعلى سبيل المثال فقد نتابع خبر عن الزيادات في الأجور و هذا يثير الكثير من الاحتمالات لدى العديد من الفئات الموظفة و المعنية بهذه الزيادات⁴.

2-11- الصدق أو الصحة: لا يمكن نشر أي خبر دون التأكد من صحته، فصحة الخبر شرط لازم لنشره ومن المعيب نشر خبر لم تتأكد الصحف من صحته، وإذا ما تم تكذيب الخبر فان هذا التكذيب يضر بسمعة ومكانة الصحيفة ولا يفيد اعتذار أو تصويب الصحيفة للخبر الكاذب من حجم الأضرار التي إصابتها لنشرها خبرا كاذبا⁵.

2-12- الدقة والموضوعية:

هي تعني نشر الحقيقية الكاملة للحدث دونما حذف يضر بالسياق أو يغير المعنى و إذا كان الإهمال والسرعة في كتابة ونشر الخبر أسباب لنقص أو غياب الدقة فإنها أضرار لا تبرر عدم تحري الدقة الواجبة أما الموضوعية هي عدم إخضاع الخبر للتحريف بالحذف أو بالإضافة فالخبر الصحفي غير خاضع للتلوين حسب سياسة الصحيفة⁶-

-و المبدأ الذهبي الذي يحكم العمل الصحفي هو المبدأ القائل: للصحيفة الحق في كتابة ونشر رأي مختلف ولا حق لها التلاعب بخبر يتعلق بمن تختلف معهم تلك الصحيفة فامتناع صحيفة عن نشر

1- مذكور مرعى ، الصحافة الإخبارية، مرجع سبق ذكره،ص42.

2- مرعى مذكور، الصحافة الإخبارية ، مرجع سبق ذكره ، ص 46 .

3- المرجع نفسه، ص 47 .

4- سعيد ربيع عبد الجواد ، فن الخبر الصحفي ، مرجع سبق ذكره ،ص 77 .

5- المرجع نفسه، ص 78 .

6- المرجع نفسه، ص 79.

خبر يتعارض مع سياستها لا يقلل من قيمة ذلك الخبر ولا يمنع وسائل الإعلام الأخرى من نشر ذلك الخبر.

3- مفاهيم الإذاعة : بعدما فصلنا في القيم الإخبارية، و أهم عناصرها تأتي في هذا العنصر إلى فهم العمل الإخباري الإذاعي من خلال معرفة ماهية الإذاعة ، و معنى الخبر الإذاعي، كل ذلك بصفة مختصرة لكي تتضح العلاقة بين القيم الإخبارية و الاجتماعية في نتائج تحليل محتوى النشرات الإخبارية ، فمن خلال عديد المصادر و المراجع استنتجنا المفاهيم الآتي ذكرها :

3-1- الإذاعة : إن الإذاعة هي وسيلة سمعية تنقل الأخبار و المعلومات لتبثها للجماهير عبر أجهزتها التقنية المتنوعة الحجم و القدرات التقنية في مساحة و سرعة البث و حتى في جودة الصوت¹ ، ويقال أن المذيع هو الذي لا يكتم السر ، كما يعرفها "الدكتور إبراهيم إمام" بأنها الانتشار المنظم و المقصود لمواد إخبارية و ثقافية و تعليمية و تجارية و غيرها من البرامج بواسطة "الراديو" لتلتقط في وقت واحد بواسطة المستمعين المنتشرين في شتى مناطق العالم²، كما تمتاز الإذاعة بأنها واسعة الانتشار سريعة التأثير فهي تصل إلى جماهير عريضة و واسعة من الكبار والصغار والمتقنين ، و الإذاعة المقصودة هنا هي الإذاعة المحلية التي تبث أخبارها في منطقة جغرافية محدودة و تمتاز بالمحلية كونها توجه للمجتمعات المحلية بهدف تحقيق الاتصال الجوّاري و تقريب وسائل الاتصال من السكان و المجتمعات التي تتواجد خارج المدن بهدف التحديث حسب نظرية التنمية ل« ولبارم شرام ».

3-2- الخبر الإذاعي: هو حدث يؤثر في العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية أو غيرها على نحو معين والخبر من خلال اطلعنا على العديد من التعريفات استنتجنا أنه تقرير عن حدث جديد يؤثر في حياة عدد كبير من الناس، ويقدم بطريقة مفهومة لديهم و الخبر المقصود هنا هو الخبر المسموع الذي يحرر في النشرات و يبث في الإذاعة³.

4- الخدمة العمومية بالإذاعة الجزائرية من خلال التشريع الجزائري:- لقد أكدت مختلف التشريعات المتعلقة بقطاع السمع في الجزائر على ضرورة تطبيق مبدأ الخدمة العمومية في الإذاعة الجزائرية على غرار وسائل الإعلام الأخرى ، فمن خلال ما تم التأكيد عليه ضمن دفتر الشروط من مهام منوطة بمؤسسة الإذاعة والتي تصب معظمها في إطار أداء الخدمة العمومية، فقد نصت المادة (3) من دفتر الشروط : "يجب على المؤسسة أن تتصور حصصها وتبرمجها وتبثها بهدف اقتراح الأخبار والإثراء الثقافي والترفيه على مختلف فئات المستمعين، و ذلك بحسب المهمة الثقافية والتربوية والاجتماعية المسندة لها بموجب مهمتها كخدمة عمومية"، واحتوى المرسوم رقم 86-146 المؤرخ في أول يوليو 1986م المتضمن إنشاء مؤسسة الإذاعة الوطنية، في مادته (04) ما يلي: "تتولى المؤسسة الخدمة

1 - حسن عماد مكوي، الأخبار في الراديو و التلفزيون، المكتبة الأنجلو مصرية ، مصر ، 1989م ، ص 29 .

2 - إمام إبراهيم ، الإعلام الإذاعي و التلفزيوني، دار الفكر العربي، القاهرة، 1979م ، ص 12 .

3- المرجع نفسه ، ص 13 .

العمومية للبث الإذاعي وتمارس احتكار بث البرامج الإذاعية في كامل التراب الوطني " . - كما نصت المادة 2 من المرسوم التنفيذي رقم 91-103 المؤرخ في 20 أبريل 1991م: "تخضع المؤسسة العامة للإذاعة المسموعة للالتزامات الاستمرارية وتكييف الخدمة عمومية ضمن الشروط و الكيفيات المحددة في دفتر الشروط العامة¹.

- و في سياق محتوى هذه المادة تسهر الدولة على توفير الوسائل الضرورية والشروط الملائمة للمؤسسة العمومية للإذاعة المسموعة لكي تقوم بالتنفيذ الداخلي للمهمة الموكلة إليها. وذلك قصد ضمان استمرارية الخدمة العمومية للبث الإذاعي السمعي"².

- كما تنص المادة 03 من نفس المرسوم " يتعين على المؤسسة العمومية للإذاعة المسموعة أن تقوم بنفسها بالخدمة العمومية، ولا يعطى هذا الواجب إمكانية لجوئها تحت مسؤوليتها إلى مولين خارجيين، جزائريين كانوا أو أجانب، على أن تحتفظ المؤسسة بالتحكم الكامل بمهمتها".

- أما مراقبة البث فيتم في الاستوديو وذلك بالتناوب خلال 24/24 ساعة رفقة التقنيين من

خلال:

- تسليم ورقة البرنامج اليومي.

- تحضير ورقة البرنامج للمراقبة والتي تذكر فيها كل الأمور المتعلقة ببث البرامج بدقة.

- تقديم تقرير المراقبة الذي يبين الإحصاء الزمني للبرامج المنبثقة.

- تنفيذ البرنامج الفعلي المعد من طرف دائرة البرمجة في وقته باحترام المدة الزمنية لكل

برنامج.

- السهر على بث الإشهارات في الوقت المحدد لها³.

و قبل التطرق لنتائج تحليل محتوى النشرات الإخبارية ، سنعرج على توضيح كيفية الاستعانة بمنهج تحليل المحتوى ، و أهم وحدات التحليل بحيث قمنا بتحليل محتوى النشرات الإخبارية التي بثتها الإذاعة المحلية "محطة مستغانم"، ففي البداية اخترنا منها المواعيد الإخبارية و النشرات الإخبارية المحلية و الوطنية ثم ركزنا فقط على النشرات الإخبارية المفصلة و التي طبّقنا عليها منهج تحليل المحتوى لمعرفة أهم القيم التي احتوت عليها هذه النشرات الإذاعية، و يعتبر " تحليل المضمون من أكثر الأساليب البحثية المستخدمة لفهم موضوع وطبيعة الرسائل الإعلامية للصحف، الإذاعة و التلفزيون و يرى 1985 «Wurtzelم» أن بحوث الاتصال الجماهيري السابقة تكشف عن فئات الدراسة التي استخدمت أسلوب

1- الجمهورية الجزائرية المرسوم التنفيذي رقم 91-103 المؤرخ في 1991م الجريدة الرسمية ، ص 15 .

2- فريخ رشيد ، الإذاعة الجزائرية بين الخدمة العمومية والتوجه التجاري، دراسة حالة القناة الأولى ، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في علوم الإعلام والاتصال الجزائر سنة 2009م، (غير منشورة)، ص 125 .

3- فريخ رشيد ، الإذاعة الجزائرية بين الخدمة العمومية والتوجه التجاري، مرجع سبق ذكره ، ص 126 .

تحليل المضمون في السنوات الأخيرة ومع ذلك يعد تحليل المحتوى من أكثر الأساليب البحثية التي قد يساء استخدامها ويساء فهمها .

5- تحليل المحتوى كمنهج للدراسة :

- و تحليل المضمون على الرغم من حداثة في الدراسات العربية وقلته في الدراسات الجزائرية وخاصة ندرته فيما يتعلق بتحليل مضمون الأخبار الإذاعية فإنه يقوم على مداخل متعددة¹ و لقد صُنِّفت دراسة « جورج جرينر - George Gerbner » نظاما أطلق عليه نظام جرينر « Gerbner system » يقترح فيه تحليل الأخبار وفقا لعدد من الأسئلة الرئيسية التي إلى استخلاص التقارير الضرورية لفهم محتويات النشرات من خلال المداخل الأساسية لدراسة الأخبار و هي :

أ- مداخل التحليل:

1- مدخل تحليل الانتباه « Attention Analysis » :

يجيب هذا المدخل على تساؤل ما هي الأخبار التي تقدمها الخدمة الإذاعية والدراسات التي تتناول نوعية الأخبار التي تقدمها الإذاعات، ومعدل ترددها وتوزيعها في نشرات الأخبار .

2- مدخل تحليل الأخبار الأكثر أهمية « Emphases Analyses » :

ويجيب على تساؤل ما هي الأخبار الأكثر أهمية للقائم بالاتصال ؟ وتهدف هذه الدراسات إلى عزل الجوانب الهامة في نظام الرسائل والتأكيد عليها في التحليل².

3- مدخل تحليل اتجاه الأخبار Tendency Analyses :

ويجيب على تساؤل ما هو الصحيح والايجابي ، what is right و تهدف هذه الدراسات إلى التعرف على الاتجاهات السلبية والايجابية في الأخبار.

4- مدخل التحليل البنائي Structural Analysis :

و يبحث في علاقة الأخبار بالمتغيرات في النظام الأشمل، أي يهتم بشرح علاقة الارتباط بين أجزاء الرسائل في المحتوى الإخباري، وبين بناء النظام الإذاعي وما يتم إذاعته و من أهم الباحثين الذين اهتموا بهذا المدخل نجد: Ganz 1979 م، Altheid 1976 م، Epstein 1973 م ، و حاولت الدراسة - نظرا لندرة الدراسات السابقة في بلادنا وحداثتها- أن تلم بهذه المداخل³.

ب- وحدات التحليل:

1- وحدة الزمن: تمكننا هذه الوحدة من معرفة المساحة الزمنية لكل خبر لتظهر أهمية

الخبر الأطول مساحة ، كما اعتمدنا زمن الدقيقة (01 د) كوحدة قياس زمنية .

¹-حسن مكايي عماد:مداخل تحليل الأخبار الإذاعية-مجلة بحوث الاتصال،العدد السابع يوليو1992م،القاهرة،ص15.

² - سيد أحمد غريب :تصميم وتنفيذ البحث الاجتماعي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1989م ، ص 151 .

³- حسن مكايي عماد ،مداخل تحليل الأخبار الإذاعية، مرجع سبق ذكره ، ص 16 .

2- وحدة الكلمة: لاستخلاص القيم الإخبارية اعتمدنا على وحدة الكلمة بقياس تكرارها و استنتاج المجال و المدخل الذي تعبر عنه .

3- وحدة الفكرة(الموضوع): تعتمد هذه الوحدة على مقدرة الباحث في استنتاج تكرار الفكرة من خلال الفقرات و العبارات سواء المسموعة أم المكتوبة، لاستنتاج أهم القيم الطاغية على أخبار الإذاعة.
ج- فئات التحليل هي:

- 1- فئة طول الخبر في النشرة .
- 2- فئة عناوين النشرة و مجالاتها .
- 3- فئة المجال الجغرافي لموضوعات النشرة .
- 4- فئة موضوعات أخبار النشرة.
- 5- فئة النوع الصحفي لموضوعات النشرة .
- 6- فئة اتجاه المعالجة : اتجاه إيجابي /اتجاه سلبي .
- 7- فئة شخصيات أحداث الأخبار .
- 8- فئة شكل تقديم الأخبار .
- 6- القيم الإخبارية في محتوى النشرات .

الدراسة التحليلية للنشرات الإخبارية التي بثتها إذاعة مستغانم خلال ثلاثة أشهر من سنة 2014م و هي(جويلية، أوت و سبتمبر 2014م) فتحصلنا على(92) نشرة إخبارية كوننا اخترنا نشرة ال12:00 لمنصف النهار و هي النشرة التي تقوم بإعدادها الإذاعة المحلية إذاعة مستغانم- و من ثمة تربط الاتصال بالإذاعة الوطنية على الساعة ال13:00 ظهرا لبث الأخبار من القناة الوطنية الأولى و اخترنا فقط ثلاثون(30)منها للتحليل بمعدل عشر(10) نشرات لكل شهر بطريقة عمدية بنسبة تمثيل تعادل30% بعدما استمعنا إلى كل هذه النشرات و قمنا بكتابتها للعودة إليها أثناء التحليل، و كما فصلنا في الإطار المنهجي عن عينة النشرات المختارة لتحليلها و استنتاج القيم الإخبارية الواردة فيها من خلال تطبيق أداة تحليل المحتوى بخلفية " جيربندر Gerbner" القائمة على وحدات التحليل المعروفة من وحدة المساحة الزمنية و وحدة الموضوع و المجالات الجغرافية و المعرفية للموضوعات ، كما اعتمدنا على التكرار و النسبة المئوية في القياس الأمر الذي يسمح بتحويل الأفكار إلى أرقام و إحصائيات تساعد على تأكيد نتائج الدراسة الوصفية التحليلية المتعلقة بالصحفيين العاملين بقسم الأخبار لإذاعة مستغانم و أهم القيم الإخبارية الواردة بالنشرات و كذا مطابقتها و مقارنتها مع نتائج دراسة جمهور أخبار الإذاعة المحلية " مستغانم".

6-1- تحليل النشرات الإخبارية .

6-1-1- متوسط طول زمن نشرات الأخبار لثلاث أشهر :

الجدول رقم (01) متوسط طول زمن النشرة(وحدة الزمن) لثلاث أشهر/

متوسط زمن النشرات.ث/د	زمن عرض النشرات.ث/د	عدد النشرات	متوسط زمن النشرات.ث/د
17.50	177.97	10	17.50

16.65	169	10	أوت
17.90	174.71	10	جويلية
52.05	521.68	30	سبتمبر

- من خلال هذا الجدول نلاحظ أن الزمن الكلي للنشرات محل التحليل و الدراسة هو 521.68 أي خمسمائة و واحد و عشرون دقيقة و ثمانية و ستون ثانية لثلاث أشهر (جويلية، أوت و سبتمبر من عام 2014)، و بعد تحليل كل النشرات و قياس زمنها استنتجنا متوسط زمن النشرات لكل شهر ففي شهر جويلية كان متوسط زمن النشرة الواحدة هو: 17.50 ث/د، و متوسط زمن النشرة لشهر أوت هو: 16.65 ث/د، و في شهر سبتمبر بلغ متوسط زمن النشرة: 17.90 ث/د و هو زمن مناسب جدا لعرض الأخبار الإذاعية لأن في الإذاعة الزمن مهم جدا للحفاظ على جمهور المستمعين و عدم الإطالة في العرض لتفادي الملل و مراعاة تركيز واهتمامات المستمعين فالإذاعة كإعلام صوتي تراعي الوقت المناسب من خلال اختصار الأخبار و تقديمها بطريقة سريعة و ملفتة للانتباه، على عكس التلفزيون الذي يحتاج لوقت كبير في عرض الأخبار لاعتماده على الصورة الصوت و الفيديو هذه الميزة جعلت الإذاعة وسيلة ساخنة تؤثر بدرجة كبيرة و قوية على الجماهير حسب نظرية الحتمية التكنولوجية ل"مارشال-ماكلوهان" فلاحظنا أن متوسط زمن العرض مناسب لتقديم الأخبار و عرضها بالطريقة المناسبة و المؤثرة و كذلك من خصائص الإذاعة الصوت و إيجاد الحس الجمعي للمستمعين الأمر الذي يهيئ أذهان الجماهير لتلقي الرسالة الإعلامية في جو مناسب لتقبل الفكرة و الاقتناع بها.

6-1-2- متوسط عدد مواضيع النشرات لثلاث أشهر :

الجدول رقم (02) متوسط عدد موضوعات النشرات (وحدة الموضوع) لثلاث أشهر/

الشهر	عدد النشرات	عدد الموضوعات	متوسط الموضوعات	عدد
جويلية	10	54	06	
أوت	10	51	05	
سبتمبر	10	47	06	
المجموع	30	152	52.05	

- نستنتج من الجدول المدون أعلاه أن عدد موضوعات الأخبار الواردة في النشرات الإخبارية محل الدراسة، أي الثلاثون (30) نشرة المختارة من ثلاثة أشهر حسب ما هو موضح في الجانب المنهجي للدراسة، بلغ 152 موضوعا ففي شهر جويلية بلغ عدد الموضوعات (54) في (10) عشر نشرات إخبارية بينما بلغت شهر أوت (51) موضوعا من العشر نشرات المدروسة و في شهر سبتمبر بلغ عدد الموضوعات 47 موضوعا ، فالعدد في تناقص مستمر لكن بنسب ضئيلة راجع لموسم العطل و كون هذه

الشهور من السنة هي سنة العطل و الإجازات الموسمية لأغلبية الجزائريين مع دخول موسم الاصطياف تكون نسبة المتابعة مرتفعة ، كما أن الصحفيون العاملون بالمحطة الإذاعية يستفيدون من العطلة الأمر الذي يخلق أزمة في العمال و الموظفين و حتى المناوبون للعمل الإخباري لأننا استنتجنا أن الصحفي في الإذاعة الجزائرية يعتبر نفسه موظفا كباقي الموظفين في القطاع العام ليستفيد هو الآخر من العطل و تم تأكيد هذه النتائج في المبحث الثاني من الفصل الخامس حول سوسيولوجية هيئات التحرير و أن العمل الإعلامي الإبداعي يكاد ينعدم فهذا النقص في عدد العاملين قد يكون السبب وراء نقص موضوعات الأخبار خلال هذه الفترة، و تعذر وصول باقي الصحفيين في الإذاعة إلى كل الأخبار و الموضوعات المستجدة في المجتمع المحلي و الجهة الغربية من الوطن، ومن خلال الأرقام و النسب المعبرة عن متوسط عدد الموضوعات في كل نشرة من نشرات الثلاثة شهور فنستنتج أن متوسط عدد الموضوعات لشهر جويلية لا يتعدى الست(06) مواضيع و بنفس المتوسط لشهر سبتمبر أما شهر أوت فقد كان متوسط عدد الموضوعات خمس (05) موضوعات لكل نشرة من النشرات، و هو عدد قليل مقارنة بما ينشر في باقي وسائل الإعلام الأخرى.

6-1-3- متوسط زمن النشرات و عدد موضوعات النشرات لشهر جويلية 2014:

الجدول رقم (03) زمن النشرات و عدد الموضوعات لشهر جويلية 2014 /

الشهر	تاريخ النشرة	زمن النشرة.ث/د	عدد الموضوعات
جويلية 2014	2014/07/01	17.48	06
	2014/07/02	16.20	04
	2014/07/03	18.41	06
	2014/07/04	17.55	05
	2014/07/05	19.11	06
	2014/07/06	21.17	06
	2014/07/07	16.50	04
	2014/07/08	17.30	06
	2014/07/09	18.10	05
	2014/07/10	16.15	06
	متوسطات زمن و عدد الموضوعات		17.50

في هذا الجدول تفصيل لمتوسط زمن النشرة و متوسط عدد الموضوعات لكل نشرات شهر جويلية.

6-1-4- متوسط زمن النشرات و عدد موضوعات النشرات لشهر أوت 2014 :

الجدول رقم (04) زمن النشرات و عدد المواضيع لشهر أوت 2014 /

الشهر	تاريخ النشرة	زمن.النشرة.ث/د	ع.الموضوعات
أوت 2014	2014/08/01	16.58	05
	2014/08/02	17.22	06
	2014/08/03	16.31	05
	2014/08/04	17.61	05
	2014/08/05	18.06	06
	2014/08/06	20.10	05
	2014/08/07	14.16	04
	2014/08/08	15.07	04
	2014/08/09	17.50	06
	2014/08/10	16.50	05
	متوسط الزمن و عدد الموضوعات		16.65

*القيم الواردة في هذا الجدول تفصيل للجدولين رقم(01)و(02) حول المساحة الزمنية و عدد الموضوعات ، سبق و أن علقنا على هذه النتائج و أعطينا عدة تفسيرات .

6-1-5- متوسط زمن النشرات و عدد موضوعات النشرات لشهر سبتمبر 2014 :

الجدول رقم (05) زمن النشرات و عدد المواضيع لشهر سبتمبر 2014 /

الشهر	تاريخ النشرة	زمن.النشرة.ث/د	عدد المواضيع
سبتمبر 2014	2014/09/01	19.95	04
	2014/09/02	14.31	05
	2014/09/03	19.45	05
	2014/09/04	15.58	04
	2014/09/05	16.07	05
	2014/09/06	20.66	06
	2014/09/07	22.10	04
	2014/09/08	18.16	05

04	14.25	2014/09/09	
05	14.08	2014/09/10	
06	17.90	متوسط الزمن و عدد الموضوعات	

نفس الملاحظة لهذا الجدول الذي فصلنا فيه النتائج الكلية للجدولين رقم (01) و (02) و تم التعليق عليها و استنتاج التفسيرات العلمية.
6-1-6- طول الخبر في النشرة (لكل النشرات) :
الجدول رقم (06) / يبين طول الخبر في كل النشرات /

النسبة %	التكرار	التكرارات و النسب	نوع الخبر
19.73%	30	خبر طويل (دقيقتين فأكثر)	
36.18%	55	خبر متوسط (دقيقة إلى دقيقة)	
44.07%	67	خبر قصير (أقل من دقيقة)	
100%	152	المجموع	

- نستنتج من القراءة الأولى للجدول أن نوع الخبر الأكثر تكرارا في النشرات الإخبارية هو الخبر القصير الذي صنفناه في خانة خبر أقل من دقيقة بنسبة 44.07% ليليه خبر متوسط بدقيقة إلى دقيقتين بنسبة 36.18% و في المرتبة الثالثة الخبر الطويل الأكثر من دقيقتين، الذي لم يتجاوز 19.73% و الأمر راجع إلى كون أن من خصائص الخبر الإذاعي الدقة و الاختصار و قصر مدة العرض و التقديم فالخبر القصير مناسب جدا للعمل الإذاعي كإعلام سمعي تسعى دائما للحفاظ على جمهوره و الابتعاد عن الإطناب و استهلاك الوقت الكثير، مقابل مرد ودية كبيرة من الأخبار و المعلومات فالإذاعة تسعى دائما لمنح الكثير من الأخبار في أقصر وقت ممكن.

6-1-7- مجالات عناوين النشرات :

الجدول رقم (07) يبين مجال الموضوعات لعناوين النشرات /

النسبة %	التكرار	التكرارات و النسب
26.66%	20	مجالات العناوين السياسية
22.66%	17	الاجتماعية

الاقتصادية	10	13.33%
التربوية	08	10.66%
الثقافية	06	08%
الدينية	07	09.33%
الرياضية	04	05.33%
الأمنية	03	04%
المجموع	75	100

- في قراءة الجدول (07) نرى أن المجال السياسي هو الطاغي على عناوين أخبار النشرات بنسبة 26.66% و يليه مباشرة المجال الاجتماعي بنسبة 22.66% و الأمر يرجع إلى كون أن الإذاعة كمؤسسة إعلامية تابعة للقطاع الحكومي أي ملك عمومي هي مكلفة بتبليغ القرارات السياسية و تغطية الزيارات الرسمية و المناسبات الوطنية و كل الأعمال الرسمية للحكومة الجزائرية كونها مقيدة بدفتر شروط كما هو موضح في قوانين الإعلام التي تركز وسائل الإعلام في خدمة مخططات و برامج الدولة و التركيز على الجانب السياسي هو تمظهر لذلك الارتباط الرسمي بين الإذاعة و الحكومة ، ثم من أهداف المخططات و السياسات الإعلامية في الجزائر نجد الخدمة الاجتماعية و هو ما استنتجناه من المجال الاجتماعي لعناوين أخبار النشرات التي قمنا بتحليلها -

- و كذلك الأهداف التنموية الموكلة و التي تقع على عاتق الإذاعات المحلية حسب ما جاءت به نظرية "ويلبارم شرام" (Welberm Cheram) في الإعلام المحلي و التنمية ، و في المرتبة الثالثة نجد المجال الاقتصادي بنسبة 10.66% لاهتمام الدولة بالتنمية الاقتصادية و تشجيع المشاريع و توجيه الاستثمارات و تحريك عجلة التنمية المحلية من خلال التركيز على الانجازات و المنشآت ، و الإذاعة كوسيلة إعلامية صوتية مؤثرة تسهل مرور و توصيل الرسائل التنموية و إقناع المجتمع بجدوى المشاريع و المساهمة في إنجاحها فالإذاعة من خلال الأخبار تساهم في بناء الأرضية الصالحة و الملائمة للتنمية و إنجاح المشاريع الاقتصادية ، لأجل رفاهية المجتمع و تحقيق أهداف البرامج و المخططات المرسومة لهذا الغرض ، أما المجالات الأخرى فكانت قليلة جدا لا يظهر منها إلا الجانب التربوي الذي بلغ نسبة 10.66% الأمر يعود دائما إلى الإرادة السياسية التي تريد من الإذاعة أن تكمل دور المؤسسات التربوية كما هو معروف في تاريخ الإعلام الجزائري الذي يعتبر الصحفي ذلك المجدد الذي يسعى لأن يعلم و يربي و يساهم في بناء الوطن و تحقيق الأهداف الأساسية لتحقيق ما اصطلح عليه بالخدمة العمومية .

6-1-8- مجال التغطية الجغرافية لموضوعات النشرات:

الجدول رقم (08) يوضح مجال التغطية الجغرافية لموضوعات النشرات /

النسبة %	التكرار	التكرارات و النسب مجال التغطية
55.92%	85	محلي
33.55%	51	وطني
10.52%	16	دولي
100%	152	المجموع

- أما في هذا الجدول (08) الذي ركزنا فيه على المجال الجغرافي للأخبار استنتجنا أن المجال المحلي هو الأكثر بنسبة 55.92% ثم المجال الوطني بنسبة 33.55% و في المرتبة الأخيرة نجد الدولي بنسبة 10.52% و الأمر منطقي لأننا تكلمنا عن القيم الإخبارية في بداية الدراسة و من بين القيم الإخبارية الارتباط بالمكان أي أن كلما ارتبط الحدث بمكان تواجد الجمهور كلما كانت المتابعة مرتفعة و كبيرة و المحلي لأن الإذاعة متواجدة في المجتمع المحلي و كقيمة إعلامية يهتم الصحفي بالأخبار المحلية لعلمه أنها تهتم المجتمع الذي يتواجد فيه و هذا ما أكدت العديد من النظريات مثل نظرية "دانيال ليرنر" و حتى في التفسيرات النظرية المذكورة في الخلفية النظرية مثل نظرية التفاعلات الرمزية أو كما سميت بمدرسة "شيكاجو" التي أطلق عليها علماء الاجتماع بمدرسة البيئة و هي مناسبة جدا لفهم الارتباط الوثيق بين الأخبار المحلية و المجتمع المحلي لتلبيها في الرتبة الثانية الوطنية و هي كذلك تهتم الجمهور المحلي لانتمائه للوطن ككل لكن بدرجة أقل من المحلية، و هذا ما ورد في مفهوم العصبية عند "ابن خلدون" لما قال فيها هي عندما يقول أحدهم: "أنا و أخي على ابن عمي و أنا و ابن عمي على الغريب".

- أما الدولية فهي إشباع فضول و رغبات الجمهور لمعرفة ما يجري حولهم من أحداث و مستجدات في باقي مناطق العالم تقل أهمية من ما هي عليه في المحلية و الوطنية.

- فالإذاعة من خلال الأخبار تجعل الفرد دائما على إطلاع دائم بما يحدث من حوله و في وطنه و حتى خارج وطنه فهي تدخل في وظائف الإذاعة خاصة في الوظيفة التي أكد عليها "شارلز رايت" "Charles whrit" مراقبة البيئة و هي وظيفة مهمة بالنسبة للجمهور فتوفير المعلومات و الأخبار يسمح لأفراد المجتمع بمعرفة كل ما يدور من حولهم ، فهذه الوظيفة تتأسس بعد حصول وظيفة الإخبار و الإعلام فمن خلالها تحرص الإذاعة على توصيل المعلومات و الأخبار لكل أفراد و شرائح المجتمع بشكل سريع أني و واضح .

6-1-9- موضوعات أخبار النشرات : الجدول رقم (09) يبين موضوعات كل أخبار

النشرات /

النسبة %	التكرار	التكرارات و النسب الموضوعات
26.31 %	40	السياسية
20.39 %	31	الاجتماعية
15.13 %	23	الاقتصادية
12.5 %	19	التربوية
11.84 %	18	الثقافية
03.28 %	05	الدينية
06.57 %	10	الرياضية
03.94 %	06	الأمنية
100	152	المجموع

- نقرأ من الجدول (09) أن الموضوعات السياسية هي الأكبر نسبة بـ 26.31 % و تليها مباشرة الموضوعات الاجتماعية بنسبة 20.39% و في المرتبة الثالثة الاقتصادية 15.13 % هي نتيجة حتمية و مطابقة لنتائج الجدول رقم (08) حول مجالات عناوين أخبار النشرات فالسياسية هي انعكاس واضح لدور الحكومة و السلطات الوطنية في توجيه الدور السياسي للإذاعة من خلال تمرير القرارات و المستجدات و كل ما من شأنه يسهل تسيير شؤون العامة و الاجتماعية-

- في كون الإذاعة مؤسسة إعلامية و اجتماعية تساهم في تحقيق مبدأ الخدمة العمومية، و لا يتحقق ذلك إلا بخدمة المجتمع المحلي و المساهمة في توفير الخدمات المناسبة من خلال الأخبار و الإعلام أما الاقتصادية و التي ما زالت في المرتبة الثالثة مع أنها الأهم بالنسبة لباقي دول العالم التي تركز اهتمامات الإذاعات و وسائل الإعلام المحلية في إنجاز عملية التنمية الاقتصادية و تحقيق أهداف البرامج و المشاريع الاقتصادية ما زالت لم تلقى الاهتمام بالقدر الكافي الذي يسمح بتحقيق التنمية و المساهمة في تطوير الاقتصاد و إنجاز المشاريع و الاستراتيجيات المسطرة من طرف السلطات ، فمن خلال منح جانب معتبر من الحرية للصحفيين و تركيزهم على الموضوعات الاقتصادية يمكن إحداث تنمية شاملة لكل القطاعات بداية من الاجتماعي إلى لاقصادي وصولاً إلى الثقافي التربوي ، و بالتالي تكون الإذاعة أدت وظائفها على أكمل وجه.

6-1-10- النوع الصحفي لموضوعات الأخبار :

الجدول رقم (10) يبين القالب (الشكل) الصحفي لموضوعات الأخبار /

النسبة %	التكرار	التكرارات و النسب النوع الصحفي

خبر	70	%46.05
روبورتاج	45	%29.60
تعليق	25	%16.44
تحقيق	12	%07.89
المجموع	152	%100

- في الجدول أهم القوالب الفنية للتحضير الصحفي للأخبار فكان نوع الخبر الأكثر اعتمادا في التحرير بنسبة %46.05 ثم الروبورتاج %29.60 و في المرتبة الثالثة نجد التعليق بنسبة %16.44 و نحن نعلم في فنيات التحرير أن فن الخبر هو أكثر القوالب استعمالا في مختلف وسائل الإعلام الإخبارية التي تهتم فقط بإيصال الخبر في حين هناك صحافة رأي التي تعتمد على القوالب الأخرى مثل

النسبة %	التكرار	التكرارات و النسب اتجاه المعالجة	الرو بور تاج و التع ليق
%61.18	93	بالإيجابية	
%13.81	21	بالسلبية	
%25	38	بالحيادية	
%100	152	المجموع	

و التحقيق ، المقابلات الصحفية، الندوات و الحوارات و التي تسمى في فنيات التحرير بصحافة الرأي التي دائما ما تركز على إظهار الآراء الحقيقية لقضية أو موضوع معين فوظيفة الخبر هي فقط إيصال الأخبار و الأحداث لا التعليق عليها-

ليأتي "الروبورتاج" الذي يعطي تفاصيل أكثر للخبر من خلال المواد السمعية و التسجيلات الصوتية التي تصاحب العرض الإخباري و هذا ما يزيد في تأكيد على مصداقية الخبر و توفد الدليل و السند يزيد من ثقة المستمعين فيما يسمعونه أما التعليق الذي يفسر و يوضح ملبسات و حيثيات القضية أو الموضوع يساهم في معرفة الرأي العام الحقيقي حول الخبر أو القضية الرئيسية لخبر الصحفي و في فنيات التحرير دائما ما نجد أن المؤسسات الإعلامية العمومية أي التي تعود ملكيتها للدولة ما تعتمد على الخبر كقالب أساسي في الوظيفة الإخبارية قليلا ما تلجأ إلى الأنواع الصحفية الأخرى خاصة التي تهتم بإظهار الآراء المعارضة و المناقضة لآراء السلطات أو الدولة لذا نستنتج أن إذاعة "مستغانم" تعتمد بدرجة كبيرة على الخبر في فنيات التحرير الصحفي لأنها مؤسسة عمومية تابعة للدولة و مقيدة بدفتر شروط لتكون في النهاية مؤسسة إخبارية بامتياز و إعلامية مكملة لأدوار باقي مؤسسات المجتمع.

6-1-11- اتجاه معالجة موضوعات الأخبار :

الجدول رقم (11) يبين اتجاه معالجة موضوعات الأخبار

-في هذا الجدول (11) نلاحظ أن اتجاه المعالجة بطريقة إيجابية وصل لأكثر نسبة قدرت ب61.18% و الحيادية بنسبة 25% لتكون المعالجة السلبية الأقل بنسبة ب13.81% و المقصود باتجاه المعالجة هو تناول موضوعات من شأنها خلق التفاؤل بالإيجابية عند المستمعين و أما الحياد هو عدم التفصيل في حيثيات بعض الموضوعات التي يمكن أن تكون سلبية، فالإيجابية هي التركيز على الإنجازات و الزيادات و كل الأخبار التي تظهر على أن الدولة في تطور مستمر و قلّة المشاكل فالإيجابية هي الاهتمام بالأخبار الإيجابية و جعلها في المراتب الأولى عند التحرير و التركيز عليها من خلال العديد من القوالب الفنية - أما السلبية هي قليلة جدا ليس لقلتها في المجتمع أو عدم وجودها و إنما خوف القائم بالإعلام من ملاحظات القارئ على صنع القرار في الدولة و تحاشي الدخول في صراعات مع رؤساء و مدراء القطاعات و التركيز فقط على الأخبار التي لا تثير مشاكل و لا تقصد الثقة الموجودة بين أفراد المجتمع و الدولة ، لذا استنتجنا أن المعالجة الإيجابية كانت بنسبة كبيرة لدرجة أن نسبة وجود المشاكل في المجتمع تكاد تنعدم ، الأمر كما قلنا راجع لضيق مساحة الحرية و تشديد المراقبة و الخناق على الصحفي ، أو المحرر الذي إن صادف أخبار لا تخدم و لا تتراح لها مؤسسات الدولة يتناولها بحيادية و لا يفصل فيها و لا يعطيها جانبا مهما من تناول و المعالجة ، حتى لا تعود عليه بمشاكل و عراقيل قد تخرجه من العمل الصحفي بكل سهولة ، و لكن هذه السياسة التحريرية للأخبار لا تخدم الحياة الاجتماعية بقدر ما تخدم المجال السياسي للدولة فمعالجة الموضوعات السلبية في المجتمع هو أساس التنمية و إحداث التغيير الاجتماعي لأن من وظائف الإذاعة هي المراقبة الحقيقية و الموضوعية لكل مؤسسات المجتمع لكن دائما ما يبرر المحررون و الصحفيون ذلك و يتحججون بدفتر الشروط و احترام قوانين و أخلاقيات المهنة الصحفية و خدمة المجتمع من منظور الحكومة أو صانعو القرارات و القوانين في الدولة الجزائرية لتحقيق ما اصطلح عليه بالخدمة العمومية .

6-2- بناء القيم الإخبارية بالنشرات. 6-2-1- وظيفة موضوعات الأخبار بالنشرات :

الجدول رقم (12) يبين وظائف موضوعات الأخبار

النسبة %	التكرار	التكرارات و النسب وظائف الخبر
66.44%	101	إعلام (إخبار)
06.57%	10	تنقيف
13.15%	20	شرح و تفسير
09.86%	15	ترفيه
03.94%	06	غير محدد
100%	152	المجموع

- من خلال القراءة الأولية للجدول نلاحظ أن وظيفة الإخبار كانت أكبر نسبة حيث بلغت 66.44% لتأتي في المرتبة الثانية وظيفتي الشرح و التفسير بنسبة قليلة جدا قدرت ب 13.15% و هذا

راجع للخط السياسي للإذاعة و ارتباطها بالخبر كما استنتجنا ذلك في الجداول السابقة بأن إذاعة مستغانم مؤسسة عمومية إخبارية ملك للدولة تسعى لنشر الأخبار و إعلام الناس بالجديد على مختلف المستويات و تمرير القرارات و السياسات المسطرة من طرف الدولة و وظيفة الإعلام (الإخبار) تناسب الخبر كنوع صحفي أساسي في فنيات التحرير و ترتيب الأولويات.

6-3- مصادر أخبار النشرات :

6-3-1- مصادر الأخبار في الإطار الرسمي :

جدول رقم (13) يوضح مصادر الأخبار

النسبة %	التكرار	التكرارات و النسب المصادر
94.07%	143	رسمية
05.92%	09	غير رسمية
100%	152	المجموع

- يوضح الجدول (13) مصادر الأخبار التي تحصل عليها الإذاعة ، فمن خلال تحليل محتوى النشرات استنتجنا أن المصادر الرسمية للأخبار كانت بنسبة كبيرة قدرت بـ 94.07% و أما غير الرسمية فتكاد تنعدم بنسبة 05.92% و الأمر يرجع دائما إلى ملكية الإذاعة و سياستها الإعلامية أما اعتمادها على الرسمية و الأمر يعود إلى خوفها من فقدان قيمة المصدقية و حرص الإذاعة دائما على تحاشي المشاكل و الصراعات التي تكون بسبب انعدام المصادر أو عدم وضوحها و عدم توفرها عند الحاجة إليها لذا فالرسمية هي خاصية تربط الإذاعة بالدولة عن طريق قوانين و قواعد تنظم العمل الصحفي و يمكن القول كذلك خوف الصحفي من المسائلة و المتابعة جعله يعتمد بدرجة كبيرة على المصادر الرسمية ، و تحاشيه المصادر غير الرسمية و من أخلاقيات المهنة الصحفية تحري الصدق و الواقعية للأخبار المقدمة بالنشرات الإخبارية .

6-3-4- مصادر موضوعات الأخبار في الإطار الإعلامي :

جدول رقم (14) يوضح مصادر الأخبار

النسبة %	التكرار	التكرارات و النسب المصادر
26.97%	41	وكالات الأنباء
34.21%	52	وسائل الإعلام الأخرى
31.57%	48	المراسلون

غير محددة	11	07.23%
المجموع	152	100%

- من خلال نسب الجدول (14) نلاحظ أن وسائل الإعلام الأخرى تشكل مصدرا أساسيا لأخبار الإذاعة بنسبة 34.21% و تليها مباشرة مصادر المرسلون الموظفون و المتعاملون مع الإذاعة بنسبة 31.57% و في المرتبة الثالثة نجد وكالات الأنباء بنسبة 26.97% فمن خلال القراءات المتعمقة لهذه النسب و ربطها بنتائج الجداول السابقة نستنتج أن الإذاعة كمؤسسة إعلامية تعاني من قصور في مصادر الخبر الأمر الذي يقلل حظها في امتلاك السبق الصحفي و يجعلها تابعة و مرتبطة بباقي وسائل الإعلام لكن هذا لا يعني أنها لا تملك مصادر أخرى فالمرسلون الموظفون بها يشكلون مصدرا أساسيا و مستمرا لأخبارها من خلال التغطيات و الخرجات الميدانية لمواقع الأحداث و من خلال الزيارات الميدانية لمقر الإذاعة و دراسة الهيئة التحريرية المتواجدة بها نستنتج كذلك أن هذه الفئة من الصحفيين تعاني نقصا في التدريب و التكوين في مجال الحصول على المعلومات و الأخبار و صناعة شبكات و مصادر لأخبارهم لأن الصحفي المحترف هو الذي يملك أكبر قدر ممكن من شبكات و مصادر المعلومات و الأخبار و لا يتأتى ذلك إلا بالاحترافية في الاتصال و الحصول على المعلومات قبل أي وسيلة إعلامية أخرى فالصحفي في إذاعة -مستغانم- الذي يعتبر نفسه موظف و محاصر في تحرير الأخبار و مراقب في مصادره و متابع في أدائه لا يكون صحفيا محترفا مؤثرا في الرأي العام بقدر ما يكون واسطة أو قناة لتقرير القرارات الرسمية و تغطية الزيارات و الإنجازات التي سميها بالمعالجة الإيجابية للأخبار.

6-4- الشخصيات المحورية في موضوعات أخبار النشرات :

جدول رقم (15) يوضح الشخصيات المحورية في موضوعات الأخبار

النسبة %	التكرار	التكرارات و النسب الشخصيات المحورية
13.81%	21	رئيس الجمهورية
09.21%	14	وزير
21.05%	32	والي (رئيس المجلس الشعبي الولائي)
26.97%	41	رئيس بلدية (رئيس المجلس الشعبي البلدي)
05.92%	09	رئيس دائرة
03.28%	05	مستول قطاع
02.63%	04	رموز الثقافة
01.31%	02	شخصيات سياسية
07.23%	11	صحافيين
08.55%	13	مواطنين

المجموع	152	%100
---------	-----	------

- يبين الجدول (15) أعلاه الشخصيات المحورية في موضوعات الأخبار فلاحظنا أن نسبة رئيس البلدية أي رئيس المجلس الشعبي البلدي كانت هي الأكبر حيث بلغت 26.97% و تليها نسبة الوالي أي رئيس المجلس الشعبي الولائي بـ 21.05% -

-في القراءة الثانية نستنتج مدى ارتباط أخبار الإذاعة بالشؤون المحلية و ارتباطها بالشخصيات المحورية الأكثر تواجدا في المجتمع المحلي لولاية -مستغانم- فالارتباط المكاني له دور كبير كقيمة إخبارية أساسية لحصول الاهتمام و المتابعة هذا من جهة و من جهة أخرى القرب الجغرافي يسهل عملية الحصول على الأخبار و المعلومات كما لا ننسى أن هذه الشخصيات هي الممثل القانوني للدولة فالبلدية كمؤسسة تسيير عمومية تمرر القرارات و تسهر على تنفيذها و الولاية تعمل على مراقبة عمل البلديات و تعمل على تحقيق المركزية في اتخاذ القرارات و تأتي شخصية رئيس الجمهورية في المرتبة الثالثة بنسبة 13.81% لكون الإذاعة تابعة إداريا و تنظيميا للإذاعة الوطنية المتواجدة في الجزائر العاصمة التي تتابع النشاطات الرئاسية و مستجدات قصر "المرادية" فتعمل الإذاعة على تمرير أخبار القناة الرئيسية الأولى التي تهتم بدرجة كبيرة على تغطية الأخبار الوطنية و متابعة كل نشاطات رئاسة الجمهورية و تأتي شخصية الوزير في المرتبة الرابعة بنسبة 9.21% و الأمر الذي يعود إلى الزيارات الميدانية لوزراء القطاعات في الحكومة إلى ولاية مستغانم أو تنفيذ مرسومات و مقررات وزارية على شكل تعليمات فيتم تسخير الإذاعة من أجل تمريرها كأخبار أو إعلانات أو بلاغات مثلا كتعليمات وزارية من وزير الشؤون الدينية حول الزكاة أو الحج... الخ أو تصريح وزير التجارة لفئة التجار أو وزير الثقافة حول مختلف النشاطات الثقافية بالولاية.. الخ من الأخبار الرسمية التي تنشرها الإذاعة من خلال نشراتها الإخبارية ، لتليها فئة المواطنين التي بلغت نسبتها بـ 8.55% و الأمر يعود لأهداف الإذاعة في تحقيق الخدمة العمومية لكن بشكل ضئيل و غير كافي لأن الصح.في في هذه النقطة مجبر لا مخرّ في تحديد الأولويات و طريقة المعالجة .

7- القيم الإخبارية و الخدمة الاجتماعية.

7-1- القيم الإخبارية لمواضيع أخبار النشرات :

جدول رقم (16) يوضح القيم الإخبارية الواردة في موضوعات الأخبار

النسبة %	التكرار	التكرارات و النسب
%29.82	85	القيم الإخبارية الآنية و الجدة
%08.07	23	الصراع
%05.26	15	الضخامة
%03.85	11	الشهرة
%15.43	44	الاهتمامات الإنسانية

الصدق أو الصحة	112	39.29%
المجموع	285	100%

- من خلال الجدول نلاحظ أن القيم الإخبارية الأكثر تواجدا في موضوعات الأخبار كانت الصدق أو الصحة 39.29 % و تأتي بعدها قيم الآنية و الجدة بنسبة 29.82% و يرجع الأمر لكون الإذاعة تعتمد بشكل كبير على المصادر الرسمية في حصولها على الأخبار كما هو موضح في الجدول رقم (14) لذا فنسبة غياب المصادقية تكون منعدمة، و كذلك حرص الإذاعة على احترام أخلاقيات المهنة الصحفية و تزويد الناس بالأخبار الصادقة والوقائع السليمة لكونها كذلك تهتم بالوظيفة الإخبارية و كل هذا يجعل الهيئة التحريرية تهتم بقيمة الصدق و المصادقية حسب نتائج الجدول رقم (16)-

أما الآنية و الجدة هي مطلب أساسي في الإعلام الذي تسعى من خلاله الإذاعة على متابعة كل جديد و نقادي الروتين و التكرار للأخبار ، بمعنى أدق و أوضح من خلال التحليل توصلنا إلى أن أخبار الإذاعة تتصف بالجديد و الآنية أي أنها تتابع كل مستجدات الأحداث و تساير ما يحدث في حينه و الآنية أي تناقص المساحة الزمنية بين وقوع الحدث ونشره لدى الجماهير مثلا في تغطية أحداث الامتحانات المدرسية أو الانتخابات أو أي حدث مستمر فالإذاعة تكون في تغطيتها للخبر ومتابعة مستجداته تحترم قيمة الآنية والوقت عامل أساسي في عالم الصحافة لأنه كم يقول خبراء الصحافة أن الخبر سلعة شديدة و سريعة التلف لذا فإذاعة "مستغانم" مواكبة للأحداث و الأخبار التي تقع في مجال تغطيتها و نصل في المرتبة الثالثة قيمة الاهتمامات الإنسانية بنسبة 15.43% و هذه القيمة تظهر مدى احترام الهيئة التحريرية بالإذاعة لاهتمامات و رغبات الجمهور من خلال التعرض للأخبار التي تهتم أكبر شريحة من المجتمع و يتفق حولها الكثير على أنها تستحق أن تكون خبر فهذا التحليل أظهر القيمة الإخبارية المهمة في التحرير الصحفي ، لأن الصحفي لا يكتب لي نفسه بل يسعى دائما إلى تلبية رغبات الجماهير و تلبية اهتمامات أفراد المجتمع خاصة في المجتمع المحلي و هذه القيمة تزيد من درجة المتابعة و تؤكد فرضية الارتباط المكاني للخبر عند الجمهور هذه النظرة و جاءت في نظرية"الاستخدامات و الإشباعات " بزعامة " Gerbner " حيث أصبح يتساءل الصحفي ماذا يريد الجمهور و كيف يمكن تلبية رغباته و احتياجاته و نستنتج من المبحث الأول الذي ركزنا فيه على دراسة محتوى النشرات الإخبارية من خلال تطبيق عليها تحليل المحتوى أن النشرات الإخبارية لإذاعة مستغانم تهتم بالشأن المحلي للمجتمع المستغانمي كما أنها تعتمد على المصادر الرسمية في أخبارها و أما الموضوعات الطاغية على عناوين وأخبار النشرات نجد الموضوعات السياسية و الاجتماعية نظرا للخط السياسي للإذاعة و نمط الملكية العمومية لهذه المؤسسة و أما عن القيم الإخبارية فاستنتجنا قيم المصادقية و صحة الأخبار و قيم الجدة و الآنية التي تسمح بمواكبة الأحداث و المستجدات الخاصة التي تزيد من ارتباط الجمهور بالإذاعة و حرصه على المتابعة المستمرة و الاعتماد على الإذاعة في

الحصول على أخباره و تحقيق مبدأ الخدمة العمومية من خلال قيمة الاهتمامات الإنسانية أي تقديم ما يهتم المجتمع بإشباع الاحتياجات و فضول الجماهير .
الخاتمة :

- إن الإذاعة وسيلة من وسائل الإعلام المسموع و التي لها قوّة تأثير كبيرة على الجماهير من خلال الصوت ، و نحن في هذه الدراسة المعنونة بالقيم الإخبارية بالإذاعة الجزائرية دراسة ميدانية حول إذاعة مستغانم ، درسنا العملية الإخبارية من خلال فهم الرسالة الإعلامية و المعبر عنها بسؤال ماذا؟ فقمنا بتحليل محتوى النشرات الإخبارية التي بثتها إذاعة مستغانم و استنتجنا أنها تحتوي على العديد من القيم الإخبارية المهمة و التي تزيد من درجة ارتباط الجمهور بالإذاعة و من هذه القيم كانت الحالية و الآنية أي الجدة و التي تعتبر من أهم القيم الواردة في النشرات، كما وجدنا القيم الاجتماعية و المكانية و ارتباط أخبار الإذاعة بالشؤون المحلية للمجتمع المحلي بولاية -مستغانم-

- كما لا ننسى اعتماد الإذاعة على نوع الخبر كقالب صحفي متميز في الأداء الإخباري و الذي يسمح بالتحكم في الوقت و درجة الموضوعية في تناول الأخبار و الأحداث و إذاعة -مستغانم- تحاول دائما تجنّب الصراعات و عدم التعمق و التطرق؟ إلى مشاكل المجتمع بدرجة كبيرة و هذا خوف الصحفي من النظام السياسي السائد في البلاد و الذي لا يسمح بعد في تقبل روح النقد و معالجة القضايا الحساسة المتعلقة بمصالح فئة معينة و التي هي من مشاكل المجتمع و الفئات المحرومة والمهشمة في المجتمع المحلي و في المناطق النائية خاصة.

الشباب الجزائري وتحديات القيم في ظل التحولات المجتمعية الراهنة

كانون جمال¹

المقدمة

يشهد العالم في بداية الألفية الثالثة تحولات عميقة تشكل في حد ذاتها، أحداث وتغيرات مهمة في مجالات الحياة المعاصرة وتحديات سياسية، و اجتماعية و اتصاليه وثقافيه تشكل جميعها معطيات حياتية تنعكس على حركة المجتمع المادية، والفكرية، والخلقية، والروحية، والمثل، والقيم، والمعايير، وأنماط وطرائق وأسلوب الحياة .

ونتيجة للانفجار المعرفي الهائل، وتطور وسائل الإعلام، وثورة الإتصالات ونقلها بسرعة فائقة لأشكال ونماذج متعددة من الأفكار والثقافات من مجتمع إلى آخر، كلها أدت إلى أشكال مختلفة من التغيرات في الحياة الفكرية، ومظاهر العادات، والقيم الاجتماعية، لاسيما لدى الشباب باعتباره يشكل فئة متميزة في أى مجتمع، بل هم أكثر فئات المجتمع حركة ونشاطاً، ومصدراً من مصادر التغيير الاجتماعى ، كما تتصف هذه الفئة بالإنتاج والعطاء والإبداع فى كافة المجالات، فهم المؤهلون للنهوض بمسئوليات بناء المجتمع ، وبالتالي يأتى الإهتمام بالشباب فى الوقت الحالى كاستجابة لمتغيرات محلية وعالمية.

ونظرا للأهمية البالغة لمنظومة القيم التي تعد الضابط والمعيار الأساسى للسلوك الفردى والاجتماعى وفي ظل ما تتعرض له من تحديات في جميع المجتمعات ، تبعاً لما يطرأ على المجتمعات من تحولات و تغيرات يرافقها ظهور حاجات ومتطلبات جديدة، ومتنامية بإستمرار لتوقعات الشباب الأمر الذي يؤكد الحاجة إلى المسؤولية المشتركة فى تعميق القيم وتنميتها لدى الشباب الجزائري ، عن طريق التخطيط والتنسيق بين كافة مؤسسات التنشئة الإجتماعية وهذا أمام التحديات المتعددة التي تواجهها القيم في حد ذاتها انطلاقاً من تعدد مصادرها الشيء الذي جعل الشباب الجزائري يعيش طفرة في القيم وتعددا إلى حد الحيرة في مصادرها، وما لها من انعكاسات على ثقافة وقيم الشباب الجزائري فتجدنا نريد، ونسعى ونطلب منه أن يتمسك بالهوية وأن يتمتع بالمواطنة وأن يتحلى بالوطنية وأن يحافظ على قيم المجتمع بكل أشكالها ومجالاتها دون الأخذ بعين الاعتبار التحديات التي تواجهها هذه الأخيرة ، وهو ما دفعنا في هذه الورقة أن نتساءل عن: ماهي انعكاسات التحديات التي تواجهها القيم على الشباب الجزائري في ظل التغيرات المجتمعية الراهنة ؟ وما هي آليات تحقيق التوافق والتفاعل الإيجابي بين هذه التحديات وتمسك الشباب بقيم المجتمع الجزائري والمحافظة عليها ؟

¹ أستاذ مساعد أ جامعة مولاي الطاهر سعيدة

ويستمد هذا الموضوع أهميته من زيادة الاهتمام بالشباب أكثر في مجتمعنا الجزائري، علاوة على وزنه الديمغرافي فهذه الفئة تعتبر من الفئات الحساسة التي تحتاج إلى عناية خاصة في المجتمع، لكونها ظاهرة اجتماعية معاصرة فرضتها الأوضاع الراهنة و المعطيات الاجتماعية والاقتصادية و السياسية، و الثقافية للجزائر

كما تبرز أهمية هذه الورقة من أهمية القيم التي تعتبر من أهم مكونات الثقافة لأي مجتمع، بل يمكن القول أنها تمثل لب الثقافة وجوهرها، وأنها هي التي تنظم وتحدد النشاط والسلوك الاجتماعي لكافة أفراد المجتمع.

ونهدف من خلال هذا المقال إلى التعرض إلى أبرز التحديات التي تواجه الشباب وقيمه على حد سواء من أجل تقديم إقتراحات حول كيفية تحقيق التوافق بين التحديات والتفاعل الواعي والإيجابي للشباب الجزائري معها .

ولأن القراءة المفيدة والدقيقة تعتمد على الوضوح ودقة المفاهيم الأساسية المستخدمة وشرح معانيها فجاءت مفاهيم دراستنا كآتي :

أولا :الشباب بين المفاهيمية والواقع :

اصطلاحا: اختلف الكثير من المختصين والدارسين لحقل الشباب في تحديد تعريف شامل لمفهوم الشباب على الرغم من اتفاقهم على حساسية هذه المرحلة حيث تعتبر المنعرج الحقيقي في تكوين الشخصية الإنسانية للفرد، وأنها المرحلة التي يكون فيها الإنسان (رجلا كان أو امرأة) قادرا ومستعدا على تقبل القيم والمعتقدات والأفكار والممارسات الجديدة التي من خلالها يستطيع العيش في المجتمع والتفاعل مع الأفراد والجماعات. (1)

فئمة من يحددون بدايتها بين الثالثة عشر، ويطلقون عليها سن الواحد والعشرون مرحلة المراهقة و هناك من يبدأها بالرابعة عشر و يحدد فترتها الأولى بنهاية الثامنة عشر ويصل بفترتها الثانية أو المتأخرة إلى سن السبعة والعشرين، ويرى آخرون أنها تغطي الفترة من السن السابعة عشر يصلون بنهايتها إلى حدود الثلاثين، ويراهم آخرون صعبة التحديد وتختلف بدايتها ونهايتها من فرد إلى فرد، ومن جنس إلى جنس، ومن ثقافة إلى ثقافة.

و يرجع البعض هذه الفروق إلى اختلاف النقاط المرجعية أو المعايير التي يعتمد عليها الباحثون في التحديد من جهة و اختلاف السياقات أو الظروف التي تعرف فيها الظاهرة و من جهة أخرى، فالبعض يهتم بالنمو الجسمي والجنسي وآخرون يهتمون بالنمو النفسي، و فريق ثالث يركز على تغير الوضع الاجتماعي و الأدوار الاجتماعية و تختلف السياقات باختلاف الطابع الحضاري و النظام الاجتماعي و المستوى الاقتصادي.

¹ - عزت حجازي: الشباب العربي ومشكلاته ، المجلس الوطني للثقافة و الفنون، الكويت ، 1985، ص(33)

و يرى علماء الاجتماع أن الشباب هم كل من يدخل في السن من 15 إلى 25 سنة، و يبنون رأيهم على أساس أن أولئك قد تم نموهم الفسيولوجي أو العضوي، بينما لم يكتمل نموهم النفسي و العقلي اكتمالا تاما، و بالتالي فهم في مرحلة وسط بين الطفولة و بين المراهقة و بين الرجولة الكاملة. كما عنى علماء النفس بوصف هذه المرحلة واهتموا بفترة المراهقة وتأكيد ما يطرأ على الفرد من تغيرات جنسية وعقلية ونفسية.

وقد أثبتت البحوث الأنتروبولوجية عن هذه المرحلة أنه لا تكاد توجد خصائص عامة وثابتة لسلوك جميع المراهقين وإنما هناك ظواهر سلوكية، تتأثر باتجاهات العصر والثقافة المحيطة، وثقافة مجموعات المراهقين الخاصة إلى جانب عوامل أخرى تختص بعضها بالمراهق نفسه ويتصل بعضها الآخر بظروفه وعلاقاته الاجتماعية.

والشباب ليس مجرد مرحلة زمنية تبدأ في الخامسة عشر والعشرين أو ما قبلها بقليل بعدد آخر من سنوات حيث يكتمل النمو الجسمي والعقلي على نحو يجعل المرء قادرا على أداء وظيفته المختلفة، وإنما هو مجموعة من الخصائص والمواصفات التي ينبغي أن تؤخذ في الاعتبار عند نظرنا إلى مرحلة الشباب، وهي في كل الأحوال مرحلة لا تتفصل عن بقية مراحل العمر وخاصة مرحلة الطفولة والمراهقة، فالشباب لا يمثل مرحلة نمو مفاجئ وإنما هو استمرار لعملية التنشئة الاجتماعية التي تبدأ من مرحلة الطفولة المبكرة وتستمر خلال مراحل كل الحياة.⁽¹⁾

كما أننا نعتبر الشباب يشكلون فئة اجتماعية لها مميزات وخصائصها التي تتفرد عن بقية الفئات العمرية الأخرى، ويأتي في مقدمة تلك السمات بالإضافة إلى عامل السن والجرأة وحب الاطلاع والرغبة في التغيير والقلق على المستقبل وحب الظهور ورفض الواقع والإقبال على الجديد والأفكار والقيم وعادات وأنماط السلوك.

أما عن خصائص ومميزات الشباب فهي:

1. طاقة إنسانية تتميز بالحماسة، الحساسية، الجرأة والاستقلالية وازدياد مشاعر القلق، والمثالية
2. فضول وحب استطلاع، فهو يبدو دائم السؤال والاستفسار في محاولة لإدراك ما يدور من حوله والإلمام بأكبر قدر من المعرفة المكتسبة مجتمعياً.
3. بروز معالم استقلالية الشخصية، والنزوع نحو تأكيد الذات.
6. درجة عالية من الديناميكية والحيوية والمرونة، المتسمة بالاندفاع والانطلاق والتحرر والتضحية.

7. بدء التفكير في خيارات الحياة والمستقبل، الزواج، التعليم، الثروة.

¹ - عبد الله بوجلال: الشباب الجزائري وبرامج التلفزيون الأجنبي-دراسة ميدانية، (مجلة البحوث، ع03، 1996)، صص، (147،150).

8. اضطراب اتزان الشخصية وارتفاع مستوى توترها، حيث تصبح معرضة لانفجارات انفعالية متتالية واختلال علاقاتها الاجتماعية مع الأسرة والأصدقاء وغيرهم.

9. قدرة على الاستجابة للمتغيرات من حوله وسرعة في استيعاب وتقبل الجديد المستحدث وتبنيه والدفاع عنه، وهذه السمات تعكس قناعة الشباب ورغبته في تغيير الواقع الذي وجد فيه وإن لم يشارك في صنعه.⁽¹⁾

و إذا كان " الشباب له أهميته البالغة ، في جميع الأمم والبلاد ، فإن أهميته تزيد في الأمم والبلدان والدول النامية وذلك لعدة أسباب ، وقد يكون من بينها ، رغبة هذه الدول في أن تعوض ما فاتها من تقدم في سنوات وعصور تخلفها الماضية بسرعة .⁽²⁾

ويمكن توضيح أهمية الشباب من خلال بيان أدوارهم في المجتمع على النحو الآتي - :

أ- دور الشباب في إحداث التغيير:

فالشباب في كل مكان وفي جميع أدوار التاريخ حتى يومنا هذا ، أداة التغيير ذلك أن عندهم من القدرة ما ليس عند غيرهم من الفئات في تغيير المجتمعات ، كما أن لهم دوراً بارزاً في أديان المجتمعات وثقافتها وعاداتها وتقاليدها ولعل ذلك يرجع بالدرجة الأولى إلى أن " الأجيال الشابة أكثر تقبلاً للتطور والتغيير ولا ترى حرجاً في تقبل أي تغيير اجتماعي أو اقتصادي بل ربما تجد هذا التغيير ما يتفق مع طبيعتها وخصائص نموها التي من بينها ، الرغبة في التغيير والصراع مع القديم.⁽³⁾

ب- دور الشباب في التنمية الاقتصادية

فالمجتمعات المتقدمة تسبق غيرها ، معتمدة على الفارق الزمني في إطلاق طاقات الشباب ، لذلك كانت إعانة الشباب في خدمة أمتهم وتطويع قدراتهم لدفع عجلة تقدم مجتمعه ، مسؤولية كبرى ، تتلاقى مع ضخامة دور الشباب في بناء الأمة والحضارة⁽⁴⁾ وإذا كان الإنتاج الاقتصادي في سائر ميادين الزراعة والصناعية والتجارية ، يحتاج إلى السواعد المفتولة والطاقات المتفجرة فإن الشباب هم

1 - دور الشباب في عملية التغيير المجتمعي <http://www.wafainfo.ps/atemplate.aspx?id=3202> : 19-

06-2015 على 10:00 صباحاً

2 - الشيباني ، عمر محمد التومي : الأسس النفسية والتربوية لرعاية الشباب ، ط 3، الدار . العربية للكتاب ، ليبيا ، 18 ، 1987 ،

3 - الشيباني، مرجع سابق ، ص ص 18 ، 19

4 - العبد عبد المجيد : دور الشباب في بناء الأمة والحضارة وكيف نعني به (اللقاء . الرابع للندوة العالمية للشباب الإسلامي ، الرياض ، ربيع أول ، 1979، ص 417

أقدر فئات المجتمع على الإنتاج وعلى دفع عجلة التقدم الاقتصادي للوطن ، في طريق التطور والنماء)
(¹

ج - دور الشباب في الإصلاح الاجتماعي

فالإصلاح الاجتماعي، يحتاج إلى طاقة وصبر ومعاناة ، كما يحتاج إلى الفئة الواعية التي تدعو إلى الخير دون كلل وتتهى عن الشر مهما استقفل والشباب هم عماد هذه الفئة وهم أقدّر الناس على الاتصاف بصفة الأمة الداعية إلى المعروف والناهية عن المنكر .(²)

د - الدور السياسي والعسكري للشباب

فإذا كان الشباب يتصف بالقوة والحيوية ،فهو على مر التاريخ الأسبق إلى التضحية والمقاومة والبذل و بمثابة الدرع الواقي للأوطان ولذلك تهتم الحكومات اليوم بإعدادهم عسكريا لمواجهة الأخطار والتحديات، كما يلحظ حرص الأحزاب والقيادات السياسية على استيعاب الشباب وتجنيدهم لخدمتها وتحقيق أهدافها.

دراسات حول الشباب الجزائري: (³)

لقد شغل موضوع الشباب في الآونة الاخيرة بال الكثير من المختصين في العلوم الاجتماعية الاقتصادية و السياسية ، الذي جاء امتدادا لدراسات ظهرت بعد بدأ الهزة الاجتماعية التي عرفتها الجزائر في أحداث الخامس أكتوبر من عام 1988 حيث سمحت هذه الاخيرة ب بروز هذه الفئة الشبانية . و في هذا الخصوص نجد من اهتم بالشباب و القيم في ظل عصر الاختلاف و التغير و العولمة على مستوى العالمي و المحلي مما انعكس على قيم و افكار الشباب الذين يعيشون قلقا حقيقيا في فترة التغيرات الحضارية والثقافية والتي تجعل مستقبل الشباب غامضا ،و ينصب هذا القلق على القيم المطلوبة للسلوك الصحيح ،هل هي القيم التقليدية أم القيم الجديدة و كيفية التوفيق بينهما في عدة مجالات . وفي دراسة للباحث عمور زفوري ،الذي تناول فيها الربط بين مسألة الشباب و حركة المجتمع الريفي و قد توصل الى ان التنشئة الاجتماعية للشباب كانت من شؤون الدولة الوطنية التي من خلال سياسات التنمية ، عرفت كيف تخضع هذه الفئة و أن تضرها الى السلبية و الخنوع .و مع هذا ، فان هؤلاء الشباب ليسوا سلبيين كما يعتقد البعض ، بل هم قادرون على الظهور بوصفهم فاعلين اجتماعيين يطالبون بهويتهم الخاصة و ينمون استراتيجيات خاصة بهم.

¹ - فرحان إسحاق أحمد : مشكلات الشباب في ضوء الإسلام ، ط 7 ، دار الفرقان للنشر . والتوزيع ، عمان ، 1999 ، ص ص 11 ، 10

² - فرحان إسحاق أحمد المرجع نفسه ص 9

³ - بن مهرة ليندة لطيفة: ثقافة الأجير الشاب واستراتيجيات تحقيق حاجاته ، حالة المديرية الجهوية نفضال تلمسان رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه ل.م.د تخصص علم الاجتماع والتنمية البشرية السنة الجامعية 2015 / 2014 ص 66-69

كما نشير كذلك الى انه في السنوات الاخيرة و مع انتشار ظاهرة الهجرة السرية (الحرقة)، نالت هي الاخرى اهتمام الطلبة الجامعيين في دراساتهم خاصة في مستوى تحضير شهادات الماجستير و الدكتوراه.

و من اهم ما توصل اليه المجلس الوطني الاقتصادي و الاجتماعي، فيما يتعلق بتنامي ظاهرة العنف في المجتمع، من نتائج هو أن ظاهرة الانحراف و العنف في الجزائر في ازدياد و يتجه الاحداث نحو العنف و الاجرام اكثر الظواهر الانحرافية الاخرى، و انها لا تقتصر على جنس الذكور فحسب بل تمس جنس الاناث ايضا و تنتشر هذه الظواهر بصفة اوسع في المناطق الحضرية اكثر منها المناطق الريفية، و هي ظواهر غير متحكم فيها من قبل المؤسسات المعنية بالامن بسبب سرعتها و ارتباطها بالجوانب النفسية و المعنوية ، مما يجعلنا نستنتج وجود خلل وظيفي وراء انتشار الظواهر الشبابية في المجتمع الجزائري.

واهم ظاهرة يسعى المجتمع الجزائري الاهتمام بها و هي الشباب و التشغيل و ما افرزته من بطالة في اوساط الشباب ، حيث جلبت اهتمام الباحثين في موضوع سياسة التشغيل التي اتبعتها الدولة الجزائرية في سبيل التخفيف من ظاهرة البطالة من جهة ، و كبديل عن السياسات السابقة من جهة اخرى ، و من اجل تحقيق أهداف التنمية و عدم تعثرها و توقفها من جهة ثالثة.

و قد توصلت هذه الدراسات الى أن سياسة التشغيل الجديدة المتمثلة خاصة في وكالة دعم تشغيل الشباب ، قد ساهمت في التخفيف من البطالة بفضل المؤسسات التي انشأت في اطارها و مناصب الشغل التي وفرتها ، و مع ذلك فإن هذه السياسة لم تحد من ظاهرة البطالة التي بقيت مستمرة و متزايدة .

ثانيا- القيم: المفهوم والتحديات :

مفهوم القيم :

اهتم الباحثون والعلماء والمفكرون على اختلاف انتماءاتهم العلمية والفكرية بمفهوم القيم فقد اهتمت الفلسفة وعلم الاجتماع، وعلم النفس الاجتماعي، والأنثروبولوجيا وغيرهم من العلوم لمفهوم القيم، وشمل ذلك عدة مجالات في جميع المجتمعات ويمكن تناول بعض منها بوجهات نظر مختلفة.

يعرف (على خليل مصطفى) : القيم على انها مفهوم يدل على مجموعة من التصورات والمفاهيم التي تكون إطاراً للمعايير والأحكام والمثل والمعتقدات والتفضيلات التي تتكون لدى الفرد من خلال تفاعله مع المواقف والخبرات الفردية والاجتماعية، بحيث تمكنه من اختيار أهداف وتوجهات لحياته وبرأها جديرة بتوظيف إمكانياته وتتجسد من خلال الاهتمامات أو الاتجاهات أو السلوك العملي أو اللفظي بطريقة مباشرة وغير مباشرة (1)

¹ - محمد عبد الغاني حسن :مهارات إدارة السلوك الإنساني متطلبات التحديث المستمر للسلوك، مركز تطوير الأداء والتنمية، مصر الجديدة، ط 2 ، 2005 ، ص 89

يعرف (محمد عبد الغاني) القيم بأنها "مجموعة من الاعتقادات المؤكدة والتي تمثل دستوراً بالنسبة للفرد، حيث يؤمن بها وتحدد منها شرعية أفعاله وسلوكه"⁽¹⁾ وتعرفها (إيمان عبد الله) "القيم مجموعة من المعايير والمقاييس المعنوية بين الناس يتفقون عليها فيما بينهم ويتخذون منها ميزاناً يزنون به أعمالهم ويحكمون بها على تصرفاتهم المادية والمعنوية، وهي مقياس أو مستوى أو معيار نستهدفه في سلوكنا وينظر إليه على أنه مرغوب فيه أو مرغوب عنه"⁽²⁾ وتعرف (وضحة السويدي) القيم بأنها "معايير مرغوبة للحكم على السلوك وأنها توجه أفعالنا وتقدرها وأن الناس يستطيعون بواسطتها أن يستمدوا آمالهم ويوجهوا تصرفاتهم"⁽³⁾ وتعرف (سلمى علي) القيم بأنها "هي مجموعة أحكام تتفق عليها الإيرادات وتحتل مكانة مركزية في الحياة مرتبطة بذاتها فيمكن القول بأن القيم اتجاه مع، أو ضد حدث أو ظاهرة، ندركها بنوع من الوجدان أو العاطفة التي تستشعر منها القيم التي يدركها الجاهل والمتقف.. والقيم مقاييس اجتماعية خلقية تقدرها الحضارة التي ينتمي إليها أفراد المجتمع وفقاً لاحتياجاته وأهدافه في الحياة"⁽⁴⁾ يعرف (حامد زهران) القيم بأنها "عبارة عن تنظيمات لأحكام عقلية انفعالية معممة نحو الأشخاص والأشياء والمعاني وأوجه النشاط"⁽⁵⁾

ومن خلال هذه التعريفات يمكن أن نستخلص بأن القيم :

- أ- أحكام معيارية وتقريرية توجه السلوك الإنساني وتفرض عليه الالتزام
 - ب- تتكون لدى الفرد من خلال تفاعله مع المواقف والخبرات الفردية والاجتماعية وتتبع عن قناعة
 - ت- تقضيات أساسية لما هو مرغوب فيه
 - ث- ضرورة في حياة الفرد والجماعة
 - د- والبعض ينظر إليها على أنها أحكام واقعية والبعض ينظر إليها على أنها أحكام قيمية.
- فالقيم "تمثل ركناً أساسياً في تكوين العلاقات بين الأفراد وتسهم بشكل فعال في تحديد طبيعة التفاعل بينهم إضافة إلى أنها تشكل معايير وأهداف تنظم سلوك الجماعة وتوجهه نحو ما هو مقبول ومرغوب فيه كما أنها بالنسبة للفرد بمثابة دوافع محركة لسلوكه ومحددة لهذا السلوك وأنها من الأبعاد

1 - علي خليل مصطفى : القيم الإسلامية والتربية - دراسة في طبيعة القيم ومصادرها ودور التربية الإسلامية في تكوينها وتمييزها، مكتبة إبراهيم حلي، المدينة المنورة، 1988، ص 34

2 - إيمان عبد الله شرف : التربية الأخلاقية للطفل، عالم الكتب، ط 1 ، 2007، ص 39

3 - وضحة علي السويدي : تنمية القيم الخاصة بمادة التربية الإسلامية لدى تلميذات المرحلة الإعدادية بدولة قطر - برنامج مقترح - دار الثقافة، الدوحة ط 1 ، 1989 ، ص 22

4 - سلمى سلمان علي : القيم الخلقية في الشعر الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، دار الآفاق العربية، ط 1 ،

2007، ص 21، 22

5 - حامد عبد السلام زهران : علم النفس الاجتماعي، عالم الكتب، ط 6 ، 2003 ، ص 158

المهمة المكونة لشخصيته فهي تلعب دورا فعالا في تكامل تلك الشخصية ويمكن الاستعانة بها على فهم سلوكه" (1)

(1) مكونات القيم:

يعتقد الباحثون والعلماء في مجال القيم أن القيمة تتشكل عبر مراحل ثلاث فهي قبل أن تتحول إلى سلوك أو موقف فردي أو اجتماعي لا بد أن تمر بمرحلتين أساسيتين يتشكل خلالهما مكونين أساسيين هما المكون المعرفي، ثم المكون الوجداني.

أ- المكون المعرفي : والذي يتضمن إدراك موضوع القيمة وتمييزه عن طريق العقل أو التفكير من حيث الوعي، بما هو جدير بالرغبة والتقدير، ويمثل معتقدات وتصورات الفرد وتوقعاته، وأحكامه وأفكاره، ومعلوماته عن موضوع القيمة، أو بمعنى آخر وضع أحد موضوعات التفكير على بعد أو أكثر من أبعاد الحكم.

ب- المكون الوجداني: ويتضمن الانفعال بموضوع القيمة أو الميل إليه أو النفور منه، أو ما يصاحب ذلك من سرور وألم، وما يعبر عنه من حب وكره، أو استحسان واستهجان، وكل ما يثير المشاعر الوجدانية والانفعالات التي توجد لدى الشخص نحو موضوع القيمة. وبطبيعة الحال يتشكل هذا المكون بناء على ما يحققه المكون المعرفي من توفر المعلومات والمعطيات، والتصورات والاعتقادات، والتوقعات عن موضوع القيمة.

المكون السلوكي : ويشير هذا المكون إلى استعدادات الشخص أو ميوله للاستجابة وإخراج المضامين المعرفية والوجدانية للقيمة والتعبير عنها سلوكيا في التفاعل الحياتي المعاش، ويتضمن السلوك الحركي الظاهر للتعبير عن القيمة عن طريق الوصول إلى هدف أو الوصول إلى معيار سلوكي معين أو التعبير عن موقف ما. (2)

اكتساب القيم وتعليمها:

يحتاج الإنسان منذ بداية حياته إلى من يوجهه إلى السلوك المنضبط ، فعمل المجتمع على ذلك من خلال عدة مؤسسات تشترك في غرس وتنمية القيم، فإكتسابها عملية مشتركة بين جميع مؤسسات التنشئة والتي تقع على عاتقها مسؤولية التربية الصحيحة والمتمثلة في توجيه وضبط السلوك، ومن أهمها :
الأسرة

"تعتبر الأسرة أول مجتمع يقضي فيه الفرد حياته الأولى ويرتبط بها عضويا وعاطفيا في صغره وكبره، وفيها ينتشر القيم والمبادئ والأخلاق مما يؤكد دورها في تهذيب السلوك، فالأسرة تكسب أفرادها

1 - وضحه على السويدي:مرجع سابق ، ص29

2 - كمال بوقرة: «الأبعاد المعرفية للتغير القيمي في المجتمع الجزائري» مجلة العلوم الاجتماعية العدد: 08 جانفي 2009

قيما معينة، ثم تقوم الجماعات الأخرى التي ينضم إليها الفرد خلال حياته الاجتماعية في مراحل عمره المختلفة بدور مكمل لدور الأسرة.⁽¹⁾

المسجد:

ويعتبر من أهم المؤسسات التي تهدف إلى تربية النشء، والمسجد هو البيئة الصالحة التي تنبئ فيها النفوس وتنهذب فيها الحواس والأخلاق وتتآلف فيها النفوس ويتآخى الأفراد والجماعات وتقوى فيها أوامر القربى والتعارف والتراحم⁽²⁾

المدرسة:

"فالمدرسة لكي تقوم بدورها كمؤسسة تربوية قيمة فإنها مطالبة بتوفير الخبرات المتنوعة لتنمية القيم لدى الناشئة، وإتاحة الفرص أمامهم للتعرف عليها والوعي بها، إذ إن المسألة ليست مجرد تقديم للقيم واستيعابها نظريا، وإنما كيفية بناء هذه القيم وتعزيزها في نفوسهم، وكذلك الاهتمام بتوفير مواقف عملية لممارسة هذه القيم، فلا يكفي بأساليب الوعظ والتلقين بل لابد من توفير المواقف الحية التي يعيشها الناشئ في المدرسة لتعزيز قيمه⁽³⁾

فيعتبر دور المدرسة مكمل لدور الأسرة، وحتى تقوم المدرسة بهذا الدور، لابد أن يكون جميع المسؤولين في المدرسة قدوة للتلاميذ في الالتزام والانضباط، من جهة، ومن جهة أخرى يجب أن يكون للمعلم الخبرة والمعرفة الكافية لتنمية القيم الدينية للتلاميذ.

وسائل الإعلام: هذا ولاشك إذا أحسن إستخدام وتوجيه وسائل الإعلام فإنها تستطيع أن تصبح أداة فعالة قوية في إرساء القواعد الخلفية والدينية لمجتمع فاضل وإبتكار خيال خصب منتج لدى الشباب منظمات المجتمع المدني: تعد منظمات المجتمع المدني آلية من آليات توعية الشباب بالحقوق والواجبات، ودعم إحساسهم بالمواطنة والانتماء والحرص على المصلحة الوطنية، وإدراكه كمواطن لدوره في مجابهة التحديات التي تواجه المجتمع والدولة في آن واحد.

وظائف القيم

للقيم وظائف عديدة فهي تنعكس على سلوك الفرد قولاً و عملاً، كما تنعكس على الجماعة أيضاً، ويمكن تناول وظيفة القيم على هذين المستويين:

¹ - نورهان منير حسن فهمي: القيم الدينية للشباب من منظور الخدمة الاجتماعية، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية،

1999، ص 111-112

² - زكريا بشير إمام: أصول الفكر الاجتماعي في القرآن الكريم القضايا والنظريات، روائع مجدلوي، ط 2000، ص

170

³ - ماجد زكي الجلاذ: تعلم القيم وتعليمها تصور نظري وتطبيقي لطرائق واستراتيجيات تدريس القيم، ط 1، دارالمسيرة

للنشر والتوزيع، عمان، 2007، ص 64

على المستوى الفردي: تتمثل وظائف القيم فيما يلي:

- 1- أنها تهيئ للفرد اختيارات معينة تحدد السلوك الصادر عنه، بمعنى آخر تحدد شكل الاستجابات و بالتالي تلعب دورا مهما في تشكيل الشخصية الفردية و تحديد أهدافها في إطار قيمي متكامل.
 - 2- أنها تعطي إمكانية للفرد على أداء ما هو مطلوب منه و تمنحه القدرة على التكيف و التوافق الاجتماعي و تحقيق الرضا عن نفسه للتجاوبه مع الجماعة في مبادئها و عقائدها الصحيحة.
 - 3- أنها تحقق للفرد الإحساس بالأمان فهو يستعين بها على مواجهة ضعف نفسه و التحديات التي تواجهه في حياته.
 - 4- أنها تعطي الفرد فرصا للتعبير عن نفسه مؤكدا ذاته عن فهم و عمق وإمكانيتها.
 - 5- تدفع الفرد لتحسين إدراكه و معتقداته ، و تساعده على فهم العالم حوله و توسع إطاره المرجعي لفهم حياته
 - 6- أنها تعمل على صلاح الفرد نفسيا و خلقيا و توجهه نحو الخير و الإحساس بالواجب.
 - 7- أنها تعمل على ضبط الفرد لشهواته و مطامعه كي لا ينقلب على عقله و وجدانه لأنها تربط سلوكه إلا أنه يجب أن ندرك أن هاته الوظائف ليست منفصلة عن بعضها البعض بل تتداخل و تتكامل و بالتالي تحقق ذاتية الفرد إنها في النهاية تحقق إنسانية الإنسان.
- على المستوى الاجتماعي: تتمثل وظائف القيم فيما يلي :
- تحفظ له هذا التماسك و الثبات اللازمين لممارسة حياته الاجتماعية السليمة.
 - 2- أنها تساعد المجتمع على مواجهة التغيرات التي تحدث فيه بتحديد الاختيارات الصحيحة التي تسهل على الناس حياتهم و تحفظ للمجتمع استقراره و كيانه في إطار موحد.
 - 3- أنها تربط أجزاء ثقافة المجتمع ببعضها حتى تبدو متناسقة، كما أنها تعمل على إعطاء النظم الاجتماعية أساسا عقليا يصبح عقيدة في ذهن أعضاء المجتمع المنتمين إلى هذه الثقافة.
 - 4- أنا تقي المجتمع من الأنانية المفرطة و النزاعات و الشهوات الطائشة في حد ذاتها بدلا من النظر إليها على أنها مجرد أعمال لإشباع الرغبات و الشهوات و لذلك فإن القيم و المثل العليا
 - 1- أنها تعمل على تماسك المجتمع فتحدد له أهداف حياته و مثله العليا و مبادئه الثابتة المستقرة التيالنظر إليها على أنها مجرد أعمال للإشباع الرغبات
 - 5- أنها تزود المجتمع بالصيغة التي يتعامل بها مع العالم و تحدد له أهداف و مبررات وجوده و بالتالي يسلك في ضوءها قناعاتها و يحدد للأفراد سلوكياتهم⁽¹⁾

¹ - محي الدين أحمد حسين: القيم الخاصة لدى المبدعين، دار المعارف، القاهرة، 1986، ص59

بعض مظاهر التغيير الاجتماعي ودوره في تغيير القيم الاجتماعية :

لقد توالى التغييرات الاجتماعية والثقافية على المجتمعات في العقود القليلة الماضية وخاصة على المجتمعات العربية ولعل من أبرز هذه التغييرات ظهور ظاهرة العولمة وما ارفقها من ثورة معلوماتية حيث أحدثت تغييرا في المواقف والاتجاهات والقيم الإنسانية لدى أفراد المجتمع وجعلت العالم أكثر اندماجا، وجعلت التحولات سريعة هي التي وساهمت في انتقال المفاهيم والقناعات والمفردات والأذواق فيما بين الثقافات والحضارات وهي التي نقلت العالم من مرحلة الحداثة إلى مرحلة ما بعد الحداثة وبالتالي. في دخوله إلى عصر العولمة إنّ هذه التغييرات كان لها دور في تغيير الثقافة الموروثة للمجتمعات أنّ ثورة المعلومات والاتصال قد أثرت وستؤثر في حياة الأفراد وهي اليوم من أهم العوامل التي.تعقد تشكيل خبرات وسلوكات الأفراد والمجتمعات (1)

1- تحديات القيم: ومن أهم التحديات التي تؤدي إلى تغييرات قيمية في المجتمع الآتي :

1-تغيير القيم الحادث بسبب عملية التطبيع الاجتماعي: وهي في أساسها عملية اهتزاز للتوازن القيمي، وتحرك لتحقيق توازن جديد، حيث نجد أن في النسق الاجتماعي ميكانزمات محددة تفرض ضغوطاً أو توترات على الفرد تجعله يتخلص من اتجاهه القيمي المتوازن (مثل جماعة الأصدقاء، المناخ التربوي داخل المؤسسات التعليمية.) ثم تمده بعد ذلك بالأساليب التي يتغلب بها على هذه التوترات، ويساعده على قيام توازن لنمط التفاعل الجديد.

2-تغيير القيم الحادث بسبب التغيير السياسي: يحدث عندما لا يتفق النسق الاجتماعي مع الأنماط القيمية لبعض الأفراد ومستوى طموحهم نتيجة لإنهيار قيم سياسية معينة، فيطيحون بالسلطة إبتغاء فرض بعض الرؤى القيمية والثقافية التي تتلاءم معهم، وبحركة تلقائية يتحرك النسق الاجتماعي نحو تحقيق التوازن من جديد.

3-تغيير القيم الحادث بسبب إستمرارية تطور النسق الاجتماعي بدرجة تفوق تقدم العنصر الثقافي، أو توقف العنصر).القيمي والثقافي تماما عن التطوير بالنسبة للنسق الاجتماعي الذي هو أحد مكوناته (2)

4-تغيير القيم الحادث بسبب التغيير التكنولوجي: إن للتكنولوجيا أثراً واضحاً على القيم، فبتغيير التكنولوجيا تتغير الوسائل المتاحة أمام الفرد والمجتمع لتحقيق الأهداف المشتقة من القيم، فقيمة الصداقة اليوم يمكن أن نحصل عليها عن طريق موجات الراديو، أو التلفاز. الخ

1 - د.لطيفة طبال ، جامعة سعد دحلب البليدة ، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية ، العدد 08 ، 2012، ص 418

2 - ليلة علي : البنائية الوظيفية في علم الاجتماع والانثروبولوجيا: المفاهيم والقضايا، القاهرة: دار المعارف، 1983 ص282.

5-تغير القيم الحادث بسبب التغير الديني :يعتبر الدين من أهم العناصر القيمية التي تعتبر أساساً في عملية التغير المجتمعي بصفة عامة . فالدين الإسلامي مثلاً استطاع أن يغير حياة العرب البدو تغيراً قيمياً جذرياً، بحيث أكسبهم منظومة قيمية وأخلاقية جديدة.

6-تغير القيم الحادث بسبب تغير المعلومات :نتيجة إكتشافات في المعرفة الإنسانية والعلوم.

7-تغير القيم الحادث بسبب الحروب :تمثل الحرب عملية مخاض يولد فيها المجتمع من جديد، بغض النظر عن نتائجها، ولعل ما حدث بعد الحربين العالميتين الأولى والثانية من تبدل وتحول جذري في قيم المجتمعات، لشاهد على هذا النموذج من التغير القيمي (1)

8-تغير القيمة الحادث بسبب الطفرة الاقتصادية :وخير مثال على ذلك دول الخليج العربي، فقد أفرزت الحقبة النفطية شخصية خليجية متميزة تتمسك بقيم جديدة معظمها إيجابي، وخاصة ما اتصل منها بالتعليم، والوعي الإجتماعي والسياسي وغيرها، ومن القيم السلبية تضائل قيمة العمل اليدوي، و الإعتماد على العمالة الوافدة.. الخ(2)

وخلاصة القول إن التحديات التي تؤدي إلى تغيرات قيمية والتي عُرِضَتْ آنفًا، تشير إلى أن "الاختلاف والتباين في القيم مفهومًا ومصدرًا يؤدي إلى صراع قيمي تتعكس آثاره على بناء الشخصية، فضلا عما يؤدي إليه هذا الصراع من التفرقة وعدم الانسجام بين الأفراد والجماعات المتناقضة قيمياً" (3) التحولات المجتمعية وتأثيراتها على القيم لدى الشباب:

نتيجة للتغيرات المتسارعة التي يعيشها العالم، وقع شبابنا في تشتت واضح في الأهداف والغايات، حيث أدت التغيرات العالمية المتسارعة إلى عدم مقدرة الشباب على التمييز الواضح بين ما هو صواب وما هو خطأ، وبالتالي أضعفت قدرتهم على الانتقاء والاختيار من بين القيم المتصارعة الموجودة، وعجزهم عن تطبيق ما يؤمنون به من قيم، كل هذا أدى إلى حدوث "أزمة قيمية"، كان لها أثر كبير في دفع الشباب للتمرد، والثورة على قيم المجتمع، واغترابهم شبه التام عن القيم، نتيجة موجة من التحديات كان لها تأثير كبير على قيم المجتمع وخاصة الشباب وتمثلت هذه الموجات في مجموعة من التحولات العالمية هي:

1- العولمة :

ظهرت العولمة في العصر الحديث مستندة على أسس اقتصادية تمثلت في الشركات الاقتصادية العملاقة عبر القارات، والتي لم يعد لها وطن محدد، بل صار العالم كله وطناً وميداناً

1 - قمبر، محمود، التربية وترقية المجتمع، القاهرة: مركز ابن خلدون ودار سعاد الصباح، (1992)ص22

2 - زاهر، ضياء، القيم والمستقبل: دعوة للتأمل، مجلة مستقبل التربية، المجلد الأول، العدد الثاني، (1995)ص30

3 - حسن السيد الشحات أحمد : الصراع القيمي لدى الشباب ومواجهته من منظور التربية الإسلامية، القاهرة: دارالفكر العربي (1988

لنشاطها، وصار العالم كله يدور في نظام اقتصادى عالمى واحد، غير أن العولمة لم تعد تقوم على أبعاد اقتصادية فقط، بل أصبحت سمة للحياة كلها في هذا العصر (1)

أما العولمة في بعدها الثقافى والاجتماعى وهو أخطر أبعادها فتعنى إشاعة قيم ومبادئ ومعايير ثقافة واحدة وإحلالها محل الثقافات الأخرى (2) وهذا معناه تلاشى القيم والثقافات القومية وإحلال محلها القيم الثقافية للبلاد الأكثر تقدماً تكنولوجياً واقتصادياً وخاصة أمريكا وأوروبا، (3)

2- تأثيرات العولمة على القيم (مخاطر العولمة على القيم) :

صار من المؤكد أن للعولمة تأثيراتها الفعالة على المجتمعات المعاصرة، سواء المتقدم منها أو النامي، وتمثلت أبرز تأثيرات العولمة في الجانب الاجتماعى، الذى تمثل في محاولة تكوين شخصية معولمة، تصير طبقاً لنظام عالمى تحكمه قوة طاغية مهيمنة، إذ سعت العولمة إلى محاولة القضاء على الإرث الإنسانى المقدس بالنسبة لنا كعرب ومسلمين، وذلك من خلال العمل على تعميم القيم الغربية، وخاصة الأمريكية، وذوبان الحضارات غير الغربية في النموذج الحضارى الغربى، بل وتعميم السياسات المتعلقة بالطفل والمرأة والأسرة، والتظاهر بالحفاظ على حقوقهم، ولكنها في الحقيقة تعمل على تفكيك الأسرة، واستلاب وعى الأفراد واقتلاع الجذور التى تربط الفرد بعائلته ووطنه وبيئته، واستغلال المرأة في الإثارة والإشباع الجنى وإشاعة الفاحشة في المجتمع،

كما أدى الانفتاح في استيراد المنتجات الغربية المادية وما يتبعها من أنماط ثقافية إلى تكوين أنماط سلوكية استهلاكية، وبالتالي سيطرة القيم الاستهلاكية على حساب قيم العمل المنتج لدى الأفراد، وبالتالي مقاومة أى حركة للتغيير الاجتماعى (4)

ومن الثابت أن هناك جانبين للقيم : قيم المحور المتمثلة في القيم الدينية بما يشتمل عليه من قيم وميراث ثقافى وحضارى، وتعتبر ثوابت مميزة لهوية المجتمع العربى والإسلامى فلا يعترضها أى تغيير، أما الجانب الثانى فيتمثل في قيم التفاعل الحضارى والعمل والإنجاز، وهى قيم وسيليه يعترضها التغيير طبقاً لمستجدات العصر، ومن هنا تتمثل خطورة العولمة في محاولة التأثير على قيم المحور، الأمر الذى أدى

1 - Oliver Boyd – Barrett : “international Communication and Globalization, Contradictions and Direction”, In : Ali Mahammody (Editor): International Communication and Globalization : Actitical Introduction”, London, Sage Publications, 1997, P.11

2 - جلال أمين : العولمة والهوية الثقافية، مجلة المستقبل العربى، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ع234، أغسطس 1998، ص 60

3 - إبراهيم مصعب الدليمى : التنشئة الاجتماعية للطفل العربى في ظل العولمة، مجلة شئون عربية، ع115، مطابع جامعة الدول العربية، القاهرة، خريف 2003م، ص ص 130-131، 134

4 - عبد الرحمن أحمد أحمد ندا : الدراسات العلمية في مجال القيم بكليات التربية في مصر - دراسة تقييمية، رسالة ماجستير، كلية تربية المنصورة، جامعة المنصورة، 1422هـ/2002م، ص ص 83-84

إلى تفاقم الشعور بالاعتزاز لدى الشباب، ووقوعهم في أزمة حضارية وفي صراع، لأنهم يحيون ويعيشون بين "ثقافتين متعارضتين في وقت واحد، إحداهما خارج النفس والأخرى مدسوسة في ثناياها، فترى حضارة العصر في البيوت والشوارع، بينما تجد حضارة الماضي رابطة خلف الضلوع (1)، لدرجة أن هؤلاء الشباب من شدة تعلقهم بالحضارات الغربية والحلم بالعيش في محيطها صاروا "يعانون حالة من الاعتزاز الثقافي، فهم وإن كانوا يعيشون على أرضنا إلا أن وجداناتهم وعقولهم مهاجرة مغتربة قيمياً وفكرياً (2)

3- التغييرات العلمية والتكنولوجية :

يعيش العالم ثورة علمية هائلة، وسيتعاضم حجمها وتأثيرها خلال الفترة القادمة من الزمن، وسيكون لها إسقاطاتها الفكرية والاجتماعية والسياسية على مختلف مناطق العالم، وبالتالي فإن تشكيل النظام العالمي سيتوقف على منجزات هذه الثورة العلمية والتكنولوجية التي تتدفق الآن بشدة، ومن الطبيعي أنه لن تحدث أى تغييرات علمية أو تكنولوجية دون أن يكون لها سلسلة من التوابع والانعكاسات، سواء كانت اقتصادية أو اجتماعية أو ثقافية، أو قيمية، سواء أكان ذلك على مستوى المجتمع العالمي، أو على المستوى المحلي، وسواء أكان بصورة سلبية أو إيجابية، ومن هذه الانعكاسات:

1- زيادة الترابط بين بقاع العالم والاعتماد المتبادل بين الأطراف الرئيسية لهذا التقدم العلمي

والتكنولوجيا (3)

2- الاتجاه المتزايد نحو استخدام الآلة في مجالات الحياة المختلفة، وتطور تكنولوجيا الآلات

المتناهية في الصغر، والتي من المتوقع أن تقلب النظم الاقتصادية والاجتماعية رأساً على عقب (4)

3- إحداث تغييرات في البنى الاجتماعية، لأن التقدم التكنولوجي سيعوض عن العمالة التي

تتطلبها الصناعة الآلية الكبيرة، ومن ثم أصبح ذلك مصدراً للبطالة وخاصة بين الشباب، الأمر الذي أدى إلى وجود فراغ كبير لدى الطبقة المؤثرة في المجتمع، وبالتالي أدى هذا الفراغ إلى اكتساب الشباب العديد من القيم التي تتعارض مع القيم المطلوبة في المجتمع، فاتجه الشباب، إلى العنف للتنفيس عن الطاقة التي لديهم، أو اتجهوا إلى عدم الولاء والانتماء لمجتمعهم بالصورة المطلوبة، لأن المجتمع لم يحقق لهم

1 - أحمد أبو الفتوح شبل : "الانفتاح الحضارى، مبرراته، شروطه، متطلباته التربوية"، مجلة كلية تربية المنصورة، ع34، مايو 1997، ص 268

2 - شريف دولار : تنافسية مصر في إطار النظام التكنولوجي الجديد، فى : محمد السيد سعيد (تحرير) : الثورة التكنولوجية - خيارات مصر للقرن 21، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، القاهرة، 1996، ص73

3 - على الدين هلال : "التحولات العالمية المعاصرة وأثرها على مستقبل التعليم في الوطن العربي"، الندوة التربوية لاجتماع المجلس التنفيذى لاتحاد المعلمين (استراتيجية التعليم في الوطن العربي في ضوء تحديات القرن الحادى والعشرين، جامعة الدول العربية، نقابة المهن التعليمية، القاهرة، 10-15 ديسمبر، 1994، ص189

4 - عبد الودود مكرم : "بعض متطلبات تنمية القيم العلمية لدى طلاب المرحلة الثانوية"، مستقبل التربية العربية، مجلد 8، ع27، المركز العربى للتعليم والتنمية، القاهرة، أكتوبر، 2002، ص86

أهدافهم، كما اعتمدوا على الاتكالية والسلبية وعدم تحمل المسؤولية، وإذا كانت هذه بعض السلبيات إلا أن الثورة العلمية والتكنولوجية أدت إلى ظهور وظائف جديدة تتماشى مع هذا التقدم ولعل أهم السلوكيات التي يتطلبها هذا التقدم التكنولوجي الهائل هو تقدير قيمة الوقت وقيمة النظام والتنظيم والتخطيط السليم وتحمل المسؤولية في إدارة شئون الحياة ومجالاتها بدءاً من محيط الأسرة إلى موقع العمل إلى المشاركة في الحياة العامة وهذا معناه أن الشباب الجزائري في حاجة ماسة إلى تمثل قيم جديدة كالمثابرة والصبر على العمل والإصرار والابتكار

الخلاصة :

ومن خلال ما سبق يمكن أن نخلص أن القيم بمختلف مجالاتها تعيش تحديات هذه الأخيرة كان لها إنعكاساتها على الشباب الجزائري والمتمثل في :

تشنت أفكار الشباب مما يجعلهم يعيشون قلقاً حقيقياً و ينصب هذا القلق على القيم المطلوبة للسلوك الصحيح، هل هي القيم التقليدية أم القيم الجديدة؟ و كيفية التوفيق بينهما في عدة مجالات؟ كما وقع شبابنا في تشنت واضح في الأهداف والغايات وعدم قدرته على التمييز الواضح بين ما هو صواب وما هو خطأ في كثير من الأحيان مما أدى إلى بتنامي ظاهرة العنف و انتشار ظاهرة الهجرة السرية (الحرقة)، إنتشار البطالة في اوساط الشباب و سيطرة القيم الاستهلاكية لديهم على حساب قيم العمل المنتج، واغترابهم شبه التام عن قيم المجتمع ،نتيجة موجة التحديات التي تواجهها القيم والتي كان لها تأثير كبير على قيم المجتمع وخاصة الشباب .

أما عن آليات تحقيق التوافق والتفاعل الإيجابي بين هذه التحديات وتمسك الشباب بقيم المجتمع الجزائري والمحافظة عليها نرى ما يلي :

ضرورة العمل على التصدي للقيم السلبية السائدة في محيط الشباب الجزائري من خلال التنسيق بين مختلف مؤسسات التنشئة الإجتماعية ولما لا إعداد برامج وخطط تربوية وإجتماعية إعلامية وتحسيسية من أجل غرس وإنعاش القيم بمختلف مجالاتها لدى النشئ بالتركيز على تضمين المناهج التربوية للقيم الإيجابية .

✓ تشجيع الشباب على تحمل المسؤولية والاستقلالية، بحيث لا يعتمدون اعتماداً كلياً على الدولة في انتظار الوظيفة، بل يعتمدون على أنفسهم في شكل مشروعات صغيرة تؤمن لهم دخلاً مناسباً وفق الآليات التي توفرها الدولة من أجل خلق فرص عمل دائمة.

✓ الارتقاء بالإعلام وخاصة المحلي بمستوى البرامج المقدمة والتي تعمل على تكوين وتنمية القيم الإيجابية لدى الشباب الجزائري.

✓ تشجيع منظمات المجتمع المدني على القيام بالأنشطة المتنوعة ثقافية واجتماعية ورياضية وسياسية وغيرها من الأنشطة الموجهة للشباب والتي يمكن أن تساعد على تنمية القيم لديهم.

✓ الحوار بلغة ووسائل الشباب و في أوقات الشباب وفي مجالات اهتمامات الشباب والارتقاء بالخطاب الموجه إلى الشباب إلى الخطاب الذي يتجاوب مع تطلعاتهم والابتعاد عن الخطاب الديماغوجي و استغلال التطور المعرفي في الحفاظ على قيم المجتمع بالاعتماد على وسائل التواصل الاجتماعي .
قائمة المراجع :

- 1- إبراهيم مصعب الدليمي : "التنشئة الاجتماعية للطفل العربي في ظل العولمة"، مجلة شئون عربية، ع115، مطابع جامعة الدول العربية، القاهرة، خريف 2003.
- 2- أحمد أبو الفتوح شبل : "الانفتاح الحضاري، مبرراته، شروطه، متطلباته التربوية"، مجلة كلية تربية المنصورة، ع34، مايو 1997.
- 3- إيمان عبد الله شرف :التربية الأخلاقية للطفل، عالم الكتب، ط1 ، 2007.
- 4- بن مهرة ليندة لطيفة: ثقافة الأجيال الشاب واستراتيجيات تحقيق حاجاته ، حالة المديرية الجهوية نفضال تلمسان رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه ل.م.د تخصص علم الاجتماع التنمية البشرية السنة الجامعية 2015 / 2014 ص66-69
- 5- جلال أمين : العولمة والهوية الثقافية، مجلة المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ع234، أغسطس 1998.
- 6- حامد عبد السلام زهران :علم النفس الاجتماعي، عالم الكتب، ط6 ، 2003 .
- 7- حسن السيد الشحات أحمد : الصراع القيمي لدى الشباب ومواجهته من منظور التربية الإسلامية، القاهرة : دارالفكر العربي 1988
- 8- د.لطيفة طبال ، جامعة سعد دحلب البليدة ، مجلة العلوم الإنسانية والإجتماعية ، العدد 08 ، 2012
- 9- دور الشباب في عملية التغيير المجتمعي <http://www.wafainfo.ps/atemplate.aspx?id=3202> :
- 10- زاهر ، ضياء ، القيم والمستقبل : دعوة للتأمل، مجلة مستقبل التربية، المجلد الأول، العدد الثاني (1995) .
- 11- زكريا بشير إمام : أصول الفكر الاجتماعي في القرآن الكريم القضايا والنظريات، روائع مجدلاوي، ط 2000 .
- 12- سلمى سلمان علي : القيم الخلقية في الشعر الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، دار الآفاق العربية، ط1 ، 2007 .
- 13- شريف دولار : تنافسية مصر في إطار النظام التكنولوجي الجديد، في : محمد السيد سعيد (تحرير) : الثورة التكنولوجية - خيارات مصر للقرن 21، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، القاهرة، 1996.
- 14- الشيباني عمر محمد التومي : الأسس النفسية والتربوية لرعاية الشباب ، ط 3، الدارالعربية للكتاب، ليبيا 1987
- 15- عبد الرحمن أحمد أحمد ندا : الدراسات العلمية في مجال القيم بكليات التربية في مصر - دراسة تقييمية، رسالة ماجستير، كلية تربية المنصورة، جامعة المنصورة، 1422هـ/2002.
- 16- عبد الله بوجلال: الشباب الجزائري وبرنامج التلفزيون الأجنبي-دراسة ميدانية، (مجلة البحوث، ع03، 1996)
- 17- عبد الودود مكرم : "بعض متطلبات تنمية القيم العلمية لدى طلاب المرحلة الثانوية"، مستقبل التربية العربية، مجلد 8، ع27، المركز العربي للتعليم والتنمية، القاهرة، أكتوبر، 2002.
- 18- على الدين هلال : "التحولات العالمية المعاصرة وأثرها على مستقبل التعليم في الوطن العربي"، الندوة التربوية لاجتماع المجلس التنفيذي لاتحاد المعلمين (استراتيجية التعليم في الوطن العربي في ضوء حديات القرن الحادي والعشرين، جامعة الدول العربية، نقابة المهن التعليمية، القاهرة، 10-15 ديسمبر، 1994 .
- 19- على خليل مصطفى : القيم الإسلامية والتربية - دراسة في طبيعة القيم ومصادرها ودور التربية الإسلامية في تكوينها وتتميتها، مكتبة إبراهيم حلي، المدينة المنورة، 1988.
- 20- عزت حجازي: الشباب العربي و مشكلاته ، المجلس الوطني للثقافة و الفنون، الكويت ، 1985 .
- 21- نورهان منير حسن فهمي : القيم الدينية للشباب من منظور الخدمة الاجتماعية، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، 1999

- 22- قمبر، محمود، التربية وترقية المجتمع، القاهرة: مركز ابن خلدون ودار سعاد الصباح، 1992 .
- 23- كمال بوقرة: «الأبعاد المعرفية للتغير القيمي في المجتمع الجزائري» مجلة العلوم الاجتماعية العدد: 08 جانفي 2009 .
- 24- ليلة علي : البنائية الوظيفية في علم الاجتماع والانثروبولوجيا: المفاهيم والقضايا، القاهرة: دار المعارف، 1983 .
- 25- ماجد زكي الجلاد: تعلم القيم وتعليمها تصور نظري وتطبيقي لطرائق واستراتيجيات تدريس القيم، ط1، دارالمسيرة للنشر والتوزيع، عمان، 2007
- 26- محمد عبد الغاني حسن: مهارات إدارة السلوك الإنساني متطلبات التحديث المستمر للسلوك، مركز تطوير الأداء والتنمية، مصر الجديدة، ط 2، 2005 .
- 27- محي الدين أحمد حسين: القيم الخاصة لدى المبدعين، دار المعارف، القاهرة، 1986
- 28- وضحه على السويدي: تنمية القيم الخاصة بمادة التربية الإسلامية لدى تلميذات المرحلة الإعدادية بدولة قطر - برنامج مقترح - دار الثقافة، الدوحة ط 1، 1989
- 29- Oliver Boyd – Barrett : “international Communication and Globalization, Contradictions and Direction”, In : Ali Mahammody (Editor): International Communication and Globalization :Actittical Introduction”, London, Sage Publications, 1997,

الشباب الجزائري و استخدامات الهاتف النقال مقاربة إتصالية و إجتماعية

أ/ بلعباس إبراهيم *

مقدمة :

تُعد تكنولوجيا وسائل الإعلام و الاتصال من أبرز مظاهر هذا العصر نتيجة الانتشار الواسع و السريع في مُعدلات استخدام و ملكية وسائل الاتصال لدى الناس و التي ساهمت بشكل كبير في تقريب المسافات ، و اختصار الوقت و زادت من فرص الاتصال و التواصل بين الأفراد و الجماعات في سياق عام من التفاعل الإنساني ضمن ما يُسمى بعالمية الاتصال في إطار القرية الكونية التي دَعَا إليها " مارشال ماك لوهان " في أوائل الستينيات من القرن الماضي.

ولقد تعددت البحوث و الدراسات حول تملك و استخدام وسائل الإعلام و الاتصال لدى الأفراد بصفة عامة و في أوساط الشباب على نحو خاص، لأن دراسة استخدام الشباب للوسائل الاتصالية يتطلب الفهم الجيد لهذه الشريحة من الناحية النفسية و الجسمية و العقلية و الاجتماعية و الثقافية كذلك من مُنطلق أن هذه الفترة تتقاطع مع مرحلة المراهقة التي تُعتبر الفترة العمرية الحساسة التي يمر بها الفرد ولأن الهواتف النقالة اليوم أن تقوم بوظائف وسائل الاتصال المتعددة فهي تقوم بتقديم مضامين إعلامية للمستخدمين من الشباب، بالإضافة إلى مختلف الخدمات الترفيهية و المعلوماتية و الاتصالية. و يساهم الهاتف النقال في الوقت الراهن بالنسبة للشباب في إنتاج الثقافة المتعلقة باستخدام هذا النوع من وسائل الاتصال الحديثة من خلال التظاهرات السلوكية و ما يُصاحبه من إنتاج و تبادل مضامين سمعية . مُصورة . نصية) بين مستخدمي الهواتف النقالة : بمعنى أن مظاهر ثقافة استخدام الشباب للهاتف النقال أضحت أكثر بروزا و ظهوراً في شكل سلوكيات تتجلى من خلال انشغال الشباب في إجراء المكالمات الهاتفية على المباشر في الأماكن المفتوحة و الاستماع لموسيقى MP3 على الهواتف النقالة، و أخذ صور للأحباب و الأصحاب و أفراد العائلة و المناظر الجميلة، كما يستخدم الشباب الهواتف النقالة في أخذ مقاطع فيديو للذكريات و الأحداث الخاصة و المهمة...الخ، و تشكل هذا الاستخدامات الأوجه الجديدة لثقافة استخدام الهاتف النقال لدى الشباب داخل المجتمع الجزائري ، و هي بذلك تُساهم في ترسيخ سلوكيات حديثة حداثا اعتماد الهاتف النقال كوسيط اتصالي في العلاقات الاجتماعية.

و للإلمام بهذا الموضوع سوف نحاول طرح الإشكالية التالية: كيف يُمكن توصيف استخدام الشباب الجزائري للهاتف النقال من منظور اتصالي و إعلامي و تواصل في سياق تلبية إحتياجاتهم

* أستاذ علوم الإعلام و الاتصال بكلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية بجامعة حسيبة بن بوعلي " الشلف " .

brahimhmani@yahoo.fr

الاتصالية و النفسية و الاجتماعية و الثقافية ؟. و قبل أن التطرق إلى جملة العناصر التي تُجيب على مُختلف جوانب الإشكالية سوف نقدم أهم التعاريف للمفاهيم المفتاحية لهذا المقال كما يلي :

أ/ **الشباب:** إن الشباب يُمثّلون عُضرا مُهما من عناصر الثورة البشرية في المُجتمع ، و يُعرف المَعجم الوسيط الشباب " هو من أدرك بين البلوغ إلى سن الكهولة و الشباب هو الحداثة " أما في قاموس المصباح المُنير فالشباب يَعني النشاط و القوة و السرعة. كما يُشير قاموس " **ويستير** " لمُصطلح الشباب على أنه :

- فترة من مراحل العمر المُبكرة.

- فترة العمر التي تكون بين مرحلتين الطفولة و الحداثة و المراهقة.
فترة النُمو المُبكرة⁽¹⁾.

ب/ **الشباب الجزائري:** نَقصد بالشباب في هذه الدراسة شريحة من الشباب الجزائري من الذين سَيقع عليهم الاختيار لِتشكيل عينة الدراسة الميدانية بما يُحقق التمثيل الجغرافي عبر كامل مناطق الوطن، على أن تتراوح أعمارهم ما بين 17 و 28 سنة من الجنسين و يُشكلون فئَة مُتجانسة إلى حد ما و يَشتركون في مجموعة من الأهداف و الخصائص الاجتماعية و الثقافية.

ج/ **الاستخدامات (الاستخدام):** يُشير مفهوم الاستخدام حسب **Proulx** إلى معنى ماذا يفعل الناس حقيقة بالأدوات أو الأدوات التقنية ؟ لأن مفهوم الاستخدام يُحيل بدوره إلى مسألة التملك الاجتماعي للتكنولوجيات يُسائل علاقة الأفراد بالأشياء التقنية و بِمحتوياتها أيضا. كما أن الاستخدام فيزيائيا يُحيل إلى استعمال وسيلة إعلامية أو تكنولوجية ، و عليه فإن مفهوم الاستخدام يقتضي أولا إمكانية الوصول إلى تكنولوجيا ما، بِمعنى أن تكون مُتوفرة فيزيائيا (ماديا) حتى نستطيع الحديث عن الاستخدام، ثم ضرورة أن يَتِم تبني هذه التكنولوجيا⁽²⁾.

و نقصد بِالاستخدام في هذا المقال هو طبيعة الخدمات و التطبيقات التي يُقدمها الهاتف النقال بوصفه وسيلة - اتصال و إعلام- لدى مُستخدميه من الشباب الجزائريين. و يأخذُ هذا الاستخدام صِفة التكرار و الاعتياد بشكل فردي أو جماعي بما يُشكل نمط ثقافي اتصالي متفرد و مرتبط بالخصائص النفسية و الاجتماعية لديهم ، و يتنوع من حيث أهدافه لِتلبية الحاجات الاتصالية المختلفة لهذه الفئة من الشباب .

(1) - محمد سيد فهمي ، العولمة و الشباب من منظور اجتماعي ، الطبعة الأولى ، دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر، الإسكندرية، 2007، ص 85.

(2) - عبد الوهاب بوخنوفة ، الأطفال و الثورة المعلوماتية: التمثل و الاستخدامات، مجلة اتحاد الدول العربية (النسخة الالكترونية)،

د/ مفهوم الهاتف النقال: الهاتف النقال أو الهاتف الجوال أو الهاتف الخليوي أو الهاتف المحمول هو أحد أدوات الاتصال الذي يعتمد على الاتصال اللاسلكي عن طريق شبكة من أبراج البث الموزعة ضمن مساحة معينة.

و الهاتف النقال هو" عبارة عن جهاز اتصال صغير الحجم مربوط بشبكة الاتصال اللاسلكية و الرقمية يسمح ببث و استقبال الرسائل الصوتية و النصية و الصور عن بُعد و بسرعة فائقة و يُوصف بالخليوي أو النقال أو المحمول أو الجوال"⁽¹⁾. و تكنولوجيا الاتصالات أصبحت الصناعة الأكثر نمواً في العالم، و هي بذلك تُشكل تحديات مُتنامية على مستوى القيم الاقتصادية و الاجتماعية و السلوكية ، و يشهد العالم اليوم النقاء و تلاحم بين تقنيات الاتصالات و الشبكات مما يُعطي حرية أكبر للاتصال الشخصي⁽²⁾ بالهاتف النقال* عبر شبكات النظام الخليوي. و الهواتف الخلية Cellular telephones تُشكل أكثر أنواع الاتصالات اللاسلكية شيوعاً، و يُسمى بالخليوي لأن كل منطقة خدمة تُقسم إلى عدة خلايا Cells أو محطات خلية Cell stations ، و يُمكن تحويل النداءات الخلية من محطة قاعدية إلى أخرى عندما ينتقل المُستخدم من منطقة إلى أخرى⁽³⁾.

1 - الهاتف النقال و تاريخ تطوره التكنولوجي.

يُعد الهاتف النقال من بين أكثر و أهم الوسائل الاتصالية الحديثة المُعتمدة في عمليات التّواصل الاجتماعي داخل المُجتمعات ، و هو ما يتجسد من خلال دوره المُتنامي و المُتمثل في ربط الأفراد مع مُحيطهم الأُسري و الاجتماعي، و تُسجل اتصالات الهواتف النقالة اليوم أعلى مُعدلات النمو نظراً لازدياد مُستخدمي الهواتف النقالة على المُستوى الدّولي و الذي تجاوز رقم 4,6 مليار مُستخدم سنة 2009 حسب آخر الإحصائيات المُقدمة من طرف الاتحاد الدولي للاتصالات ، و بينما إنتقل عدد

(1) . فضيل دليو، مدخل عام إلى الاتصال الجماهيري، مخبر علم اجتماع الاتصال، جامعة منتوري بقسنطينة، 2003، ص 128.

(2) . بشير عباس العلق، تكنولوجيا المعلومات و الاتصالات و تطبيقاتها في مجال التجارة النقالة، الطبعة الأولى، منشورات المنظمة العربية للتنمية الإدارية ، مصر ، 2007 ص 8 .9.

* بلغ وزن أول هاتف نقال 40 كيلوغرام، و كان مصمماً لوضعه في صندوق السيارة. كما شهد هذا الجهاز عدة ثورات تقنية هامة عبر محطات تاريخية بارزة جعلت منه أكثر وسائل الاتصال استخداماً من طرف الإنسان اليوم.

(3) . بشير عباس العلق، المرجع نفسه، ص 29.

مشتركي الهواتف النقالة في الجزائر 26.6 مليون مشترك بتاريخ 10 أكتوبر من سنة 2008⁽¹⁾ ، إلى عدد المشتركين سنة 2015 إلى 43 مليونا و227 ألف⁽²⁾.

و لقد إعتلى الهاتف النقال هذه المَكانة من أعلى هَرم وسائل الإعلام و الاتصال الحديثة بِقَصل خَصاصه الفريدة و إسهاماته الكبيرة في تَسهيل حياة و اتصالات بَني البشر حيث يُوفّر اقتصاد الوقت و قَضاء حَوائج الناس بِسرعة و يُخفّف من عَناء التَنقّلات اليومية لِتلبية مِختلف المَشاغل البَعيدة. لِذلك يُمكن اعتبار الهاتف النقال في وقتنا الحاضر الأَنييس الأَكثر مُلائمة لِلإنسان; في حين تَنصّح أَهميته الاتصالية من خِلال حَجم المُكالمات الخلوية المُتداولة بين الناس و مُستويات الإنفاق عليه في اليَوم و الشَهر و السَنة.

و لا يزال يَسُود النِقاش حول ماهية الهاتف النقال من ضِمن عائِلة وسائل الإعلام و الاتصال الأُخرى : من حيث إِمكانية اعتباره وسيلة اتصال و تواصل تَجَمع بين طرفي الاتصال أثناء إجراء المُكالمات الهاتفية و التي يَتِم فيها تَبادل الكلام و الآراء و الأفكار و الأحاسيس و العواطف على نَحو مُتَقَرِد* و خاص ، و بين من يَرى أن الهاتف النقال بِفضل ما يُميزه من خَصاص تَقنية و يُتيحهُ من تَطبيقات و خَدمات مُبتكرة لا حَصر لها يُمكن اعتباره في هذه الحالة وسيلة إعلام مُتطورة يُوفّر لِمُستخدميه كُل ما يَحتاجهُ الفرد من مَضامين إعلامية : مَقروءة، مَسموعة، مَرئية، مَسموعة/مَرئية على شاشته الصَغيرة، مِثله مِثل باقي وسائل الإعلام الجماهيرية التي تُقدّم لِجُمهورها مَضامين إعلامية مُختلفة.

و لِأجل ذلك سوف نُقدّم مَجموعة من التعاريف المُتباينة لِوسيلة الهاتف النقال الذي لا يزال يَنتَطور في خَصاصه التَقنية و كذا في خَدماته المُستحدثة ، الأمر الذي يُصعِب من إعطاء تَعرِيف نِهائي لِهذه الوسيلة التي تُعرِف البِدايات الأولى لِثورة الاتصالات الخلوية.

(1) . كَشف بيان لِسلطة ضبط البريد و المواصلات السلكية و اللاسلكية بأن عدد المُشتركين في الهاتف النقال بلغ 26,6 مليون مُشترك.

(2) . حسان حويشة ، بوابة الشروق الالكترونية ، تقرير رئيس مجلس سلطة الضبط للبريد والمواصلات السلكية واللاسلكية محمد توفيق بسعي حول نشاط هيئته لسنة 2015 ، تاريخ الولوج 2016/04/10 ، على الساعة 10 صباحا ، أنظر الرابط التالي على شبكة الانترنت: <https://www.shorouknews.com/news/view>

* لِأن مُكالمات الهاتف النقال تُشكل في هذه الحالة خِطاب مُتَقَرِد (خاص) يَتِم تَداولُهُ بين المُتَهاَتِفين عبر مُكالمات الهاتف النقال، و الذي لا يُشبههُ أي خِطاب آخَر حَتى و لَو كان فيما بين نفس الشَخصين المُتَحدِثين عبر الهاتف النقال مرة ثانية، و هُو ما يُمِثل فرق جَوهري مُقارنة بِالرسائل المُتبادلة عن طريق وسائل الإعلام الأُخرى مِثل : التلفزيون ، الصحافة المَكتوبة و الإذاعة : أين يكون مَضمون الرسالة مُوجه إلى جَماهير عريضة من المُتلقيين الذين يَسَاقِبون نفس مَضمون الرسالة و في نفس الوقت (في الإذاعة و التلفزيون) و عبر نفس الصفحات في الصحافة المَكتوبة الورقية.

و تُرجع البدايات الأولى للهاتف النقال إلى ما كان يُعرف باسم المذياع الهاتفي Radiotéléphone الذي نتج عن تطور التليغرافيا اللاسلكية في أوائل القرن العشرين ، و بعد ظهور أول شبكة اتصالية راديوفونية عام 1928 في إنجلترا، و استمر البحث في مجال اللاسلكي لتحسين النوعية و المدى ، حيث تمّ عام 1948 م اكتشاف طريقة جديدة يسّرت الاتصال بكلّ من لديه جهاز خاص، و بعدها تطورت أنظمة هاتفية جديدة لفائدة المواطنين الأغنياء من الانتفاع بهذه الخدمات قبل أن تتخفّض أسعاره و ينتشر بين الأوساط الاجتماعية الأخرى، و نتيجة لذلك انتشرت الهواتف النقالة ليتجاوز عدد مالكيها في الوقت الحالي 4,6 مليار مُستخدم في العالم و هم مُوزعين بشكل مُتفاوت بين مُختلف دول العالم (المُتقدمة و الفقيرة) و حتى داخل الدولة الواحدة، كما قدرت شركة "إن- ستات/ أم دي آر" أن عدد أجهزة الهواتف النقالة التي تمّ بيعها في الولايات المتحدة عام 2004 م بـ 660 مليون جهاز و قد تم شراء ثلاثة أرباع هذه الكمية لتحل محل الأجهزة القديمة⁽¹⁾.

و من الأنظمة الهاتفية المُبتكرة نجد النظام الهاتفي الأمريكي (AMPS) عام 1978، و نظام (NMT) في دول الشمال الأوربي الذي يعتمد على النظام التماثلي المُتحرك الذي أصبح حينها أول خدمة راديو هاتفية عمليّاتية خلوية في العالم. و بعد ذلك ظهر في بريطانيا النظام الخلوي الشامل (TACS) المُتفرع عن النظام (AMPS) ، ليتم بعدها ظهور عدة أنظمة اتصالية هاتفية وطنية مُختلفة التقنيات و المعايير الاتصالية ، و أنماط الأجهزة المُتباينة مما قلل من فاعلية الاتصالات الدولية، و هو ما دفع بمعظم الدول الأوربية إلى تكوين لجنة مشتركة عام 1982 كلفت بالعمل على إنشاء شبكة جديدة للاتصالات اللاسلكية تسمّح باعتماد نظام رقمي مُشترك.

و في أكتوبر 1991 أعلن رسمياً عن ظهور النظام الأوربي الشامل للاتصالات المُتحركة GSM " Global System for Mobil " و الذي عرف رواجاً كبيراً في مُختلف المُجتمعات عبر كامل العالم منذ 1998 بعدما جُهزت شبكته العالمية بأنظمة راديو شامل بفضل 66 قمر يُغطي جميع مناطق العالم ، بالتالي يسمّح نظام " جي أس أم " لمستخدميه من التّجوال في بقية الدول مع ضمان التّواصل على الهواتف النقالة، لأن هذا النظام يُوفر إمكانيّة خلق قابلية التّجوال المُطلوب مع شبكة خلوية رقمية وحيدة من خلال التّعاون بين المُشغلين الوطنيين حيث أن هناك عوامل ساعدت في تطوّر هذا النظام و التي منها⁽²⁾:

* الحاجة إلى مقياس مُوحد. * الحاجة إلى التّجوال الدّولي. * الحاجة إلى قُدرة أكبر و سعة

أكبر.

(1) . أنظر شبكة النّبأ المعلوماتية على الموقع الإلكتروني التالي : www.annabaa.org

(2) . المؤسسة العامة للتعليم الفني و التدريب المهني ،الاتصالات المُتتقلة

* الحاجة إلى خدمات كثيرة. * الحاجة إلى أجهزة و معدات مُنخفضة التكاليف.

و لقد حظي الهاتف الخليوي أصلاً بقبول واسع بوصفه ظاهرة عالمية اجتماعية، غير أن إدخال إضافات على قدرات الأجهزة الخليوية تثير طائفة جديدة من الأسئلة بالنسبة لصناعة الهاتف الخليوي على الصعيدين التكنولوجي والاجتماعي⁽¹⁾، بعد أن كان الهاتف النقال مجرد فكرة تُثير العجب و الدهشة قبل عقود من الزمن.

2 - أجيال الهواتف النقالة في ملاحقة مُبتكرات الخدمات الاتصالية.

لقد أكملَ الهاتف الثابت ما بدأته البرقية، و أدى الطابع الشخصي للمكالمة الهاتفية المباشرة التي تتجاوز المسافات البعيدة من بلد إلى بلد و من قارة إلى قارة إلى زيادة سرعة إيقاع الحياة اليومية في كل مجالاتها، و عليه فإن الهاتف النقال هو أول اختراع نُؤمِن بأننا لا نستطيع التخلي عنه في حياتنا على كثرة الاختراعات المفيدة، و جدير بالتذكير إلى أن " ألكسندر جراهام بال" كان يقول " إنني مُقتنع تمام الاقتناع بأنني ما كنت لأخترع الهاتف لو لم أكن مُهندس كهربائياً ، فكيف تخطر فكرة جُنونية كفكرة الهاتف ببال مُهندس كهربائي ، بل إنني لازلت إلى اليوم لا أفهم كيف يُمكن أن يتكلم إنسان في واشنطن فيسمعُه آخر يقف أسفل بُرج إيفل"⁽²⁾.

و لكن منذ ذلك التاريخ عرف الهاتف العديد من التحديثات التقنية وصولاً إلى الهاتف النقال من الجيل الثالث و الرابع الذي يسمح بإجراء المكالمات البعيدة بعيداً عن الأسلاك النحاسية و تبادل الملفات و البيانات بين المُستخدمين داخل شبكات الهاتف النقال.

و تعود نشأة فكرة استخدام الهاتف النقال من فكرة " الراديو" فقد وجد الباحثون أنه من المُمكن تطوير تكنولوجيا جديدة لاستقبال و إرسال البيانات عبر مجموعة من الترددات التي يُمكن استخدامها عدة مرات عن طريق ضَغَط البيانات و إرسالها عبر وحدات زمنية قصيرة جداً لإجراء مجموعة من المكالمات الهاتفية في نفس الوقت، و تعتمد هذه التكنولوجيا على وحدة أساسية تُسمى الخلية و التي تُعتبر جزء من النظام الخليوي للشبكة⁽³⁾.

و بالفعل لقد أدت الثورة التكنولوجية العالمية إلى الدمج بين عالمي الاتصالات و المعلومات في عالم واحد يُسمى البنية المعلوماتية الموحدة ، و هذا التسارع الكبير نحو الحصول على المزيد من المعلومات بفضل الاعتماد المتزايد على شبكات الهاتف النقال، وظهرت أجيال من تلك الشبكات، و قدّم كل جيل وثبات أسرع و إمكانيات أوسع في الاستخدام بحيث زاد من أهمية الهاتف النقال في نقل و

(1) . من الموقع التالي على شبكة الانترنت : <http://www.swissinfo.ch/ara/archive.html>

(2) . إيجون لارسن، قصة الاختراعات و أشهر المخترعين، ترجمة لجنة من الأخصائيين، دار القلم، لبنان، دون سنة نشر ص 355.

(3) . مجلة لغة العصر، العدد الثامن ، فيفري 2001، ص 90.

الحصول على المعلومات، و إن كان الفضل يرجع إلى نجاح الجيل الأول من الهواتف النقالة في نقل الصوت في اتجاهين، و يُعتبر هذا الانجاز فاتحة لتطوير تلك الصناعة ، و في خضم أعوام قليلة دخل العالم إلى مرحلة استخدام الجيل الثاني من الهواتف النقالة، و هذه المرحلة سمحت بنقل البيانات بالنظام الرقمي الثنائي و بسرعة كبيرة. في حين عرفت مسيرة تقدم تكنولوجيا الهاتف النقال عدة وثبات تقنية أو ما يُعرف بأجيال الهاتف النقال⁽¹⁾: **الجيل الأول**: بدأ الهاتف الخليوي المتنقل في تقديم الخدمة الهاتفية التجارية العامة منذ عام 1981م بظهور الأنظمة التناظرية للهاتف الخليوي المتنقل، و التي مازالت تؤدي دورها على الوجه المطلوب، إلا أن عدم التوافق بينهما (الاختلاف في المعايير) الأمر الذي يمنع التجوال الدولي باستلام أجهزة المشتركين الطرفية، و لم تظهر الحاجة إلى زيادة السعة الاستيعابية للأنظمة التناظرية إلا في عام 1984م حين بدأ يتضح قُصور السعة المتاحة فيها عن الوفاء بالاحتياجات المتزايدة، بل و أصبح جلياً عام 1986م أن سعتها الاستيعابية سوف تتلاشى في أوائل التسعينيات.

الجيل الثاني : و تتميز أنظمتها باستخدام التقنية الرقمية للتراسل، و الأنظمة الرقمية لترميز الإشارات و تمتاز بقدرات و إمكانيات كبيرة في مُقدمتها الطيف الترددي الواسع، مع إمكانية تقديم الخدمات الجديدة (غير الصوتية) و القدرة على الوفاء بالاحتياجات المستقبلية المتزايدة، و توفر القدرة على التجوال مع الشبكات الرقمية الأخرى. و لقد طُورت أنظمة الجيل الثالث أساساً لنقل الصوت مع إمكانية تبادل البيانات البطيئة، و من المتوقع أن تستهلك السعة لمُتاحة للأنظمة الجيل الثاني في المستقبل القريب مما يدعو لتطوير أنظمة أقوى و أكثر سعة.

الجيل الثالث: بعد سلسلة من التحديثات التكنولوجية التي أدخلت على أنظمة و شبكات الاتصال تم الانتقال إلى الجيل الثالث من الهواتف النقالة التي تتميز بالسرعة العالية في نقل البيانات المختلفة و تقديم خدمات لم تكن ممكنة مع أنظمة الأجيال السابقة كخدمات الفيديو و الوسائط المتعددة ذات الدقة العالية ، كما يُتيح الجيل الثالث من الهواتف النقالة إمكانية تصفح الانترنت بسرعة عالية التدفق و من مشاهدة صورة المُتحدّث معه (المُتصل) من خلال المؤتمرات المُصورة Video Conferencing، لينتقل محور الاهتمام عبر هذا النوع من الهواتف المرئية بين طرفي الاتصال من تعبير " ألو هل تسمعني جيداً إلى ألو هل تراني جيداً " .

الجيل الرابع : عكف شركات الصناعة لأجهزة الهواتف النقالة على تطوير شبكات الهاتف النقال المُستقبلي من الجيل الرابع 4G* الذي سيضاعف من سرعة الاتصال إلى حدود 100ميغابايت في الثانية

(1) . حسن عماد مكاوي و محمد سليمان علم الدين، تكنولوجيا المعلومات و الاتصال، جامعة القاهرة، 2000، ص 172 . 173 .

* أطلق مُتعامل الهاتف النقال في الجزائر (موبيليس ، جيزي، نجمة) خدمة الجيل الرابع للهاتف النقال بعد الأسبوع الثاني من شهر أكتوبر 2016 ، حيث إختار كل مُتعامل ثلاث ولايات كمرحلة أولى من إطلاق هذه الخدمة على أن تعمم عبر كامل الولايات المُتبقية بالتدريج.

، كما من المتوقع أن يُوفّر خدمة " الشات " Chat بالصُور عالية الوضوح و دعم تطبيقات الولوج إلى شبكة الانترنت عالية التدفق بفضل تقنيات WiMax التي سَتُساهم في الاندماج الكلي لشبكتي الهاتف النقال و شبكة الانترنت⁽¹⁾ و خلال السنوات القليلة القادمة سَوف يكون الهاتف النقال حاسوبًا وتليفزيونًا وجريدة و مكتبة و مُفكرة شخصية، و بطاقة ائتمان في نفس الوقت.

و بداية من شهر أكتوبر 2016 أطلقت شركات الهاتف النقال في الجزائر خدمات الجيل الرابع للهاتف النقال التي سَتتيح تطبيقات و خدمات حديثة و تُقدم حلول اتصالية لمستخدميها من الأفراد و المؤسسات : كخدمات التّجوال الدولي و الفاكس و البريد الالكتروني و الرسائل القصيرة و المُصورة و غيرها من الخدمات كالاستماع لِإشراخ الأخبار و عشرات الخدمات الصّوتية و المرئية الأخرى عالية الوضوح و التلفزيون الهاتف HD و تسريع الولوج إلى خدمات الانترنت باستخدام الهاتف النقال عن ما كان عنه في الجيل الثالث للهاتف النقال ، و قام المتعاملون الثلاثة بإطلاق حملات دعائية ترويجية لاستمالة المشتركين لإقناع شرائح الجيل الرابع مع أجهزه هواتف من الجيل الرابع بأسعار تنافسية و ذلك عبر مُختلف الوسائل الإعلامية و الاتصالية و التواصلية (عبر الفاييس بوك).

و شبكات الجيل الرابع 4G توفر مجموعة من التقنيات و التطبيقات التي تفوق إتاحت الأجيال السابقة من الهواتف النقالة ، و تتميز شبكات الجيل الرابع بالسرعة العالية مع التغطية الجغرافية الواسعة ، و أهم تقنيات هذه الشبكات هي تقنية "الوي ماكس WiMax"⁽²⁾.

و يرى الكثيرين من المهتمين بتكنولوجيا الاتصالات بأن المُستقبل سَوف يكون للهاتف النقال على ضوء النجاح الباهر الذي حقّقه حتى الآن سواء من حيث عدد مُستخدميه أو من حيث التّحديثات التي تُضأف له يوميا حتى يستجيب للخدمات المُستقبلية ، و من المُتوقع أن تشهد صناعة الهواتف النقالة في العالم منعطفًا جديدًا؛ وحينها سوف لن يقتصر استخدام الهاتف النقال على إجراء وتلقي المكالمات الهاتفية و الاكتفاء بما هو موجود من خدمات فقط ، بل سَتتعدأها أيضاً لتطبيقات الحوسبة المعلوماتية المختلفة؛ لأن الأجيال الحالية للهواتف النقالة يُمكن التعامل مع البريد الصّوتي voice mail و البريد الالكتروني و الفاكسات و الربط بشبكة الانترنت و الوصول إلى شبكة الاتصال الخاصة بالمؤسسات ، كما أن هذا النوع من الهواتف الذكية مُجهزة ببرمجيات مُتصفح الويب، و يوفر الوضع القائم فرصة مثالية لدراسة الإمكانيات الفائقة والمتعددة التي تُوفرها أجهزة الهواتف النقالة و بخاصة في مجال خدمات التراسل بكافة تقنياتها.

⁽¹⁾ Benjamin Ferran , Où en est la téléphonie mobile 4G?.Magazine de L'EXPANSION- version (1) numérique- le 04/06/2008.(www.L'expansion.com)

⁽²⁾ . جبريل بن حسن العريشي و سلمى بنت عبد الرحمن محمد الدوسري ، الشبكات الاجتماعية و القيم . رؤية تحليلية . الدار المنهجية للنشر و التوزيع ، الطبعة الأولى ، عمان ، 2015 ، ص 158.

3 - سوق الهاتف النقال في الجزائر ... مؤشرات دالة:

يشهد اليوم سوق الهاتف النقال في الجزائر نشاط ثلاث متعاملين: متعامل وطني تحت العلامة التجارية "موبيليس" و مُتعاملين أجنيين هما (أوراسكوم تيليكوم الجزائر OTA صاحبة العلامة التجارية "جيزي" و شركة نجمة (أوريدو) ، و لقد فاقت الكثافة الهاتفية في الهاتف النقال في الجزائر نسبة 100% حيث بلغ حسب تقديرات سلطة الضبط للبريد و تكنولوجيات الإعلام و الاتصال عدد المشتركين سنة 2015 م 43 مليوناً و 227 ألف : أي أن هناك من يملك شريحتين على الأقل : و موزعين على النحو التالي (شركة " جازي" بـ 16.6 مليون مشترك بنسبة 38.43% ثم موبيليس بـ 14.3 مليون مشترك أي بنسبة 33.12% ، ثم "أوريدو" بـ 12.29 مليون مشترك أي ما نسبته 28.45%)، و من بينهم 16 مليوناً و 319 ألف في الجيل الثالث، في حين بلغ رقم أعمال سوق الهاتف النقال 4.33 مليار دولار أمريكي بارتفاع وصل 7 بالمائة مقارنة بسنة 2014⁽¹⁾.

و تؤكد هذه الأرقام حقيقة الديناميكية السريعة في استخدام الهواتف النقالة بين مختلف شرائح المجتمع الجزائري بوصفه وسيلة اتصال شخصية و يُقدّم خدمات إعلامية و اتصالية جديدة لمستخدميه ، مما مكنه من احتلال مكانة مهمة ضمن وسائل الإعلام و الاتصال الجماهيرية الأخرى المستخدمة في المجتمع الجزائري ، و بخاصة لدى فئة الشباب من الذين لم يقتصر استخدامهم للهاتف النقال في إجراء المكالمات الهاتفية العادية بل تعداه لتلبية رغباتهم و حاجاتهم : التواصلية و الاجتماعية و النفسية و الاقتصادية و الثقافية التي تُشكّل صلب اهتماماتهم اليومية.

و رغم الاختلاف المبدئي حول درجات الرضا و الإشباع المنتظرة على المستويات النفسية و الاجتماعية و الثقافية و الاقتصادية جراء تباين استخداماته انطلاقاً من اختلاف الحاجات المراد إشباعها ، و لو أن هناك اتفاق و إجماع عام على أن الهاتف النقال يُوفّر لمستخدميه المتعة و التسلية و الموانسة و الترفيه... الخ ، و تعزز هذا الاتجاه مع دخول رخصة استغلال خدمات الجيل الثالث 3^{ème} Génération ، و تسويقه من طرف مُتعاملي الهاتف النقال بداية من شهر ديسمبر 2014 م للمستخدمين الجزائريين، و دخول خدمات الجيل الرابع للهاتف النقال بداية من شهر أكتوبر 2016.

إن الملايين من الناس في كل أنحاء العالم يمتلكون هواتف نقالة ، و منهم من يمتلك أكثر من جهاز هاتف نقال لازدياد أهميته في حياتنا العصرية - التي تنتج أكثر نحو التعقيد و السرعة - و تشير المؤشرات إلى لازدياد معدلات نموه في كل بلدان العالم (المتطورة و المتخلفة). و هذا الجهاز

(1) . يومية الخبر ، الجزائريون يتجاوزون نسبة 100 في المائة في إشتراك الهاتف النقال ، عدد 7273 ، يوم 2014/04/19، ص 23.

و اجتماعية ، و بذلك فهي عبارة عن عملية متكاملة للنضج ، فمن أبرز التحولات التي تتسم بها تلك المرحلة هو النضج العقلي و الذهني و العاطفي ... و نمو القيم و الرغبات الاستقلالية و التحرر و الانتقال من العلاقات الأسرية القوية إلى العلاقات المبنية مع الأصدقاء و الأقران، و من التبعية الاقتصادية و الاجتماعية إلى مزيد من الاستقلالية، و في هذه الفضاءات عادة ما يتعرض الشباب إلى أوضاع نفسية و معنوية قلقة و إلى الانحراف و انتهاج سلوكيات غير مدروسة و متهورة في عدد من الحالات، و حينها يكونون عرضة لمختلف الانزلاق و خاصة في ضل ضعف التربية السليمة و المتكاملة⁽¹⁾.

وهو ما يُفسر من جهة أخرى الديناميكية السريعة لانتشار الهاتف النقال في الأوساط الاجتماعية و بخاصة لدى فئة الشباب لتلبية مطالبهم و إشباع رغباتهم المختلفة لما تُوفّره هذه الوسيلة الاتصالية الحديثة من : اتصال فوري ، و إرسال الرسائل القصيرة SMS و المصورة MMS و تحميل الأغاني و الاستمتاع بالاستماع إليها، و الولوج إلى شبكة الانترنت، و استماع الراديو، و مشاهدة الأفلام ...الخ. و كل هذه الخدمات التي يُوفرها الجوال جعلت منه ضرورة حياتية و حضارية يصعب الاستغناء عنه، بل و صار جزءاً من نمط الحياة، كما فرض الهاتف النقال مجموعة من السلوكيات و العادات على ثقافة المجتمع عبر شاشته المضئية و لوحة أرقامه الأنيقة، بأشكاله الأخاذة و بأنغامه الساحرة.

و لعل أكثر ما يُميز اتصالات الشباب هو المضمون العاطفي الذي يغلب على المكالمات و الرسائل الاتصالية عند صياغتها وكتابتها ، بالإضافة إلى التعبير عن مختلف الأفكار و الانشغالات الممزوجة بكثير من الانفعالات و الأحاسيس العاطفية سواء تعلق الأمر بالمضامين التي تبتئها وسائل الإعلام المختلفة التي تُخاطب فئة الشباب بوصفهم متلقين لهذه المضامين أو بالنسبة لمالكي هذه الوسائل الذي يُوظفون الشباب لإنتاج المضامين الاتصالية و الترفيهية التي تُخاطب تفضيلات و مكبوتات الفئات العريضة من الشباب الذين يُمثلون الفئات الأكثر تعاملًا مع وسائل الإعلام و الاتصال.

إن سيطرة الشباب على وسائل الاتصال الحديثة يبدو أكثر وُضح بالنسبة لوسيلتي الانترنت و الهاتف النقال حيث تُؤكد مختلف الدراسات المهتمة بعلاقة الشباب بوسائل الإعلام بأن الفئات الأكثر تأثراً بمضامين وسائل الإعلام و الاتصال هم من فئة الشباب، و ليس فقط لكونهم يشغلون وضعا مهما في بنية المجتمع، و إنما لأنهم يُعانون من مشاكل ينبغي حلها مثل: البطالة و الهجرة غير الشرعية و الانحرافات السلوكية و مشاكل الهوية الثقافية بسبب الانفتاح العالمي للثقافات، الذي ينتج عنه إشباع الرغبات المتعارضة مع القيم الموروثة داخل المجتمع، و هي في مجملها مشاكل تُورق حياة الشباب دون إيجاد حلول لها.

(1) .وحدة البحوث و الدراسات السكانية، جامعة الدول العربية، معارف و اتجاهات و سلوك الشباب، مطبعة الجامعة العربية، مارس

كما يُعد الترفيه الجانب المُهم المُنتظر إشباعه من جراء استخدام وسائل الاتصال لدى الشباب و لا يعود ذلك إلى الأوقات الفراغ الطويلة التي يُعاني منها الشباب بل لَتعدد مُسبباته مثل البطالة و انعدام المرافق الضرورية لَتمضية أوقات الفراغ بِنشاطات مُفيدة و إنما راجع ذلك أيضا إلى الميل الفطري لدى الشباب إلى الترفيه و الاستمتاع بِما تُقدمه وسائل الإعلام من برامج و أنشطة تُستجيب للحاجات الخاصة التي يطلبها الشباب؛ لِذلك يَستخدم الشباب وسائل الاتصال المُختلفة و الهاتف النقال بِصفة خاصة بِهدف تحقّق ذواتهم الخاصة في إطار التكيف الاجتماعي العام من خلال عمليات التواصل مع الآخرين من الأهل و الأقارب و التفاعل العاطفي مع الأحباب و الأقران .

ومن الأهمية بِمكان عند دراسة الجانب التواصلّي بالهاتف النقال لدى الشباب الذي يُمثل الشريحة الطلائعية من تركيبة المُجتمع و الذي تلعبُ فيه المؤثرات الاجتماعية و الثقافية و الاقتصادية و النفسية الدور الريادي في مسعى البحث عن حلول للمشاكل التي يُعاني منها المُجتمع ; و إن كان الشباب في الكثير من الأحيان يكون مصدرًا في خلق هذه المشاكل : البطالة ، الانحلال الأخلاقي و الهجرة غير الشرعية ، المُخدرات، أعمال العنف و الإرهاب...الخ.

و ستركز هذه الدراسة على الهاتف النقال كوسيلة اتصال و تفاعل بين الشباب الجزائري ، من مُطلق أن هناك مُتغيرات عديدة تتحكّم و تُحدّد دوافع استخدام الشباب للهاتف النقال رغم وجود الكثير من النقاط المُشتركة التي تُؤثر في كيفية استعماله و أوقات استخدامه...الخ; لأنّ التّصورات التي يحملها الشباب الجزائري اليوم تُجاه الهاتف النقال تختلف عن باقي التّصورات لدى الشرائح الأخرى من المُجتمع. و في الواقع نجد أن الشباب يتبادلون المُكالمات و الرسائل القصيرة التي تحمل مشاعر الحُب و الغرام أو التّحرش و المُعاكسات و الابتزاز بعيداً عن المُراقبة و الضبط الاجتماعي، بحيث تُتيح مُكالمات الهاتف النقال بين الجنسين من الشباب مساحات زمنية لا حصر لها لِتقاسم التّجارب العاطفية* في أدق تفاصيلها بالصوت و الصورة من خلال المُكالمات المرئية عبر خدمات الجيل الرابع التي دخلت سوق الهاتف النقال في الجزائر في الآونة الأخيرة و التي يُرتقب تعميمها على باقي ولايات الوطن في غضون الأشهر القليلة القادمة من سنة 2017 م ، و هذه التّجربة لم تُعد مُقتصرة على الفئة الشبابية فقط و إنما اتسعت لِتشمل باقي الأعمار و الفئات ، و عليه فإنّ المُكالمات الخلوية عبر الهواتف النقالة مع الجنس الآخر تُعتبر مُتنفس عاطفي يُخفّف حالات الضّغط و الاحتقان لدى الشباب بِصفة خاصة ، كما لا يُمكن إنكار بأنّ الهاتف النقال ساهم في إدخال بعض السلوكيات الجديدة على المُجتمع الجزائري، و التي تتّمظهر بِصورة أكثر وُضوح في تشجيع الثقافة الاستهلاكية لدى الفرد الجزائري و على نحو مُبالغ فيه

* مُشكلة الشباب في سن المراهقة أن نضجهم الجنسي و مشاعرهم الغرائزية تتطور بما يفوق نضجهم العقلي في هذه المرحلة العمرية ، و هو ما يُفسر في اعتقادي أن الشباب أكثر ميلا و إنسياقا إلى الفحش الهاتفّي و تصوير الأجساد و تبادل الصور و الفيديوهات الخادشة للحياء عبر الهواتف النقالة.

لدى الشباب الذين يُنفقون على مكالمات الهاتف النقال أكثر من إنفاقهم على باقي المُستلزمات الحياتية الأخرى!.

وعلى المُقابل و كنتيجة لتمك وسائل الاتصال تبرز ثقافة الاستهلاك المظهري لدى الأفراد من خلال زيادة إنفاقهم على خدمات الهاتف النقال، إذ تُشير ثقافة الاستهلاك كما يراها أحمد زايد " إلى الجوانب الثقافية المُصاحبة للعملية الاستهلاكية التي تعني مجموعة المعاني و الرموز و الصور المُصاحبة لعملية الاستهلاك اليومية"⁽¹⁾ كما يتقاطع مفهوم ثقافة الاستهلاك مع مفهوم استهلاك الكماليات من حيث أنه الإسراف في استهلاك الثروة و السلع و الخدمات الباهظة الثمن من أجل التظاهر، أي أن هذا النوع من الاستهلاك يهدف إلى الكشف عن الثراء، و التفاخر و المكانة الاجتماعية⁽²⁾.

و من الطبيعي أن يطرح استخدام وسيلة اتصالية جديدة داخل المُجتمع زادت فعل قوية و حتى غير مرغوبة مثل الهاتف النقال لدى فئة الشباب كنتيجة للإنجرافات الكثيرة في استخدامه عكس ما كان مهيأ له و يُستعمل لأجله داخل المُجتمع، و هو ما يُسبب امتعاض الكبار كتعبير منهم عن رفضهم للاحتياجات الجديدة للشباب في شكل مواجهة صريحة لهذه الاحتياجات.

و تُبين الملاحظة الخارجية لملاحم الوجه أثناء مُداعبة الشباب للهواتف النقالة أو من خلال الانشغال بالرّد على مكالمات الهاتف الخليوي، أو من خلال مُشاهدة حركات الشفاه أثناء تبادل الأحاديث الهاتفية في الفضاءات المفتوحة بالأماكن العمومية و في الشوارع و عبر وسائل النقل ، كما أن إستغراق الشباب و لأوقات طويلة في الاستماع للأغاني* و النغمات يُثير الكثير من المخاوف من مُنطلق أن إدمان الشباب على الاستماع أغاني Mp3 أو ما أضحى يُسمى بالترفيه الإلكتروني لفترات طويلة و بصوت صاخب من شأنه أن يحدث أضرار بالأذن و بحاسة السمع لدى الشباب.

5 - الشباب الجزائري و ثقافة الهاتف النقال بين سطوة التملك و خيارات الاستخدام.

ولتلبية مختلف الحاجيات التواصلية و الاجتماعية و النفسية و الثقافية والاقتصادية و العلمية التي تُحرك الشباب لاستخدام الهواتف النقالة، و مدى انعكاس هذا الاستخدام على ثقافتهم الاستهلاكية و

(1). أحمد زايد و آخرون ، الاستهلاك في المُجتمع القطري : أنماطه و ثقافته، مركز الوثائق للدراسات الإنسانية بجامعة قطر الدوحة ، 1991، ص 28.

(2). محمد عاطف عيث و آخرون، قاموس علم الاجتماع ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1979، ص 86.
* و يوفر مُتعلمي الهاتف النقال في الجزائر باقات من الأغاني و النغمات و رنات الانتظار للمُشتركين و بِخاصة لفئة الشباب منهم لتحميلها مُقابل إشتراكات نقدية لكل صيغة من هذه الصيغ بعد تشغيل هذه الخدمة المعروضة على مواقع الانترنت الخاصة بالمُتعاملين : موقع جيزي : www.Djezzy.dz و موقع موبيليس : www.Mobilis.dz و موقع أوريدو :

أنماطهم السلوكية و المتمثل في دور الهاتف النقال في عمليات التواصل الاجتماعي ككل، و يظهر ذلك من خلال الانتشار السريع في استخدامات الهاتف النقال في الجزائر سوءا تعلق الأمر بعدد مستخدميهم أو بالفئات التي تستخدمه أو فيما يتعلق بطبيعة الخدمات التي يوفرها الهاتف النقال بصفة عامة .

و خاصة فئة الشباب منهم من خلال تقديم أحسن الخدمات و العروض و الأسعار عبر إستراتيجيات تسويقية متباينة تسعى كلها إلى زيادة عدد المشتركين و تعظيم حجم الإنفاق على الخدمات الاتصالية المقدمة، و هو ما عكس في حقيقة الأمر الديناميكية السريعة لانتشار الهواتف النقالة في الأوساط الاجتماعية لتلبية مختلف الحاجات الاتصالية و إشباع الرغبات المختلفة ، لما يُوفره من : اتصال فوري ، إرسال و استقبال الرسائل النصية والمُصورة و استماع الموسيقى المُخزنة داخل الذاكرة أو الاستماع لمحطات الراديو ، بالإضافة إلى تصفح الشبكة العالمية للمعلومات ، ومُشاهدة ملفات الملتيميديا (استعراض الصور الثابتة و المتحركة و مقاطع الفيديو والأفلام القصيرة) مع الاستفادة من تطبيقات و خيارات كثيرة تُوفرها الهواتف النقالة من الأجيال الحديثة.

إن الخدمات التي يوفرها الهاتف النقال اليوم جعلت منه ضرورة حياتية عصرية - قد لا يُمكن الاستغناء عنه في الوقت الراهن - بل و صار جزءاً محورياً من نمط حياتنا ، كما فرض مجموعة من السلوكيات الجديدة و التي تحولت مع مرور الوقت إلى عادات ثقافية مُترسخة داخل المجتمع، و المُلاحظ أن الهاتف النقال أثر بشكل واضح على ثقافة الشباب الذي غير من نظرتهم لفضائهم الاتصالي بفضل خدماته المتنوعة و استخداماته المُتعددة و مُميزاته الفريدة من : شاشة مُضيئة و لوحة أرقام أنيقة و بأشكاله الأخاذة و بأحجامه المتناسقة و بتطبيقاته الكثيرة. و بقدر ما توفرت هذه الخصائص و المتطلبات و الأوصاف و الخدمات في جهاز الهاتف كان مدعاة للمباهاة و التفاخر بين أوساط الشباب ، و ابتعد بذلك عن دوره الرئيسي و الأساسي الذي أُوجد لأجله كأداة للاتصال.

هذه المؤشرات تجعنا نتنبه على زيادة الاهتمام بالتواصل الاجتماعي عن طريق بدائل إتصالية غير تقليدية و التي كانت سائدة في المجتمع الجزائري في فترات تاريخية غير بعيدة أو قبل ولوج الاستخدام المكثف و الاجتماعي للهاتف النقال في المجتمع الجزائري ، و يبدو أن الرهان الأكثر تحديا اليوم هو مضاميني بالدرجة الأولى : و هي مسؤولية يتقاسمها الجميع و على نحو خاص مُتعلمي الهاتف النقال الثلاثة (موبيليس ، جيزي ، نجمة) بالإضافة إلى مُستخدمي الهواتف النقالة الذي يُنتجون مضامين هاتفية (رسائل ، صور ، صوتيات، فيديوهاتالخ) لتبادلها داخل الشبكة.

6 - سيكولوجية التّواصل بالهاتف النقال لدى الشباب.

يُمثل الهاتف النقال الأداة الأكثر تلبية للحاجات الاتصالية في أوساط الشباب في عصر عولمة التواصل بين الأفراد من خلال الكلام بشكل منطوق و مسموع يُبقي على حرارة التخطُّب أو التهاؤت في هذا النوع من الاتصال الشخصي عبر الهاتف النقال، و قد يكون سلوك الشباب الاتصالي مُركز على الهاتف النقال بشكل كبير في منحي مُتابعة مظاهر التحضُّر الذي يُعدُّ فيه الشباب الفئة الأكثر تأثراً و مُواكبة للموضة بعد تأثرها بمضامين بوسائل الإعلام و الاتصال التي تعمل على مخاطبة غرائز الشباب و تنشيط الدوافع و المكنونات النفسية نحو تمثُّل وسائل الاتصال الحديثة و استخدامها اجتماعياً في سياق المُشاركة في إنتاج الثقافة الاتصالية التي يشترك فيه جميع الأفراد داخل المُجتمع.

و لعل الكثير من الشباب ينظر إلى الهاتف النقال على أنه المنقذ المُساهم في تحرير عواطف و أهواء فئات عريضة من الشباب، إذ يُحاول هؤلاء من خلال مكالمات الهواتف النقالة الخلوية التي تتم فيما بين الجنسين بعيداً عن المُراقبة الاجتماعية و الأسرية تفرغ الشُّحنات العاطفية ، و هو ما يُفسر ميدانياً كثافة المكالمات الهاتفية و لفترات طويلة التي يستغرقها الشباب في الفترات المسائية و الليلية و التي تأخذ الطابع العاطفي فيما بين الجنسين.

و من المُلاحظ أيضاً أن هناك اتجاه بدأ يرتسم فيما يخص مُستقبل العلاقات الاجتماعية بعد دُخول الهاتف النقال كمحور رئيسي في مُختلف العمليات الاتصالية التي تتم داخل العائلة و الأسرة و بشكل عام داخل المُجتمع، و يتمظهر ذلك من خلال كثافة المكالمات الهاتفية عبر الهاتف النقال فيما بين الأفراد في الأماكن العمومية و في الشوارع و على نطاق أوسع بين مُختلف الشرائح الاجتماعية في كل الأماكن و في كل الأوقات ، و هو ما يجعل استخدامات الهواتف النقالة مُتعددة ، لأن نمط الاتصال بالهاتف النقال و الانترنت تتم في اتجاهين و يتطلب حواراً نشطاً بين طرفي الاتصال أثناء تبادل الحديث و الأفكار. في حين تستطيع الهواتف النقالة أن تقوم بوظائف وسائل الاتصال المُتعددة فهي تقوم بتقديم مضامين إعلامية للمُستخدمين من الشباب، بالإضافة إلى مُختلف الخدمات الترفيهية و المعلوماتية و الاتصالية ، و قد يكون هذا التعرض فردياً أو بمُشاركة الآخرين.

و يُساهم الهاتف النقال في الوقت الراهن بالنسبة للشباب في إنتاج الثقافة المُتعلقة باستخدام هذا النوع من وسائل الاتصال الحديثة من خلال التَمظهرات السلوكية و ما يُصاحبه من إنتاج و تبادل مضامين (سمعية . مُصورة . نصية) بين مُستخدمي الهواتف النقالة : بمعنى أن مظاهر ثقافة استخدام الشباب للهاتف النقال أضحت أكثر بروزاً و ظهوراً في شكل سلوكيات تتجلى من خلال انشغال الشباب في إجراء المكالمات الهاتفية على المُباشر في الأماكن المُفتوحة و الاستماع لموسيقى MP3 على الهواتف النقالة، و أخذ صور للأحباب و الأصحاب و أفراد العائلة و المناظر الجميلة كما يُستخدم الشباب الهواتف النقالة في أخذ مقاطع فيديو للذكريات و الأحداث الخاصة و المهمة... الخ، و تُشكل هذا الاستخدامات و أخرى في تشكيل الأبعاد الاتصالية لدى الشباب بوصفهم الجيل الجديد من مُستخدمي

وسائل الاتصال الالكترونية الحديثة، و يجب التنبيه إلى مُختلف التأثيرات الحالية و المُستقبلية التي تُحدثها هذه الوسائل و الهاتف النقال على ثقافة و سُلوحيات الشباب، مما دَفَع بالشباب أكثر من غيره إلى البحث عن فضاءات تعبيرية لهم يُعبرون من خلالها عن نفسيّتهم المعقدة بِعَرَض تلبية حاجاتهم المُختلفة : النفسية،الإعلامية و الاتصالية و الثقافية .

و يُترجم هذا الاهتمام الكبير من خلال الإقبال المُنتقع النظير على الهواتف النقالة لدى الفئات الشبابية للاتصال و التواصل مع الآخرين في سياق إمكانية التفاعل العالمي للشباب عبر أجهزة الاتصال الحديثة- الهاتف النقال- الذي يُتيح تبادل الأفكار و الآراء العواطف و المُشاركة الوجدانية و طرح الهموم و المشاكل المُشتركة ، و هذه السُلوحيات أصبحت من السمات البارزة لشباب اليوم ، لأنّ الفضاء الاتصالي الذي يُوفره الهاتف النقال مَكَّن من كسر حاجز المسافات بفعل الاتصال الآني مع الآخرين ، و هو ما أحدث تأثيرات جوهرية على أنماط الاتصال و التفاعل في الأوساط الشبابية بِصفة خاصة و انعكس ذلك بِشكل واضح على سلوكياته اليومية و على لغة حديثهم عبر الهواتف النقالة.

و خلاصة لما سبق فأن للهاتف النقال دوراً مُهماً في حياة الشباب ليس في اعتباره ضرورة حياتية لا غنى عنه ، و إنما باعتباره وسيلة مُساهمة في حل الكثير من المشاكل التي تُعاني منها هذه الفئة، و التي منها مشاكل التواصل مع العائلة و الأقارب و الأصدقاء و الأحياء البعيدين مكانياً ، و من خلاله ساهمت مُكالمات الهاتف النقالة في تجاوز الكثير من الحواجز النفسية و من التخفيف من حالات الاحتقان و الفراغ القائل الذي يُعاني منه الشباب، و بِصفة عامة أعطى معنى مُغاير و نظرة مُختلفة للعلاقات الاجتماعية التي يعيشونها.

هوامش المقال :

(¹). محمد سيد فهمي ، العولمة و الشباب من منظور اجتماعي ، الطبعة الأولى ، دار الوفاء لنديا الطباعة و النشر، الإسكندرية، 2007.

(²). عبد الوهاب بوخنوفة ، الأطفال و الثورة المعلوماتية :التمثّل و الاستخدامات، مجلة اتحاد الدول العربية (النسخة الالكترونية)، العدد 2، 2007 ، أنظر في الموقع التالي :
www.asbu.fr.net

(3). فضيل دليو، مدخل عام إلى الاتصال الجماهيري، مخبر علم اجتماع الاتصال، جامعة منتوري بقسنطينة، 2003.

(4). بشير عباس العلاق، تكنولوجيا المعلومات و الاتصالات و تطبيقاتها في مجال التجارة النقالة، الطبعة الأولى، منشورات المنظمة العربية للتنمية الإدارية ، مصر ، 2007.

(5). بيان لسلطة ضبط البريد و المواصلات السلكية و اللاسلكية على الرابط التالي :

<https://www.arpt.dz/ar/arpt/bref>

(6) . حسان حويشة ، بوابة الشروق الالكترونية ، تقرير رئيس مجلس سلطة الضبط للبريد والمواصلات السلكية واللاسلكية محمد توفيق بسعي حول نشاط هيئته لسنة 2015 ، أنظر الرابط التالي على شبكة الانترنت:

<https://www.shorouknews.com/news/view>

(7) . الموسوعة الحرة " ويكيبيديا " على الموقع التالي : <http://ar.wikipedia.org>.

(8) . محمد لعقاب ، وسائل الإعلام و الاتصال الرقمية ، الطبعة الأولى ، دار هومة ، الجزائر 2007.

(9) . أنظر شبكة النبأ المعلوماتية على الموقع الالكتروني التالي : www.annabaa.org

(10) . المؤسسة العامة للتعليم الفني و التدريب المهني ،الاتصالات المُنتقلة (كِتَاب إلكتروني من نوع PDF) .

(11) . الموقع التالي على شبكة الانترنت : <http://www.swissinfo.ch/ara/archive.html>

(12) . إيجون لارسن، قصة الاختراعات و أشهر المُخترعين، ترجمة لجنة من الأخصائيين، دار القلم، لبنان، دون سنة نشر .

(13) . مجلة لغة العصر، العدد الثامن ، فيفري 2001.

(14) . حسن عماد مكاوي و محمد سليمان علم الدين، تكنولوجيا المعلومات و الاتصال، جامعة القاهرة، 2000.

(15) Benjamin Ferran , Où en est la téléphonie mobile

4G?.Magazine de L'EXPANSION- version numérique- le 04/06/2008,(

www.L'expansion.com)

(16) . جبريل بن حسن العريشي و سلمى بنت عبد الرحمن محمد الدوسري ، الشبكات الاجتماعية و القيم . رؤية تحليلية . الدار المنهجية للنشر و التوزيع ، الطبعة الأولى ، عمان ، 2015 .

(17) . يومية الخبر ، الجزائريون يتجاوزون نسبة 100 في المائة في إشتراك الهاتف النقال ، عدد 7273 ، يوم 2014/04/19 .

(18) Revue IT MAG, 3 , N°137 du 21 Avril au 4 Mai 2008.

Milliards d'usagers GSM dans le monde

(19) . أنظر على شبكة الانترنت الموقع التالي: <http://www.hazemsakeek.com>:

(20) . وحدة البحوث و الدراسات السكانية، جامعة الدول العربية، معارف و اتجاهات و سلوك الشباب، مطبعة الجامعة العربية، مارس 2002 .

(21) . أحمد زايد و آخرون ، الاستهلاك في المجتمع القطري : أنماطه و ثقافته، مركز الوثائق للدراسات الإنسانية بجامعة قطر الدوحة ، 1991 .

(22) . محمد عاطف عيث و آخرون، قاموس علم الاجتماع ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1979 .

الاستراتيجية الاتصالية للتنمية السياحية في الجزائر دراسة ميدانية . الديوان الوطني للسياحة

أ . بلمداني سعد¹

اد تواتي نور الدين²

تعتبر السياحة نشاط ذو اهمية كبيرة واثار مباشرة على التنمية في جميع الميادين ، ولها الكثير من الابعاد الاجتماعية و الثقافية و السياسية و النفسية التي تؤثر فيها وتتأثر بها . فهي تلعب دورا مهما في الاقتصاد العالمي ، ونظرا لما تحققه المبادلات السياحية من نتائج ايجابية بحيث تظهر السياحة كأول قطاع بديل عن المحروقات حسب تقديرات المنظمة العالمية للسياحة

فالجزائر ومنذ نيلها الاستقلال سنة 1962م تخوض معركة شرسة وبلا هوادة ضد التخلف الاقتصادي و التبعية للخارج ، ومن اجل تحقيق التنمية في شتى المجالات الاقتصادية و السياسية و الاجتماعية و الثقافية الامر الذي فرض عليها القيام بسياسات تنموية شاملة ، مقارنة مع ما تملكه من قدرات مادية و بشرية و تماشيا مع مميزات الاقتصاد العالمي .

ان السياحة اليوم لم تعد مجرد نشاط ترفيهي للإنسان ، الذي ينحصر بين المأكل و المشرب و التنزه فقط بل اصبحت صناعة تصديرية قائمة بذاتها ، تلعب دور في عملية تنمية التنمية الاقتصادية . ويرى الخبراء الاقتصاديون ان السياحة هي الصناعة الكفيلة بدعم اقتصاديات الدول اذا ما استغلت هذه الاخيرة مقوماتها الجاذبة من اثار و مزارات سياحية و طبيعية و تاريخية و ثقافية و ما تطور من فنادق و مطاعم و شركات الطيران و شركات النقل وغيرها احسن استغلال عن طريق اعتماد مخططات اتصالية تهدف الى ترقية هذه المنتجات .

كما تمثل السياحة الدولية في ظل العولمة احدى الرهانات الاساسية بين البلدان ذات الطابع السياحي و بين مختلف المتعاملين الاقتصاديين ، هذا ما يفرض على هذه البلدان الانفتاح الاقتصادي على الاستثمار الخاص و المحلي و الأجنبي و دفع عملية الشراكة الدولية ان الجزائر بدورها معنية بهذا التغيير ، اذ يتعين عليها تحسين اداء المتعاملين الخواص و العموميين بغرض اكتساب فرص تجارية ضمن الاسواق العالمية و زيادة الايرادات الوطنية خارج قطاع المحروقات ، خاصة بعد التوقيع على عقد الشراكة الاورو متوسطية و انضمامها للمنظمة العالمية للتجارة .

¹ طالب دكتوراه، كلية الاعلام والاتصال ، جامعة الجزائر 03

² أستاذ في كلية الاعلام والاتصال ، جامعة الجزائر 03

وبالرغم من هذه الأهمية المتزايدة للقطاع السياحي في العديد من الدول ، إلا أننا نجد في الجزائر لم يرقى بعد إلى المستوى الذي يكفل بلوغ الأهداف المرجوة منه ، وبقيت إنجازاته جد محدودة إذا ما قورنت بالبلدان المجاورة ، بالرغم من امتلاك الجزائر لمناطق خلابة وشريط ساحلي يمتد على مسافة 1700 كلم وتنوع المناخ الذي يجعل من السياحة في الجزائر تستمر على مدار السنة .

وكذلك الصحراء التي صنفت من أجمل صحاري العالم ، بالإضافة إلى تعدد التقاليد وتنوع الآثار ، كل هذا يعد مخزون سياحي يمتد عبر ربوع الوطن فكم هي كثيرة تلك المعالم الأثرية و متنوعة كحضيرة الطاسيلي و الهقار وقلعة بني حماد واثار جميلة وشرشال و القصبة ، ضف إلى ذلك الفنون و العادات المتنوعة من خلال الصناعات التقليدية و الحمامات المعدنية المنتشرة شرقا وغربا شمالا وجنوبا ، إلى غير ذلك من المناطق التي تحتاج فقط إلى القليل من العناية لتصبح بذلك الجزائر قطبا سياحيا عالميا .

ومن أجل استغلال هذا القطاع استغلالا حقيقيا وضعت الحكومة برامج للتنمية المستدامة و الترقية السياحية ، بغرض النهوض بالقطاع السياحي وجعل الجزائر مقصدا سياحيا تنافسيا ، حيث اتخذت مجموعة من الإجراءات الإدارية و القانونية وسخرت العديد من الوسائل من أجل تحقيق وتنفيذ مخطط التنمية و الترقية السياحية ، على المستويين الدولي و المحلي .

وبغرض تنمية الاستثمار وترقية صورة الجزائر سياحيا ، وإدخال منتجاتها السياحية إلى الأسواق السياحية .وضمن حضور فعلي في مستوى البلدان التي يفد منها السياح ، وجب على المؤسسات الوصية لترقية السياحة وتنميتها انتهاج وتبني استراتيجيات اتصالية محكمة معتمدة على مجموعة من التقنيات أهمها الأشهار ، البيع الشخصي ، ترقية المبيعات ، التسويق المباشر ، العلاقات العامة وذلك من خلال جميع الوسائل الاتصالية .

فالإتصال السياحي يعتبر أداة وصناعة أخرى أساسية ، ولهذا تهدف كل من الدول السياحية إلى تنمية وتطوير حظوظها في الاندماج في سوق السياحة الدولية عن طريق تبنى سياسات اتصالية جادة للتعريف بقدراتها وجودة منتجاتها و تنوع خدماتها المقدمة¹ ، أما بالنسبة للجزائر و بالرغم من العديد من الإجراءات التي قامت بها إلا أنها لا تزال تعرف عجزا واضحا بالمقارنة مع ما توصلت إليه الدول المجاورة في مجال استغلال التطور الاتصالي الهائل في مجال السياحة خاصة إذا ما علمنا جلب السياح لا يمكن أن يكون إلا بتوفير الحد الأدنى من شروط الاعلام ككيفية الحصول على التأشيرة و الحجز و الاستقبال و النقل و الايواء و التنشيط و التعريف بالمناطق السياحية و المطاعم و الفنادق ، وتنمية وعي الجماهير المحلية بمواقع الآثار و بالسياحة و منتجاتها عامة في حين أن المنتج

1. فؤادة البكري: الاعلام السياحي، (القاهرة ،دار نهضة الشروق ، 2001) ص22

الجزائري لم يتم في الاصل التعريف به وهو اكبر عائق آخر لدخولها و مواكبتها مجتمع الاتصال الجديد الذي يعيشه العالم حاليا و الذي اساسه قوة المعلومة و المعرفة .

ولهذا قمنا بهذه الدراسة لمعرفة دور الوسائل الاتصالية في تنمية السياحة الجزائرية رغم كل ما يقال عن وجود مواقع سياحية مغرية وثروات طبيعية ساحرة وارث حضاري تاريخي وثقافي لا يقل في جماله وقيمه عن ما تملكه دول أخرى مجاورة ومن هنا فان هذه الدراسة تمتد الى جوانب عدة وزوايا مختلفة تتصل بمعرفة الصورة الحقيقية لواقع الاتصال السياحي بالجزائر ودوره في تنمية هذا القطاع ومن هنا يمكن صياغة الإشكالية على النحو التالي: ما مكانة الاتصال في السياسة السياحية الوطنية ؟ وما دوره في دعم عجلة التنمية السياحية ؟

العملية الاتصالية وعوامل فعاليتها :

إن الفكر الاتصالي يتطور ويتغير في اطار التغيير المجتمعي وفي مجالاته المختلفة مثله مثل الفكر الاقتصادي والسياسي ، برؤى وافكار علمية يصنعها التاريخ الانساني بتفاعله مع بيئته وهو يسعى الى التحديث والتطور والانسجام مع واقعه ، وما نعيشه اليوم من الرقي الحضاري ما هو الا اختزال وتراكمات من الافكار والثقافات التي صنعت عبر العصور و الازمنة من جهود وابداع البشر ، انتقلت عبر العمليات الاتصالية ، والتي يجافي الحقيقة من قال إن المجتمع لا يستمر في وجوده فقط بالاتصال لكنه ينشأ أصلا بالاتصال . فالاتصال يدل على المشاركة و تلاقي العقول وعلى ايجاد مجموعة من الرموز المشتركة في أذهان المشاركين ، ومنه فالاتصال يعمل على تحقيق تأثير أو نتائج معينة¹ .

مع تشعب المعنى العام للقدرة الاتصالية ، وتعدد معايير نظرة الباحثين لها تعددت تعريفاتها وادبيات علم الاتصال لا تعكس قصورا بهذا الصدد ، وتجمع معظم التعريفات على ضرورة النظرة للقدرة الاتصالية للأفراد من خلال . المعرفة والمهارة و الممارسة .

خصائص الاتصال :

الاتصال هو عبارة عن نظام اجتماعي متكامل مكون من عناصر ثابتة - المرسل والمستقبل والوسيلة والمحتوى - وأي خلل في هذه العناصر يُفقد عملية الاتصال دورها وقيمتها ونتائجها وآثارها² . يهدف الاتصال إلى التشارك والتعلم وتبادل الخبرات والمساعدة وتبادل الأنباء والأخبار سواء كان ذلك بطريقة مقصودة او غير مقصودة كما هو مُشاهد في الحياة اليومية من تبادل المعلومات والأخبار وغيرها بين الناس . تستخدم في الاتصال كافة وسائل الاتصال الحديثة وغير الحديثة، بالإضافة إلى استخدام

¹ إيمان رمضان عبد التواب : دور الاتصال في تنمية المجتمعات المحلية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، (كلية الاعلام ، جامعة القاهرة) 1995 ص 78

² محفوظ احمد جودة : العلاقات العامة ، مفاهيم وممارسات ، ط3 (عمان : دار زهران ، 1999) ، ص ص 149 ، 148

التعبير واللغة والجسد والرسم والإيماء الجسدي والإيحاء كوسائل للاتصال¹. الاتصال عملية لا تسير في خط مستقيم؛ فالمرسل قد يكون في اتصال آخر هو المستقبل والعكس صحيح. الاتصال غريزة فطرية عرفها الإنسان من أجل الحاجة للتعبير والطلب.

خصائص الرسالة الاتصالية:

تتميز الرسالة الاتصالية الناجحة بعدة خصائص أهمها ما يلي:
الصرامة: من أهم ما يميزه الرسالة الناجحة أنها صريحة توضح حقيقة ما و تسعى لتغيير بعض المعلومات أو الاتجاهات عند المرسل إليه.
خالية من الأخطاء : حتى تؤدي الرسالة دورها يجب أن تكون خالية من كافة الأخطاء الإملائية، وغيرها و كذلك بعيدة عن التعقيد ،و الكلمات الغير مفهومة التي يجد القارئ صعوبة في فهم معناها.
الوضوح :لابد أن تكون الرسالة واضحة حتى يتمكن المستقبل من فهمها.
كاملة .. لابد أن تكون الرسالة شاملة لكافة المعلومات التي يحتاج إليها المستقبل حتى تنجح في تحقيق الغرض الحقيقي من ارسالها.

عوامل فعالية العملية الاتصالية :

القائم بالاتصال : يعتبر القائم بالاتصال واحد من اهم مكونات العملية الاتصالية ،واكثرها حساسية وتأثيرا ،ونظرا لاعتباره أساس العملية الاتصالية وله التأثير الاكبرعلى مضمون وأسلوب معالجة الرسالة الاتصال ومدى فعاليتها ،يتوجب عليه امتلاك مجموعة من المقومات والمهارات الاتصالية .
المهارات الشخصية : وتشتمل على المصادقية ،الجاذبية ، القوة في التأثير ، الثقة بالنفس ، الصبر .
المهارات الاتصالية : وتشتمل هذه المهارة على مهارة التحدث (القدرة على اكتساب المواقف الايجابية عند اتصاله بالآخرين)، ومهارة الاستماع والانصات² .
المهارات القيادية : وتشتمل على القدرة على التفاوض والاقناع وادارة الصراع .
المتلقي: وهو الجمهور الذي يتلقى الرسالة، و يتفاعل معها بقدر استيعابه للرسالة المرسله، و هو الهدف الأساسي من خلال عملية الاتصال. في حين أن بعض أفراد الجمهور، يتأثرون متأثرا واضحا بهذه الرسائل، و هم أولئك الذين تتناسب مع ميولاتهم و رغباتهم. و هناك آخرون لا يستجيبون لها، و يرفضونها تماما. و هناك من لا يعيرها اهتماما و يقف موقف اللامبالاة من الرسالة و يتجاهلها بعدم التفاعل معها. و سبب هذه الاختلافات هو مدى فهم و إدراك الجمهور للرسائل المرسله إليه³.

¹ عبد الله عبد الرحمان :سيبولوجيا الاتصال والاعلام ،النشأة التطورية والاتجاهات الحديثة والدراسات الميدانية ،(الاسكندرية ،دار المعارف الجامعية ،2000) ، ص55

² إيمان رمضان عبد التواب : دور الاتصال في تنمية المجتمعات المحلية ، مرجع سابق ص 53

³ J. strouse: the mass media ,public opinion and public policy analysis linkage explorations ,Columbus, abel howel company ,1975

التأثير: هذه المرحلة الأخيرة في عملية الاتصال، و تكون متفاوتة من فرد إلى آخر، و من مجموعة إلى أخرى، و ذلك يأتي جليا بعد تلقي الرسالة. و تأثير وسائل الاتصال الجماهيري، تكون بطيئة و ليست فورية كما هو متعارف عليه، و قد يكون تأثيرها مؤقتا أو دائما. و في النهاية (التأثير) هو الهدف الوحيد من عملية الاتصال و الذي يسعى إليه جميع الإعلاميين. و يتم التأثير في خطوتين، الأولى تغيير الفكر، و الثانية تغيير السلوك.



عناصر العملية الاتصالية .

الاستراتيجية الاتصالية :

مفهوم الاستراتيجية : هي مجموعة الوسائل التي تستخدم لإدراك وتحقيق الوصول الى غرض محدد مسبق . أما الاستراتيجية الاتصالية فتعرف على انها أحسن الطرق المتبعة من أجل إبقاء الزبون راض ،ولنجاح الاستراتيجية لابد من تحديد السياسات و المواقف التي تتماشى مع خصوصيات كل عملية¹.

خصائص الاستراتيجية الاتصالية :

للاستراتيجية ثلاث خصائص هي² :

1. استراتيجية وسيلة : . وسيلة تفضل التماسك والاستمرارية والتوفيق

. وسيلة مراقبة لأنه لا يمكن تقييم اي عمل اشهاري الابدع تحديد الأهداف

. وسيلة تفكير جماعي .

. وسيلة تماسك بين اعضاء المؤسسة .

الاستراتيجية الاتصالية هي وثيقة مرجعية وعامل وحدة واستمرارية .

2. استراتيجية . منهج عمل : هي منهجية عمل تفرض علينا دراسة وتحليل وضعية المعلن ،حل

المشاكل ، تحديد الاهداف ،كما تسمح لنا بتفادي كل الافكار المسبقة والقرارات العشوائية ، فهي حوار

اجتماعي .

¹ احمد سيد مصطفى: تحديات العولمة و التخطيط الاستراتيجي ،الطبعة الرابعة ،بدون ، 2003،ص 47

²فؤاده البكري : دور الاعلام والاتصال في احتواء ازمة السياحة بالأقصر :بحث مقدم الى المؤتمر السنوي الثالث لإدارة الازمات و الكوارث (جامعة عين شمس ،القاهرة)،3-4 اكتوبر 1998

3. الاستراتيجية : هي اطار مرجعي الذي من خلاله نعرض المشاكل الاتصالية والطرق الكفيلة لحلها
أنواع الاستراتيجيات الاتصالية :

الحملة الاتصالية الجماعية : وهي حملة تجمع بين المؤسسات التابعة لقطاع اقتصادي معين من اجل تطوير ودعم وحماية منتج من نفس النوع دون اللجوء الى العلامات الموجودة .
الحملة الاتصالية المؤسساتية : وهو اتصال يركز على المؤسسة نفسها ،فهدف الاستراتيجية المؤسساتية هو بناء صورة المؤسسة ،يجب أن تعبر عن ماهيتها ،ما تريد القيام به ، المؤسسة تعبر عن نفسها من خلالها فلسفتها وشرعيتها .

الحملة الاتصالية للعلامة : وهي حملة تركز على سلامة علامة المؤسسة بدون مرجع معين .
الحملة لاتصالية للمنتج : اتصال المنتج يركز على المنتج نفسه ، اسم المنتج قد يكون نفسه اسم العلامة او اسم المؤسسة .

الحملة الاتصالية الكلية : على المؤسسة القيام باتصال مؤسساتي ، واتصال علامة ، واتصال منتج اذ يجب عليها تسيير هذا المجموع ومراقبة التناسق بين هذه المقاربات في الحملة الكلية للاتصال .

مراحل تحديد الاستراتيجية الاتصالية :

تحديد الاهداف الاتصالية :وهي اول مرحلة يمر بها معد الحملة الاشهارية ، ولكي يكون الهدف الاتصالي دقيقا وواضحا يجب ان يتضمن ثلاث عناصر اساسية :
الغرض : الغرض الذي تصبو اليه المؤسسة من خلال تعزيز وترويج شهرة منتج معين لدى طبقة معينة .

النسبة او الحجم : ينبغي ان يكون الهدف قابلا للقياس وبالتالي التعبير عنه بطريقة كمية متى كان ذلك ممكنا .

الآجال : وهو كم يستغرق تحديد الهدف المسطر .

وعلى العموم فإن الاتصال السياحي يهدف الى جلب اكبر عدد ممكن من السياح نحو المنتج او الخدمة التي تقدمها المؤسسة السياحية من اجل زيادة مبيعاتها¹ .
وتتماشي الاهداف الاتصالية مع ثلاث مستويات للاتصال وثلاث مراحل للتعليم التي يمر بها المستهلك .

1. المستوى المعرفي : تهدف عملية الاتصال هنا الى الاعلام ،وهي تركز على خصائص المنتج ومزاياه ، أي مرحلة التعريف بوجود منتج جديد في السوق .

¹ نرمين على السيد ابراهيم: دور العلاقات العامة في ادارة الازمات، دراسة تطبيقية على قطاع السياحة بمصر، رسالة ماجستير غير منشورة ،(كلية الاعلام ،جامعة القاهرة)2005 ص 102

2. المستوى العاطفي : يهدف الاتصال على هذا المستوى الى تغيير آراء الجمهور ،وتوجيهها نحو المنتج .

3. مستوى تحقيق الشراء: يعمل الاتصال هنا على تغيير فعل وسلوك المستهلك وعاداته .

النموذج		المستويات
AIDA	Ladvdge -steier	
الانتباه	الادراك المعرفة	المعرفة والادراك cognitif
الرغبة	الذوق التفضيل	الشعور affectif
الفعل	الاقتناع الشراء	تحقيق الشراء (التحريض) Conatif

2. تحديد الجمهور المستهدف : وهو مجموعة الافراد الذي توجه اليه العملية الاتصالية ، قد يتكون من المشتركين او غير المشتركين او مستهلكين ، او ذوي النفوذ، او قادة الرأي المؤثرين ، أوالموسساتيين ،الاداريين ،الموزعين ،الايوساط المالية ...

3. تحديد الميزانية : بعد توضيح الاهداف الاتصالية ،يجب على المؤسسة السياحية تحديد الميزانية الاتصالية التي سوف تعتمد عليها من اجل التعريف بالمنتج السياحي ، ولهذا الغرض يجب مراعاة العديد من العوامل ، كدورة حياة المنتج ،وحصة السوق ،والمنافسة .وكذلك تكرار الرسالة حسب الميزانية المحددة .

4. تحديد المزيج الإتصالي :يجب أن ينظر الي الاتصال من وجهة نظر متكاملة تجعل منه عنصر متكامل مع بقية العناصر الاخرى في ايه لحظة أو استراتيجية تسويقية ،وبهذا المعنى يمكن أن نؤكد مفهوم التكاملية على كافة المستويات بين الاتصال (الترويجي) وبقية الانشطة الاخرى (الانشطة التسويقية ،وانشطة المؤسسة)¹.

والنشاط الإتصالي هو نشاط تسويقي يهدف الى اخبار أو اقناع ،أو تذكير الافراد بقبول أو بإعادة الشراء أو التوصية ،أو باستخدام منتج أو خدمة أو فكرة أو مؤسسة .

¹المرجع نفسه ،ص 103

استراتيجيات التخطيط والتنمية السياحية :

التخطيط السياحي : يتناول التخطيط السياحي الجوانب الفكرية والتطبيقية المتعلقة بتنظيم الظروف التي تؤدي الى التنمية السياحية ،فهو يعتبر وسيلة لأي دولة تتمتع بمقومات سياحية ،وترغب في تحقيق تنمية سياحية سريعة .

مفهوم التخطيط السياحي: يتمثل التخطيط السياحي في رسم صورة تقديرية لمستقبل النشاط السياحي لدولة معينة وفترة زمنية محددة ،ويقضي ذلك حصر الموارد السياحية التي تتوفر عليها الدولة ،من اجل تحديد أهداف الخطة السياحية وتحقيق التنمية السياحية المنتظمة ،ثم وضع البرنامج واختبار المشاريع التي تنفذ خلال فترة معينة ويحتوي مفهوم التخطيط السياحي على مجموعة من العصر منها¹ **حصر الموارد السياحية :** التخطيط السياحي الناجح هو الذي يعتمد على قاعدة قوية من المعلومات والمعطيات والبيانات والاحصائيات والتنبؤات طويلة الاجل ،إن توفير هذه البيانات الاساسية يجعل تقدير هداغ الخطة اكثر قربا للواقع وقابلية للتنفيذ ، ويتطلب هذا العمل وجود جهاز احصائي قادر على جمع وتبويب البيانات المتعلقة بالنشاط السياحي والقطاعات الاخرى التي يعتمد عليها في نشاطه **إعداد الخطط السياحية :**

اعداد الخطة يتم من قبل الحكومة التي بإمكانها تحديد حجم الاستثمارات الكلية خلال مدة الخطة وتوزيعها على فروع النشاط ومواقع والمناطق السياحية ، والقيام بدراسات التنبؤ .

التنسيق في البرنامج السياحي : ويتم بين الاهداف المرجو تحقيقها وبين الوسائل التي تتخذ للتنفيذ ، وهدف الخطة السياحية هو زيادة النمو السياحي بنسب معينة خلال فترة زمنية محدد ، لتحقيق هذ الهدف يجب تحقيق اهداف فرعية كزيادة طاقات الايواء السياحي ، وزيادة نشاط وكالات السياحة والسفر ،والتنسيق بين الوسائل التي تتخذ لتنفيذ الخطة والتي تتمثل في السياسات التي تضعها الدولة تجاه العمل السياحي

أهمية التخطيط السياحي وأهدافه:

يلعب التخطيط السياحي دوراً بالغ الأهمية في تطوير النشاط السياحي، وذلك لكونه منهجا علميا لتنظيم وإدارة النشاط السياحي بجميع عناصره وأنماطه، فهو يوفر إطار عمل مشترك لاتخاذ القرارات في إدارة الموارد السياحية ويزود الجهات المسؤولة بالأساليب والاتجاهات التي يجب أن تسلكها، مما يسهل عملها ويوفر كثيراً من الجهد الضائع².

¹ اسعد حماد ابو رمان ،أبي سعد الديوه :التسويق السياحي و الفندقى ،الطبعة الاولى ،(عمان ، دار الحامد للنشر و

التوزيع 2000) ، ص 31

² احمد سيد مصطفى: تحديات العولمة و التخطيط الاستراتيجى،الطبعة الرابعة ،بدون ، 2003 ، ص73

التخطيط السياحي يساعد على توحيد جهود جميع الوحدات المسؤولة عن تنمية القطاع السياحي وتنسيق عملها، ويقلل من ازدواجية القرارات والأنشطة المختلفة، مما يساعد على إنجاز الأهداف العامة والمحددة لهذا النشاط.

لهذا فإن التخطيط السياحي يتأثر بالتقلبات السياسية والاجتماعية والطبيعية أكثر من تأثره بعوامل الإنتاج والقوى الاقتصادية المختلفة .

شروط نجاح التخطيط السياحي :

يعمل التخطيط السياحي على تهيئة الظروف التي تؤدي الى التنمية السياحية وتعجل بها، بحث تنطوي عملية التخطيط على تحديد الاهداف وتقدير الموارد ، وتحديد حجم الاستثمارات ووسائل تمويلها واختيار المشروعات التي تتطلب أهداف الخطة التنموية، ويمر التخطيط السياحي بأربع مراحل أساسية هي¹ :

. مرحلة المسح الشامل للنشاط السياحي ، الموارد السياحية ، اتجاهات النمو فيها ، المشكلات التي تواجهها ...

. مرحلة تحديد الاهداف كتحديد معدلات النمو ، إنشاء مناطق جديدة سياحية .

. مرحلة التنفيذ من خلال تحديد الوسائل اللازمة لتحقيق الاهداف السابقة بإتباع سياسات معينة كالتوسع في الاستثمار السياحي او التسويق السياحي .

. مرحلة الرقابة والاشراف على التنفيذ ، من اجل الوقوف على النقائص واتخاذ الاجراءات اللازمة .

. الاستراتيجية الاتصالية للديوان الوطني للسياحة :

ينص القانون رقم 03/01 الصادر بتاريخ 17 فيفري 2003 والمتعلق بالتنمية السياحية على ان ترقية السياحة تعتبر ذات منفعة عامة ، كما ينص في نفس المادة " تنشأ هيئة عمومية تسمى الديوان الوطني تتولى مهمة تأطير الترقية السياحية وتجدد قانونها الاساسي وتنظيمها ومهامها عن طريق التنظيم " .

ومن خلال هذ القانون فالديوان الوطني للسياحة مكلف بمهمة ترقية السياحة بالتنسيق مع المؤسسات والتنظيمات ومتعاملي القطاع من خلال²:

. جلب المستثمرين واصحاب رؤوس الاموال ، ومساعدتهم في تنمية مشاريعهم السياحية .

. المساهمة الفعالة في عملية الترويج السياحي من خلال دراسة السوق .

. انجاز وبث دعائم ترقويه إعلامية تعكس الرؤية الوطنية للسياحة الجزائرية عن طريق تنظيم المشاركة في المعارض والصالونات والملتقيات والمنتديات والتظاهرات السياحية .

¹ خالد مقابلة: الترويج الفندقي الحديث ، ط1 ، (عمان ، دار وائل للنشر، 2000) ص34

2 الجمهورية الجزائرية ، الجريدة الرسمية ، العدد13 ، السنة 40 ، الصادرة بتاريخ 26 فبراير 2003

. زيادة فتح المندوبيات والتمثيلات الجهوية في الاماكن ذات الاولوية السياحية ،وكذلك في الاسواق الدولية وخاصة منها المهمة بالمنتج السياحي الجزائري كالصين وروسيا .
ركائز الاستراتيجية الاتصالية للديوان :

يعمل الديوان الوطني للسياحة على تنمية القطاع ضمن منظور استدامة شاملة ، ويلبي ضرورة الحفاظ على المقومات الموجودة وتمييزها وخلق مناخ مناسب للاستثمار . ومن هنا يقوم نشاط الاتصالي للديوان على مستويين :

. **المستوى المحلي :** تعريف المواطن بالمنتج السياحي الوطني والعمل على جذب اهتمامهم نحو السياحة الداخلية خاصة خلال المواسم السياحية .عن الوسائل الاتصالية المختلفة كالصحافة والمعارض والندوات ...

. **المستوى الدولي :** ويتم من خلال المشاركة المستمرة في الصالونات والمهرجانات الدولية والترويج للسياحة الجزائرية .

واعلام اصحاب رؤوس الاموال والمستثمرين المحتملين بفرص وشروط الاستثمار وعمليات الشراكة وتقديم لهم يد المساعدة، اقامة علاقات حسنة مع الصحافة الدولية وإظهار الوجه المشرق للمنتج السياحي الجزائري.

البرنامج الاتصالي للديوان الوطني للسياحة :

يهدف البرنامج الاتصالي الى تفعيل دور الاتصال لترقية صورة الجزائر السياحية وذلك من خلال¹:
. إعادة تنظيم وتقويم الصالونات السياحية عن طريق التحري حول آفاق تطوير وتنمية السياحة الوطنية وانعكاساتها على السياحة الدولية .

إنجاز النشرات الاعلامية بشكل دوري ،وبلغات متعددة ،توزع بصفة دائمة ومجانية على الصحافة الوطنية والدولية وكذلك كل المؤسسات والهيئات والشركات والافراد المهتمين .

. التركيز على الأنترانت وماتوفره من سرعة وانتشار للمعلومة وبشكل افضل (السياحة الالكترونية)
. انجاز دعائم اعلامية ترويجية جديدة كالمطويات والاشرطة والريورتاجات وصور المعالم السياحية والخرائط .

أدوات الاستراتيجية الاتصالية للديوان :

يعتمد الديوان الوطني للسياحة في عملية تنمية السياحة وإعادة الاعتبار للمنتج السياحي الجزائري في الاسواق المحلية والدولية ،على نوعين من الاتصال . الاتصال المؤسساتي ويتم هذا من الاتصال لفائدة الجزائر كوجه سياحية ، واتصال المنتج الذي تقوم به الوكالات السياحية حيث تعرف بالمنتج السياحي وتسويقه.

¹مقابلة مع السيد : مرابحة محمد رئيس العلاقات العامة والاتصال ، بمقر الديوان

التقنيات الاتصالية المستخدمة من طرف الديوان الوطني للسياحة

ان السياحة اصبحت ظاهرة إنسانية وثقافية ونشاط اجتماعي يخضع للعديد من المؤثرات و المتغيرات المحلية و العالمية ولم تعد نشاط مؤقتا يخضع للظروف و الرغبات الظرفية ، وانتقل مفهوم السياحة من مجرد اشباع رغبات الانسان الموقته بالتمتع إلى صناعة تسعى الى التوسع المستمر وتعمل على خلق طلب مستمر على خدماتها ، فكل دول العالم تعمل جاهدة اليوم على تحسين منتجاتها وتطوير عروضها الترقية لاستقطاب وجلب اكبر عدد ممكن من السياح و الاستثمارات .

فالجزائر وعلى غرار الدول الاخرى التي تتميز بالمقومات السياحية الهائلة انتهجت سياسات واستراتيجيات جديدة للنهوض بهذا القطاع على المديين المتوسط والبعيد .ولعل من ابرز هذه السياسات نجد الاستراتيجيات الاتصالية ،التي تعبر ركيزة تنفيذها .

ومن خلال دراستنا للاستراتيجية الاتصالية للتنمية السياحية في الجزائر ،توصلنا الى اهم النتائج :
تقع الاستراتيجية الاتصالية على عاتق الديوان الوطني للسياحة ، حيث على التعريف بالجزائر كوجهة سياحية واعادة الاعتبار لصورتها السياحية ، وتستهدف السوق الداخلية عن طريق تشجيع الاعياد المحلية وتحفيز المواطنين لاكتشاف موروثهم السياحي ، أما دوليا فتهدف الى التعريف بالمنتج السياحي في المحافل الدولية والتظاهرات السياحية المختلفة .

. الاستراتيجية السياحية عموما وخاصة منها الاتصالية غير طموحة ، لكونها تهدف الى تحقيق جد ضئيلة مقارنة بدول الجوار . افتقار الاستراتيجية الاتصالية في تطبيقها ميدانيا الى إطارات مختصة في التسويق والاتصال ،حيث ان الاطارات الموجودة على مستوى الديوان الوطني للسياحية لها صفات ادارية تعمل بالتجربة والخبرة المكتسبة ،تفتقر الى الابداع ومسايرة التطورات التكنولوجية .

بالرغم من الاهمية التي يوليها الديوان الى الاشهار للتعريف بالمنتج السياحي إلا انه يفتقر الى مصلحة خاصة به ،حيث توكل مهمته الى مصلحة الاتصال .

. غياب كلي الى دراسة الاسواق المحلية و الاجنبية وظروف متغيرات العرض و الطلب .
. غياب الفعالية في التطبيق الفعلي للاستراتيجية الاتصالية ، وذلك يظهر جليا في الدعائم الاشهارية والاعلامية ،حيث نلاحظ التشابه والتكرار في الصور والكلمات .

بالرغم من المساعي المبذولة للنهوض بالقطاع السياحي كمورد هام خاصة في ظل تراجع اسعار النفط ودخول الجزائر في سياسة التقشف، الان هناك العديد من النقائص التي تبقى نقاط ضعف للتنمية السياحية الجزائرية والتي يمكن بلورتها كاقتراعات:

. لتطوير القطاع السياحي وتنميته بالشكل الذي يتماشى والتطورات التكنولوجية الحديثة لابد من تخصيص الامكانيات المادية المناسبة والطاقات البشرية المؤهلة .

. ضرورة إرساء الثقافة السياحية لدى الفرد الجزائري وتنمية وعيه السياحي ،وابجاد التوافق بين السائح المحلي والاجنبية.

- . تطوير البرامج التسويقية وجعلها تتماشى والاسواق العالمية في المجال السياحي .
- . الاهتمام بالبنى التحتية كالمطارات والفنادق
- . زيادة الاهتمام بالقطاع السياحي في الوسائل الاعلامية المختلفة ،والترويج له من خلال نشاطات جادة.
- . فتح قنوات ووسائل اعلامية متخصصة بالسياحة .

خاتمة :

بالرغم من الجهود المبذولة من طرف الدولة التي تهدف الى تحسين صورتها السياحية ،من خلال اعتمادها على الاستراتيجيات السياحية قصيرة المدى و المتوسطة وطويلة المدى ،ورفع قدراتها من الايواء وفتح المجال أمام المستثمرين بإدخال التقنيات الاتصالية الجديدة ،مستعملة في ذلك كل الوسائل اللازمة بما فيها الاشهار السياحي عبر مختلف الوسائل والتقنيات والاعلامية ،ومشاركتها في التظاهرات الوطنية والدولية المتخصصة في السياحة ،الا ان القطاع لازال يعاني من شلل وعجز كبيرين نتيجة النقص في البنى والاهمال وسوء التسيير ،وفقدان الوعي السياحي العام .

إن صناعة السياحة في الجزائر مدعوة الى اعادة التنظيم وتبنى استراتيجية تضمن لها التنمية المستدامة في زمن العولمة والتكنولوجيات الحديثة ،باستخدام احدث ما توصلت اليه هذه الاخيرة من تقنيات وفي مقدمتها الاتصالات ونظم المعلومات ،الاداة الاكثر فعالية لما تقدمه من حلول نوعية وخدمات متميزة بطرق مسيرة وغير مكلفة لاسيما فيما يتعلق بالمشاكل ذات الصبغة الترويجية ، ولهذا توجب على المهتمين والمسؤولين بالقطاع تعزيز هذه التقنيات وكذلك تفعيل استخدامها في الميدان ،خاصة وان استراتيجية الجزائر من خلال المخططات والبرامج السياحية تشجع الشراكة والتعامل مع جميع الفاعلين محليا ودوليا وبناء صورة سياحية تستجيب والمقاييس الدولية .

دور الإعلام والأنشطة الاتصالية في تسويق الوجهات السياحية في الجزائر.

نورين عشاش¹.

مقدمة

أضحت السياحة في زمننا الحاضر صناعة ضخمة قائمة بذاتها، تدرّ ملايين الدولارات على خزينة الدول السياحية، مما يسهم بشكل كبير في دخلها القومي وينسب تصل أحيانا إلى 10 % تزيد أو تنقص قليلا حسب كل دولة، بل بعض البلدان تقترب مداخيلها من السياحة، تلك المداخيل التي تحققها بعض الدول النفطية من تصدير المحروقات خلال عام واحد، وهذه الامتيازات التي تحظى بها تلك الدول من ريع السياحة لا يمكن لها أن تتحقق إلا بحسن تسويق وترويج ما تزخر به من مقومات سياحية تنير بها إعجاب السياح لاستقطاب أكبر عدد ممكن منهم، متخذة في ذلك كل السبل المتاحة من أساليب الترويج المعروفة في هذا المجال، وأهمها على الإطلاق الإعلام والاتصال بمختلف أشكاله وأنماطه.

و قد تغيرت الأنظار في وقت ليس بالبعيد إلى الاهتمام أكثر بالقطاع السياحي الذي ظل في الهامش لعقود طويلة وخاصة في الدول النفطية، التي تعتمد على مداخيل المحروقات بشكل كبير في تحصيل ناتجها القومي، كون المخزون الباطني لتلك الثروات الطبيعية آيل إلى الزوال يوما ما، لذلك تسعى تلك الدول ومنها الجزائر إلى تنويع مصادر الدخل المعتمدة بشكل شبه كلي على المحروقات، وذلك من خلال تنشيط بعض القطاعات المهمة التي أهملت لعدة أسباب، وكان القطاع السياحي أبرز تلك القطاعات الاقتصادية الذي بدأ الاهتمام به يزداد لما يحصله من عائدات بالعملة الصعبة وتشغيل أعداد كبيرة من طالبي العمل، بالإضافة إلى كونه موردا دائما لا ينضب إذا توافرت شروطه المشجعة من توفير الأمن وتحسين الخدمات للسياح وغيرها من ظروف الراحة.

وفي عصر السموات المفتوحة والانفتاح العالمي على ثقافات الشعوب، صار لزاما على الدول السياحية التركيز أكثر على دور الإعلام المتعاطم في تشكيل الآراء والمواقف، من خلال توظيفه في خدمة القطاع السياحي، لاسيما وأن الإعلام الجماهيري يضم مؤسسات متنوعة مقروءة ومسموعة ومرئية بإمكانها مخاطبة مختلف فئات المجتمع وأجناس الشعوب، ناهيك عن وسائل الإعلام الالكترونية وشبكات التواصل الاجتماعي.

¹أستاذ مساعد قسم ا قسم العلوم الانسانية (تخصص الاعلام والاتصال) جامعة جيلالي ليايس - سيدي بلعباس.

مفاهيم أساسية

قبل الخوض في تفاصيل استخدامات الإعلام ومختلف الأنشطة الاتصالية الأخرى في تسويق الوجهات السياحية في الجزائر، ينبغي تحديد بعض المفاهيم الأساسية، وأهمها :

1- الإعلام

يعني الإعلام الحصول على معلومات حول قضية معينة ونشرها بهدف تشكيل درجة من الوعي بالتطورات المهمة لدى صانعي القرارات والإداريين وقطاعات الجمهور كافة، وكلمة إعلام منبثقة من (أعلمه بالشيء) وتعني تزويد الجمهور بأكبر قدر ممكن من المعلومات الموضوعية الصحيحة والواضحة، ويقدر ما تكون هاتان الصفتان متوفرتين، بقدر ما يكون الإعلام سليما وقويا، والإعلام هو نشر الحقائق الثابتة الصحيحة والأخبار والمعلومات السليمة الصادقة والأفكار والآراء والإسهام في تنوير الرأي العام وتكوين الرأي الصائب لدى الجمهور⁽¹⁾ ، ويكون الإعلام عبر وسائل الاتصال الجماهيرية المعروفة كالجرائد والمجلات والإذاعة والتلفزيون وغيرها من الوسائط الالكترونية كذلك.

بينما يرى فلاح كاظم أن خير تعريف عربي جامع وشامل للإعلام هو ما أورده الدكتور إبراهيم الداوقى أستاذ الإعلام في جامعة بغداد قسم الإعلام إذ يقول : " الإعلام هو عملية تلقي المعلومات وكل ما يتصل بالفكر الإنساني في تفاعله مع المجتمع وهضمها، مع إعادة إرسالها وفق متطلبات المجتمع القطري والقومي والعالمي بوسائل الإعلام المقروءة أو السمعية أو السمعية البصرية كالتلفزيون في حركة أفقية ورأسية في آن واحد⁽²⁾".

2 - الإعلام السياحي :

معروف أن الإعلام يقوم بعدة وظائف في المجتمع الذي ينشط فيه، وتختلف تلك الوظائف حسب نوعية الجمهور والهدف الذي يود القائمون بالاتصال توصيله إليه وإقناعه به، وكذا نوعية المضمون الإعلامي، فالإعلام المتخصص مثلا يؤدي وظائف غير تلك الوظائف التي يقدمها الإعلام العام غير المتخصص، ومن ذلك نجد الإعلام الاقتصادي أو الرياضي أو الثقافي أو السياحي، هذا الأخير الذي يختص في تقديم مضامين سياحية خالصة موجهة إلى مختلف فئات الجماهير المهمة أساسا بالقطاع السياحي، من سياح فعليين وسياح مرتقبين لاستمالتهم لزيارة الدولة بما تملكه من مقدرات ومكاسب، وذلك باستخدام مختلف طرق الإقناع المعروفة في إعداد الرسالة الإعلامية، وقد يكون هذا الإعلام متخصصا بمنطقة أو دولة بعينها، كما قد يكون مضمونه يشمل كل المناطق السياحية في العالم من أجل التعريف بها، لتكون مرشدا وموجها للسياح الراغبين في زيارة تلك الأماكن.

(1) - منال أبو الحسن: علم الاجتماع الاعلامي ، دار النشر للجامعات، القاهرة، 2007، ص 23.

(2) - محمد بابكر العوض، الإعلام والمعلومات الاتصال والتواصل (إشكالية المفهوم في بحوث الاتصال العربية)، مجلة الإذاعات العربية ، الرياض، العدد 1، 2011 ص 98.

يعتبر الإعلام السياحي نوعاً من الإعلام المتخصص في مجال السياحة بأنواعها، حيث يتركز مضمونه على وجه الخصوص بالتعريف بالمناطق والأماكن السياحية وما تحتويه من معالم تستحق الزيارة، ويتخذ هذا النوع من الإعلام أحد شكلين اثنين، فإما أن تتخصص الوسيلة الإعلامية في هذا المجال وتسخر كامل مضمونها من أجل تغطية المواضيع السياحية، أو تقوم بتخصيص جزء من مضمونها للشأن السياحي، ويكون ذلك على شكل موضوعات منشورة في صفحات خاصة في الجرائد والمجلات، أو برامج في القنوات الإذاعية والتلفزيونية.

و تعرف فؤاده البكري الإعلام السياحي بأنه " الجهود الموضوعية وغير الشخصية والمبدولة من الجهات الرسمية وغير الرسمية لتحسين الصورة السياحية، والداعية إلى إعداد ونقل رسالة أو مجموعة من الرسائل، بهدف تقديم صورة طيبة عن المنتج أو الخدمة السياحية، كذلك العمل على خلق تنمية سياحية للدولة أو منطقة ما باستخدام الوسائل الاتصالية، بغرض جذب اهتمام السائحين المرتقبين في تلك الأسواق سواء داخل البلاد أو خارجها، ومن ثم دفعهم إلى السفر وممارسة النشاط السياحي"⁽³⁾.

وقد نقلت ميادة كاظم جعفر عددا من تعريفات الباحثين لمفهوم الإعلام السياحي ننقل بعضها لأهميته⁽⁴⁾ :

" يعد الإعلام السياحي أحد أشكال الإعلام المتخصص الذي يتناول بالتفصيل قضايا وموضوعات السياحة، وكذلك ينهض بالحركة السياحية بشكل بارز ومؤثر، ويعرف الإعلام السياحي بأنه نشاط اتصالي مخطط ومستمر يمارسه متخصصون في العلاقات العامة، يهدف إلى تزويد الجمهور بالحقائق والأخبار والمعلومات عن القضايا والموضوعات المتعلقة بالسياحة بطريقة موضوعية، عن طريق وسائل الاتصال وبأساليب الإقناعية والتأثيرية كافة، من أجل تنمية الوعي السياحي لدى الجمهور من ناحية، واجتذاب أكبر عدد من الأفراد للإقامة بعيداً عن موطن إقامتهم سواء داخل البلاد أو خارجها من ناحية أخرى".

- " إن الإعلام السياحي يقوم على مخاطبة الجمهور مخاطبة موضوعية وعقلية، مستخدماً عوامل الجذب والتشويق في تقديم المنتج أو الخدمة السياحية، بقصد إقناع الجمهور وإثارة اهتمامه بأهمية السياحة وفوائدها للفرد والدولة، وتشجيعه في معرفة المغريات السياحية وذلك بنشر الوعي السياحي بينهم".

(3) - فؤاده البكري : العلاقات العامة في المنشآت السياحية، عالم الكتب، القاهرة، 2004 ، ص 55 .

(4) - ميادة كاظم جعفر : العلاقات العامة والأنشطة السياحية ، مجلة الباحث الإعلامي ، العدد 9 - 10 ، حزيران - ايلول 2010 ، ص 286.

ولا تقتصر مهام الإعلام السياحي في التعريف بالمعالم السياحية فقط، بل يتعدى ذلك إلى تقديم وشرح الخدمات المقدمة للسائح المرتقب وكذا خصائص البلد وإجراءات السفر إليه وما إلى ذلك من الأشياء المهمة التي يتطلع لمعرفة أي سائح، من أجل دفعه للقيام بجولة سياحية فيها.

3- السائح

تتفق أغلب التعريفات الخاصة بمفهوم السائح على أنه ذلك الفرد الذي ينتقل إلى مكان آخر غير محل إقامته الأصلية لعدة أسباب كالتعليم أو الترفيه أو غيرها، وقد أوردت الدكتورة ميادة كاظم عددا من التعريفات لمفهوم السائح نذكر أهمها (5) : في عام 1932 م قامت لجنة من الخبراء السياحيين بعصبة الأمم المتحدة بإبراز مفاهيم عدة للسائح هي :

أ - السائح هم الأشخاص الذين يسافرون للراحة والمتعة أو لأغراض عائلية أو صحية.
ب - الأشخاص الذين يسافرون لحضور اجتماعات دولية أو لتمثيل بلادهم، سواء كان تمثيلا دينيا أو علميا أو دبلوماسيا.

ج- الأشخاص المسافرون في رحلات بحرية حتى لو كانت مدة إقامتهم أقل من 24 ساعة.
في عام 1936م قامت لجنة في عصبة الأمم في جنيف بتعريف السائح بأنه الشخص الذي يحل مدة 24 ساعة في دولة غير تلك التي يقيم فيها بصفة دائمة.

في عام 1963م قام المؤتمر الدولي للسياحة بتعريف السائح بأنهم الزائرون المؤقتون الذين يبقون ما لا يقل عن 24 ساعة في البلد المزار، ويجب أن تهدف رحلتهم إلى واحد من الأغراض التالية :

- قضاء وقت الفراغ ، العطلة، الصحة، الدراسة، الدين، الأشغال، الزيارة العائلية، المؤتمرات.
أما منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية فتعرف السائح أنه الشخص الذي ينتقل لمدة لا تقل عن 24 ساعة إلى بلد آخر غير البلد الذي فيه موطنه المعتاد.

غير أن هناك تعريفات أخرى لمفهوم السائح تستثني العمال الذين يعملون في غير بلدانهم و يتقاضون على ذلك أجره، من الدخول تحت مسمى " السائح " .

4- السياحة

" السياحة ظاهرة من ظواهر هذا العصر تتبثق من الحاجة المتزايدة إلى الراحة وإلى تغيير الهواء وإلى الإحساس بجمال الطبيعة ونمو هذا الإحساس وإلى الشعور بالبهجة والمتعة من الإقامة في منطقة لها طبيعتها الخاصة، وأيضا إلى نمو الاتصالات على الأخص بين شعوب وأوساط مختلفة من الجماعة الإنسانية، كما ترى الأكاديمية الدولية للسياحة بأن السياحة تعبير يطلق على حالات الترفيه، وعلى هذا

(5) - المرجع السابق، ص 283.

الأساس فهي مجموعة الأنشطة المحضرة لتحقيق هذا النوع من الرحلات الترفيهية وهي صناعة تتعاون على سد حاجة السائح⁽⁶⁾ .

و حسب Hunsiker et Crapf تعرف السياحة بأنها: " مجموعة من علاقات وظواهر ناتجة عن سفر وإقامة أشخاص، بحيث لا يكون مكان الإقامة هو مقر الإقامة الأصلي والدائم، وليس مكان العمل الأساسي". وقد ركز هذا التعريف على تحديد مفهوم السياحة باعتبارها أي نشاط خارج مكان إقامة الشخص، لكنه أهمل زمن مكوث الشخص، وتشمل السياحة " سفر وإقامة الأفراد الذين لا يقيمون ولا يعملون في المنطقة بشكل دائم وإقامتهم تستمر لليلة واحدة على الأقل، ولعام واحد على الأكثر، وإذا كان المبيت من ليلة واحدة إلى ثلاث فيعتبر ذلك سياحة قصيرة الأجل، ومن أربع فأكثر يعتبر عموماً سياحة، فالسياحة تشمل أشكال السفر المرتبطة بالمهنة (العمل) والعلاج (سياحة مهنية وسياحة نقاهة) وتشمل كذلك أشكال السفر الحر الذي يهدف إلى الاستجمام والترفيه⁽⁷⁾.

ثالثاً : أهمية الإعلام في الترويج للسياحة

لا يكفي امتلاك أي دولة كانت لعدة مناطق سياحية ولو كانت في مستوى عال من الجاذبية من استقطاب السياح، دون أن تقوم بالترويج لذلك في مختلف أصقاع العالم، وذلك بإعداد تخطيط مسبق ووضع إستراتيجية سياحية طويلة المدى ترصد لها ميزانيات خاصة لتجعل من نفسها قبلة للسياح على مدار العام وليس موسمياً أو في المناسبات فقط.

هذا و تعرف الجزائر مقومات سياحية هائلة بمختلف أنواعها أثارت و لا تزال تثير إعجاب السياح الذين قصدوها أو ممن اطلعوا على إمكانياتها و جاذبيتها، لكن رغم هذه الإمكانيات الطبيعية التي تزخر بها البلاد، إلا أن المتتبعين للشأن السياحي لازالوا يؤكدون على ضعف هذا المجال مقارنة بالمناطق السياحية المتوفرة، وبمدى الإمكانيات المادية والبشرية المرصودة لها، في الوقت الذي يعد فيه هذا القطاع من أهم موارد بعض الدول العربية من العملة الصعبة وفي تحصيل ناتجها القومي أيضاً، لذلك ينبغي التفكير في السبل المثلى لتسويق الوجهات السياحية في الجزائر للرفع من مستواها وبما يليق بما هو متاح ومتوفر من موارد مختلفة، ومن هنا يأتي التأكيد على دور الإعلام والأنشطة الاتصالية المختلفة في تسويق الوجهات السياحية الجزائرية، وللنهوض بالقطاع السياحي عموماً.

وقد أدت المنافسة الحادة بين الدول السياحية في استقطاب أكبر عدد ممكن من السياح إليها عاملاً آخر يدفع بالجزائر إلى ضرورة إضفاء الحيوية والنشاط على القطاع السياحي فيها، لأن السائح

(6) - هوارى معراج و محمد سليمان جردات : السياحة وأثرها في التنمية الاقتصادية العالمية : حالة الاقتصاد الجزائري ، مجلة الباحث، كلية العلوم الاقتصادية والتجارية جامعة قاصدي مرباح ، ورقلة ، عدد 01 ، 2004 ، ص 22.

(7) - نوري منير و بلعلاء حديجة ، الإعلان الالكتروني وأهميته في تقديم خدمة سياحية متميزة في ظل الاقتصاد الافتراضي ، مداخلة أقيمت في الملتقى العلمي الدولي الخامس حول " الاقتصاد الافتراضي وانعكاساته على الاقتصاديات الدولية " المنعقد بالمركز الجامعي خميس مليانة - عين الدفلى (الجزائر)، يومي 13 - 14 مارس 2012.

يجب التوجه إلى البلاد التي تضمن له خدمة مميزة وراحة وحسن استقبال منذ أن تطأ قدمه أرض الوطن إلى غاية خروجه منها عائداً إلى بلده، ما يجعله يكوّن صورة ذهنية جيدة عن تلك البلاد، لذلك يجب الاهتمام أكثر بالموارد البشري المؤهل والمتخصص للتعامل مع السياح وإعطاء صورة حسنة للبلاد في تعاملها مع السياح، دون إغفال لدور الإعلام ومختلف الأنشطة الاتصالية في هذه العملية.

لذلك فإن عملية التحسيس والتسويق للمناطق السياحية و الدولة السياحية عموماً، باعتبارها عملية اتصالية ديناميكية، تقتضي تقسيمها إلى عناصر محددة حتى يمكن التعامل معها جيداً، باعتبارها تضم مرسلين ومستقبلين ووسيلة اتصالية ومضموناً اتصالياً، وكل هذه العناصر مرتبطة بموضوع السياحة.

المرسل : ينبغي أن يكون الكادر الصحفي الذي توكل له مهمة مخاطبة الجمهور السياحي وتوصيل الرسالة إليه مؤهلاً جيداً وعلى دراية تامة بما يكتب أو يقول وملماً بالجانب السياحي، كما يُستحسن لو كان مختصاً في هذا المجال الحيوي كغيره من القائمين بالاتصال المختصين في الشأن السياسي أو الاقتصادي أو الرياضي أو غيرها من المجالات المختلفة الأخرى.

الرسالة : وهي المضمون المراد تبليغه إلى الجمهور السياحي، وتضم مجمل المعلومات عن الدولة السياحية من معالم وأثار سياحية وكذا توضيح وشرح التسهيلات المميزة التي يحظى بها السياح داخل البلد، وتكون هذه الرسائل مطعّمة بالاستمالات العقلية والعاطفية لترغيبهم وإقناعهم بضرورة القيام بجولة سياحية، على أن تكون هذه المضامين الإعلامية مكتوبة أو منطوقة بمختلف اللغات العالمية الواسعة الانتشار حتى يفهمها السائح.

الوسيلة : تختلف طرق التواصل مع الجمهور السياحي باختلاف وسائل الاتصال وأهمها وسائل الاتصال الجماهيري من تلفزيون وإذاعة وانترنت وجرائد ومجلات، بالإضافة إلى الملصقات الحائطية والكتيبات التوضيحية والمهرجانات وغيرها من الوسائل التي تصبوا للوصول إلى الجمهور المستهدف، وكل وسيلة من تلك الوسائل بإمكانها مخاطبة جميع أفراد الجمهور السياحي أو فئات منه حسب عدة متغيرات.

الجمهور المستهدف : وهو هنا بالتأكيد الجمهور السياحي الذي يضم السياح الفعليين والسياح المفترضين، إذ ينبغي معرفة خصائصه وثقافته وعاداته وتقاليده ومراعاة ذلك، فالموروث الثقافي للشعوب يعتبر محركاً مهماً لاختيار السياح لبعض البلدان أو المناطق داخل الدولة السياحية واستبعاد دول أو مناطق أخرى لتعارضها مع الثقافة السائدة في بلده، كما ينبغي مخاطبته بلغة بسيطة يفهمها حتى تؤدي الرسالة معناها على أكمل وجه.

رجع الصدى : ينبغي للقائمين على الإستراتيجية الإعلامية السياحية أن يأخذوا مواقف وآراء السياح السابقين الذين قاموا بزيارات سياحية للبلد بعين الاعتبار، باعتبارهم مؤشراً مهماً جداً في قياس مدى الرضا عن الخدمات المقدمة لهم خلال فترة إقامتهم السياحية، وبالتالي يمكن إصلاح أو تدارك أي نقص يتم التنبيه إليه من طرفهم، ولا يمكن تحصيل رجع الصدى من هؤلاء إلا بإحداث عملية تفاعل

معهم بعد كل زيارة واستطلاع آرائهم عنها، ولا يقتصر رجع الصدى على السياح السابقين فقط، بل قد يمتد ذلك إلى السياح المفترضين أيضا من خلال متابعة النقاشات أو التعليقات التي تنشر عن السياحة في البلد المقصود للعمل على أخذها بعين الاعتبار مسبقا.

رابعا : أهمية الإعلام السياحي

تأتي أهمية الإعلام السياحي من الطبيعة الخاصة بصناعة السياحة وتعد ممارسته ذات إسهام مهم في تنمية اقتصاديات العمل السياحي، من خلال الكشف عن الفرص الاستثمارية في هذا المجال وبث روح التنافس بين المناطق السياحية والمستثمرين لتطوير منتجاتهم السياحية، فضلا عن أهمية الإعلام السياحي في النواحي الاقتصادية، حيث تتضاعف أهميته في ظل وجود طلب كامن على السياحة يمكن تحويله من خلال جهود الإعلام وباستخدام الاتصال التسويقي إلى طلب نشط⁽⁸⁾.

ويمكن إجمال الأهمية التي يكتسيها الإعلام السياحي في النهوض بقطاع السياحة في ما يلي :

1- القدرة على الوصول إلى جماهير كبيرة و عريضة من السياح الفعليين الذين سبق لهم القيام بالسياحة وكذا الراغبين في السياحة داخل الوطن وخارجه.

2 - القدرة الكبيرة في التأثير والإقناع بجدوى القيام برحلة سياحية إلى البلد من خلال استخدام الاستمالات المعروفة في إعداد الرسائل الإعلامية والإعلانية.

3 - إمكانية استغلال وتوظيف تكنولوجيا الإعلام والاتصال في إعداد وصياغة الرسائل الإعلامية وتوصيلها.

4 - إبراز أهم المناطق السياحية وتسلط الضوء أكثر على بعض المناطق السياحية غير المعروفة أو المشهورة.

5 - نشر الوعي السياحي بين الجماهير غير المهتمة بالسياحة ودفعها إلى تجربة القيام برحلة سياحية.

6 - الفائدة الاقتصادية التي يعود بها على أصحاب المنشآت السياحية كأصحاب الفنادق والمراكز التجارية وعلى الدولة عموما.

7 - تحسين الصورة الذهنية للبلد السياحي ، فالكثير من السياح قد يحجمون عن المغامرة والذهاب في رحلة سياحية إلى بلد معين بعد وقوع حوادث أو تحذيرات أمنية^(*) تهدد حياة وسلامة السياح

(8) - سعيد محمد باقر الرمضان : الإعلام السعودي وتأثيره على السياحة الداخلية ، رسالة ماجستير في الاعلام والاتصال غير منشورة ، كلية الاداب والتربية. الاكاديمية العربية المفتوحة في الدنمارك ، 2011 ، ص 39.

(*) - قد تتسبب التحذيرات الأمنية المبالغ فيها التي تطلقها بعض السفارات الأجنبية داخل الدولة وتدعوا مواطنيها إلى عدم السفر أو رعاياها المقيمين بضرورة اتخاذ أقصى درجات الحيطه والحذر نتيجة مخاوف أمنية تهدد سلامتهم، في زعزعة الاستقرار السياحي ودفع السياح إلى إلغاء حجوزاتهم في الفنادق ووكالات السفر وعدم برمجة رحلاتهم السياحية أو قطعها بعد وصولهم، بل قد تكون تلك التحذيرات أكثر ضررا على الموسم السياحي من الخطر الأمني ذاته - إن وجد -.

رغم كونها حوادث منعزلة، فالإعلام السياحي يقوم هنا بتوضيح الحقائق وتبديد مخاوف السياح بشأن الأمان المتوفر والخدمات المتوفرة والتسهيلات الممنوحة.

8 - حسن تسويق المناطق والمنتجات السياحية لما يملكه الإعلام المرئي والمسموع من مؤثرات صوتية و عمليات تركيب للصور تضيف جمالية للرسالة الإعلامية تخاطب بها قلوب ونفوس السياح. إلى هنا تظهر الأهمية الكبرى التي يكتسيها الإعلام الجماهيري بمختلف وسائله في مجال تسويق الوجهات السياحية، إذ يعتبر الإعلام الأكثر مقدرة على مخاطبة جماهير عريضة من السياح في اللحظة ذاتها.

خامسا : مهام الإعلام في التسويق السياحي

يلعب الإعلام دورا مهما في تنشيط الحركة السياحية في أي بلد من البلدان، وهناك علاقة قوية بين التنمية السياحية والإعلام، خاصة وأن الجوانب الاقتصادية لقطاع السياحة قد برزت بشكل واضح خلال النصف الثاني من القرن الماضي باعتباره إحدى المكونات الهامة في الهيكل الاقتصادي في كثير من الدول، وخاصة بعد أن عدت السياحة كأكبر صناعة في العالم عام 1985م⁽⁹⁾، وقد تعاضد دور السياحة في هذا الهيكل أكثر من أي وقت مضى، مما زاد من أهمية مساهمة الإعلام لهذا النشاط الاقتصادي، واختلفت بذلك مهامه وأدواره في مجال تنشيطه ونشر الوعي بأهميته.

ومن أبرز المهام المنوطة بالإعلام في مجال نشر الوعي السياحي في المجتمع ما يلي:

- 1 - تكثيف البرامج التوعوية من خلال النشرات الإرشادية حول الوعي السياحي الداخلي.
- 2 - توجيه برامج إعلامية خاصة بالمعالم السياحية الداخلية.
- 3 - تحفيز التدابير المحافظة على السمات المادية للسياحة البيئية.
- 4 - رعاية المواقع والمعالم التاريخية^(**) والحياة البشرية البرية.
- 5 - تخصيص مساحات صحفية وإذاعية خاصة بالتربية السياحية الوطنية، ونشر الوعي السياحي⁽¹⁰⁾.

وليس هذه المهام مقصورة على السياحة الداخلية فحسب بل حتى على مستوى السياحة الخارجية، ومن تلك المهام أيضا :

(9) - لؤي طه الملاحوش و نبيل فيصل موسى الموسوي : دور الإعلام في تنشيط حركة التنمية السياحية في العراق ، مجلة المخطط والتنمية ، العدد 14 ، كانون الاول 2005 ، ص 1.

(**) - مما يؤسف له في الجزائر التهميش الذي تعرفه مغارة العلامة ابن خلدون في ولاية تيارت، رغم شهرة المؤرخ ومغارته إلا ان السلطات المحلية لم تهينيه ليكون مقصدا للسياح، فلا لافتات ولا إشارات توجي بأنك في مكان شهد ميلاد "المقدمة"، ولأنه يقع بمحاذاة أراض فلاحية، فإن المكان أضحي مقصدا لرعي الأغنام والأبقار للأسف الشديد!!

(10) - سعيد محمد باقر الرمضان : مرجع سبق ذكره ، ص 36.

6 - رعاية المهرجانات السياحية والفعاليات الثقافية والفنية التي تقام في المناطق السياحية، واستغلال التظاهرات الثقافية الكبرى ذات الصدى الخارجي من أجل إيصال وتسويق الوجهة السياحية الجزائرية في أبهى صورة، كما هو الشأن مثلا في تظاهرة " قسنطينة عاصمة الثقافة العربية 2015 " .

7 - الاستثمار في الإعلام الأجنبي من خلال الإشهارات التحريرية، وهو نوع من الاشهار مدفوع الأجرة لكنه يتم بطريقة تحريرية بأحد فنون التحرير الصحفي المعروفة والتغطيات الصحفية المختلفة، ويكون ذلك في أحد وسائل الإعلام المعروفة في البلد الذي يتوقع استهداف السياح فيه، ويتم ذلك من خلال كتابة ريبورتاجات مثلا عن البرنامج السياحي المسطر من طرف الجزائر خلال الموسم الحالي وأهم الوجهات السياحية فيه.

سادسا :أوجه الأنشطة الاتصالية التي تركز عليها الدولة السياحية في تسويق معالمها إن تطور وسائل الإعلام وظهور وسائل جديدة على البيئة الاتصالية ضاعف من تأثير بعضها على بعض وعلى الرأي العام، وفي ظل هذا التنوع فإن لكل وسيلة اتصال مقدرة على الإقناع تزيد أو تقل عن غيرها من الوسائل الأخرى، وتشير غالبية الأبحاث إلى أن الإمكانيات النسبية لمختلف الوسائل الإعلامية تختلف بشكل واضح من مهمة إقناعية إلى أخرى، ووفقا للجمهور الذي توجه إليه، ووفقا لخصائص كل وسيلة⁽¹¹⁾ ، لذلك فكلما كانت هذه الأنشطة متكاملة مع بعضها البعض، كلما زادت فرص الوصول إلى السائح وإغرائه بإمكانات البلد السياحية، وزادت في المقابل فرص التسويق السياحي. و تتمثل الأدوار التي تمارسها وسائل الإعلام في البلدان المتقدمة في دعم صناعة السياحة في تنقيف السائح من خلال الإعلان والترويج والاهتمام بإصدار النشرات والكتيبات والأدلة السياحية والخرائط السياحية وتوزيعها عن طريق وكلاء السفر أو الشركات السياحية أو مكاتب السياحة الوطنية، وكذلك عن طريق المطارات أو الموانئ أو مراكز الحدود البرية⁽¹²⁾، وفي ما يلي أهم تلك الأنشطة الاتصالية :

1- العلاقات العامة :

إذا كانت الدولة السياحية تسعى إلى تنشيط السياحة الداخلية بين مواطنيها لزيارة مناطق سياحية في مختلف الولايات داخل الوطن، فإنها ستضطر إلى اتخاذ إجراءات وترتيبات أخرى لمخاطبة السائح الأجنبي الذي لا يعرف عن المنطقة إلا الاسم فقط، وقد يجهل تماما وجود مناطق سياحية في هذه الدولة، ذلك ما تقوم به أجهزة العلاقات العامة في مختلف الوكالات السياحية إلى دواوين السياحة ووزارة السياحة

(11) - منى سعيد الحديدي وسلوى إمام علي: الإعلام والمجتمع ، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط 2 2006 ص 90

(12) - عبدة صبطي، دور وسائل الإعلام والاتصال في تنمية السياحة الصحراوية في الجزائر، مجلة علوم الانسان والمجتمع، العدد

1 ، مارس 2012، ص 180.

كذلك، بل تعتبر هي وظيفتها الأساس كوسيط بين السياح الأجانب باعتباره جمهورا خارجيا وفق منطق العلاقات العامة وبين تلك الدول و الأجهزة السياحية.

وتقوم العلاقات العامة كنشاط اتصالي بدور مهم وبالغ في ترويج وتنشيط القطاع السياحي باعتباره يدخل ضمن المزيج التسويقي للدولة السياحية، بفضل ما تقوم من مهام متعددة في سبيل تحسين صورة الدولة السياحية في أذهان السياح وكذا مواطني الدول الأخرى عموما من الذين يشكلون سياحا مفترضين بالنسبة لها.

ويعرف المعهد البريطاني العلاقات العامة بأنها الجهود المخططة والمستمرة لتأسيس وصيانة السمعة الحسنة والتفاهم المتبادل بين المؤسسة وجمهورها⁽¹³⁾، ويظهر نشاط العلاقات العامة في تلك الجهود والممارسات المدروسة والمرسومة التي تقوم بها مختلف الفعاليات والمؤسسات والهيئات السياحية تجاه الجمهور الداخلي أو الخارجي من سياح الداخل و الخارج في سبيل التعريف بمختلف المناطق السياحية وتسويق الوجهات السياحية المتنوعة التي تزخر بها الجزائر .

لكن في المقابل فان أنشطة العلاقات العامة ينبغي أن تكون جهودا متواصلة باستمرار غير ظرفية أو مرتبطة بمواسم معينة كمواسم الاصطياف، فديمومة تسويق وترويج الجزائر كبلد سياحي تقتضي القيام بمجهودات مخططة ضمن إستراتيجية عامة ترسمها الهيئات العليا المكلفة بتسيير قطاع السياحة في البلد، وذلك كله من أجل زيادة أعداد السياح أكثر.

ومن خلال هذه التعريفات لنشاط العلاقات العامة في المجال السياحي نستنتج ما يلي :

أ - أن العلاقات العامة في السياحة تعتبر نشاطا دائما ومستمرًا تقوم به كل المؤسسات العمومية و الخاصة ذات العلاقة بالشأن السياحي.

ب - تستهدف العلاقات العامة في السياحة قطاعات عريضة وغير معروفة من الجمهور يكون من بينهم سياح مرتقبون بالإضافة إلى السياح الفعليين.

ت - تهدف العلاقات العامة في السياحة إلى جلب أكبر عدد ممكن من السياح عن طريق التعريف بالأماكن السياحية للدولة السياحية.

لكن مما يؤسف له أن العلاقات العامة كجهاز ضمن الهيكل الإداري غير موجودة أصلا في الكثير من المؤسسات ذات العلاقة بالشأن السياحي في الجزائر بل وفي كثير من الإدارات الجزائرية، وذلك جهلا بأهميتها في ربط الصلات مع السياح وربطهم بالوجهة الجزائرية.

2 - إنشاء قناة فضائية متخصصة في السياحة:

مع الانفتاح الإعلامي الذي تنتهجه الجزائر حاليا تجاه القنوات الفضائية الخاصة، و صدور قانون السمعي البصري الذي فتح أبواب الاستثمار أمام الخواص لإنشاء قنوات خاصة، وكذا عزم الدولة

(13) - إلياس سلوم : تقنية العلاقات العامة ، دار الرضا للنشر ، سوريا ، 2001 ، ص 10 .

على إطلاق عدد من القنوات الموضوعاتية كما هو متداول بين الأوساط الإعلامية، يمكن بناء على ذلك إطلاق قناة فضائية موضوعاتية خاصة بالشأن السياحي⁽¹⁴⁾ موجهة إلى الجمهور السياحي على أن يتم النقاط برامجها عبر الأقمار الصناعية الأجنبية، وتبث عبر أكثر من لغة عالمية، علما أن عددا من الدول تمتلك قناة فضائية متخصصة بالقطاع السياحي مثلما هو حاصل مع جمهورية مصر العربية ودول عربية أخرى.

ولا يخفى ما لهذه القنوات من القدرة على الإقناع وتوصيل الصورة الحقيقية للجزائر السياحية في ظل وجود أعداد كبيرة من تلك القنوات عبر العالم.

3 - الأشهارات :

يتوقف ازدهار قطاع السياحة في أي بلد على الأهمية السياحية للأماكن الأثرية والطبيعية والمناخية ودور البلد السياحي في مجال التجارة والأعمال وجذب انعقاد المؤتمرات الإقليمية والدولية، وينطلق النشاط السياحي عبر تسويق السياحة من خلال الإعلان عنها والتعريف بالمقومات السياحية التي تتمتع بها الدولة، واستخدام وسائل التعريف، والإعلان هو أحد عناصر مزيج الاتصال التسويقي السياحي، حيث يعد التسويق السياحي محددًا أساسيا لنمو السياحة الذي يساعد في إيجاد وجذب السياح وتحريك دوافعهم السياحية⁽¹⁵⁾.

كما يعتبر الإشهار أحد أهم الأنشطة الاتصالية مدفوعة الأجرة التي يمكن من خلالها مخاطبة السياح بتصميمات مثيرة تعكس الطابع السياحي للجزائر، بالإضافة إلى ذلك يمكن للمنشأة السياحية وضع خطة إعلانية قصيرة أو متوسطة المدى، من خلال سلسلة إعلانات مختلفة في مختلف وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية في ما يسمى بالحملة الإشهارية، ويتم ذلك من خلال توفير عائدات مالية مع وضع تخطيط مسبق لها.

4 - المطبوعات :

لقد أصبحت كلمة المطبوعة تحتل مكانة بالغة الأهمية في الاتصالات الجماهيرية في الوقت الحاضر، فالكثير من المؤسسات تستعملها كواسطة لتبادل العلاقات العامة والأفكار بينها وبين جماهيرها بغية إعطاء صورة مشرفة عن المؤسسة وتحقيق أهدافها التجارية أو الخدمات المرسومة⁽¹⁶⁾، وتضم هذه المطبوعات خريطة الجزائر وصورا لأهم المناطق السياحية وأهم الكلمات المتداولة في البلد مع ترجمتها

(14) - نشرت بعض الصحف الجزائرية في وقت سابق (أوت 2016) خبر قرب اطلاق قناة فضائية جزائرية متخصصة في السياحة تحت مسمى " الجزائر تورز " يكون مقرها في ولاية تيبازة.

(15) - هباس بن رجاء الحربي : مدى استخدام المنشآت السياحية في المملكة العربية السعودية للمزيج الترويجي ،المجلة العربية للاعلام والاتصال ، العدد 7 ماي 2011 ،الرياض ، المملكة العربية السعودية ، ص 66.

(16) - رضوان بلخيري و سارة جابري مدخل للاتصال والعلاقات العامة ، دار جسر للنشر والتوزيع ، الجزائر 2013 ص 210.

إلى أهم اللغات العالمية ومناخ البلد وسعر صرف العملة المحلية وغيرها حتى يطلع الزّاعب في السياحة على أهم كنوز البلد السياحية، وتوزع هذه المطبوعات مجانا في المطارات أو من خلال السفارات و القنصليات الجزائرية في الخارج، كما يمكن توفيرها ضمن رحلات شركة الخطوط الجوية الجزائرية إلى الخارج، كما يتم وضع نسخة إلكترونية منها يتم تحميلها من خلال شبكة الانترنت.

5- الصحف و المجلات السياحية : تقوم أغلب أجهزة السياحة الرسمية باصدار مجلة سياحية وترتكز أهمية خاصة على ما يسمى بالدعاية المختلفة، وهي الدعاية غير المباشرة التي تنتج عن المقالات التي يحررها الكتاب والمقالات العلمية والملاحظات والأحداث الثقافية والرياضية والأزياء وفنون المطبخ⁽¹⁷⁾ ، وتتوفر في الجزائر حاليا صحيفة سياحية متخصصة تعتبر الأولى من نوعها على المستوى المحلي، وهي جريدة " السياحي " التي سبق وأن تم تتويجها كأحسن جريدة متخصصة في السياحة على المستوى العالم العربي من طرف المركز العربي للإعلام السياحي خلال عام 2015.

6 - المؤتمرات العلمية :

تعد اللقاءات العلمية التي تجمع الخبراء بالعاملين في القطاع السياحي من مؤتمرات و ورشات عمل من الأساليب المتبعة في تسويق الوجهات السياحية للجزائر، من خلال التركيز على أهم السبل للرفع بمستوى القطاع السياحي، ومن خلال القيام بجولات سياحية تعرفهم بالإمكانيات الحقيقية للسياحة في البلد.

7 - الزيارات :

تقوم بعض المنشآت السياحية بدعوة عدد من الصحفيين الأجانب المتخصصين في الشأن السياحي للقيام بجولات سياحية إلى البلد السياحي، وتوثيق ما شاهدوه فيها من إمكانيات ومناطق سياحية من خلال ريبورتاجات مصورة يتم بثها في مؤسساتهم الإعلامية الأصلية، وتعد هذه الزيارة الميدانية نوعا من الاتصال المباشر يكون فيه هؤلاء الصحفيين وسيطا بين المنشأة السياحية والجمهور السياحي في الخارج.

8 - المواقع الالكترونية وشبكات التواصل الاجتماعي :

تعتبر مواقع الويب وشبكات التواصل الاجتماعي نافذة مهمة يمكن استغلالها لمخاطبة السياح في مختلف بلدان العالم نظرا لانتشارها الجماهيري وسهولة الولوج إليها مقارنة بالوسائل الاتصالية الأخرى، كما يمكن من خلالها معرفة توجهات السياح ورغباتهم ووجهاتهم السياحية المفضلة واستثمار هذه المعلومات في فائدة السياحة في الجزائر، ونظرا للأهمية الكبيرة التي تكتسبها المواقع الالكترونية في تسويق الوجهات السياحية، فقد جاءت ضمن قرارات وزراء السياحة العرب في ختام اجتماعاتهم في الدورة السادسة المنعقدة بدمشق، حيث ينص القرار على ضرورة " العمل على تطوير منتجات جديدة وطنية

(17) - عصمت عدلي و منال شوقي عبد المعطى احمد : مقدمة في الاعلام السياحي، دار الوفاء لندنيا الطباعة والنشر، الاسكندرية،

وبينية إسلامية وبرامج للسياحة الدينية والثقافية عابرة للدول الإسلامية، تضم مكونات حضارية متكاملة يتم ترويجها بشكل أفضل بواسطة التكنولوجيا الإعلامية الجديدة من خلال إنشاء وإقامة بوابة سياحية على شبكة الانترنت خاصة بالدول الإسلامية، تضم المعلومات السياحية الكاملة عن المواقع الالكترونية للدول الأعضاء وللشركات الخاصة العاملة في هذا المجال على شبكة الانترنت⁽¹⁸⁾.

لكن في عصر الصحافة الفورية ينبغي أن تكون تلك المواقع محدثة باستمرار (***) وبأكثر من لغة وتضم أحدث المعلومات عن المشاريع السياحية المسجلة وكل ما يهم السائح من أسعار العملة المحلية وما يقابلها في سعر الصرف مع الأورو و الدولار الأمريكي، وكذا أسعار الفنادق وصورا لأهم المنتجعات والمناطق السياحية وأماكن الترفيه وغيرها من الأمور التي تدخل ضمن نطاق اهتمامات أي سائح.

9 - التطبيقات الالكترونية :

يمكن تصميم تطبيقات للهواتف الذكية وإتاحة مجانية تحميلها، تتيح لمستخدمها التعرف أكثر على المناطق السياحية الجزائرية الصحراوية والحموية وغيرها، وتضم صورا لأبرز تلك المناطق وكذا عادات وتقاليد سكانها، وبعض الألفاظ المتداولة فيها مع ترجمتها حتى يتعود عليها السائح، على أن يضم التطبيق خريطة تفاعلية وصورا حديثة تسمح للسائح بالتعرف أكثر على المناطق السياحية في الجزائر دون مشقة تذكر.

سابعاً : الخاتمة

لاشك أن الإعلام له استخدامات عديدة ما دامت أن وظائفه متجددة بتجدد وتنوع مظاهر الحياة في المجتمع، و النشاط السياحي كغيره من الأنشطة الاقتصادية الأخرى بحاجة إلى مختلف الأنشطة الإعلامية والاتصالية التي تدفعه وتدعمه من أجل تحقيق أهدافه، والجزائر رغم توفرها على مؤهلات سياحية كبيرة إلا أنها لا زالت تعاني من ضعف الإقبال السياحي الأجنبي عليها مقارنة بدول الجوار، مما يحتم ضرورة تضافر جهود عدة قطاعات، وإيجاد نية حقيقية في الاهتمام أكثر بهذا القطاع الحيوي لمساند توجهات الدولة السياحية والابتعاد عن الريع البترولوي قدر المستطاع.

(18) - انظر : إعلان دمشق الصادر عن الدورة السادسة للمؤتمر الاسلامي لوزراء السياحة ، دمشق ، 25- 28 جمادى الثانية

1429 هـ الموافق لـ 29 جوان / 02 جويلية 2008 م

(***) - مما يؤسف له بعد زيارتنا لموقع وزارة السياحة الجزائرية أثناء إعداد هذه المداخلة، أننا وجدناه موقعا غير محدث وغير مفعّل

بالشكل اللازم، ومن العجب أن كل الوصلات المهمة به لا تعمل وتحيلنا إلى صفحات خالية بعد النقر عليها، وأهم تلك الوصلات التي لا تعمل (المقومات السياحية - أصبح وكيل سياحي - التهيئة العمرانية - كيفية الاستثمار في السياحة - الدراسات والمخططات الخاصة - استثمارات للتحميل) رغم انها تعتبر من أهم المعلومات التي يحتاجها السائح الأجنبي بدرجة كبيرة عن الجزائر . راجع موقع الوزارة على الرابط التالي : <http://www.mta.gov.dz/> .

محددات استخدام تكنولوجيا الاتصال والمعلومات في العملية التعليمية بالجامعة

بوظهرة أسيا¹

الأستاذة: فايذة يخلف جامعة الجزائر 03

مقدمة:

عرفت البشرية منذ فجر التاريخ عدة تطورات و تحولات اجتماعية كان أبرزها على الإطلاق التطور و التحول الحاصل في المجتمعات المعاصرة بفعل تكنولوجيا الاتصال و المعلومات التي غيرت تقريبا كل نواحي الحياة و أثرت في معظم نشاطاتها حيث اقتحمت هذه الوسائل التكنولوجية كل نواحي الحياة و أجبرتها على التعامل معها كواقع لا بد منها و التفكير في إدماجها في أنشطتها و أعمالها و من الوسائل الاتصالية التي ميزت هذا العصر و أحدثت القدر الكبير من التأثير و التغير شبكة الانترنت العالمية التي تختلف كثيرا عن وسائل الاتصال سبقتها سواء من حيث استعمالها. خدماتها .عدد مستعمليها. أو انعكاساتها و تأثيراتها على مختلف المجالات و مع التطور التكنولوجي الحاصل عرفت هذه الشبكة عدة تغيرات و تحديثات و ساهمت في توسيع نطاق خدماتها على مختلف الأصعدة الاقتصادية و اجتماعية و ثقافية و تعليمية هذه الأخيرة التي حاولت الاستفادة من هذه التقنيات المتطورة و السعي الى دمجها في العملية التعليمية بهدف تطوير مناهجها و أساليبها التعليمية فظهرت بذلك وسائل تعليمية حديثة و فضاءات افتراضية تمكن جل أطراف العملية التعليمية من التزود بالكم الهائل من المعلومات و المعطيات التي باتت تنافس السلطة المعرفية للأستاذ .فسارعت الكثير من المنظومات التعليمية الى تبني خطوات إصلاح و تعديل و إنعاش لبرامجها قصد التكيف أو الاستجابة للوضع الراهن مع هذه الوجة الإصلاحية المفروضة ،كل هذه المجهودات أصبحت تصب في سياق اقتصاد المعرفة و اكتساب الخبرة الضرورية .فالتقدم العلمي في تكنولوجيات المعلومات و الاتصالات أدى الى سهولة في التدفق المعلوماتي و الى انفتاح في الفضاء العالمي و عليه تغيرت طبيعة المعرفة و نظم التعليم على اعتبار أن عملية التعليم و التعلم تعكس خصائص و طبيعة العصر فأصبح لزاما عليها الاستفادة من تكنولوجيا المعلومات و الاتصالات خاصة شبكة الانترنت . إذ نجد الكثير من الأساليب و الطرائق و الوسائل الجديدة في التعليم و التعلم و من ذلك ظهور التعليم الالكتروني الذي يعد طريقة للتعلم باستخدام آليات الاتصال الحديثة من حاسوب و شبكاته ووسائطه المتعددة من صوت و صورة و رسومات و آليات بحث و مكتبات الكترونية و كذلك بوابات الانترنت ...الخ

1- تكنولوجيا المعلومات و الاتصالات بين دلالة المفهوم و الاتجاهات النظرية

1-1 مفهوم تكنولوجيا المعلومات و الاتصالات: لتحديد مفهوم تكنولوجيا المعلومات و الاتصال

لابد أن نعرض على تعريف كل من تكنولوجيا المعلومات أولاً و تكنولوجيا الاتصال ثانياً

* حيث تعرف تكنولوجيا المعلومات بأنها استعمال التكنولوجيا الحديثة للقيام بجمع و معالجة و تخزين و استرجاع و إيصال المعلومات سواء في شكل معطيات رقمية نص . صوت . صورة.

* كما تعني أيضاً مجموعة من التقنيات التي تسمح بإدخال . معالجة . تخزين و إرسال المعلومات معتمدة في ذلك على مبدأ المعالجة الالكترونية المستخدمة في تشغيل و نقل و تخزين المعلومات في شكل الكتروني و تشمل تكنولوجيا الحاسبات الآلية . وسائل الاتصال و شبكات الربط و أجهزة الفاكس و غيرها من المعدات التي تستخدم بشدة في الاتصالات . (إبراهيم عبد الوكيل الفار . 2002 . ص 50)

إن انطلاقة من هذه التعاريف يمكن القول أن تكنولوجيا المعلومات هي الأدوات و الأنظمة المستخدمة لتلقي و تخزين و تحليل و توصيل المعلومات بكل أشكالها و تطبيقاتها لكل جوانب حياتنا و هذا ما ذهب إليه ماكملان Macmillan في نفس السياق باعتبار تكنولوجيا المعلومات على أنها حيازة . معالجة و تخزين و بث معلومات ملفوظة . صورة ثنائية أو رقمية بواسطة مزيج من الحواسيب الالكترونية و الاتصالات السلكية و اللاسلكية تعمل على أساس الالكترونيات الدقيقة (dennis longiezet) (michael shain.1985.p322) و بشكل أشمل و أدق تكنولوجيا المعلومات هي التزاوج و الترابط الهائل ما بين تكنولوجيا الحواسيب المتطورة و تكنولوجيا الاتصالات المختلفة الأنواع و الاتجاهات التي حققت إمكانية تناقل كمية هائلة من المعلومات بسرعة فائقة و بغض النظر عن الزمان و المكان وصولاً إلى شبكات المعلومات في مقدمتها شبكة الانترنت، و في هذا الصدد يرى الدكتور نبيل أن تكنولوجيا المعلومات هي مرادف لتكنولوجيا الاتصال على أساس أن المادة الخام لتكنولوجيا المعلومات هي البيانات و المعلومات و المعارف و أدواتها الأساسية هي الحاسب الآلي بلا منازع إذن

يمكن القول إذن أن تكنولوجيا الاتصال هي مجموع التقنيات و الأدوات أو الوسائل و النظم المختلفة التي يتم توظيفها لمعالجة المضمون أو المحتوى الذي يراد توصيله من خلال عملية الاتصال الجماهيري أو الشخصي أو التنظيمي أو الجمعي و التي يتم من خلالها جمع المعلومات و البيانات المسموعة أو المصورة أو المكتوبة أو المسموعة المرئية أو المطبوعة أو الرقمية من خلال الحاسبات الالكترونية ثم تخزين هذه البيانات و المعلومات و استرجاعها في الوقت المناسب لنشر هذه المواد الاتصالية أو الرسائل أو المضامين أو نقلها من مكان لآخر و تبادلها كما يقصد بثورة تكنولوجيا الاتصال تلك التطورات التكنولوجية في مجال الاتصالات التي حدثت خلال الربع الأخير من القرن العشرين و التي اتسمت بالسرعة و الانتشار و التأثيرات الممتدة من الرسالة إلى الوسيلة إلى الجماهير داخل المجتمع أو بين المجتمعات و هي تشمل ثلاثة مجالات : (إبراهيم عبد الوكيل الفار . 2007 . ص 78)

أولها: ثورة المعلومات أو ذلك الانفجار المعرفي الضخم المتمثل في الكم الهائل من المعرفة في أشكال تخصصات و لغات عديدة

ثانيها: ثورة وسائل الاتصال المتمثلة في تكنولوجيا الاتصال الحديثة التي بدأت بالاتصالات السلكية و اللاسلكية مروراً بالتلفزيون و النصوص المتلفزة و انتهاء بالأقمار الصناعية و الألياف البصرية

ثالثها: ثورة الحاسبات الالكترونية التي توغلت في كافة نواحي الحياة و امتزجت بكل وسائل الاتصال و اندمجت معها و الانترنت خير مثال على ذلك الامتزاج .

لا يمكن إذن الفصل بين تكنولوجيا المعلومات و تكنولوجيا الاتصال فقد جمع بينهما النظام الرقمي التي تطورت إليه نظم الاتصال فتراپطت شبكات الاتصالات مع شبكات المعلومات و هو ما نلمحه في حياتنا اليومية من التواصل بالفاكس عبر خطوط الهاتف و في بعض الأحيان مروراً بشبكات أقمار الاتصال و ما نتابعه على شاشة التلفزيون من معلومات تأتي من الداخل و قد تأتي من أي مكان في العالم أيضاً و بذلك انتهى عهد استقلال نظم المعلومات عن نظم الاتصال كما كان الأمر في الماضي و دخلنا في عهد جديد للمعلومات و الاتصال يسمى

(احمدابراهيم قنديل .2006.ص 96) com. – communication Computer com.

و من الملاحظات اللافتة للانتباه أن النمو في ظاهرة إنتاج المعلومات و ما رفقها من ابتكار الوسائل الفنية الحديثة في حفظ و استرجاع المعلومات قد ترافق مع نمو ظاهرة الثورة التكنولوجية في وسائل الاتصال و التي هي أدوات نقل و توصيل المعلومات و تبادلها فقد وجدت علاقة جدلية بينهما بحيث أن ظهور إي ابتكار جديد في إي مجال منهما بالضرورة يؤدي الى ابتكار آخر في المجال الثاني بحيث صار انفجار المعلومات و الثورة التكنولوجية في وسائل الاتصال أشبه بوجهي عملة واحدة وعليه يجمع الباحثين على أن تكنولوجيا الاتصال و تكنولوجيا المعلومات هما توأمان و لد من رحم تكنولوجيا على أساس أن ثورة تكنولوجيا الاتصال قد سارت على التوازي مع ثورة تكنولوجيا المعلومات التي كانت نتيجة لانفجار المعلومات و تضاعف الإنتاج الفكري في مختلف المجالات .

1-2- مكونات تكنولوجيا المعلومات و الاتصالات:

تتكون تكنولوجيا المعلومات و الاتصالات من ثلاثة مكونات أساسية و هي: (حسام محمد مازن .2009.ص 33)

أولاً المكونات المادية: تشكل المكونات المادية احد المرتكزات الأساسية لتكنولوجيا المعلومات و الاتصالات و التي توكل لها مهمة استقبال البيانات و اختزانها و معاملتها بحيث يكن من خلالها إجراء جميع العمليات البسيطة و المعقدة و الحصول على نتائج هذه العمليات بطريقة آلية و من أهم هذه المكونات نجد: **1- الحاسبات الآلية:**

هي أجهزة الالكترونية قادرة على معالجة البيانات و ذلك من خلال استقبال البيانات و تخزينها و استرجاعها أليا و إجراء العمليات الحسابية و المنطقية عليها و تهدف عملية معالجة البيانات الى استخلاص النتائج التي يحتاجها متخذي القرار أو مستخدم البيانات و ذلك من خلال إتباع مجموعة تفصيلية من الأوامر و التعليمات المكتوبة بلغة الحزم .

2-البرمجيات : أن الحاسبات الآلية تعمل و تؤدي وظائفها بالاستناد الى مجموعة ايعازات متسلسلة يطلق عليها البرمجيات و هي عبارة عن مجموعة أو سلسلة الايعازات التي تخبر الحاسوب عن كيفية أداء مهام معينة و يتعامل معظم المستفيدين مع الحاسوب من خلال مجموعة من البرمجيات و تصنف عادة هذه البرمجيات في فئتين واسعتين هما برمجيات المنظومة التي تجعل الحاسوب مفيدا أكثر من خلال توفير خدمات مطلوبة بغض النظر عن المهمة التي ينفذها الحاسوب .الفئة الثانية من فئة البرمجيات هي البرمجيات التطبيقية مثل إعداد الرواتب .تسير المخزون ...الخ

3-قواعد البيانات :

هي مجموعة متكاملة من البيانات التي تنظم و تخزن بطريقة يسهل من خلالها استرجاعها و تجنب ان تضم الهياكل الأساسية لقواعد البيانات بصورة تتوافق مع احتياجات المنظمات و تسمح بسهولة الوصول إليها كما يجب أن تكون بالشكل الذي يمكن من خلاله إجراء أكثر من برنامج تطبيقي عليها و يكون ذلك من خلال مجموعة من البرامج التي تساعد على القيام بهذه الوظائف و تسمى هذه البرامج بنظم إدارة قواعد البيانات حيث تساعد هذه الأخيرة المستخدم النهائي في القيام بالعملية التالية :

-تحديث و صيانة قواعد البيانات

-إمداد المستخدم النهائي للتطبيقات بالمعلومات اللازمة للقيام بمهامه بفاعلية

1-3 خصائص تكنولوجيا المعلومات و الاتصالات: تمتاز تكنولوجيا المعلومات عن غيرها من

التكنولوجيات الأخرى بمجموعة من الخصائص أهمها:(دلال محسن و عمر موسى .2006.ص 45)

-تقليل الوقت: فالتكنولوجيا تجعل كل الأماكن الكترونيا متجاورة

-تقليل المكان :تتيح وسائل التخزين التي تستوعب حجما هائلا من المعلومات المخزنة و التي

يمكن الوصول إليها ببسر و سهولة

-اقتسام المهام الفكرية: مع الآلة نتيجة حدوث التفاعل و الحوار بين الباحث و نظم الذكاء

الصناعي مما يجعل تكنولوجيا المعلومات تساهم في تطوير المعرفة و تقوية فرص تكوين المستخدمين من اجل الشمولية و التحكم في عملية الإنتاج

-تكوين شبكات الاتصال تتوحد مجموعة التجهيزات المستندة على تكنولوجيا المعلومات من

اجل تشكيل شبكات الاتصال و هذا ما يزيد من تدفق المعلومات بين المستعملين و الصناعيين و كذا

منتجي الآلات و يسمح بتبادل المعلومات مع بقية النشاطات الأخرى .

-التفاعلية : أي أن المستعمل لهذه التكنولوجيا يمكن أن يكون مستقبل و مرسل في نفس الوقت فالمشاركين في عملية الاتصال يستطيعون تبادل الأدوار و هو ما يسمح بخلق نوع من التفاعل بين الأنشطة .

-اللاتزامنية : و تعني إمكانية استقبال الرسالة في أي وقت يناسب المستخدم فالمشاركين غير مطالبين باستخدام النظام في نفس الوقت

-اللامركزية: و هي خاصية تسمح بالاستقلالية لتكنولوجيا المعلومات و الاتصالات فالانترنت مثلا تتمتع بالاستمرارية عملها في كل الأحوال فلا يمكن لأي جهة أن تعطل الانترنت على مستوى العالم بأكمله .

-قابلية التوصيل :و تعني إمكانية الربط بين الأجهزة الاتصالية المتنوعة الصنع بغض النظر عن الشركة أو البلد الذي تم فيه الصنع

-قابلية التحرك و الحركية : أي انه يمكن للمستخدم ان يستفيد من خدماتها أثناء تنقلاته من أي مكان عن طريق وسائل اتصال كثيرة من الحاسب الآلي النقال .الهاتف النقال الخ

-العالمية و الكونية : و هو المحيط الذي تنشط فيه هذه التكنولوجيا حيث تأخذ المعلومات مسارات مختلفة و معقدة تنتشر عبر مختلف مناطق العالم و هي تسمح لرأس المال بان يتدفق الكترونيا .
*كل هذه الخصائص تتضافر لتأدية جملة من الوظائف الأساسية لتكنولوجيا المعلومات و الاتصالات و لعل منها ما ذكر CURTIN الى القول بان تكنولوجيا المعلومات تؤدي عدة وظائف من خلال أدواتها و هذه الوظائف هي :

-معالجة البيانات لتحويلها الى معلومات مفيدة

-إعادة معالجة المعلومات و استخدامها كبيانات في خطوات المعالجة الأخرى

-تبسيط المعلومات بحيث يسهل فهمها من قبل المستخدم لتصبح أكثر جاذبية و أكثر فائدة

1-4 الفوائد المتحققة من استخدام تكنولوجيا المعلومات و الاتصالات

يترتب عن تطبيق و استخدام تكنولوجيا المعلومات في المنظمات العديد من المزايا و الفوائد أهمها : (إبراهيم عبد الوكيل .المرجع سبق ذكره .ص 22)

-رفع مستوى الأداء و الإنتاجية في المنظمات : حيث يؤثر تطبيق تكنولوجيا المعلومات و الاتصالات تأثيرا ايجابيا على مستويات الأداء و الإنتاجية في المنظمات بشرط وجود درجة من التوافق بين ظروف المنظمة و استراتيجيات تطبيق تكنولوجيا المعلومات و الاتصال

-زيادة قيمة المنظمة : يؤدي استخدام تكنولوجيا المعلومات و الاتصال في المنظمات الى خلق القيمة للمنظمة هذا بالإضافة الى معاونتها في تنفيذ إستراتيجيتها و خاصة في ظل زيادة حدة المنافسة بين المنظمات.

-فعالية اتخاذ القرارات: تبسط تكنولوجيا المعلومات و الاتصال مهمة المديرين في اتخاذ القرارات التنظيمية و ذلك من خلال توفير البيانات و المعلومات الدقيقة و الملائمة في التوقيت الملائم و بالشروط المطلوبة .

-تنمية العمل: حيث تعمل تكنولوجيا المعلومات و الاتصال على توفير النظام و الانضباط بالوحدات الإدارية و تهتم بتعريف الأفراد بما حولهم و إمدادهم بصورة مستمرة بالتطورات التي تحيط بهم -إعادة هندسة عمليات التشغيل تعد تكنولوجيا المعلومات عنصرا جوهريا لإنجاح إعادة هندسة عمليات التشغيل سواء قبل تصميم عمليات التشغيل بما تقدمه من مقترحات لأفضل التصميمات أو بعد عمليات التصميم من خلال دورها في مراحل التطبيق المختلفة .

-تنمية السلوك الايجابي لأفراد المنظمة : حيث تؤثر تكنولوجيا المعلومات و الاتصال على تدعيم عمليات الاتصال داخل و خارج المنظمة هذا الى جانب مساعدتها على إدارة الوقت بكفاءة و تقليل درجة الغموض المحيط بمناخ العمل .

2- الاتجاهات النظرية في دراسة تكنولوجيا المعلومات

لقد تطورت تكنولوجيا بشكل مذهل و سريع و خاصة في العقود الأخيرة أين أصبحت تتميز بخصائص و سمات لم تستطع تحقيقها طوال الفترات السابقة و بعد أن لاقت إقبالا من طرف المجتمع في استقطابها و الاعتماد عليها لتحقيق حاجياتها و مطالبه فمهما تباينت الآراء حول دور تكنولوجيا في إحداث التغيرات الاجتماعية و التنظيمية فإنها لا تخرج في مجملها عن اتجاهين هما بمثابة محورين رئيسيين في النظرية السوسولوجية وهما الاتجاه الحتمي والاتجاه الوظيفي.(كمال عبد الحميد زيتون 2004.ص 88).

2-1الاتجاه الحتمي :

1-كارل ماركس : تعتبر نظرية الحتمية التكنولوجية لكارل ماركس من النظريات الكلاسيكية التي تولي اهتماما بالغا لتأثير العامل التكنولوجي على تشكيل البناء الاجتماعي حيث تركز نظريته على مسلمتين رئيسيين الأولى تعني أن الوسائل التكنولوجية هي المحدد الأساسي لبناء المجتمع و تغييره و الثانية تتعلق بميكانيزمات فالتطور التكنولوجي في البلدان الرأسمالية أدى الى ظهور طبقات و شرائح اجتماعية متميزة عن بعضها البعض بل متناقضة في مصالحها و غايتها. و ما الصراع الذي يعيشه النظام الرأسمالي إلا نتيجة مترتبة عن التعارض القائم بين قوى الإنتاج المادية و علاقات الإنتاج القائمة .(محمد علي محمد.1989.ص13)

وليام اوغبرن

يعد من الباحثين الاجتماعيين الامريكين الذين درسوا موضوع الثقافة من جوانبها المختلفة و قد أبدع اوغبرن مفهوما جديدا يمكن ترجمته بالهوية الثقافية بهدف شرح كيفية اقتران عملية التغيير الاجتماعي بالتكنولوجيا و ذلك في كتابه - التغيير الاجتماعي 1923- و الذي يمثل إسهامه الأساسي

في النظرية السوسولوجية حيث ينطلق من فكرة أساسية مفادها أن كل التغيرات الاجتماعية و الثقافية و الاقتصادية التي مست بنية المجتمع ترجع الى عامل واحد هو العامل التكنولوجي (السيد عبد العاطي .1985.ص70)

2-2الاتجاه البنائي الوظيفي :

أ-ماكس فيبر يعتبر من علماء الاجتماع الألمان الذين اهتموا بدراسة عوامل التغير الاجتماعي يتبنى فيبر منهجا تحليليا مناقضا للمنهج الماركسي حيث يرى بان الأفكار و الأنساق الثقافية هي التي تؤثر في المنظومة التكنولوجية و إذا كان ماركس يعتقد بان نمو الرأسمالية في أوروبا هو الذي أدى الى حدوث تغير نوعي في الديانة المسيحية فالتطور التكنولوجي عند فيبر عامل تابع لعوامل ثقافية و عقائدية أساسية .(مصطفى عشوي.1992.ص198)

ب-تالكوت بارسونز تمحورت أعماله ضمن توجهات النظرية الوظيفية و التي تشير الى الإسهام الذي يقدمه الجزء الى الكل ليحافظ هذا الأخير على بقاء و استمرار هذا الكل وقد يكون ذلك مجتمعا او تجمعا او ثقافة و يعتقد أن نسق القيمة في المجتمع يلعب دورا حاسما في تحقيق التكامل الاجتماعي ككل و تحقيق التغير التدريجي المنظم .

ويضيف أن تأثير التكنولوجيا يشمل جوانب عديدة تتجلى أهمها في تقسيم العمل اذ يفرض التقدم التكنولوجي تباينا في الوظائف و تقنياتها الى وظائف مختلفة و متآزرة .(محمد الجوهري.1987.ص110)

3-تكنولوجيا المعلومات و العملية التعليمية بالجامعة :

إن التغير المتسارع الذي مس العملية التعليمية كغيرها من مناحي الحياة حيث لم تقف آثاره عند مجال بعينه لا سيما و نحن في عصر تميز بالتغير التكنولوجي المفاجئ في مختلف مجالات الحياة و يعد التعليم من أهم المجالات التي مسها هذا التغيير فلم تعد العملية التعليمية في عصر الحاسوب و الانترنت و العولمة كما كانت في الماضي مجرد تلقين لدرس أو تحفيظ فقد أصبح التعليم له قواعده و أدواته و أهدافه و تقنياته لم تكن مألوفة من قبل بفضل استخدام وسائل تعليمية جديدة توافقت التطور التكنولوجي الحاصل الذي اثر على أساليب و أنماط التعليم في مؤسسات التعليم العالي و أصبحت عنصرا في تطوير العملية التعليمية و الارتقاء بها و سمحت للأستاذ الجامعي إتباع أساليب مبتكرة ووسائل متنوعة و أتاحت للمتعلم سبلا أوفر للتعلم و الاعتماد الذاتي .(wiiams.B.1995.p85)

3-1-أساليب و أنماط التعليم الحديثة بمؤسسات التعليم العالي

لقد أثرت الوسائل التكنولوجية الحديثة في أساليب و أنماط التعلم في مؤسسات التعليم العالي و أصبحت عنصرا في تطوير العملية التعليمية و الارتقاء بها و سمحت للأستاذ الجامعي إتباع أساليب مبتكرة ووسائل متنوعة و أتاحت للمتعلم سبلا أوفر للتعلم و الاعتماد الذاتي و يمكن تلخيصها فيما يلي(Harvey pierre.2001.p61)

1-**الحقيبة التعليمية** : من أهم الاتجاهات الحديثة في عملية التعليم و التعلم هو استخدام أكثر من وسيط واحد في عرض الموضوع التعليمي و الذي يتمثل في مجموعة من المواد المبرمجة بشكل واسع يمكن أن تزود كل متعلم بالبدائل بإتباع مسار معين أثناء توجيهه نحو تحقيق الأهداف و يتم التفاعل بين المادة التعليمية و الطالب عن طريق الإجابة عن بعض الأسئلة أو إجراء تجربة أو مشاهدة فيلم أو أي نشاط آخر .(محمد محمود الحيلة .2000.ص 73)

وتتكون الحقيبة التعليمية من عدة عناصرها هي:

-صفحة العنوان : توضح الفكرة الأساسية للوحدة التعليمية المراد تعلمها

-فكرة المحتوى :صياغة موجزة عن محتوى الحقيبة التعليمية

-الأهداف :تتضمن الأهداف السلوكية تعطي الملص النهائي للطالب بعد دراسة الحقيبة

-الاختبار القبلي :لتحديد مدى حاجة الطالب الى دراسة الوحدة التعليمية

-الأنشطة و البدائل :و هي صلب الحقيبة التعليمية و هي مجمل الأنشطة المتناسبة و الخصائص الفردية للطالب المتعلم تساهم في تفريد التعليم (حركة تعنتي بأساليب التعليم و التدريب و تنويعها لتحسين مستوى أداء الطالب و يعتمد تنويع البدائل على ما يلي :

- أ- تعدد الوسائط التكنولوجية (كتاب الكتروني-فيلم -شرائح الذاكرة)
- ب-تعدد أساليب التعلم (مجموعات كبيرة و صغيرة -الأسلوب الفردي ...)
- ج-تعدد الأنشطة (التجارب -الملاحظة)
- د-التقويم (برامج التقويم من الاختبارات القبلية -الذاتية -النهائية)

2-**التعليم الالكتروني** : ارتبط هذا المفهوم باستخدام شبكات الحاسوب ووسائل الاتصال الحديثة و خاصة الانترنت و الهواتف الذكية و غيرها و هو قادر على توفير بيئة تعليمية غنية و متعددة المصادر و يوفر فرص النفاذ للتعلم حسب الحاجات الشخصية للمتعلم .يتطلب مختبرات للحاسوب مرتبطة بشبكة الانترنت تتوفر على السرعة المطلوبة و برامج كادر بشري مؤهل، وتتكون البيئة التعليمية للتعلم الالكتروني من ثلاث عناصر أساسية هي : (الغريب زاهر .2007.ص 23)

- أ-الأستاذ أو المعلم : يجب أن يتمتع بالقدرة على التدريس و استخدام التكنولوجيا الحديثة
- ب-الطالب المتعلم : يتمتع بمهارات التعلم الذاتي و تحكمه في الحاسوب و الانترنت
- ج-الكادر الفني و التقني : التحكم في برامج الحاسوب و الانترنت

3-**الوسائط المتعددة** : و هي منظومة تساعد و تتيح للطالب المتعلم درجة حرية اكبر في التعامل مع المادة التعليمية تعرف على أنها نوع من البرمجيات توفر للمتعلم أشكالاً متعددة من آليات تكنولوجيا العرض عن طريق برامج تصمم بشكل ينتج للطالب المتعلم كتابة نصوص .عمل رسوم .إضافة صوت و ألوان .أداة مقاطع الفيديو .رسوم متحركة ...الخ، ومن عناصرها نجد: (قنديل احمد.2006.ص 89)

- النص المكتوب يتم بواسطته عرض العناوين الرئيسية و تزويد الطلاب بالتوجيهات
- الصور و هي تأخذ أشكالاً متعددة ثابتة و متحركة توضح بعض الجوانب المهمة للمتعلم
- الصوت يعتبر كبديل للنص المكتوب في العملية التعليمية يعطي دافعية للمتعلم
- الحركة الحية و هو اقتران الصورة بالصوت في آن واحد أثناء عملية التعليم
- الفيديو و هو عامل جذاب و مشوق للطلاب يلعب دوراً في تعلم بعض الكفاءات
- الكمبيوتر يعد من أفضل الوسائط التعليمية ايجابية في التعليم من خلال برامج تعليمية يتم تصميمها لهذا الغرض تحمل الأجهزة المعلومات المتنوعة و البرامج المساعدة على التعلم الذاتي يستعملها الطلاب أثناء أوقات الفراغ و توفر لهم فرص التغذية الراجعة مما يشجعه على الاعتماد على الذات و بناء الثقة في نفسه .

4-الوسائط الفائقة :

تعتبر من التكنولوجيات الحديثة التي استحدثت في مجال التعليم حيث يقوم بتزويد الطالب المتعلم بنموذج تربوي تعليمي متكامل يحتوي على الأشكال و الرسوم البيانية و الصور المتحركة و اللون و الصوت و النصوص يديره الحاسوب الآلي و هي إستراتيجية تعليمية تستخدم في نقل و تقديم المعلومات بصورة خطية و الاستفادة بالمدخل الحسية للطلاب المتعلم، وتتكون من العناصر التالية (الغريب زاهر .رجع سبق ذكره .ص 69)

-أنظمة للبيانات و المعلومات (النص .الصورة .الرسوم .فيديو ...)

-البرامج التعليمية حيث يتم من خلالها تناول المعلومات

-أجهزة و أدوات تعليمية مناسبة

-نظام اتصالات لربط أجهزة المعلومات و البيانات .

5 التعليم بمساعدة البريد الإلكتروني : يعتبر وسيلة لتواصل بين الأفراد حيث يتم تبادل الرسائل و الوثائق عبر الشبكة العنكبوتية يمتاز بالسرعة الفائقة و ضمان وصول المعلومات .منخفض التكلفة و سهل للتعامل و لا توجد حواجز إدارية بين المرسل و المستقبل يستخدم في التعليم لتحديث التدريس بالقاعات و نظراً لمرونته و سهولة توظيفه لدى الطلاب .و تكمن أهميته التعليمية فيما يلي :

-إيجاد علاقة ايجابية دائمة بين الأساتذة و الطلبة و توفير حوار مفتوح بين الطرفين

-وسيلة اتصال بين الباحثين و الجامعات للحصول على المعلومات و تبادل الخبرات و حل

المشكلات

-تمديد الوقت المخصص لمناقشات التعليم و إثراء الأفكار خارج قاعات التدريس .

6-التعلم عن طريق الانترنت و شبكة المعلومات : تعتبر من اعقد التقنيات التي شهدتها القرن العشرين و هي شبكة حاسوبية تتكون من مجموعة من المعدات المعلوماتية و الحواسيب متصلة ببعضها البعض محلياً و دولياً لتشكل الشبكة العالمية الانترنت حيث توفر المعلومات المتنوعة كالكتب

الإلكترونية و الدوريات و قواعد البيانات و المواقع التعليمية و الاتصال الحر و المباشر بالأشخاص و الهيئات بالصوت و الصورة عبر المؤتمرات المرئية و الرسائل النصية (قنديل احمد .المرجع سبق ذكره ص.65)

7-التعلم عن طريق الفيديو التعليمي : وهو طريقة تمزج بين الحاسوب و الفيديو لتوفير عرض سمعي بصري عالي الجودة تتيح للمتعلم فرصة التفاعل و الحصول على المعلومات و اكتساب الخبرات و فق حاجاته و قدراته الشخصية و هو يختلف عن الوسائط المتعددة في انه يعترض لقطات الفيديو مجزأة كل منها في شاشة مستقبلية و يوفر الفرصة للتفاعل الذي يمنح المتعلم قدرة على التحكم في التعليم ذاتيا، و يوفر الفيديو التفاعلي التعليمي مجموعة من الخصائص نلخصها فيما يلي :

-يتيح مشاركة ايجابية فعالة بين المتعلم و البرنامج

-الاقتصاد و توفير الوقت و الجهد

-يساعد في إتقان التعلم لما له من تغذية راجعة و تعزيز فوري

-يأخذ في الحسبان خصائص المتعلم و حاجاته و ميولاته

8- التعلم عن طريق المحادثة و التخاطب عن بعد : يمكن استخدامها كمحطة افتراضية تحقق التواصل مع الآخرين في جميع أنحاء العالم من خلال المشاركة في لقاءات حقيقية و منتديات تعليمية و تبادل الآراء و الأفكار مع الآخرين و الاستفادة من خبراتهم في موضوعات تهمة و هذا يتم عن طريق ما يسمى بالتعليم عن طريق الصف الافتراضي

3-2-أهمية تكنولوجيا المعلومات في التعليم الجامعي :

تسهم تكنولوجيا المعلومات في تحديث و زيادة فعالية التعليم لتحقيق أهداف التنمية البشرية و التنمية الشاملة المستدامة و تتمثل هذه المساهمات التي توفرها التكنولوجيا المعلوماتية و التعليمية المرتبطة بتوظيف تكنولوجيا المعلومات و الاتصالات في العوامل التالية (محمد محمد الهادي 2000.ص44).

1-1- زيادة فعالية التعليم :معظم الأبحاث و الدراسات تؤكد أن التكنولوجيا التعليمية المبنية على الحاسبات الآلية و شبكات المعلومات التي توظف بطريقة ملائمة تسهم في جودة المخرجات التعليمية و زيادة فعالية التعليم و معظم الدراسات التي أنجزت في هذا المجال كشفت عن إعادة هيكلة المعاهد التعليمية و الجامعات من خلال استخدام التكنولوجيا الموجودة بالفعل تعتبر نادرة جدا الى حد كبير و يعكس ذلك ندرة هذه المعاهد و الجامعات التي تقدم الحاسبات الآلية لكل طالب و تعلم و توفر لهم الشبكات الممتدة التي تشجع الاتصال و التعاون بطريقة فعالة

2-تحقيق العدالة و المساواة أيضا أثبتت الدراسات و البحوث التي عملت في هذا المجال أن توافر التكنولوجيا في المعاهد التعليمية و الجامعات يخدم حاجات المواطنين الخاصة في حق الوصول الى الخدمات و الموارد التعليمية ذات الجودة و الفعالية بغض النظر عن الفقر و البعد عن المراكز

الحضارية التي تحظى بهذه الخدمات و الموارد حيث أن التمويل و السياسات المساندة للتعليم المميز تؤدي الى التقليل من حدة الخلافات التي ترتبط بمتوسط توافر الحاسبات الآلية بين الجماهير الخاصة و من هنا يمكن أن تلعب برامج التعليم التعويضية التي يجب إن تقدمها المؤسسات التعليمية و الهيئات و المنظمات المهمة بالتعليم و التدريب دورا أساسيا و جوهريا في تحقيق مبدأ العدالة و المساواة .

3- قلة التكلفة تعتبر تكلفة استخدام التكنولوجيا الحديثة تكلفة متواضعة و زهيدة و خاصة فيما يتصل بالميزانيات المتعلقة بالتعليم العالي فعلى سبيل المثال يلاحظ أن تكلفة الحاسبات الآلية اليوم اقل مما كانت عليه في الماضي و هذه التكلفة الزهيدة تجعل من الحكومات و المنظمات و الهيئات المسؤولة عن التعليم العالي تسعى جاهدة الى إدخال هذه التكنولوجيا الى مؤسساتها و الاستفادة منها .

4-مواجهة التحديات فالتعليم في العصر الحالي يواجه التحديات التي أفرزتها ثورة تكنولوجيا المعلومات و الاتصالات الأمر الذي يتطلب ضرورة السعي الى إحداث تنمية معلوماتية و تكنولوجية للطلاب و المعلمين و الذين يمثلون القاعدة العريضة في أي قطر عربي .

3-3: صعوبات توظيف تكنولوجيا المعلومات و الاتصالات في التعليم العالي : يواجه قطاع

التعليم العالي و البحث العلمي كغيره من القطاعات الأخرى صعوبات و عقبات تحول بينه و بين توظيف هذه التكنولوجيات المتطورة و لعل هذه الصعوبات يكمن إدراجها على النحو التالي : (حسام محمد مازن 2009.ص 32)

أ-الصعوبات المالية :يتطلب مشروع التعليم العالي لتوظيف تكنولوجيا المعلومات و الاتصالات تكاليف مالية معتبرة و لذلك فان ضعف هذه الموارد يشكل عائقا كبيرا يحول بين ارتقاء بالعملية التعليمية في ظل الإنفاق المحدود على التعليم على اعتبار أن الاستثمار في هذا القطاع هو استثمار طويل الأمد يتطلب تقديرا سليما لنفقات الميزانية الأمر الذي من شأنه عرقلة الارتقاء بالعملية التعليمية في ظل ما تقتضيه ظروف العصر ..

ب-الصعوبات التقنية :

إن هذا النوع من الصعوبات ناتج من طبيعة التكنولوجيا في حد ذاتها باعتبارها تمثل نظاما متطورا بالغ التعقيد و من بين المشاكل التقنية التي تواجه توظيف تكنولوجيا المعلومات و الاتصالات في العملية التعليمية التجمد المفاجئ لأجهزة الحاسوب بسبب العبء و بطء الحصول على المعلومة مما يتطلب التخطيط الفعال لمواجهتها و التغلب عليها بتوفير بنية تحتية لخطوط اتصال متطورة و أجهزة من نوعية جيدة تزيد من سرعة الحاسوب و الشبكات .و من أهم الصعوبات الفنية و التقنية ما يلي:

-صعوبة الصيانة الدورية نظرا للاكتشافات المتلاحقة في هذا المجال.

-قلة اليد الفنية المؤهلة و المتخصصة .مما يجعل الاعتماد على الخبرة الأجنبية شبه كلي و هذا

يتطلب نفقات مالية كبيرة .

ج- الصعوبات النفسية :

تتعلق أساسا بالعنصر البشري متمثلة في المقاومة و الرفض من قبل الأساتذة لهذه التكنولوجيا الحديثة مبررين في ذلك بأنه يمكن التحكم في المحتوى التعليم عن طريق الكتاب أما المحتوى الرقمي فلا يكن معرفة خصائصه و الحكم عليه إلا بعد استخدامه لسنوات طويلة و من أهم هذه الصعوبات النفسية ما يلي :- الممانعة و عد التقبل لتكنولوجيا الحديثة -التمسك بالأساليب التعليمية القديمة -عدم الاهتمام بالتغيرات الحديثة -الشعور بان استخدام التكنولوجيا سيزيد من أعباء الأستاذ

خاتمة :

تحظى وسائل تكنولوجيا التعليم بدور هام في النظام التعليمي و رغم أن هذا الدور يكون أكثر وضوحا في المجتمعات التي نشأ فيها هذا العلم كما يدل على ذلك النمو المفاهيمي للمجال من جهة و المساهمات العديدة لتطوير تقنيات التعليم من جهة أخرى إلا أن هذا الدور في المجتمعات العربية قد لا يتعدى الاستخدام التقليدي لبعض الوسائل دون التأثير المباشر في عملية التعلم و افتقاد هذا الاستخدام للأسلوب النظامي الذي يؤكد عليه المفهوم المعاصر لتقنية التعليم و يمكن أن نلخص الدور الذي تلعبه تكنولوجيا المعلومات و الاتصالات للارتقاء بالعملية التعليمية في الجامعة بما يلي :

-إثراء التعليم فقد أكدت العديد من الدراسات و الأبحاث أن تكنولوجيا المعلومات و الاتصالات تلعب دورا جوهريا في إثراء التعليم من خلال إضافة أبعاد و مؤثرات خاصة و برامج متميزة تساهم في توسيع خبرات المتعلم و تيسير بناء المفاهيم و تخطي الحدود الجغرافية الطبيعية و لا ريب أن هذا الدور تضاعف بسبب التطورات التقنية المتسارعة .

-توفير بيئة تعليمية تتصف بالحرية و عدم الاقتصار على غرفة الصف أو زمان محدد و التعلم في أي وقت و أي مكان مما يساعد على التحرر من الوقت و الحيز و يساعد على اخذ المعلومات من مصادر مختلفة و تكوين قدرات ذاتية .

-توفير فرص تعليمية غنية ذات معنى مما يشعر الطلبة بالسيطرة و التحكم في تعلمهم الذاتي و تقدمهم الأكاديمي مما يؤدي الى مشاركتهم للآخرين في آرائهم و تجاربهم ووجهات نظرهم .

أخيرا يمكن القول أن التطور و التقدم لا يتوقف فقط على الجانب التكنولوجي للنهوض بالجامعة بل يجب تعزيزه و دعمه من خلال تكوين الجانب البشري حتى يتمكن من مواكبة مختلف التغيرات التكنولوجية فالتقنية ما هي إلا مجرد أداة من صنع الإنسان جاءت لخدمة الإنسان و تلبية احتياجاته و جعل حياته أسهل.

قائمة الهوامش :

- إبراهيم عبد الوكيل الفار .استخدام الحاسوب في التعليم .ط1.دار الفكر .عمان .2002.ص50
- إبراهيم عبد الوكيل الفار .المرجع سبق ذكره .ص 78
- إبراهيم عبد الوكيل الفار .طرق تدريس الحاسوب .ط1.دار مكتبة الإسراء للطبع و النشر .2007.ص22

- احمد إبراهيم قنديل .التدريس بالتكنولوجيا الحديثة .عالم الكتب .القاهرة .2006.ص65
- دلال محسن و عمر موسى سرحان .تكنولوجيا التعليم و التعليم الالكتروني .ط1.دار وائل للنشر .عمان
2006.ص45
- حسام محمد مازن .تكنولوجيا التربية و ضمان جودة التعليم .دار الفجر .القاهرة .2009.ص32
- كمال عبد الحميد زيتون .تكنولوجيا التعليم في عصر المعلومات و الاتصالات .ط2.عالم الكتب .القاهرة
2004.ص88
- محمد محمد الهادي .التعليم الالكتروني عبر شبكة الانترنت .ط1.الدار المصرية اللبنانية .القاهرة
2005.ص44
- محمد محمود الحيلة .تكنولوجيا التعليم بين النظرية و التطبيق .دار المسيرة .عمان . 2000 ص73
- قنديل احمد . المرجع سبق ذكره ص96

1Dennis longeiez et miche l shain .**dictionnaire de la technologie de l**

information. 2 eme edition .macmilan press .London.1985.p322

2-Wiliams B. **The internet for teacher s**.IDG .world wide.1995.p85

3Harvey pierre .**la nouvelle education** .TIC .paris .press de université de
laval .2001p61

